تَهْذِيبُ: «شَرْحِ: أُصُولُ فِي التَّفْسِيرِ»

المتن والشَّرح للشَّيخ العلَّامة:

محمَّد بن صالحٍ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ

ويليه:

«مُقَدِّمَةٌ فِي أُصُولِ التَّفْسِيرِ» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ

«الْقَوَاعِدُ الْحِسَانُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» للعلَّامة السّعديّ رَحِمَهُ اللَّهُ

جمعه وهذَّبه الفقير إلى عفو ربِّه:

هيثم بن محمَّد سرحان

المدرِّس بمعهد الحرم بالمسجد النَّبويِّ -سابقًا- والمشرف على معهد السُّنَّة

https://www.mahadsunnah.com

غفر الله له ولوالديه ولمن أعانه على إخراج هذا الكتاب

الطَّبعة الأولى

الرَّجاء التَّواصل على:
islamtorrent@gmail.com

فسح وزارة الإعلام

فِهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ

تَهْذِيبُ:

«شَرْحِ: أُصُولٌ فِي التَّفْسِيرِ»

لِلشَّيْخِ العَلَّامة: مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الْعُثَيْمِين رَحِمَهُ اللَّهُ

من إعدادِ الفقير إلى عفو ربّه:

هيثم بن محمَّد سرحان

المُدرّس بمعهد الحرم بالمسجد النَّبويّ -سابقًا-

والمُشرِف على معهد السُّنَّة

المُقَدِّمَةُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسِنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله ﷺ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[آل عمران]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾[النِّساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾[الأحزاب].

أمَّا بعد؛ فإنَّ أجلَّ العلوم وأشرفها علم الشَّريعة الَّذي به قِوام الدِّين، وإنَّ أهمَّ ما ينبغي للمُسلمِ العنايةُ به من عُلوم الشَّريعةِ بعد توحيدِ الله عَزَّوَجَلَّ علمُ التَّفسير الَّذي به يفهم المسلم كلامَ ربِّه عَزَّوَجَلَّ، قال ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أَوَّلُ الْعِلْمِ حِفْظُ كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَفَهُّمُهُ، وَكُلُّ مَا يُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِهِ فَوَاجِبٌ مَعَهُ**)، وقال ابن عطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب التَّفسير: (**عَلِمْتُ أَنَّ شَرَفَ الْعِلْمِ عَلَىٰ قَدْرِ شَرَفِ الْمَعْلُومِ، فَوَجَدْتُ أَمْتَنَهَا حِبَالًا، وَأَرْسَخَهَا جِبَالًا، وَأَجْمَلَهَا آثَارًا، وَأَسْطَعَهَا أَنْوَارًا = عِلْمَ كِتَابِ اللهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، الَّذِي لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، الَّذِي اسْتَقَلَّ بِالسُّنَّةِ وَالْفَرْضِ، وَنَزَلَ بِهِ أَمِينُ السَّمَاءِ إِلَىٰ أَمِينِ الْأَرْضِ، هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي جُعِلَ لِلشَّرْعِ قِوَامًا، وَاسْتَعْمَلَ سَائِرَ الْمَعَارِفِ خُدَّامًا**).

ثمَّ إنَّ الله جلَّ في عُلاه أنزل القرآن العظيم علىٰ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ أفصح الخلق، وأمره بالبيان فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾[النَّحل]، فقام النَّبيُّ ﷺ بأحسن البيان وأتمِّه، ففهم ذلك عنه الصَّحابة الأكرمون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ثمَّ التَّابعون ومن تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّين، وقد اعتنىٰ العلماء سلفًا

وخلفًا بعلم التَّفسير، وألَّفوا فيه المُؤلَّفات الكثيرة، واعتنىٰ جملةٌ منهم ببيان القواعد الَّتي يُبنىٰ عليها فهم كلام الله عَزَّوَجَلَّ، حتَّىٰ لا يُحمَّل القرآن ما لا يحتمل من المعاني الباطلة الَّتي يروِّج لها أهل الزَّندقة والإلحاد، ومن المُؤلَّفات المُختصرة في هذا الباب الَّتي تلقَّاها العلماء بالقبول رسالةٌ قيِّمةٌ للشَّيخ العلَّامة محمَّد بن صالحٍ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ١٤٢١هـ) سمَّاها: «أصولٌ في التَّفسير»، بيَّن فيها أهمَّ الأصول الَّتي يُبنىٰ عليها علم التَّفسير، ثمَّ شرحها رَحِمَهُ ٱللَّهُ شرحًا وافيًا طُبع في مُجلَّدٍ كاملٍ، فرأينا أن نخرج هذا الكتاب لطالب العلم ومُريده في حُلَّة جديدةٍ، قصدنا فيها التَّوسُّط في البسط بين المتن وشرحه، وانتهجنا فيها طريقة جدولة المُحتوىٰ تسهيلًا له وتيسيرًا، مع بعض الإضافات اليسيرة حسب ما تقتضيه الحاجة لتوضيح مقصود المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكلام.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن ينفع به الكاتب والقارئ، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ رسوله الأمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّين، والحمد لله ربِّ العالمين.

مُلَخَّصٌ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ:

قال جلالُ الدِّينِ البُلقينيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:
عُلُومُ الْقُرْآنِ مَا حَوَاهُ الْقُرْآنُ الشَّرِيفُ مِنْ أَنْوَاعِ عِلْمِهِ الْمَنِيفِ، وَيَنْحَصِرُ فِي أُمُورٍ ستَّةٍ:

[١] **مَوَاطِنُ النُّزُولِ وَأَوْقَاتُهُ وَوَقَائِعُهُ:**	**اثْنَا عَشَرَ نَوْعًا:** الْمَكِّيُّ، الْمَدَنِيُّ، السَّفَرِيُّ، الْحَضَرِيُّ، اللَّيْلِيُّ، النَّهَارِيُّ، الصَّيْفِيُّ، الشِّتَائِيُّ، الفِراشِيُّ، النَّومِيُّ، أَسْبَابُ النُّزُولِ، أَوَّلُ مَا نَزَلَ وآخِرُ مَا نَزَلَ.
[٢] **السَّنَدُ:**	**ستَّةُ أَنْوَاعٍ:** الْمُتَوَاتِرُ، الْآحَادُ، الشَّاذُّ، قِرَاءَاتُ النَّبِيِّ ﷺ، الرُّوَاةُ، الْحُفَّاظُ.
[٣] **الْأَدَاءُ:**	**سِتَّةُ أَنْوَاعٍ:** الْوَقْفُ، الِابْتِدَاءُ، الْإِمَالَةُ، الْمَدُّ، تَخْفِيفُ الْهَمْزَةِ، الْإِدْغَامُ.
[٤] **الْأَلْفَاظُ:**	**سَبْعَةُ أَنْوَاعٍ:** الْغَرِيبُ، الْمُعَرَّبُ، الْمَجَازُ، الْمُشْتَرَكُ، الْمُتَرَادِفُ، الِاسْتِعَارَةُ، التَّشْبِيهُ.
[٥] **الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْأَحْكَامِ:**	**أَرْبَعَةَ عَشَرَ نَوْعًا:** الْعَامُّ الْبَاقِي عَلَىٰ عُمُومِهِ، الْعَامُّ الْمَخْصُوصُ، الْعَامُّ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْخُصُوصُ، مَا خَصَّ فِيهِ الْكِتَابُ السُّنَّةَ، ما خصَّصت فِيهِ السُّنَّةُ الْكِتَابَ، الْمُجْمَلُ، الْمُبَيَّنُ، المُؤَوَّلُ، الْمَفْهُومُ، الْمُطْلَقُ، الْمُقَيَّدُ، النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ، نَوْعٌ مِنَ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَهُوَ مَا عُمِلَ بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ مُدَّةً مُعَيَّنَةً وَالْعَامِلُ بِهِ وَاحِدٌ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ.
[٦] **الْمَعَانِي المتَعَلِّقَةُ بِالأَلْفَاظِ:**	**خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ:** الْفَصْلُ، الْوَصْلُ، الْإِيجَازُ، الْإِطْنَابُ، الْقَصْرُ.

وَبِذَلِكَ تَكَمَّلَتِ الْأَنْوَاعُ **خَمْسِينَ**، وَمِنَ الْأَنْوَاعِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ: الْأَسْمَاءُ، الْكُنَىٰ، الْأَلْقَابُ، الْمُبْهَمَاتُ؛ فَهَذَا نِهَايَةُ مَا حُصِرَ مِنَ الْأَنْوَاعِ.

تاريخُ علومِ القرآنِ:

[١] عهدُ ما قبلَ التِّدوين:
كان رسولُ الله ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم يعرفون عن القرآن وعلومِه ما عرفه العلماءُ من بعدُ، ولكنَّ مَعرفتَهم لم تُدوَّنْ، ولم تُجمَعْ في كتابٍ؛ لعدم حاجتِهم إلىٰ ذلك.

[٢] عهدُ التَّمهيد لكتابة علوم القرآن:
بدأ ذلك بما تمَّ في عهد الخليفة الثَّالث عثمان بن عفَّانٍ رضي الله عنه من جمع القرآن في مُصحَفٍ إمامٍ، ونسخ عدَّةِ نسخٍ منه لإرسالها إلىٰ الأقطار الإسلاميَّة، والَّذي كان الأساسَ لمَّا يُسمَّىٰ: «علمَ رَسمِ القرآن».
ثمَّ في عهد عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وُضع الأساسُ لما يُسمَّىٰ «علمَ النَّحوِ» بعد أن أمر عليٌّ رضي الله عنه أبا الأسودِ الدُّؤَلِيَّ أن يضع بعض القواعد لحماية لغة القرآن من العُجمةِ، وتفشِّي اللَّحنِ بين النَّاس.
ثمَّ في العهد الأمويِّ ساهم عددٌ من الصَّحابةِ والتَّابعين في وضع الأساس لما يُسمَّىٰ «علمَ التَّفسير»، و«علمَ أسباب النُّزول»، و«علمَ النَّاسخ والمَنسوخ»، و«علمَ غريب القرآنِ».

[٣] عهدُ التِّدوين:
وفي هذا العهد أُلِّفت الكتبُ في أنواع علوم القرآن، واتَّجهت الهِممُ أوَّل الأمر إلىٰ التَّفسير باعتبارِه أمَّ العلوم القُرآنيَّةِ، ثمَّ في علوم القرآنِ الأخرىٰ.

العلومُ الـمُتعلِّقةُ بالقرآن تنقسمُ إلى:

[١] علومِ التَّنزيل: وتشمل مَوَاطِنَ النُّزُولِ وَأَوْقَاتَهُ وَوَقَائِعَهُ.

[٢] علومِ الكتاب: وتشمل كلَّ ما يتعلَّقُ بالسَّندِ، والأداءِ، والألفاظِ، والمَعاني.

[٣] أصولِ التَّفسيرِ: وموضوعُها القواعدُ الَّتي يُبنىٰ عليها تفسيرُ القرآن.

لعلومِ القرآنِ فوائدُ كثيرةٌ، مِنها:

[١] تلاوةُ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما أرادَ اللهُ.

[٢] فهمُ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما أرادَ اللهُ.

[٣] التَّدبُّر والتَّفكُّر في كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

[٤] حِفظُ كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عن الزِّيادة أو النُّقصان أو التَّغيير.

[٥] استنباطُ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ على الوجهِ الصَّحيحِ.

[٦] الدِّفاعُ عن القرآنِ الكريمِ.

[٧] فضلُ السَّلفِ باجتهادِهم وعنايتِهم بالقُرآنِ.

[٨] مَدخَلٌ لدراسةِ التَّفسير؛ كما أنَّ المُصطلح مَدخلٌ لدراسةِ علم الحَديثِ.

حُكمُ تعلُّمِ علومِ القرآنِ:

[١] **فرضُ عينٍ:** ما تعلَّق منها بتصحيحِ عقيدةِ وعبادةِ المرءِ، وغيرِهما من فروض الأعيانِ.

[٣] **فرضُ كفايةٍ:** ما عدا ذلكَ.

المُشتهِرونَ بالتَّفسيرِ مِن الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

[١-٤] الخُلَفاءُ الرَّاشِدونَ: أبو بكرٍ، وعُمرُ، وعُثمانُ، وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

[٥] مُعاوِيَةُ بنُ أبي سُفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

[٦] عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

[٧] عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[٨] أُبيُّ بنُ كَعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المُشتَهِرونَ بالتَّفسيرِ مِن التَّابعين:

[١] مدرسةُ التَّفسيرِ بمكَّةَ (ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا):
[أ] سعيدُ بن جُبيرٍ.
[ب] مُجاهد بن جبر.
[ج] عِكرمة بن عبد الله مَولى ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
[د] طاوس بنُ كيسانَ.
[هـ] عطاء بن أبي رباحٍ.

[٢] مدرسةُ التَّفسيرِ بالمدينةِ (أُبيُّ بن كعبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ):
[أ] أبو العالية رُفيعُ بن مِهرانَ الرِّياحيُّ.
[ب] محمَّد بن كعبٍ القرظيُّ.
[ج] زيدُ بن أسلَمَ.

[٣] مدرسةُ التَّفسيرِ بالعراقِ (ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ):
[أ] علقمة بن قيسٍ.
[ب] مَسروقُ بن الأجدَعِ.
[ج] الأسود بن يزيد.
[د] مُرَّةُ الهمدانيُّ.
[هـ] عامرٌ الشَّعبيُّ.
[و] الحسن البصريُّ.
[ز] قتادةُ بن دِعامةَ.

أقسامُ كُتُبِ التَّفسيرِ مِن حيثُ الـمَنهجُ:

[١] التَّفسيرُ بالمَأثورِ.
[٢] التَّفسيرُ بالرَّأيِ الجائزِ.
[٣] التَّفسيرُ بالرَّأيِ غير الجائزِ.

[١] أشهَرُ كُتبِ التَّفسيرِ بالمَأثورِ:

١	«جامعُ البيان في تفسير القرآن».	لابن جرير الطَّبريِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٢	«بحرُ العلوم».	لأبي اللَّيث السَّمرقنديِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٣	«الكشفُ والبيان عن تفسير القرآن».	لأبي إسحاق الثَّعلبيِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٤	«مَعالمُ التَّنزيل».	لأبي محمَّدٍ الحسين البغويِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٥	«المُحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز».	لابن عطيَّة الأندلُسيِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٦	«تفسيرُ القرآن العظيم».	لأبي الفداء الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ.
٧	«الجواهرُ الحِسان في تفسير القرآن».	لعبدالرَّحمن الثَّعالبيِّ رَحِمَهُ اللهُ.
٨	«الدُّرُّ المَنثور في التَّفسير المأثور»	لجلال الدِّين السُّيوطيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

[٢] أشهَرُ كُتب التَّفسيرِ بالرَّأيِ الجائز:

١	«مَفاتحُ الغيب».	للفخر الرَّازيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٢	«أنوارُ التَّنزيل وأسرار التَّأويل».	لعبد الله بن عمر البَيضاويِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٣	«مَداركُ التَّنزيل وحقائق التَّأويل».	لأبي البركاتِ النَّسفيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٤	«لُبابُ التَّأويل في مَعاني التَّنزيل».	لعلاء الدِّين الخازن رَحِمَهُ اللَّهُ.
٥	«البحرُ المُحيط».	لأبي حيَّان الأندلسيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٦	«غرائبُ القرآن ورغائب الفرقان».	لنظام الدِّين النَّيسابوريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٧	«تفسيرُ الجلالين».	لجَلال الدِّين المَحليِّ وجَلال الدِّين السُّيوطيِّ -رحمهما الله-.
٨	«السِّراجُ المُنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربِّنا الحكيم الخبير».	للخَطيب الشِّربينيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.
٩	«إرشادُ العقل السَّليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم».	لأبي السُّعود أفندي رَحِمَهُ اللَّهُ.
١٠	«روحُ المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المَثاني».	لشهاب الدِّين الألوسيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

[٣] أشهَرُ كُتب التَّفسيرِ بالرَّأيِ غيرِ الجائز:

١	«تنزيهُ القرآن عن المَطاعن».	للقاضي عبدالجبَّار المُعتزليِّ.
٢	«الأمالي».	للشَّريف المُرتَضىٰ الشِّيعيِّ.
٣	«الكشَّاف عن حقائق غَوامض التَّنزيل، وعيونُ الأقاويل في وجوه التَّأويل».	لمحمود بن عمر الزَّمخشريِّ المُعتزليِّ.

تَنْبِيهٌ: ليَنتبِه القارئُ إلىٰ أنَّه لا ينبغي مُطالعةُ كتب التَّفسير بالرَّأي إلَّا لطالب العلم المُتمكِّن، الَّذي يعرف مَذاهب أهل الزَّيغ والضَّلالِ فيحذرُها، وأمَّا العامِّيُّ وطالبُ العلم المُبتدئُ فينبغي له هَجرُها كما يهجُرُ أصحابَها؛ لئلَّا تعلق الشُّبَه بذهنِه فيقعُ فيها.

مِن أَهَمِّيَّةِ عِلمِ التَّفسيرِ:

[١] أنَّ شرَفَ العِلمِ بشَرَفِ مَوضوعِه، ومَوضوعُ علم التَّفسير هو القرآنُ، وهو كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] أنَّ التَّفسيرَ يوصِلُ إلىٰ تدبُّرِ القُرآن، والتَّدبُّر مَأمورٌ به، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمَّد].

[٣] أنَّ التَّفسيرَ يوصِلُ إلىٰ عِبادة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الشَّكل الصَّحيح، وذلِكَ بفَهمِ آياتِ الأحكامِ.

[٤] أنَّ التَّفسيرَ يُساعد علىٰ فهم القرآنِ، ومِنه مَعرفةُ الله عَزَّوَجَلَّ وأسمائِه وصفاتِه، وفي ذلِكَ زِيادة الإيمانِ.

كيفيَّةُ القِراءَةِ والدِّراسَةِ للتَّفسيرِ:

- البَدءُ بدراسَةِ كتُبِ التَّفسيرِ بالمَأثورِ.
- البَدءُ بالمُختَصراتِ قبلَ المُطوَّلاتِ؛ لئلَّا يشتَّتَ ذِهنُه، فإذا بدأَ بالمُختصراتِ فإنَّه يُحصِّلُ الأصولَ فيضبطُها، فيكونُ ذلك أدعىٰ لأن يفهم المُطوَّلاتِ.
- الدِّراسةُ علىٰ مدرسةٍ واحدةٍ حتَّىٰ لا تختلط عليه المَعلوماتُ.
- البَدءُ بتفسيرِ السُّورِ المُشوِّقةِ له؛ كسورة القصص.
- التَّنويعُ في التَّلقِّي؛ فيشتغِلُ تارةً بالقراءةِ، وتارةً بالاستماع للتَّفسير الصَّوتيِّ، وتارةً بالجمع بينهما.
- تدوينُ الفَوائدِ؛ فالتَّدوين لها كالقيد للصَّيدِ يمنعُ انفلاتَه.
- التَّدبُّر في آيات القرآن؛ لأنَّ ذلك يُنمِّي ملكَة الاستنباطِ لديه، فيفتح الله بذلك عليه الفُتوحَ.
- مُحاولة استنباطِ الفوائدِ دون نشرِها، وذلك ليتدرَّبَ علىٰ الاستنباط، ثمَّ يرجع بعدها للتَّفسير ليتأكَّد من سلامة استنباطِه.

سورةٌ جمعَت جميعَ عُلومِ القرانِ الكَريم:

قالَ بَعضُهم: إنَّ سورَةَ الفاتِحَةِ جمَعَت كلَّ علومِ القرآنِ؛ بل إنَّ آيَةً واحِدَةً مِنها هي قولُـه تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة] جمعَت علومَ القرآنِ كلَّها.

ينقسِمُ الكلامُ مِن حيثُ:

- [١] **التَّركيبُ إلى:**
  - [أ] اسمٍ.
  - [ب] وفعلٍ.
  - [ج] وحرفٍ.
- [٢] **إمكانُ وَصفِه بالصِّدقِ إلى:**
  - [أ] خبرٍ.
  - [ب] وإنشاءٍ.
- [٣] **الاستِعمالُ إلى:**
  - [أ] حقيقةٍ.
  - [ب] ومَجازٍ.

الخِلافُ في وُجودِ الـمَجازِ على ثلاثةِ أقوالٍ:

- [١] **الـمَجازُ ثابتٌ في القُرآنِ وغَيرِه:** هو المَشهورُ عند أكثرِ المُتأخِّرين.
- [٢] **لا مَجازَ في القُرآنِ:** قال به بعض أهلِ العلم.
- [٣] **لا مَجازَ في القُرآنِ ولا في غَيرِه:** قال به أبو إسحاقَ الإسفراييني، ومن المُتأخِّرين العلَّامة محمَّدٌ الأمين الشِّنقيطيُّ، وبيَّن شيخُ الإسلام وابنُ القيِّم أنَّه اصطلاحٌ حادثٌ بعد انقضاء القرون الثَّلاثة المُفضَّلةِ، ونصَرَه بأدلَّةٍ قويَّةٍ كثيرةٍ تُبيِّن لمَن اطَّلع عليها أنَّ **هذا القول هو الصَّواب.**

لا يُوجدُ عاقلٌ يفهمُ العربيَّة إلَّا ويفهم المُرادَ مِن الكلام دون الحاجةِ إلىٰ القول بالمَجازِ، فإذا قيل: حَمزةُ أسدٌ؛ فلا يفهم العربيُّ إلَّا وَصفَ حَمزةَ بالشَّجاعة، لا الحيوانِ.

الأدلَّة على أنَّه لا مَجازَ في الكتابِ ولا في السُّنَّةِ ولا في اللُّغةِ:

[١]	[٢]	[٣]	[٤]	[٥]	[٦]
القول بالمَجازِ بدعةٌ حدثت بعد انقراض القُرون المُفضَّلةِ.	المَجازُ طاغوتُ الفِلاسفةِ (أقوىٰ حُجَّةٍ لهم).	سدُّ الباب أمام من يريد التَّلاعُبَ في النُّصوصِ.	مِن أقوىٰ الأدلَّة علىٰ بُطلانِه أنَّه يُمكنُ نفيُه.	أهلُ اللُّغةِ لم يُصرِّحوا أبدًا بأنَّ العرب قسَّموا لُغتَهم إلىٰ حقيقةٍ ومَجازٍ.	لو أثبتنا المَجازَ في اللُّغةِ لَلَزم إثباتُه في بعض القرآن، ولو أثبتناه في بعض القُرآن للزم إثباتُه في كلِّ القُرآن.

قاعدة (١): القولُ بنَفيِ المَجازِ عليه السَّلفُ الصَّالحُ، والقُرونُ المُفضَّلةُ، ثمَّ إن وجدنا من العُلماءِ مَن يقولُ بالمَجازِ في اللُّغة فإنَّه ينفي المَجازَ في آياتِ الأسماءِ والصِّفاتِ، فنجد في كتب شيخ الاسلام أحيانًا ذِكرَ المَجازِ، وكذلك فِعلُ الشَّيخ ابنِ عُثيمينَ في بعض كُتُبِه؛ مع أنَّ كلاهما يَنفي وُجودَ المَجازِ!

قاعدة (٢): ذِكرُ المَسألةِ مُفصَّلةً ثمَّ الرَّدُّ عليها يعني عدم الإقرارِ بها، وإنَّما يتمُّ توضيحُ هذا التَّقسيمِ لمَن يقولُ به، حتَّىٰ لا يقع أحدٌ في التَّأويلِ في الصِّفاتِ.

تنبيهٌ مُهمٌّ: لا مَجالَ للطَّعنِ في كتابِ اللهِ تعالىٰ بمثل هذه الشُّبَهِ؛ كالقول بالمَجازِ، أو أنَّ في القرآنِ شيئًا غيرَ عربيٍّ، أو خِلافَ الأفصَحِ، ولو كانت مَجالًا للطَّعنِ في القرآنِ لَمَا تركَها أسلافُ هؤلاء مِن مُشركي مكَّةَ ومَن بعدَهم، وهم أهلُ اللُّغةِ، ولم يتركوا مَجالًا لأحدٍ للطَّعنِ في النَّبيِّ ﷺ، وفي كِتابِ ربِّه إلَّا قالوه، ولو أنَّهم وجدوا هذه الشُّبهة قائمةً لقالوها، والشَّرعُ مُقدَّمٌ علىٰ اللُّغةِ؛ بل إنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ لم يَكُن لها شأنٌ إلَّا بعدَ نُزولِ القرآنِ بها، فكيف تُقدَّمُ عليه؟!

القُرَّاءُ السَّبعَةُ هم:

[١]	[٢]	[٣]	[٤]	[٥]	[٦]	[٧]
نافِعُ بن عبد الرَّحمنِ بنِ أبي نُعيمٍ المدنيُّ.	عاصِمُ بنُ أبي النَّجودِ الأسديُّ الكوفِيُّ.	عبدُ الله بنُ كثيرٍ الدَّارِيُّ المَكِّيُّ.	عبدُ اللهِ بنُ عامرٍ اليَحصُبيُّ الشَّامِيُّ.	أبو عمرِو بنُ العَلاءِ البَصرِيُّ.	حمزةُ بن حبيبٍ الزَّيَّاتُ الكوفِيُّ.	أبو الحسنِ عليُّ بنُ حمزةَ الكِسائيُّ الكوفِيُّ.

يروي عنه: (عن نافع)

- ورشٌ، واسمُه عثمانُ بنُ سَعيدٍ.
- قالونُ، واسمُه عيسىٰ بنُ مينا.

يروي عنه: (عن عاصم)

- رَبيبُه حفصُ بنُ سُليمانَ الأسدِيُّ.
- شُعبةُ بنُ عيَّاشٍ الأسدِيُّ الكوفِيُّ.

أقوىٰ القُرَّاءِ السَّبعَةِ سنَدًا في القراءة: نافعٌ المدنِيُّ وعاصِمٌ الكُوفِيُّ.
وأفصَحُهم: أبو عمرٍو البَصرِيُّ وأبو الحسَنِ الكِسائِيُّ.

الإجماعُ على القُرَّاءِ السَّبعَةِ:

قال العلَّامةُ بدرُ الدِّين الزَّركَشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٣٢٢): «وَقَدِ انْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ عَلَىٰ صِحَّةِ قِرَاءَةِ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ، وَأَنَّهَا سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، وَلَا مَجَالَ لِلِاجْتِهَادِ فِيهَا».

ما هي القِراءَةُ الْمُتَواتِرَةُ؟

قال الإمامُ ابنُ الجزَرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ في «مُنجِد المُقرِئين» (ص١٨): «كُلُّ قِرَاءَةٍ وَافَقَتِ الْعَرَبِيَّةَ مُطْلَقًا، وَوَافَقَتْ أَحَدَ الْمَصَاحِفِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَلَوْ تَقْدِيرًا، وَتَوَاتَرَ نَقْلُهَا = هَذِهِ الْقِرَاءَةُ الْمُتَوَاتِرَةُ الْمَقْطُوعُ بِهَا».

لماذا يُقالُ: علومُ القرآنِ، ولا يُقالُ: عِلمُ القرآنِ؟

يُقالُ: (علومُ القرآن الكريمِ) بالجَمعِ، ولا يُستعمَلُ الجَمعُ في غيرِه مِن العُلومِ، فيُقالُ: علمُ الفقهِ، وعلمُ الفرائِضِ، وغيرُ ذلك، والسَّببُ أنَّ كلَّ العلومُ مُستمَدَّةٌ من القرآنِ.

ومن بركة القرآنِ الكريمِ أنَّ كلَّ كتابٍ ألَّفَه علماءُ الشَّريعَةِ فهو يخدِمُ كتابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويرجع إليه.

فِهْرِسْتُ الْكِتَابِ:

أقسامُ الكتابِ	المُقَدِّمَةُ:	[١] البسملة.	[٢] خطبة الحاجة.	[٣] أهمِّيَّةُ التَّفسير.	[٤] سبب التَّأليفِ.	[٥] مُحتوى الكتاب إجمالًا.	
	القسمُ الأوَّلُ: القرآنُ، وفيه:	[١] نزولُ القرآنِ.	[٢] أوَّلُ ما نزل منه.	[٣] النُّزولُ الابتدائيُّ والسَّببيُّ.	[٤] المَكِّيُّ والمدنيُّ.	[٥] كتابةُ القرآن وجمعُه.	
	القسمُ الثَّاني: التَّفسيرُ، وفيه:	[١] الواجبُ على المُسلم في التَّفسير.	[٢] المَرجعُ في تفسير القرآن.	[٣] الاختلافُ الواردُ في التَّفسير المَأثور.	[٤] ترجمةُ القرآن.	[٥] المُشتهرون بالتَّفسير من الصَّحابة.	[٦] المُشتهرون بالتَّفسير من التَّابعين.
	القسمُ الثَّالثُ: مسائلُ مُتفرِّقةٌ، وفيه:	[١] المُحكَمُ والمُتَشابهُ من القرآن.	[٢] موهمُ التَّعارض في القرآن.	[٣] القَسَمُ في القرآن.	[٤] قصصُ القرآن.	[٥] الإسرائيليَّاتُ والمَوقف منها.	[٦] الضَّميرُ في القرآن.

مُقَدِّمَةُ المُؤَلِّفِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

بدأ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ كتابَه بالبسملةِ؛ لأمورٍ:

- [١] اقتداءً بكتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.
- [٢] واستنادًا إلى سُنَّة الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- [٣] وعملًا بما كان عليه السَّلفُ.
- [٤] وتيمُّنًا وتبرُّكًا بالبَداءةِ باسمِ اللهِ.

(الحَمْدُ لله، نَحْمَدُهُ):

- [١] **الحمدُ:** (وصفُ المَحمود بالكمالِ مع المحبَّة والتَّعظيم)، والحمدُ يكون:
  - [أ] لكمالِ المَحمودِ.
  - [ب] لإحسانِه وإنعامِه.
- [٢] **اللَّام:** تفيد:
  - [أ] **الاستحقاق:** فالله عَزَّ وَجَلَّ أحقُّ من يُحمَدُ.
  - [ب] **الاختصاص:** (أل) تفيد الاستغراق لجميع المَحامد، والله عَزَّ وَجَلَّ هو المُختصُّ بها كلِّها.
- [٣] **نَحْمَدُهُ:** جملةٌ توكيديَّةٌ

(وَنَسْتَعِينُه، وَنَسْتَغْفِرُه، وَنَتُوبُ إِلَيْه):

[١] **(وَنَسْتَعِينُهُ):** نطلبُ منه العَونَ، وهو المُساعدة.

[٢] **(وَنَسْتَغْفِرُهُ):** نطلب منه المَغفرة، وهي ستر الذُّنوب والتَّجاوز عنها.

[٣] **(وَنَتُوبُ إِلَيْهِ):** لم تأتِ في الحديث، لكن ذُكرت تقليدًا للعلماء السَّابقين.

(وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا):

أي: نعتصم بالله منها، والنَّفس لها شرورٌ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾[يوسف:٥٣]، فالمَعصوم من عصمه الله عَزَّوَجَلَّ من شرور نفسه.

والنُّفوس الَّتي جاءت في القرآن وُصفت بثلاثة أوصافٍ:

[١] **المُطمئنَّة:** الَّتي تأمرُ بالخير وتنهىٰ عن الشَّرِّ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧﴾[الفجر].

[٢] **الأمَّارةُ بالسُّوء:** الَّتي تأمرُ بالشَّرِّ وتنهىٰ عن الخير، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣].

[٣] **اللَّوَّامة:** قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة]، وهو وصفٌ للمُطمئنَّة والأمَّارة بالسُّوء معًا.

(وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا):

فالعمل السَّيِّء له آثارٌ سيِّئةٌ، قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾[المائدة:١٣]، فعاقبهم الله بهذه العُقوباتِ لأنَّهم نقضوا الميثاقَ، وما حصل الشَّرُّ إلَّا بسيِّئات الأعمال، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤١﴾[الرُّوم].

(مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ) تشمل:

[١] مَن يَهدِيهِ اللهُ تقديرًا: أي: يقدِّر له الهداية، فلابدَّ أن يهتدي ولو وُجدت عوامل تقتضي أن يضلَّ.

[٢] مَن يَهدِيهِ اللهُ تحقيقًا: فمن هداه الله تحقيقًا فاهتدىٰ؛ فلا يستطيع أحدٌ أن يضلَّه.

فوجب علىٰ الإنسان ألَّا يطلب الهداية إلَّا من الله عَزَّوَجَلَّ.

(وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ) تشمل:

[١] مَن يُضلُّهُ اللهُ تقديرًا: أي: يريد إضلالَه، فلابدَّ أن يضلَّ.

[٢] مَن يُضلُّهُ اللهُ تحقيقًا: فمن أضلَّه الله تحقيقًا فلا يستطيع أحدٌ أن يهديه، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من حرصه ﷺ علىٰ هداية عمِّه أبي طالبٍ الَّذي صدَّقَه بلسانِه، ونصرَه بفعلِه، لكن لم يُؤمن قلبُه، فمات كافرًا -والعياذُ بالله-.

(وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ):

[١] (أَشْهَدُ): أي: أُقِرُّ إقرار مُشاهدةٍ، والمُشاهد للشَّيء يراه حسًّا.

[٢] (لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ): أي: (لا معبود حقٌّ إلَّا الله)، فخبر (لا) النَّافية (حقٌّ) مَحذوفٌ، واسم الجلالة (اللهُ) بعد (إلَّا) بدلٌ منه.

[٣] (وَحْدَهُ): توكيدٌ لإثبات (إلَّا الله).

[٤] (لاَ شَرِيكَ لَهُ): توكيدٌ للنَّفي (لا إله).

هذه الجملة هي كلمة الإخلاص الَّتي لو وُزنت بها السَّموات والأرض لرجحت بهنَّ؛ كما في الحديث الَّذي أخرجه أحمد.

(وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ):

[١] (مُحَمَّدًا): هو ابن عبد الله بن عبد المُطَّلب، الهاشميُّ القُرشيُّ، لا يوجد من بني إسماعيل نبيٌّ سواهُ.

[٢] (عَبْدُهُ): أي: العابد المُتذلِّل لله عَزَّوَجَلَّ، وليس له حقٌّ من الرُّبوبيَّة، وفيه الرَّدُّ علىٰ من غلا فيه ﷺ.

[٣] (وَرَسُولُهُ): أي: المُرسَل من الله عَزَّوَجَلَّ، فليس بكاذبٍ، وفيه الرَّدُّ علىٰ من قدح فيه ﷺ، أو قال: إنَّ رسالته ليست عامَّةً، ولم يقل المُؤلِّف: (إلىٰ النَّاس كافَّةً)؛ حذفًا لما هو مَعلومٌ.

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ):

[١] (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ): أحسنُ ما يُقال فيها أنَّها: (ثناء الله عليه) أي: مدحه ووصفه بصفات الكمال (في الملأ الأعلىٰ).

[٢] (وَعَلَى آلِهِ): يُطلق الآل علىٰ:

[أ] جميع أتباعِه ﷺ على دينه: إذا ذُكرت مُفردةً.

[ب] قرابته ﷺ المُؤمنون به: إذا ذُكرت مع الصَّحب والأتباع.

[٣] (وَأَصْحَابِهِ): الَّذين اجتمعوا به مؤمنين به – ولو لحظةً –، وماتوا علىٰ ذلك.

[٤] (وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ): من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾[التَّوبة:١٠٠]، قُيِّدت التَّبعيَّة بالإحسان بحيث يترسَّم خُطاهم قولًا، وفعلًا، وتركًا.

(وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا):

ثنَّىٰ بالسَّلام؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب]، أمَّا في التَّشهُّد فيُبدأ بالسَّلام لأنَّه ﷺ علَّمهم السَّلام قبل الصَّلاة.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ مِنَ المُهِمِّ فِي كُلِّ فَنٍّ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْمَرْءُ مِنْ أُصُولِهِ مَا يَكُونُ عَوْنًا لَهُ عَلَىٰ فَهْمِهِ، وَتَخْرِيجِهِ عَلَىٰ تِلْكَ الْأُصُولِ، لِيَكُونَ عِلْمُهُ مَبْنِيًّا عَلَىٰ أُسُسٍ قَوِيَّةٍ، وَدَعَائِمَ رَاسِخَةٍ، وَقَدْ قِيلَ: مَنْ حُرِمَ الْأُصُولَ حُرِمَ الْوُصُولَ.

وَمِنْ أَجَلِّ فُنُونِ الْعِلْمِ؛ بَلْ هُوَ أَجَلُّهَا وَأَشْرَفُهَا، عِلْمُ التَّفْسِيرِ، الَّذِي هُوَ تَبْيِينُ مَعَانِي كَلَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ وَضَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ لَهُ أُصُولًا كَمَا وَضَعُوا لِعِلْمِ الْحَدِيثِ أُصُولًا، وَلِعِلْمِ الْفِقْهِ أُصُولًا.

وَقَدْ كُنْتُ كَتَبْتُ مِنْ هٰذَا الْعِلْمِ مَا تَيَسَّرَ لِطُلَّابِ الْمَعَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ فِي جَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَطَلَبَ مِنِّي بَعْضُ النَّاسِ أَنْ أُفْرِدَهَا فِي رِسَالَةٍ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَيْسَرَ وَأَجْمَعَ، فَأَجَبْتُهُ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَنْفَعَ بِهَا).

لماذا كان علمُ التَّفسير أجلَّ العلوم وأشرفَها؟

لأنَّ العلم يشرُف بمَوضوعه، ومَوضوع علم التَّفسير كلامُ الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو أشرف مَوضوع، فالاهتمام به أهمُّ من الاعتناء بغيره.

على ماذا اعتمدَ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ في تأليفِه لهذه الرِّسالةِ؟

اعتمد علىٰ «مُقدِّمة التَّفسير» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ، ولمَّا كان كلام شيخ الإسلام مُرسَلًا احتيج إلىٰ أن يُجمَع ويُبسَط ويُسهَّل للطَّالب.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (فَيَتَلَخَّصُ ذَلِكَ فِي مَا يَأْتِي:

* الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ:

١) مَتَىٰ نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ؟ وَمَنْ نَزَلَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟

٢) أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ.

٣) نُزُولُ الْقُرْآنِ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ: سَبَبِيٌّ وَابْتِدَائِيٌّ.

٤) الْقُرْآنُ مَكِّيٌّ وَمَدَنِيٌّ، وَبَيَانُ الْحِكْمَةِ مِنْ نُزُولِهِ مُفَرَّقًا وَتَرْتِيبُ الْقُرْآنِ.

٥) كِتَابَةُ الْقُرْآنِ وَحِفْظُهُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ.
٦) جَمْعُ الْقُرْآنِ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

❁ التَّفْسِيرُ:

١) مَعْنَىٰ التَّفْسِيرِ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا، وَبَيَانُ حُكْمِهِ وَالْغَرَضِ مِنْهُ.
٢) الْوَاجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ.
٣) الْمَرْجِعُ فِي التَّفْسِيرِ إِلَىٰ مَا يَأْتِي:
- كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ بِحَيْثُ يُفَسَّرُ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ.
- سُنَّةُ الرَّسُولِ ﷺ لِأَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمُرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِ اللهِ.
- كَلَامُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَاسِيَمَا ذَوِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْعِنَايَةِ بِالتَّفْسِيرِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ وَفِي عَصْرِهِمْ.
- كَلَامُ كِبَارِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ اعْتَنَوا بِأَخْذِ التَّفْسِيرِ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
- مَا تَقْتَضِيهِ الْكَلِمَاتُ مِنَ الْمَعَانِي الشَّرْعِيَّةِ أَوِ اللُّغَوِيَّةِ حسْبَ السِّيَاقِ، فَإِنِ اخْتَلَفَ الشَّرْعِيُّ وَاللُّغَوِيُّ، أُخِذَ بِالْمَعْنَىٰ الشَّرْعِيِّ، إِلَّا بِدَلِيلٍ يُرَجِّحُ اللُّغَوِيَّ.

٤) أَنْوَاعُ الاخْتِلَافِ الْوَارِدِ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ.
٥) تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ، تَعْرِيفُهَا، أَنْوَاعُهَا، حُكْمُ كُلِّ نَوْعٍ.

❁ أَقْسَامُ الْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ الْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ، مَوْقِفُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ وَالزَّائِغِينَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، التَّشَابُهُ: حَقِيقِيٌّ وَنِسْبِيٌّ، الْحِكْمَةُ فِي تَنَوُّعِ الْقُرْآنِ إِلَىٰ مُحْكَمٍ وَمُتَشَابِهٍ.

❁ مُوهِمُ التَّعَارُضِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَالْجَوَابُ عَنْهُ، وَأَمْثِلَةٌ مِنْ ذَلِكَ.

❁ الْقَسَمُ: تَعْرِيفُهُ، أَدَاتُهُ، فَائِدَتُهُ.

❁ الْقَصَصُ: تَعْرِيفُهَا، الْغَرَضُ مِنْهَا، الْحِكْمَةُ مِنْ تَكْرَارِهَا وَاخْتِلَافِهَا فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ وَالْأُسْلُوبِ.

❁ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي أُقْحِمَتْ فِي التَّفْسِيرِ، وَمَوْقِفُ الْعُلَمَاءِ مِنْهَا.

❁ الضَّمِيرُ: تَعْرِيفُهُ، مَرْجِعُه، الْإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ وَفَائِدَتُهُ، الِالْتِفَاتُ وَفَائِدَتُهُ، ضَمِيرُ الْفَصْلِ وَفَائِدَتُهُ).

القُرآنُ الكَريمُ

أوَّلاً: تَعْرِيفُ القُرْآنِ وصِفاتُه

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الْقُرْآنُ فِي اللُّغَةِ: مَصْدَرُ قَرَأَ بِمَعْنَىٰ تَلَا، أَوْ بِمَعْنَىٰ جَمَعَ، تَقُولُ: قَرَأَ قَرْءًا وَقُرْآنًا، كَمَا تَقُولُ: غَفَرَ غَفْرًا وَغُفْرَانًا، فَعَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْأَوَّلِ: (تَلَا) يَكُونُ مَصْدَرًا بِمَعْنَىٰ اسْمَ الْمَفْعُولِ، أَيْ: بِمَعْنَىٰ مَتْلُوٌّ، وَعَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الثَّانِي: جَمْعٌ يَكُونُ مَصْدَرًا بِمَعْنَىٰ اسْمَ الْفَاعِلِ، أَيْ: بِمَعْنَىٰ جَامِعٍ؛ لِجَمْعِهِ الْأَخْبَارَ وَالْأَحْكَامَ.

وَالْقُرْآنُ فِي الشَّرْعِ: (كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ، الْمُنَزَّلُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الْمَبْدُوءُ بِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ، الْمَخْتُومُ بِسُورَةِ النَّاسِ)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ٢٣﴾ [الإنسان]، وَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢﴾ [يوسف]).

تعريفُ القرآنِ:

- [١] **لغةً:** مَصدرُ (قَرَأَ)، وله معنيان:
  - [١] **تَلا:** ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النَّحل:٩٨]، فقُرآنٌ بمعنىٰ: مَقروءٍ، أي: مَتلُوٍّ.
  - [٢] **جَمَعَ:** ومنه القَريةُ، سُمِّيت بذلك لأنَّها تجمع السُّكَّان، فقُرآنٌ بمعنىٰ:
    - [أ] **قارئ:** أي: جامعٍ للأخبار النَّافعة، والأحكام العادلة.
    - [ب] **مقروءٍ:** أي: مَجموعٍ.
- [٢] **شرعًا:** (كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ، الْمُنَزَّلُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الْمَبْدُوءُ بِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ، الْمَخْتُومُ بِسُورَةِ النَّاسِ).

القرآنُ الكريمُ:

[١] كلامُ الله:
لفظًا ومعنًى، نؤمن بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تكلَّم بهذا القرآن الَّذي نقرؤه كلامًا مَسموعًا مَنقولًا إلينا، فالله عَزَّوَجَلَّ هو المُبلِّغُ عنه.

[٢] ويُنسَبُ إلى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ:
لأنَّه هو الرَّسول الملكيُّ المُبلِّغ عن الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾ [التَّكوير].

[٣] ويُنسَبُ إلى النَّبيِّ ﷺ:
لأنَّه هو الرَّسول الإنسيُّ المُبلِّغ عن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١﴾ [الحاقَّة].

لماذا قال المُؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (خاتَمِ أَنْبِيائِه)، ولم يقل: (خاتَمِ رُسُلِه)؟

[١] لأنَّ نفي النَّبيِّ يقتضي نفي الرَّسول من باب أولىٰ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ.

[٢] لأنَّه تعالىٰ وصفه بقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقد أجمع المسلمون أنَّه لا نبيَّ بعد محمَّدٍ ﷺ.

من صِفاتِ القرآنُ الكريمُ أنَّه:

[١] مَحفوظٌ في الصُّدور.

[٢] مَكتوبٌ في السُّطور.

[٣] مَنقولٌ بالتَّواتر القطعيِّ اليقينيِّ، فلا نقص فيه ولا زيادة، فمن أنكر منه حرفًا واحدًا مُجمعًا فيه بين القرَّاء فقد كفر، أجمع علىٰ هذا المسلمون، ولم يخالف إلَّا الرَّافضة الَّذي ادَّعوا فيه النَّقصَ وزادوا عليه ما ليس منه.

تنبيهٌ: لا يضرُّ اختلاف القراءات المُتواترة في بعض الأحرف التَّركيبيَّة؛ نحو (مَلِكِ) و(مَالِكِ)، أو المعنويَّة؛ نحو: (فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) و(وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا).

أسماءُ القرآنِ الكريمِ:	مَعناها:
القُرآنُ	- القارِئُ: الجامعُ للأخبار النَّافعة، والأحكام العادلة. - المَقروءُ: المَجموعُ في المَصاحِفِ، وفي الصُّدورِ.
الذِّكرُ	- المُتضمِّنُ للعديدِ من المَواعِظِ والزَّواجِرِ. - المُشتمِلُ علىٰ ما يحتاجُه النَّاسُ في أمورِ دُنياهم وآخِرَتِهم. - ذو الشَّرفِ والقَدرِ العالي.
الفُرقانُ	فرَّقَ بين الحَقِّ والباطل.
الكِتابُ	جمعَ أنواعًا عديدةً من القَصصِ، والأحكامِ، والأخبارِ، والآياتِ، علىٰ شكلٍ مَخصوصٍ.
التَّنزيلُ	المُنزَّلُ من اللهِ تعالىٰ إلىٰ النَّاسِ.

كثرَةُ الأسماءِ تدُلُّ على شرَفِ المُسَمَّى أو كَمالِه في أمرٍ مِن الأُمورِ:

[١] كثرَةُ أسماءِ اللهِ تعالىٰ دلَّت علىٰ عِظَمِ المَوصوفِ والمُسمَّىٰ، وكمالِه، وكثرَةِ التَّعلُّقِ به.

[٢] كثرَةُ أسماءِ النَّبيِّ ﷺ دلَّت علىٰ عُلُوِّ رُتبَتِه وسُمُوِّ درجَتِه.

[٣] كثرَةُ أسماءِ القُرآنِ الكَريمِ دلَّت علىٰ شَرَفِه وفَضيلَتِه.

[٤] كثرَةُ أسماءِ الأسَدِ دلَّت علىٰ كمالِ قوَّتِه.

[٥] كثرَةُ أسماءِ يوم القيامَةِ دلَّت علىٰ كمالِ شِدَّتِها وصُعوبَتِها.

[٦] كثرَةُ أسماءِ الدَّاهِيَةِ دلَّت علىٰ شدَّةِ نِكايَتِها.

المَوضوعاتُ الرَّئيسِيَّةُ في القرآنِ:

[١] التَّوحيدُ.

[٢] الأخبارُ.

[٣] الأحكامُ.

القرآنُ الكريمُ أعظمُ آيةٍ دالَّةٍ على نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ:

قالَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَالْآيَاتُ وَالْبَرَاهِينُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، وَهِيَ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ آيَاتِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُسَمِّيهَا مَنْ يُسَمِّيهَا مِنَ النُّظَّارِ (مُعْجِزَاتٍ)، وَتُسَمَّىٰ (دَلَائِلَ النُّبُوَّةِ) وَ(أَعْلَامَ النُّبُوَّةِ).

وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ إِذَا سُمِّيَتْ بِهَا آيَاتُ الْأَنْبِيَاءِ كَانَتْ أَدَلَّ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ مِنْ لَفْظِ الْمُعْجِزَاتِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَفْظُ (الْمُعْجِزَاتِ) مَوْجُودًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا فِيهِ لَفْظُ (الْآيَةِ) وَ(الْبَيِّنَةِ) وَ(الْبُرْهَانِ)».

القرآنُ الكريمُ مُعجِزٌ:

قالَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَكَوْنُ الْقُرْآنِ أَنَّهُ مُعْجِزَةٌ لَيْسَ هُوَ مِنْ جِهَةِ فَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ فَقَطْ، أَوْ نَظْمِهِ وَأُسْلُوبِهِ فَقَطْ، وَلَا مِنْ جِهَةِ إِخْبَارِهِ بِالْغَيْبِ فَقَطْ، وَلَا مِنْ جِهَةِ صَرْفِ الدَّوَاعِي عَنْ مُعَارَضَتِهِ فَقَطْ، وَلَا مِنْ جِهَةِ سَلْبِ قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ مُعَارَضَتِهِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ مُعْجِزَةٌ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ».

ومن إعجازِ القُرآنِ أنَّه لم يُحفَظ عن أحدٍ من مُشرِكي العرَبِ أنَّه لم يفهمه كما حصل من الأُمَمِ السَّابِقَةِ؛ كقولِ قومِ شُعَيبٍ: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾[هود:٩١]، قالَ تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾[الحاقة]؛ لإصرارِهم علىٰ الكُفرِ وعدمِ الإيمانِ، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾[الحاقة]؛ لأنَّ التَّفريقَ بينه وبين كلامِ الكُهَّانِ يحتاجُ إلىٰ تذكُّرٍ.

مِن وجوهُ الإعجازِ في القرآنُ الكريمُ:

- [١] **اللفظ.**
- [٢] **النظْمُ.**
- [٣] **البَلَاغَةُ:** فِي دَلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ.
- [٤] **الْمَعاني:** قالَ رَحِمَهُ اللهُ: «مِنْ جِهَةِ مَعَانِيهِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمِنْ جِهَةِ مَعَانِيهِ، الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عَنِ الْغَيْبِ الْمَاضِي، وَعَنِ الْغَيْبِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَمِنْ جِهَةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْمَعَادِ، وَمِنْ جِهَةِ مَا بَيَّنَ فِيهِ مِنَ الدَّلَائِلِ الْيَقِينِيَّةِ، وَالْأَقْيِسَةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ».

أقسامُ النَّاس في سماع القُرآن (سماعَ فِقهٍ وقَبولٍ):

[١] مُعرضٌ مُمتنعٌ عن سماعِه.

[٢] يسمعُ الصَّوتَ ولا يفقهُ المَعنىٰ.

[٣] يفقهُهُ لكنَّه لا يقبَلُه.

[٤] يسمعُه سماعَ فقهٍ وقَبولٍ.

أنواعُ هَجر القرآن (ذكَرَها ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ):

[١] هجرُ سَماعِه، والإيمانِ به، والإصغاءِ إليه.

[٢] هجرُ العملِ به والوقوفِ عند حلالِه وحرامِه، وإن قرأه وآمنَ به.

[٣] هجرُ تحكيمِه والتَّحاكُمِ إليه في أصولِ الدِّينِ وفروعِه.

[٤] هجرُ تدبُّرِه، وتفهُّمِه، ومعرفة ما أرادَ المُتكلِّمُ به منه.

[٥] هجرُ الاستشفاءِ والتَّداوي به في جميعِ أمراضِ القُلوبِ وأدوائِها.

القرآن الكريم لا يُشبِه شيئًا من كلامِ العَرَبِ:

القرآنُ الكَريمُ كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أحكَمَ آياتِه، وفصَّلَها، وبيَّنَها، بكلام عَرَبيٍّ مُبينٍ، وليس هو علىٰ طريقَةِ ما عرفَه العرَبُ من الشِّعرِ، ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[يس:٦٩]، ولا علىٰ طريقَةِ النَّثرِ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾[يس]، فهو قسمٌ خاصٌّ، لا يُشبِهُ الشِّعرَ والنَّثرَ ولا يُشبِهانِه، ولهذا جاءَ في «المُستدرَك» أنَّ الوليدَ بنَ المُغيرَةِ لمَّا سمِعَه قالَ: «**وَاللهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَىٰ، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ**».

تنبيهٌ:

اجتمع في القرآنِ الكَريم أنَّه مُعجزَةٌ وتَشريعٌ، بخِلافِ باقي الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ ففيها تَشريعٌ فقط كما في التَّوراةِ، وإنَّما أوتِيَ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ العصىٰ وغيرَها من الآياتِ.

الفَرقُ بين القرآنِ الكريمِ والـمُصحَف:

القُرآنُ الكَريمُ لا يُضافُ إلَّا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه كلامُه، ولا يُجمَع، أمَّا المُصحَفُ فهو الصُّحُفُ الَّتي كُتِبَ فيها القُرآنُ، ويُمكِنُ إضافتُها إلىٰ مَن كتبَها أو جمعَها، مِثلَ: مُصحَفِ عُثمانَ وتُجمَع أيضًا علىٰ مَصاحِفَ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَدْ حَمَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ هَـذَا الْقُرْآنَ الْعَظِـيمَ مِـنَ: التَّغْيِيـرِ، وَالزِّيَـادَةِ، وَالنَّقْصِ، وَالتَّبْدِيلِ؛ حَيْثُ تَكَفَّلَ عَزَّوَجَلَّ بِحِفْظِهِ، فَقَـالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر]، وَلِذَلِكَ مَضَتِ الْقُرُونُ الْكَثِيرَةُ وَلَمْ يُحَاوِلْ أَحَدٌ مِنْ أَعْدَائِهِ أَنْ يُغَيِّـرَ فِيـهِ، أَوْ يَزِيدَ، أَوْ يَنْقُصَ، أَوْ يُبَدِّلَ = إِلَّا هَتَكَ اللهُ تَعَالَىٰ سِتْرَهُ، وَفَضَحَ أَمْرَهُ).

تغييرُ القرآنِ الكريمِ منه:

[١] **الـمَعنويُّ:** وهو واقعٌ كما هو مَعروفٌ في كتبِ التَّاريخِ وكلامِ العلماءِ، وحِفظُ الله عَزَّوَجَلَّ له بأن يُيسِّر من عبادِه مَن يُبيِّنُ بُطلانَه وعَوارَه.

[٢] **اللَّفظيُّ:** وهو المقصودُ في قولِه تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحِجر]، وهو أنواعٌ:

- [١] تغييرُ الحركاتِ والنُّقط.
- [٢] زيادةُ كلمةٍ أو حرفٍ.
- [٣] نقصُ كلمةٍ أو حرفٍ.
- [٤] تبديلُ كلمةٍ بكلمةٍ.

فمن ادَّعىٰ شيئًا من ذلك لزِم من قولِه:

- [١] **وصفُ اللَّهِ** عَزَّوَجَلَّ **بالعجزِ:** ومن وصفَ اللهَ بالعجزِ فهو كافرٌ حلالُ الدَّمِ.
- [١] **تكذيبُ اللَّهِ** عَزَّوَجَلَّ: لأنَّه مُكذِّبٌ لقولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحِجر]، ومُكذِّبُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كافرٌ.
- [٢] **تكذيبُ النَّبيِّ** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فالمسلمون أجمعوا أنَّه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلَّغَ القرآنَ كاملًا.

حكمُ استعمالِ القُرآنِ لغيرِ ما أُنزِلَ له وللمِزاح:

قالَ شيخُ الإسلام ابنُ تيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَيْسَ لِأَحَدٍ اسْتِعْمَالُ الْقُرْآنِ لِغَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ لَهُ؛ وَبِذَلِكَ فَسَّرَ الْعُلَمَاءُ الْحَدِيثَ الْمَأْثُورَ: «**لا يُنَاظَرُ بِكِتَابِ اللهِ**»، أَيْ: لَا يُجْعَلُ لَهُ نَظِيرٌ يُذْكَرُ مَعَهُ؛ كَقَوْلِ الْقَائِلِ لِمَنْ قَدِمَ لِحَاجَةٍ: لَقَدْ ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾[طه]، وَقَوْلِهِ عِنْدَ الْخُصُومَةِ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾[يونس:٤٨]؟! أَوْ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٠٧﴾[التَّوبة].

ثُمَّ إِنْ خَرَّجَهُ مَخرَجَ الِاسْتِخْفَافِ بِالْقُرْآنِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِ كَفَرَ صَاحِبُهُ.

وَأَمَّا إِنْ تَلَا الْآيَةَ عِنْدَ الْحُكْمِ الَّذِي أُنْزِلَتْ لَهُ، أَوْ كَانَ مَا يُنَاسِبُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ فَحَسَنٌ؛ كَقَوْلِهِ لِمَنْ دَعَاهُ إِلَىٰ ذَنْبٍ تَابَ مِنْهُ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾[النور:١٦]، وَقَوْلِهِ عِنْدَ مَا أَهَمَّهُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف:٨٦]».

وسُئِلَ الشَّيخُ العُثيمينُ رَحِمَهُ اللَّهُ عن استِعمالِ آياتِ القرآنِ علىٰ سَبيلِ المِزاحِ فقالَ: «أمَّا من قالَ هذا علىٰ سبيلِ الاستهزاءِ والسُّخريةِ فإنَّه علىٰ خطرٍ عظيمٍ، وقد يُقالُ: إنَّه خرجَ من الإسلامِ؛ لأنَّ القرآن لا يجوزُ بأيِّ حالٍ من الأحوال أن يُتَّخذَ هُزُوًا، وكذلك الأحكامُ الشَّرعيَّة؛ كما قالَ الله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝٦٤ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾[التَّوبة]، ولهذا قال العلماءُ -رحمهم اللهُ-: من قالَ كلمة الكُفرِ ولو مازحًا فإنَّه يكفُرُ! ويجبُ عليه أن يتوبَ، وأن يعتقِدَ أنَّه تاب من الرِّدَّةِ، فيُجدِّد إسلامَه، فآياتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ورسولِه أعظَمُ مِن أن تُتَّخذَ هُزُوًا أو مَزحًا.

أمَّا من استشهدَ بآيةٍ علىٰ واقعةٍ جرت وحدثت فهذا لا بأسَ به، فإنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استشهَدَ بالآياتِ علىٰ الوقائعِ، فاستشهد بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾[التغابن:١٥] حينما جاء الحسَنُ والحُسَينُ يتعثَّرانِ في أثوابِهما، فنزَلَ من المِنبَرِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾[التغابن:١٥]، فالاستشهادُ بالآيات علىٰ الوقائعِ لا بأسَ به».

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِأَوْصَافٍ كَثِيرَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ، وَبَرَكَتِهِ، وَتَأْثِيرِهِ، وَشُمُولِهِ، وَأَنَّهُ حَاكِمٌ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر]، ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص]، وَقَالَ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنعام]، وَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ [الواقعة]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الحشر]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥﴾ [التَّوبة]، وَقَالَ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝١٩﴾ [الأنعام]، وَقَالَ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ [النَّحل]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾ [المائدة: ٤٨]).

السَّبعُ المثاني هي الفاتحةُ، آياتُها سبعٌ، وفيها:

- [١] الخبر.
- [٢] الدُّعاء.
- [٣] التَّاريخ.
- [٤] تقسيم النَّاس بالهداية.

بعضُ أسماء سورة الفاتحة:

فاتحةُ الكتاب، والسَّبعُ المَثاني، والقرآنُ العظيمُ، والرُّقية، وأمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والصَّلاةُ، والحمدُ لله ربِّ العالمين، وهذه هي الَّتي جاءت بها الأدلَّة، وسُمِّيت بغيرها.

وصف اللَّه عَزَّ وَجَلَّ القرآنَ بالعظمة؛ فقال:

[١] ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾[الحجر].

[٢] ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾[ق]، والمَجدُ هو: (العظمة والسُّلطان).

يُفهم من عظمةِ القرآن:

[١] تعظيمُ القرآن نفسِه.

[٢] أنَّ من تمسَّك به نال العظمة والمجدَ، وصارَ له السُّلطة علىٰ غيره، وتاريخ الأمَّة الإسلاميَّة يشهد بهذا.

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾:

[١] وصفَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ القرآنَ بأنَّه مُبارك:

[أ] **في أجره وثوابه:** فمن قرأ القرآن فله بكلِّ حرفٍ عشر حسناتٍ. أخرجه التِّرمذيُّ.

[ب] **في تأثيره:** ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا ﴾ [الحشر].

[ج] **في أثره:** ومنه النَّصر علىٰ العدوِّ، وصلاح القلب، وإقبال العبد علىٰ ربِّه، وتليين القلب.

[٢] وبيَّن الحكمةَ من إنزاله:

[أ] ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾: فالَّذي يقرأ القرآن بحضور قلب وتدبُّرٍ يتأثَّر به تأثُّرًا عظيمًا، وفيه أنَّ معانيَ آيات الصِّفات مَعلومةٌ.

[ب] ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾: فالتَّدبُّر مُطلقٌ، والتَّذكُّر خاصٌّ بأولي الألباب، أي: العقول، فهم الَّذين يتذكَّرون ويتَّعظون بالقرآن.

مَعنى كون القرآنِ الكريمِ كتابًا أنَّه مكتوبٌ في:

[١] **اللَّوح المحفوظ:** في الملأ الأعلىٰ.

[٢] **الصُّحف:** الَّتي بأيدي السَّفرة الكرام البررة.

[٣] **المَصاحف:** الَّتي في أيدينا.

﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾:

[١] (فَٱتَّبِعُوهُ): الاتِّباع فرع معرفة المعنىٰ؛ فترجع إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

[٢] (وَٱتَّقُواْ): حُذف المَفعول، وتقديره: اتَّقوا مُخالفتَه، وهي ضدُّ الاتِّباع، فيشمل كلَّ شرائع القرآن.

[٣] (لَعَلَّكُمۡ): (لعلَّ) تأتي في اللُّغة للتَّرجِّي والتَّعليل، وهي هنا للتَّعليل؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يعسر عليه شيءٌ.

[٤] (تُرۡحَمُونَ): أُضمِر الرَّاحم، والفاعل يُحذف للعلم به، والفاعل هنا هو الله عَزَّوَجَلَّ، أو لإفادة العموم، فيكون المَعنىٰ: مَن رَحِمَه اللهُ يسَّر له مَن يرحمُه مِن الخلق، فيكون مَرحومًا من الله عَزَّوَجَلَّ ومن الخلقِ.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ مُؤكَّدةٌ بثلاث مؤكِّدات:

[١] **القسم:** في قوله تعالىٰ قبلها: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾[الواقعة]، و(لا) هنا للتَّنبيه، وليست نافيةً.

[٢] **إنَّ.**

[٣] **اللَّام.**

وصف اللهُ عَزَّوَجَلَّ القُرآنَ بأنَّه كريمٌ:

أي: كثير الخير، يفتح المَدارك، ويوسِّع العلوم، فيه من المعاني والعلوم العظيمة ما لا يوجد في غيره، فهو كريمٌ في ألفاظه، ومعانيه، وآثاره، وغيرها.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾:

[١] أي: للخَصلة الَّتي هي أقوم، و(أقوم) صيغة تفضيل، فكلُّ خُلُقٍ فاضل فالقرآن يهدي إلىٰ أعلاه، وكلُّ مُعاملةٍ حسنة فالقرآن يهدي إلىٰ أحسنها، وكلُّ عبادةٍ مُستقيمةٍ فالقرآن يهدي إلىٰ أقومها...

[٢] فيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ الدِّين الإسلاميَّ يبدأ بالأهمِّ فالمهمِّ، والأصلح فالصَّالح، ويدفع الأسوأ بالسَّيِّء.

وصف الله عَزَّوَجَلَّ القرآن بشدَّة التَّأثير فقال:

[١] (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ): والجبل أصمُّ صُلبٌ شديدٌ.

[٢] (لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا): أي: ذليلًا.

[٣] (مُّتَصَدِّعًا): أي: مُتفتِّتًا ليِّنًا.

[٤] (مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ): الخشية خوفٌ مَقرونٌ بعلمٍ.

[٥] (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ): أي: لأجل أن يتفكَّروا.

هنا قاعدتان مهمَّتان:

[١] **قاعدةٌ أصوليَّةٌ:** (كلُّ مثلٍ في القرآن فهو **إثباتٌ للقياس**)؛ لأنَّ المقصود انتقال الذِّهن من هذا لهذا.

[٢] **قاعدةٌ عقديَّةٌ:** في الآية دلالةٌ علىٰ أنَّ الجبال لها فهمٌ وإدراكٌ، قال ﷺ: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**». مُتَّفقٌ عليه.

قاعدةٌ أخرى مُهمَّةٌ:

(**كلُّ مَثلٍ في القرآن يُمكنُ الوصولُ إلىٰ مَعناهُ؛ إلَّا مثلًا سيق للتَّنفير**)، مثل قوله تعالىٰ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصَّافَّات]، ورؤوس الشَّياطين غيرُ مَعلومة الهيئة.

وصف الله عَزَّوَجَلَّ القرآن بأنَّه يزيد الـمؤمنين إيمانًا، ويزيد الكافرين رجسًا:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم﴾ أي: من المُنافقين، ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾ استفهامٌ للتَّحدِّي؛ إمَّا لكونهم لم ينتفعوا بهذه الآيات، أو لأنَّهم يُكابرون، فانقسم النَّاس مع القرآن قسمين:

[١] (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ):

[أ] (فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا): وزيادة إيمانهم بأنَّ السُّورة إذا نزلت بخبر صدَّقوه، وإذا نزلت بأمرٍ أو نهيٍ امتثلوه.

[ب] (وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ): أي: يبشِّر بعضهم بعضًا بما نزل، وبحكمه، فكلَّما نزلت آيةٌ دلَّت أنَّ الله أراد بالأمَّة خيرًا.

[٢] (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ):

[أ] (فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ): والرِّجس هنا معنويٌّ؛ لمجيئه للتَّوكيد، زادهم الله رجسًا لأنَّهم كذَّبوا الخبر وخالفوا الطَّلب.

[ب] (وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ): استمرُّوا علىٰ الرِّجس إلىٰ الموت.

فيه تحذيرٌ عظيمٌ لمن ردَّ الشَّرع أوَّل مرَّةٍ أنَّه خطرٌ عليه أن يستمرَّ معه هذا الرَّدُّ حتَّىٰ يموت علىٰ الكفر -عياذًا بالله-.

الـمَرض:

(**علَّةٌ تقتضي خروج البدن عن الاعتدال الطَّبيعيِّ**)، ومرض القلب في كلِّ موضعٍ بحسبه:

[١] **مرض شهوةٍ:** ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ [الأحزاب:٣٢].

[٢] **مرض شبهةٍ:** ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ [التَّوبة]، أي: مرض الشَّكِّ والجحود، عُرف هذا بمُقابله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

فائدةٌ نحويَّةٌ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم﴾:

(كُلَّما أتت "ما" بعد "إذا" فهي زائدةٌ)، قال النَّاظم:

يَـــا طَالِبًـــا خُـــذْ فَائِـــدَهْ   بَعْـــدَ (إِذَا) (مَـــا) زَائِـــدَهْ

مِن تأثير القرآن أنَّه إنذارٌ لمن بلغه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾:

[١] (لِأُنذِرَكُم بِهِۦ): أي: المُخاطبون.

[٢] (وَمَنۢ بَلَغَۚ): أي: كلُّ من بلغه القرآن.

فكلُّ من بلغه القرآن وعرف معناه فلابدَّ أن يتأثَّر به ولو كان كافرًا، ولهذا كان أهل مكَّة يجتمعون علىٰ النَّبيِّ ﷺ إذا قرأ القرآن ليسمعوه مِن فِيهِ.

واستدلَّ بعض العلماء بهذه الآية علىٰ أنَّ كلَّ من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجَّة ولو لم يفهمه، وهو قولٌ ضعيفٌ، وإنَّما تقوم الحجَّة إذا قيل له: (هذا كلام الله الواجبُ اتِّباعُه)، ولا يُقال: لابدَّ من التَّفصيل؛ لأنَّه قد يكون صعبًا.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾، أي:

[١] **جاهدهم بآياتِ القُرآن:** أي: اتلُ عليهم القرآن، وضيِّق عليهم به، فإنَّهم يضيقون به ذرعًا.

[٢] **جاهدهم بأحكامِ القرآن وحِكَمِه:** واتَّبع ما جاء في القرآنِ من قِتالهم وجِهادهم حتَّىٰ تكونَ كلمةُ الله هي العُليا.

﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ أي: لا تَتَأَنَّ وتمُدَّ إليهم يدَ الضَّعفِ بل القوَّة؛ لأنَّهم يريدون أن يمدُّوا لكم يد القوَّة.

وصف الله عَزَّوَجَلَّ القرآن بأنَّه تبيانٌ لكلِّ شيءٍ:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ٨٩﴾ [النَّحل]، فالقرآن الكريم مَصدرُ الشَّريعة الإسلاميَّة، وهو:

- [١] **هدًى:** لجميع النَّاس.
- [٢] **رحمةٌ:** للمُسلمين.
- [٣] **بُشرَى:** للمُسلمين إذا تمسَّكوا به.

ممَّا وصف اللهُ عَزَّوَجَلَّ به القرآن:

- [١] (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ): الباء تفيد:
  - [أ] **الملابسة:** فهو نازلٌ نزول حقٍّ.
  - [ب] **التَّعدية:** أي: أتى بالحقِّ، فأخبارُه صدقٌ، وأحكامُه عدلٌ.
- [٢] (مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ): من وجهين:
  - [أ] أنَّ الكتب السَّابقة ذكرت منه شيئًا؛ فنزل مِصداقًا لها.
  - [ب] أنَّه يقول: إنَّها حقٌّ وصدقٌ؛ فيجب الإيمان بها.
- [٣] (وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ): الهيمنة هي السَّيطرة والسُّلطة، أي: القرآن ناسخٌ لما سبقه من الكتب.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، الفاء للسَّببيَّة، أي: لأنَّه مُهيمنٌ احكم بينهم بما أنزل الله.

القرآنُ أتىٰ ناسخًا ومُهيمنًا علىٰ ما سبق من الكُتب، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة:٤٨]، ولهذا قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ** ﷺ **أَحْدَثُ، تَقْرَؤُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا كِتَابَ اللهِ وَغَيَّرُوهُ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ، وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا؟ أَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ لَا وَاللهِ، مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ**». رواه البخاريُّ (٧٣٦٢). وقوله: «**مَحْضًا لَمْ يُشَبْ**» أي: لم يُخالِطهُ غيرُه.

فُروقاتٌ مهمَّةٌ:

القرآن الكريمُ:	الكتب السماوية:
آيةٌ للنَّبيِّ ﷺ، وتَشريعٌ له ولأمَّتِه.	تشريعٌ فقط.
تعهَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بحِفظِه، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾[الحجر].	أمرَهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ بحِفظِها، ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾[المائدة:٤٤].
حَفظَه كثيرٌ مِن الأمَّةِ في الصُّدورِ.	لم يَحفظها إلَّا الأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.
ناسخٌ لكلِّ الكتبِ الَّتي سبقَته.	كلُّها مَنسوخٌ بالقرآنِ العَظيم.
بلغَةٍ عربيَّةٍ فَصيحَةٍ.	المَعلومُ مِنها كانَ بغَيرِ العربيَّةِ.
نزلَ مُنجَّمًا بحسَبِ حاجَةِ النَّاسِ.	لم يَنزل مِنها مُنجَّمًا سوىٰ الزَّبورِ.
سُمِّيَ قرآنًا بمَعنىٰ: مَقروءٍ.	لم يُسَمَّ كِتابٌ مِنها قرآنًا إلَّا الزَّبورُ.
شَمِلَ كلَّ جَوانِبِ الحياةِ.	
نزَلَ لكلِّ الثَّقلين إلىٰ يوم القيامةِ.	
مُصدِّقٌ لجَميع الكُتُبِ ومُهيمِنٌ عليها.	
فيه ما لم ينزِل مثلُه في بقيَّةِ الكُتبِ؛ كسورة الفاتحةِ، وبعضُ ما نزلَ في الكُتبِ السَّابقةِ.	

القرآن الكريمُ:	الحَديثُ القُدسيُّ والحَديثُ النَّبويُّ:
تحدَّىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ النَّاسَ أن يأتوا بمثلِه.	لم يَقع به التَّحدِّي.
لفظُه ومَعناه من اللهِ، وهو مُتعبَّدٌ بتِلاوَتِه.	ليس مُتعبَّدًا بتِلاوَتِه.
مُعجِزٌ بأقصَرِ سورةٍ منه.	ليس مُعجِزًا، ومنه الصَّحيحُ والضَّعيفُ.
مَنقولٌ بطريقِ التَّواتُرِ، فكلُّه قَطعِيُّ الثُّبوتِ.	منها ما هو مُتواترٌ، ومنها ما هو آحادٌ.
لا تصحُّ الصَّلاةُ إلَّا به.	لا يُتلىٰ في الصَّلاة.
ثوابُ تلاوتِه عَظيمٌ.	فيه ثوابٌ، لكنَّه أقلُّ من ثوابِ قراءةِ القُرآنِ.
الجُنُبُ لا يمَسُّ القرآنَ.	الجُنُبُ له أن يمَسَّ كُتُبَ الحَديثِ.

عددُ سُوَرِ القرآن:	١١٤
عددُ آياتِ القرآن:	٦٢٣٦
عددُ أجزاءِ القرآن:	٣٠
عددُ أحزابِ القرآن:	٦٠
عددُ أرباعِ الحِزبِ:	٤ أرباع
عدد الأثمان في الحِزبِ:	٨ أثمانٍ
عددُ الأثمان في القرآن:	٢٤٠ ثُمنًا

أقصر سورَةٍ في القرآن:	الكوثر
عددُ آياتِ أقصَر سورَةٍ:	٣
أطوَلُ سورَةٍ في القرآن:	البقرة
أعظَمُ آيةٍ:	الكرسي
أطوَلُ آيةٍ:	الدين
عددُ السُّوَرِ المكِّيَّةُ:	٨٦
عددُ السُّوَرِ المدنِيَّة:	٢٨

ثانيًا: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَصْدَرُ التَّشْرِيعِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَصْدَرُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي بُعِثَ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان]، وَقَالَ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾ [إبراهيم].

وَسُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ مَصْدَرُ تَشْرِيعٍ أَيْضًا كَمَا قَرَّرَهُ الْقُرْآنُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾ [النِّساء]، وَقَالَ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب]، وَقَالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر]، وَقَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ [آل عمران]).

القوانينُ الوضعيَّة لا تخلو من حالين:

[١] **أن تكون موافقةً للشَّرع:** فنقول: إنَّ الَّذي شرعها هو الشَّرع، ولا كرامة ولا منَّة للقوانين الوضعيَّة.

[٢] **أن تكون مُخالفةً للشَّرع:** فيجب نبذُها وطرحُها، وأن نعلم أنَّها باطلةٌ، ولا يمكن أن يُصلحَ الخلقَ قانونٌ وضعه البشر.

الرَّدُّ على من زعمَ أنَّ قانونَه يصلُح للخلقِ من وجوه:

[١] أنَّه قاصرٌ في نفسه، وعقله، ومعرفة ما يُصلحُ الخلقَ.

[٢] أنَّه إن عرف ذلك فإنَّما يعرفه فيما حوله من الأماكن، لا فيما بعُد عنه.

[٣] أنَّه إن عرف المَصالح فإنَّما يعرفها في الزَّمن الَّذي يعيش فيه، لا فيما بعده.

النَّاظر في:

[١] **القرآن:** ينظرُ من وجهٍ واحدٍ فقط، وهو دَلالتُه علىٰ الحُكم.

[٢] **السُّنَّة:** ينظر من وجهين:

[أ] جهة ثبوتها عن النَّبيِّ ﷺ.

[ب] جهة دلالتها علىٰ الحكم.

من أدلَّة كون القرآن مصدرًا للتَّشريع:

[١] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ **[الفرقان]:** الفُرقان هو القرآن، سُمِّي بذلك لأنَّه يُفرِّق بين الحقِّ والباطل، وفي قوله: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ دليلٌ علىٰ عموم رسالة النَّبيِّ ﷺ.

[٢] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ **[إبراهيم]:** فالكتاب الَّذي يجب أن نسير عليه هو القرآن، وعلَّل ذلك بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ثمَّ بيَّن مآل الكافرين الَّذي لا يهتدون بالقرآن: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾، ويشمل:

[أ] من أنكر أنَّ القرآن أُنزل علىٰ مُحمَّدٍ ﷺ.

[ب] من أثبت نُزولَه، لكن أنكر كونَه للعالمين.

تنبيهٌ:

القرآنُ الكريمُ له أسماءٌ وأوصافٌ.

وأشهرُ أسمائِه: القرآنُ، والفُرقانُ، والذِّكرُ، والكتابُ.

وأشهرُ أوصافه أنَّه: هدًىٰ، ونورٌ، وشفاءٌ، ورحمةٌ، ومَوعظةٌ، وبُشرَىٰ، ومُبارَكٌ، وعزيزٌ، وكريمٌ، وبشيرٌ، ومجيدٌ، ونذيرٌ.

من أدلَّة كون السُّنَّة مصدرًا للتَّشريع:

[١] ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[النِّساء:٨٠]: والطَّاعة هنا فيما لم يرد به القرآنُ، فطاعتُه ﷺ طاعةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، ومن لم يطعه ﷺ فقد برئ منه النَّبيُّ ﷺ، ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾.

[٢] ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب]: فمن عصى النَّبيَّ ﷺ فيما لم يرد به القرآنُ فقد ضلَّ.

[٣] ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [الحشر]: وردت في الفيء وقسمته، لكن تشمل كلَّ ما أتى به النَّبيُّ ﷺ من شريعة الله عَزَّوَجَلَّ.

[٤] ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران]: وتُسمَّى آية المِحنة، أي: امتحان واختبار من ادَّعى حبَّ الله عَزَّوَجَلَّ، فميزانُ الصِّدق هو اتِّباعُ النَّبيِّ ﷺ. وفيها أنَّ الشَّأن أن يحبَّك الله، لا أن تدَّعي حُبَّه، وأنَّ من اتَّبع النَّبيَّ ﷺ حصلت له فائدتان: محبَّةُ الله، ومغفرة الذُّنوب.

ومن أدلَّةِ حُجِّيَّةِ السُّنَّةِ كذلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾[النِّساء]، وقولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾[الأنفال:٢٤].

دلالةُ الإجماعِ على حُجِّيَّةِ السُّنَّةِ:

قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَا أعلمُ مِن الصَّحَابَة وَلَا التَّابِعين أحدًا أُخبر عَن رَسُول اللهِ ﷺ إِلَّا قَبِلَ خبرَه، وانْتهىٰ إِلَيْهِ، وَأثبت ذَلِك سنَّةً ... وصنَعَ ذَلِك الَّذين بعدَ التَّابِعينَ، وَالَّذين لَقِينَاهُمْ كلُّهم يثبتُ الْأَخْبَارَ، ويجعلهُا سنَّةً يُحمَدُ مَن تبعَها ويُعابُ مَن خالفَها، فَمن فَارق هَذَا الْمَذْهَب كَانَ عندنَا مُفارقًا سَبِيلَ أَصْحَابِ رَسُول الله ﷺ وَأهلِ الْعلم بعدهمْ إِلَى الْيَوْم، وَكَانَ من أهل الْجَهَالَةِ).

ثالِثًا: نُزُولُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (نَزَلَ الْقُرْآنُ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي رَمَضَانَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر]، وَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدُّخان]، وَقَالَ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَكَانَ عُمُرُ النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً عَلَىٰ الْمَشْهُورِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَغَيْرِهِمْ، وَهَٰذِهِ السِّنُّ هِيَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا بُلُوغُ الرُّشْدِ، وَكَمَالُ الْعَقْلِ، وَتَمَامُ الْإِدْرَاكِ.

وَالَّذِي نَزَلَ بِالْقُرْآنِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ جِبْرِيلُ، أَحَدُ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ الْكِرَامِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ [الشُّعراء]).

ابتِداءُ نزولِ الوحي:

[١] الرُّؤيا الصَّادقةُ: قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ». مُتَّفقٌ عليه. وابتداءُ الرُّؤيا كان في شهر ربيعٍ الأوَّل.

[٢] نزول القرآن: وكان ابتداءُ نزولِه لمَّا بلغ أربعين سنةً، في:

[أ] ليلة القَدر: قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر]، وقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدُّخان].

[ب] وهي في رمضانَ: قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

صفةُ نُزولِ القُرآنِ أوَّلَ ما نزلَ:

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ: التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ أُولَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[العلق]، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ، فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ: أَيْ خَدِيجَةُ؛ مَا لِي؟! وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، وَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ...». مُتَّفقٌ عليه.

سنُّ بلوغ الرُّشد أربعون سنةً:

وبهذا فسَّر بعض العُلماء قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾[القصص:١٤].

لطيفةٌ:

سبق أنَّ ابتداءَ الرُّؤيا كان في شهر ربيعٍ الأوَّل، وأنَّ ابتداء نزول القرآن كان في رمضان، وبينهما ستَّة أشهرٍ، ولبث ﷺ بعد نزول الوحي ثلاثةً وعشرين سنةً ونصف السَّنَة، قال بعض العلماء: هذا هو السِّرُّ في قول النَّبيِّ ﷺ: «**الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**». مُتَّفقٌ عليه.

ولا تنافي بين هذا وبين قولنا: إنَّه ﷺ نُبِّئ بـ(اقرأ)؛ لأنَّ الرُّؤيا تكون من غير النَّبيِّ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ ... بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشُّعراء]:

[٦] (بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ):	[٥] (لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ):	[٤] (عَلَىٰ قَلۡبِكَ):	[٣] (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ):	[٢] (رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ):	[١] (وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ):
نزل بلغةٍ عربيَّةٍ، وهو بيِّنٌ في نفسه، مُبيِّنٌ لغيره.	تعليل نزول القرآن.	نزَّله على محلِّ العقل الَّذي هو القلب.	هو جبريل عليه السلام، ووصفُه بالأمانة مُناسبٌ؛ لأنَّ القرآن هو أعظم أمانةٍ.	إشارةٌ إلىٰ أنَّ القرآن مُنزَّلٌ لكلِّ العالمين.	جملةٌ مُؤكَّدةٌ بمُؤكِّدين: (إنَّ) و(اللَّام).

قالَ المُصنِّف رحمه الله: (وَقَدْ كَانَ لِجِبْرِيلَ عليه السلام مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ الْعَظِيمَةِ مِنَ: الْكَرَمِ، وَالْقُوَّةِ، وَالْقُرْبِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالْمَكَانَةِ، وَالِاحْتِرَامِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْأَمَانَةِ، وَالْحُسْنِ، وَالطَّهَارَةِ = مَا جَعَلَهُ أَهْلًا لِأَنْ يَكُونَ رَسُولَ اللهِ تَعَالَىٰ بِوَحْيِهِ إِلَىٰ رُسُلِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾ [التَّكوير]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧﴾ [النَّجم]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾ [النَّحل].

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ لَنَا أَوْصَافَ جِبْرِيلَ الَّذِي نَزَلَ بِالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِهِ، وَتَدُلُّ عَلَىٰ عِظَمِ الْقُرْآنِ، وَعِنَايَتِهِ تَعَالَىٰ بِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُرْسَلُ مَنْ كَانَ عَظِيمًا إِلَّا بِالْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ).

تنبيهٌ: قال شيخُ الإسلامِ في «مَجموع الفتاوىٰ» (٥/ ١٢٨): (ومَذهبُ سلفِ الأمَّةِ، وأئمَّتِها، وخلفِها؛ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم سمع القرآنَ من جِبريلَ، وجبريلُ سمِعَه من الله عز وجل)، ولهذا فإنَّه يجِبُ تعديلُ الاجازاتِ في القرآنِ الَّتي فيها: عن جبريل عن اللَّوح المَحفوظِ!

وردت أهمُّ صفات جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في ثلاثة مَواضع من القرآن:

[١] ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾ فيها: الكرم، ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ فيها: القوَّة، ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ فيها: قُربُه من الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿مَكِينٖ ٢٠﴾ أي: ذو مكانةٍ، ﴿مُّطَاعٖ﴾ فيها: أنَّه ذو احترامٍ، ﴿ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾[التَّكوير]، فيها: الأمانة.

[٢] ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥﴾ فيها شدَّة قوَّته، ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ أي: على هيئةٍ حسنةٍ، ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧﴾[النَّجم].

[٣] ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾[النَّحل]، فيها دليلٌ علىٰ اتِّصافِه بالطَّهارة.

كونُ الله عَزَّ وَجَلَّ يصف جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الأوصاف العظيمة دليلٌ علىٰ عِظم ما أُرسل به؛ لأنَّه لا يُرسَل بالأمور العظيمة إلَّا من هو عظيمٌ.

تَرْجَمَةُ جِبْرِيـــلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

- **اسمُه:** جِبريلُ أو جَبرائيلُ، والجبر هو العبد، أُضيف إلىٰ إيل وهو بالنَّبطيَّة: اسمٌ لله.
- **لقبُه:** الرُّوح الأمينُ، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾[الشُّعراء].
- **وظيفتُه:** مُوكَّلٌ بالوحي، ينزل به من عند الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ من يشاءُ من عباده المُرسَلين.
- **صِفاتُه الخَلقيَّة:** قال تعالىٰ: ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ أي: هيئةٍ حسنةٍ، وعند الشَّيخين: «**لَـهُ سِـتُّمِائَةِ جَنَاحٍ**»، و«**سَدَّ أُفُقَ السَّمَاءِ**» أي: ملأها، وعند ابن أبي عاصمٍ: «**جَنَاحَاهُ لُؤْلُؤٌ، وَبَاطِنُ قَدَمَيْهِ أَخْضَرُ**»، وعند ابن حبَّان: «**يَنْثُرُ مِنْ رِيشِهِ تَهَاوِيلَ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ**»، وكان يتصوَّر في صورة دِحية الكلبيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في الحديث.
- **مَرتبتُه:** هو أفضلُ الملائكة ومُقدَّمُهم، ولمَّا اتَّخذه اليهودُ عدُوًّا قـالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[البقـرة]، وقـد سـأل جبريـلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّبيَّ ﷺ: «**مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَـدْرٍ فِـيكُمْ؟**»، قـال: «**مِـنْ أَفْضَـلِ الْمُسْـلِمِينَ**»، أَوْ كَلِمَـةً نَحْوَهَا، قَالَ: «**وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ**»، ومنهم جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الوَحيُ نوعان:

[١] **شرعِيٌّ:** وهو وحيُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ للرُّسُلِ بالشَّرائِعِ، ومَراتِبُه سبعةٌ.

[٢] **لُغويٌّ:** وهو الَّذي يكونُ لكُلِّ المَخلوقاتِ، وهو ستَّةُ أنواعٍ.

مَراتِبُ نُزولِ الوَحيِ الشَّرعيِّ على النَّبيِّ ﷺ:

[١] **الرُّؤيا الصَّادِقَةُ:** وكانت مَبدأَ وَحيِه ﷺ.

[٢] **إلقاءُ المَلَكِ في رَوعِه ﷺ:** دونَ أن يَراهُ.

[٣] **المَلَكُ في صورةِ رَجُلٍ:** فيُخاطِبُه حتَّى يَعِيَ عنه ما يقولُ.

[٤] **في مِثلِ صَلصَلَةِ الجَرَسِ:** وهو أشدُّه عليه ﷺ.

[٥] **أن يَرى المَلَكَ على صورَتِه:** وقَعَ له ﷺ مرَّتينِ.

[٦] **الوَحيُ المُباشِرُ:** فوقَ السَّماءِ ليلَةَ المِعراجِ.

[٧] **كلامُ اللهِ له ﷺ بلا واسِطَةٍ:** كما في حَديثِ الإسراءِ.

أنواعُ الوَحيِ اللُّغَوِيِّ:

[١] **الإلهامُ الفِطريُّ للإنسانِ السَّليمِ الفِطرَةِ:** وهو ما يُلقيه اللهُ في نفسِه؛ كالوَحيِ إلى أمِّ موسَى.

[٢] **الالهامُ الغَريزيُّ للحيوانِ:** كالوَحيِ للنَّحلِ.

[٣] **الأمرُ الكَونيُّ للجَماداتِ:** ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزَّلزلة].

[٤] **ما يُلقيه للمَلائِكَةِ:** ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأنفال: ١٢].

[٥] **الإشارَةُ السَّريعَةُ بجارِحَةٍ من الجوارِحِ:** ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ﴾ [مريم: ١١].

[٦] **وسوَسَةُ الشَّيطانِ:** ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [الأنعام: ١١٢].

رابِعًا: أوَّلُ ما نزَلَ مِنَ القْرُآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِطْلَاقِ قَطْعًا: الْآيَاتُ الْخَمْسُ الْأُولَىٰ مِنْ سُورَةِ الْعَلَقِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق]).

فائدةُ معرفةِ أوَّلِ ما نزل:

معرفة أوَّل ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه من مهمَّات معرفة المُتقدِّم والمُتأخِّر، وهو مُهمٌّ لمعرفة النَّاسخ والمَنسوخ.

من مَعاني هذه الآياتِ الخَمسِ:

[١] (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾): أمر جبريلُ النَّبيَّ ﷺ أن يقرأ، فأجاب بأنَّه لا يُحسن القراءة؛ لأنَّه ﷺ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب.	[٢] (خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾): ذكر عَزَّوَجَلَّ ابتداء خلق الإنسان، والعلقة دودةٌ حمراء، وهي أوَّل الدَّم، وعدل عن النُّطفة إلىٰ العلقة لأنَّ الانتقال من النُّطفة إلىٰ العلقة دليلٌ علىٰ ابتداء الخلق.	[٣] (ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾): الواو للاستئناف، والأكرم اسم تفضيلٍ من الكرم.	[٤] (ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾): أي: علَّم بالقلم كيف نكتب به، وهذا أولىٰ من تقدير محذوفٍ؛ لأنَّ الأصل عدم الحذف، فإذا دار الكلام بين الحذف وعدمه، حُمل علىٰ العدم.	[٥] (عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾): أي: علَّم كلَّ إنسانٍ ما لم يعلمه.

لماذا افتُتحَ القُرآنُ بالفاتحةِ، ولم يُفتتحْ بهذه الآياتِ الخمس؟

لأنَّ الفاتحة هي أمُّ القرآن، فهي كالعنوان له، وما بعدها تفصيلٌ له، ولهذا لا تكاد تجد معنًىٰ من القرآن إلَّا وقد تضمَّنته الفاتحة إيماءً.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثُمَّ فتَرَ الْوَحْيُ مُدَّةً، ثُمَّ نَزَلَتِ الْآيَاتُ الْخَمْسُ الْأُولَىٰ مِنْ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾[المُدَّثر]).

الحِكمة من فُتور الوَحيِ:

ليشتدَّ شوق النَّبيِّ ﷺ إليه؛ كما وقع فعلًا، فإنَّه لمَّا فتر الوحي صار النَّبيُّ ﷺ يخرج ليتطلَّع إلىٰ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد اختلف العلماء في مدَّة الفترة.

وفيه حرص النَّبيِّ ﷺ علىٰ الدَّعوة مع ما يُلاقيه من شدَّةٍ عند نزول الوحي.

من مَعاني هذه الآياتِ الخَمسِ:

[١] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١): أصلُها (المُتَدَثِّرُ)، أي: لابس الدِّثار، ثمَّ قُلبت التَّاء دالًا لعلَّةٍ صرفيَّةٍ.

[٢] (قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢): أمره الله عَزَّ وَجَلَّ أن يقوم ويُنذر النَّاس، وألَّا يركن إلىٰ الكسل والخمول، وبها صار رسولًا.

[٣] (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣): (وَرَبَّكَ) مَفعولٌ مُقدَّمٌ، والفاء لتزيين اللَّفظ، وقيل: للعطف.

[٤] (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤): هي الثِّياب المَعنويَّة كما في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]، وقيل: طهِّر الثِّياب الحسِّيَّة من النَّجاسة.

[٥] (وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥): الرُّجز: الأوثان، أمره عَزَّ وَجَلَّ بهجرها.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» -صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي بَدْءِ الْوَحْيِ قَالَتْ: حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، يَعْنِي: لَسْتُ أَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَفِيهِ: ثُمَّ قَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[العلق].

وَفِيهِمَا عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ»، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: «فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾[المُدَّثر]»).

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ» أي: الشَّرعُ والقرآنُ، «وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ» في جبل حِراءٍ علىٰ يمين الدَّاخل إلىٰ مكَّة من جهة الشَّرائع، ويُسمِّيه أهل الحجاز جبل النُّور، والتَّسمية الأولىٰ أحسن، «فَجَاءَهُ الْمَلَكُ» أي: جبريل، و(أل) للعهد الذِّهنيِّ.

القولُ بأنَّ السُّنَّة هي المَصدرُ الثَّاني للتَّشريع يحتمل أن يُرادَ به:

[١] أنَّنا لا نقبلها إلَّا في المرتبة الثَّانية: فهذا غلطٌ؛ لأنَّها بمنزلة القرآن.

[٢] أنَّها المَصدر الثَّاني من حيث العدد لا من حيث التَّرتيبُ: فلا بأس.

هل حكمُ ما أنزل الله مُتعلِّقٌ بتوحيد الرُّبوبيَّة أم بتوحيد الألوهيَّة؟

[١] تعلُّقه بتوحيد الرُّبوبيَّة أقوىٰ؛ لأنَّ الَّذي يملك الحكم والتَّشريع هو الله، وفي حديث عديِّ بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَيْسَ إِنَّهُمْ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟»، قلتُ: نعم، قال ﷺ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». أخرجه التِّرمذيُّ.

[٢] وله تعلُّقٌ بتوحيد الألوهيَّة؛ لأنَّ من الشَّرائع أن يتعبَّد إلىٰ الله، وشرطا العبادة: الإخلاصُ والمُتابعةُ.

هل ما كان مَعلومًا مِن الدِّين بالضَّرورة يحتاجُ إلى إقامةِ الحُجَّة؟

نعم، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: من أنكر وجوب الصَّلوات الخمس وهو حديثُ عهدٍ بإسلامٍ، أو في باديةٍ بعيدةٍ؛ فإنَّه لا يُحكم بكُفره حتَّىٰ يُبلَّغ.

ثمَّ إنَّ القول بأنَّ هذا مَعلومٌ مِن الدِّين بالضَّرورة أمرٌ نسبيٌّ، قد يرىٰ بعض العلماء أنَّ هذا من المَعلوم مِن الدِّين بالضَّرورة، ويرىٰ آخرون خِلاف ذلك.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَثَمَّةَ آيَاتٌ يُقَالُ فِيهَا: أَوَّلُ مَا نَزَلَ؛ وَالْمُرَادُ أَوَّلُ مَا نَزَلَ بِاعْتِبَارِ شَيْءٍ مُعَيَّنٍ، فتكُونُ أَوَّلِيَّةً مُقَيَّدَةً، مِثْلُ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ سَأَلَهُ: أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ أَوَّلَ؟ قَالَ جَابِرٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: أُنْبِئْتُ أَنَّهُ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، فَقَالَ جَابِرٌ: لَا أُخْبِرُكَ إِلَّا بِمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «جَاوَرْتُ فِي حِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ»، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: «فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾».

فَهَٰذِهِ الْأَوَّلِيَّةُ الَّتِي ذَكَرَهَا جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِاعْتِبَارِ أَوَّلِ مَا نَزَلَ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، أَوْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ فِي شَأْنِ الرِّسَالَةِ؛ لِأَنَّ مَا نَزَلَ مِنْ سُورَةِ اقْرَأْ ثَبَتَتْ بِهِ نُبُوَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا نَزَلَ مِنْ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ ثَبَتَتْ بِهِ الرِّسَالَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾، وَلِهَٰذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نُبِّئَ بِاقْرَأْ، وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّرِ).

أوَّليَّة النُّزول قسمان:

[١] أوَّليَّةٌ مُطلقةٌ: وهي الآيات الخمس من سورة العلق.

[٢] أوَّليَّةٌ نسبيَّةٌ (إضافيَّةٌ): فيُقال مثلًا في حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أوَّل ما نزل بعد فترة الوحي)، أو: (أوَّل ما نزل باعتبار الرِّسالة).

خَامِسًا: نُزُولُ الْقُرْآنِ ابْتِدَائِيٌّ وَسَبَبِيٌّ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (يَنْقَسِمُ نُزُولُ الْقُرْآنِ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ:
الْقِسْمُ الأَوَّلُ: ابْتِدَائِيٌّ، وَهُوَ مَا لَمْ يَتَقَدَّمْ نُزُولَهُ سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ، وَهُوَ غَالِبُ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [التَّوبة] الْآيَاتُ، فَإِنَّهَا نَزَلَتِ ابْتِدَاءً فِي بَيَانِ حَالِ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، وَأَمَّا مَا اشْتَهَرَ مِنْ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ ذَكَرَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَرَوَّجَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْوُعَّاظِ = فَضَعِيفٌ لَا صِحَّةَ لَهُ).

يَنقسمُ القرآنُ باعتبار سبب نُزوله إلى:

- [١] **ابتدائيٌّ**: (مَا لَمْ يَتَقَدَّمْ نُزُولَهُ سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ).
- [٢] **سببيٌّ**: (مَا تَقَدَّمَ نُزُولَهُ سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ)، والأسباب ثلاثةٌ:
  - [أ] (سُؤَالٌ يُجِيبُ اللهُ عَنْهُ).
  - [ب] (حَادِثَةٌ وَقَعَتْ تَحْتَاجُ إِلَىٰ بَيَانٍ وَتَحْذِيرٍ).
  - [ج] (فِعْلٌ وَاقِعٌ يُحْتَاجُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ حُكْمِهِ).

مثَّل المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ للابتدائيِّ بآيةِ التَّوبةِ:

وهي قولُه تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: من المُنافقين، ﴿مَّنْ﴾ مُبتدأٌ مُؤخَّرٌ، ﴿عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ جُملةٌ مُؤكَّدةٌ بثلاث مُؤكِّداتٍ: (اللَّام)، و(القسم المُقدَّر)، و(النُّون)، وهذا نذرُ طاعةٍ مُعلَّقٌ بشرطٍ.
واختار رَحِمَهُ اللهُ هذه الآية من بين غالب القرآن ليبيِّن القصَّة الَّتي تُذكر في سبب نزولها.

والقصَّة أخرجها الطَّبرانيُّ بسندٍ فيه عليُّ بن يزيد الألهانيُّ، وهو متروكٌ، فالقصَّة ضعيفةٌ لا تصحُّ.

نذر الطَّاعة نوعان:

[١] **مُطلَقٌ:** مثل أن يقول: لله عليَّ نذرٌ أن أصلِّي ركعتين.

[٢] **مُعلَّقٌ:** مثل أن يقول: إن شفىٰ الله مريضي فللَّه عليَّ نذرٌ أن أتصدَّق بكذا.

وهو آكد في وجوب الوفاء؛ لأنَّه علىٰ اندفاع نقمةٍ أو حصول نعمةٍ، فهو نذرٌ يتضمَّن العهد والشُّكر لله عَزَّوَجَلَّ، وقد أعطاك عَزَّوَجَلَّ ما عاهدته عليه فوجب عليك أن توفِّي بعهدك.

تتمَّةُ آيةِ التَّوبةِ:

قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦﴾، في هذه الآية التَّحذير من نذر الطَّاعة المُعلَّق وإخلافه، ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ يعني: إلىٰ الموت -والعياذ بالله-، ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧﴾[التَّوبة].

وممَّا يؤيِّد بطلان القصَّة ما جاء فيها من إعراض النَّبيِّ ﷺ وأبي بكرٍ وعمر وعثمان عنه، وعدم قبول توبته، وهذا غير ممكنٍ؛ لأنَّ الرَّجل مهما أذنب من الذُّنوب إذا تاب ورجع إلىٰ الله فإنَّ الله يقبل منه، فهذه القصَّة مُخالفةٌ لما عُلم من الدِّين بالضَّرورة وهو قبول توبة الله تعالىٰ من التَّائبين.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الْقِسْمُ الثَّانِي: سَبَبِيٌّ**، وَهُوَ مَا تَقَدَّمَ نُزُولَهُ سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ، وَالسَّبَبُ:

أ. إِمَّا سُؤَالٌ يُجِيبُ اللهُ عَنْهُ، مِثْلُ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]).

مِن مَعاني هذه الآيةِ:

[١] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: الظَّاهر أنَّ السَّائلين هم الصَّحابة، ويحتمل غيرهم.

[٢] ﴿عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِ﴾: جمع هلالٍ، وهو القمر يُرىٰ في أوَّل ليلةٍ، وثاني ليلةٍ، وثالث ليلةٍ، والحكم هنا يتعلَّق برؤيته أوَّل ليلةٍ.

[٣] ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾: أي: كلِّ النَّاس من العرب والعجم، منذ خلق الله الأهلَّة إلىٰ أن يشاء الله.

[٤] ﴿وَٱلۡحَجِّ﴾: نصَّ علىٰ الحجِّ؛ لأنَّ ميقاته أشهرٌ، والأشهر ميقات رمضان كذلك، لكن ذكر الحجَّ لأنَّه يحتاج إلىٰ سفرٍ وعناءٍ، ولأنَّه عدَّة أشهرٍ.

سببُ اختيارِ هذا المثال:

هو دفع ما قاله البلاغيُّون في **أسلوب الحكيم**، وهو: (**أن يُجاب السَّائل بخلاف ما يتوقَّع إشارةً إلىٰ ما كان ينبغي أن يسأل عنه**)، قالوا: إنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سألوا عن الأهلَّة وسبب بُدُوِّ الهلال صغيرًا ثمَّ يكبر، فصرف الله عَزَّ وَجَلَّ الجواب عمَّا سُئله إلىٰ بيان فائدة الأهلَّة.

والجواب عن قولهم -عفا الله عنهم-: أنَّ قولهم هذا ليس له أصلٌ، فالصَّحابة إنَّما سألوا عن الحكمة من الأهلَّة، فأُجيبوا ببيانها.

مِن فوائدِ هذه الآيةِ:

[١] إثباتُ علم الله عَزَّ وَجَلَّ، وسَعة سمعِه.

[٢] أنَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يتركوا شيئًا يحتاج إليه النَّاس -إذا لم يُبيَّن لهم ابتداءً- إلَّا سألوا عنه، وبذلك كمُل الدِّينُ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

ب. (أَوْ حَادِثَةٌ وَقَعَتْ تَحْتَاجُ إِلَىٰ بَيَانٍ وَتَحْذِيرٍ، مِثْلُ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾[التوبة: ٦٥-٦٦] الآيَتَيْنِ، نَزَلَتَا فِي رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ؛ فَجَاءَ الرَّجُلُ يَعْتَذِرُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَيُجِيبُهُ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾[التَّوبة]).

في هذه القصَّة بيان أنَّ المُنافقين لا يألون جهدًا في القدح في الإسلام والمسلمين، لكنَّهم يختفون لجُبنهم، وعدم صراحتهم، وخيانتهم، وخداعهم، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾، يعني: نخوض في الحديث، ونلعب في الأفكار، ولسنا نقصد ذلك علىٰ وجه الجدِّ!

الأوصافُ الَّتي وصف المُنافق بها النَّبيَّ ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، وهم منها براءٌ:

- [١] «**أَرْغَبَ بُطُونًا**»: أي: ليس لهم همٌّ إلَّا بطونُهم.
- [٢] «**وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا**»: والكذب هو: الإخبار بخلاف الواقع.
- [٣] «**وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ**»: والجُبن هو: الشُّحُّ بالنَّفس، والبُخل هو: الشُّحُّ بالمال.

والمُنافقون هم أحقُّ النَّاس بهذه الأوصاف!

في هذه الآية دليلٌ علىٰ أنَّ المُستهزئ بالله وآياته ورسوله كافرٌ، حتَّىٰ وإن لم يقله علىٰ وجه الجدِّ؛ بل إنَّ كُفر المُستهزئ أشدُّ من كفر القائل علىٰ الجدِّ؛ لأنَّ المُستهزئ جمع بين الكفر والاستهزاء.

المُراد بقوله تعالى: ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾:

[١] **الجنسُ:** فتشمل الآية الواحدة، فمن استهزأ بآيةٍ واحدةٍ فقد كفر.

[٢] **الجمع:** فيكون من استهزأ بآيةٍ واحدةٍ داخلًا في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾[البقرة:٨٥]، فيكون كافرًا؛ لأنَّ من آمن ببعض القرآن وكفر ببعضه كان كافرًا بالجميع.

المُستهزئُ إمَّا أن يستهزئَ بـ:

الشَّرع: فهذا يكفر مُطلقًا، بلا تفصيلٍ.

مَن تلبَّس بالشَّرع (كمَن يُقصِّرُ ثوبَه مثلًا)، فهذا فيه تفصيلٌ:

[١] **يكفرُ:** إذا استهزأ به لأنَّه فعل ذلك؛ فهذا استهزاءٌ بما فعله من الشَّريعة.

[٢] **لا يكفرُ:** إذا استهزأ به لشخصه، لكنَّه علىٰ خطرٍ أن يلقي الشَّيطان في قلبه كراهية هذا الشَّخص لكونه تلبَّس بهذه الشَّريعة.

مسألتان مُهمَّتان في الاستهزاء:

[١] **من استهزأ بالله، ورسوله، وآياته، هل تُقبل توبتُه؟**
تُقبلُ توبتُه، والدَّليلُ: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦﴾[التَّوبة]، فالطَّائفة المَعفوُّ عنها هي التَّائبةُ.

[٢] **من سبَّ الرَّسول ﷺ بعد وفاته، هل تُقبلُ توبتُه؟**
تُقبلُ توبتُه؛ لكنَّه يُقتل أخذًا بالثَّأر للرَّسول ﷺ، فيُغسَّل، ويُصلَّىٰ عليه.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ج. (أَوْ فِعْلٌ وَاقِعٌ يُحْتَاجُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ حُكْمِهِ، مِثْلُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾...[المجادلة]).

سببُ نزولِ هذه الآية:

أنَّ رجلًا ظاهر من امرأته، فقال لها: (أنتِ عليَّ كظهر أمِّي)، وكانوا في الجاهليَّة يرون الظِّهار طلاقًا بائنًا، فلم تصبر المرأة، فجاءت تشتكي إلىٰ الرَّسول ﷺ، فأنزل الله هذه الآية في بيان حكمِها.

مِن فوائدِ هذه الآيةِ:

بيان إحاطة سمع الله عَزَّ وَجَلَّ بكلِّ شيءٍ، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي الْحُجْرَةِ**» أي: في طرف الحُجرة «**وَإِنَّ بَعْضَ حَدِيثِهَا لَيَخْفَىٰ عَلَيَّ، وَاللهُ -جَلَّ وَعَلَا- سَمِعَهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ**». أخرجه أحمد وبعض أصحاب «السُّنن».

بل إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يسمع السِّرَّ، والنَّجوىٰ، ويعلم ما توسوس به النَّفس وتتحدَّث به.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فَوَائِدُ مَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ:

مَعْرِفَةُ أَسْبَابِ النُّزُولِ مُهِمَّةٌ جِدًّا؛ لِأَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَىٰ فَوَائِدَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا:

١. بَيَانُ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُسْأَلُ عَنِ الشَّيْءِ، فَيَتَوَقَّفُ عَنِ الْجَوَابِ أَحْيَانًا حَتَّىٰ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، أَوْ يَخْفَىٰ الْأَمْرُ الْوَاقِعُ، فَيَنْزِلُ الْوَحْيُ مُبَيِّنًا لَهُ).

مِن فوائدِ معرفةِ أسبابِ النُّزول:

[١] (بَيَانُ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ).

[٢] (بَيَانُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَىٰ بِرَسُولِهِ ﷺ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ).

[٣] (بَيَانُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ فِي تَفْرِيجِ كُرُبَاتِهِمْ، وَإِزَالَةِ غُمُومِهِمْ).

[٤] (فَهْمُ الْآيَةِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الصَّحِيحِ).

الفائدة الأولى (بَيَانُ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنَ اللهِ تَعَالَى):

ووجه ذلك أنَّ القرآن لو كان من عند النَّبيِّ ﷺ لكان يجيب علىٰ كلِّ ما يرد عليه من دون توقُّفٍ وانتظارٍ، فلمَّا كان يتوقَّف وينتظر حتَّىٰ تنزل الآية دلَّ علىٰ أنَّ القرآن نزل من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِثَالُ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[الإسراء]، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ؛ مَا الرُّوحُ؟ فَسَكَتَ، وَفِي لَفْظٍ: فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾).

من الَّذين سألوا النَّبيَّ ﷺ عن الرُّوح؟

[١] **اليهود**: جاء هذا في حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المُتَّفق عليه.

[٢] **قُريشٌ**: جاء هذا في حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند أحمد وبعض أصحاب «السُّنن» بإسنادٍ صحيحٍ.

والقاعدة أنَّه: (يُمكن أن يكون للآية أكثر من سبب نزولٍ)، وعليه فلا تعارض بين هذين الحديثين.

فائدةٌ في جواب أهلِ البِدعِ:

في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾[الإسراء] تبكيتٌ للسَّائلين؛ كأنَّه يقول لهم: ما بقي عليكم إلَّا أن تعرفوا الرُّوح!

وبهذه الآية يمكن أن نجيب أهل البدع الَّذين يسألون عن كيفيَّة الصِّفات، أو عن كيفيَّة ما يقع من أمور الغيب.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَمِثَالُ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾[المنافقون:٨]، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُ ذٰلِكَ، يُرِيدُ أَنَّهُ الْأَعَزُّ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الْأَذَلُّ، فَأَخْبَرَ زَيْدٌ عَمَّهُ بِذٰلِكَ، فَأَخْبَرَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ زَيْدًا فَأَخْبَرَهُ بِمَا سَمِعَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَ زَيْدٍ فِي هٰذِهِ الْآيَةِ، فَاسْتَبَانَ الْأَمْرُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ).

ما قاله المُنافقون:

[١] ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: وكان المُنافقون أغنياء أعزَّاء بأنفسهم، وهم أذلَّةٌ، ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ للتَّعليل، أي: حتَّىٰ يتركوه ﷺ، فأجابهم الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾[المُنافقون].

[٢] ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾: والقائل هو عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلولٍ، ونُسب القولُ إلىٰ المُنافقين لأنَّه زعيمُهم.

مِن فوائد هذه القصَّة:

[١] عمُّ زيد بن أرقم صحابيٌّ، وكلُّهم عدولٌ، لكنَّ النَّبيَّ ﷺ أراد أن يتثبَّت في الأمر، حتَّىٰ يأتي الأمر علىٰ بصيرةٍ، فالحديث أصلٌ في: (**وجوب التَّثبُّت فيما يُنقل**).

[٢] لمَّا دعا النَّبيُّ ﷺ المُنافقين وسألهم حلفوا ما قالوا، وهكذا شأن المُنافقين يحلفون علىٰ الكذب وهم يعلمون؛ لأنَّ شعارهم الكذب، والمُخادعة، والنِّفاق.

[٣] قال تعالىٰ ردًّا علىٰ المُنافقين: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المُنافقون:٨]، ولم يقل: (رسول الله هو الأعزُّ)، أو: (الله هو الأعزُّ)، بل قدَّم الخبر ليفيد الحصر، فلا يكون للمُنافقين عزَّةٌ.

أنزل اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ:

[١] **في المُنافقين:**

[أ] **سورة المُنافقون.**

[أ] **عدَّة آيات من سورة براءة:** فكانت من أشدِّ السُّور عليهم؛ لأنَّها فضحتهم.

[٢] **في رجلٍ واحدٍ من الكفَّار:**

وهو أبو لهبٍ عمُّ النَّبيِّ ﷺ سورة المسد.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٢. (**بَيَانُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَىٰ بِرَسُولِهِ ﷺ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ، مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان]، **وَكَذَلِكَ آيَاتُ الْإِفْكِ، فَإِنَّهَا دِفَاعٌ عَنْ فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَطْهِيرٌ لَهُ عَمَّا دَنَّسَهُ بِهِ الْأَفَّاكُونَ**).

مسائل تتعلَّق بآية الفرقان:

[١] **سبب نزولها:** أنَّهم قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ كما أُنزلت التَّوراة والإنجيل، فردَّ عليهم الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، فلو نُزِّل جملةً واحدةً لم يحصل التَّثبيت، وهذا أمرٌ مُشاهدٌ، فمن وعظك موعظةً بليغةً ثمَّ لم يعظك بعدها لم يكن كمن وعظك موعظةً خفيفةً ثمَّ أعادها عليك مرَّةً ثانيةً وثالثةً...

[٢] **الوقف:** يحسُن الوقف علىٰ: ﴿جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ لأنَّ جملة ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ، فهي تعليلٌ لجملةٍ مَحذوفةٍ، والتَّقدير: (أَنْزَلْنَاهُ كَذَٰلِكَ).

[٣] **التَّرتيل:** قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ مثل قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾[المُزَّمِّل]، أي: اقرأه علىٰ مهلٍ، وليس معناه جوِّده، فالتَّجويد لا يجب، فإنَّه يجوز للإنسان أن يقرأ القرآن غير مُجوَّدٍ مادام أنَّه ينطق بحروفه وحركاته، وأمَّا تحسين الصَّوت فمشروعٌ؛ لحديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**». مُتَّفقٌ عليه.

قصَّة حادثة الإفك:

قصَّة الإفك مشهورةٌ في كتب التَّاريخ والسِّير، وفي كتب الصِّحاح والمسانيد، وفيها أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تخلَّفت عن الجيش في بعض الغزوات، ووجدها صفوان بن مُعطِّلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نائمةً، ثمَّ أناخ بعيره، ولم يتكلَّم لها بأيِّ كلمةٍ احترامًا لفراش النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنَّه وضع قدمه علىٰ ذراع البعير، ثمَّ ركبت أمُّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثمَّ ذهب يقودُها، ولم يجعلها بين يديه، بل كانت من خلفه، فلمَّا وصل إلىٰ القوم فرح المُنافقون بهذا، ورأوا ذلك فرصةً في الطَّعن برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتدنيس فراشه، وحاشاه من ذلك، ثمَّ حصل في ذلك ما حصل... فنزلت آيات الإفك العشرة المُحكَمات تطهيرًا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأمِّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عمَّا دنَّسهما به المُشركون، يقرأهنَّ المسلمون تقرُّبًا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

الحكمة من إنزال آيات الإفك:

بيان عناية الله عَزَّوَجَلَّ برسوله ﷺ، ونعم المُرسِل ونعم الرَّسول، ومن عنايته عَزَّوَجَلَّ رسوله ﷺ عنايتُه بفراشه أن يُدنَّس، فحصل بتبرئة أمِّ المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا طمأنينته ﷺ، وخذلان الخبثاء الَّذين انتقصوه.

وفيها بيان عناية الله عَزَّوَجَلَّ بعباده في تفريج كُرُباتهم، وإزالة غمومِهم، ولله الحمد والشُّكر.

جزاء من تكلَّم بالإفك:

نزل في عبد الله بن أبيٍّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾[النُّور]، وهذا في الآخرة، وأمَّا في الدُّنيا فلم يحُدَّه النَّبيُّ ﷺ مع أنَّه أقام الحدَّ علىٰ حسَّان بن ثابتٍ، ومِسطح بن أثاثَة، وحمنة بنت جحشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

لماذا لم يُقم النَّبيُّ ﷺ الحدَّ على عبدِ اللَّه بن أُبيٍّ؟

[١] اكتفاءً بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ولم يقل عَزَّوَجَلَّ: اجلدوه.

[٢] الحدُّ تطهيرٌ، وعبد الله بن أُبيٍّ خبيثٌ ليس أهلًا للتَّطهير.

[٣] أنَّه ﷺ يحبُّ التَّأليف، فلربُّما يحصل من قومه ما لا تُحمَدُ عُقباه لو أُقيم عليه الحدُّ.

[٤] أنَّ الخبيث عبد الله بن أُبيٍّ ماكرٌ مُخادعٌ، لم يُصرِّح بهذا الأمر، لكنَّه يجلس في المجالس يقول: ما سمعتم شيئًا؟ يشير بالحديث.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣. (بَيَانُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ فِي تَفْرِيجِ كُرُبَـاتِهِمْ، وَإِزَالَـةِ غُمُـومِهِمْ، مِثَـالُ ذَلِـكَ: آيَـةُ التَّيَمُّمِ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّهُ ضَاعَ عِقْدٌ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَهِـيَ مَـعَ النَّبِـيِّ ﷺ فِـي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ لِطَلَبِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ عَلَىٰ غَيْرِ مَاءٍ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَىٰ أَبِـي بَكْرٍ، فَذَكَرُوا الْحَدِيثَ، وَفِيـهِ: فَـأَنْزَلَ اللهُ آيَـةَ التَّـيَمُّمِ: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾، فَقَـالَ أُسَـيْدُ بْـنُ حُضَيْرٍ: مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، وَالْحَدِيثُ فِي «الْبُخَارِيِّ» مُطَوَّلًا).

سبب حبس النَّبيِّ ﷺ للجيش:

[١] لأنَّ العقد الَّذي ضاع مالٌ، والمال عندهم قليلٌ.

[٢] لأنَّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تتحلَّىٰ به للنَّبيِّ ﷺ أشرفِ الخلق، فهو عقدٌ ذو قيمةٍ.

[٣] أنَّ الرَّسول ﷺ مُربٍّ لأُمَّته بمَقالِه وفِعالِه، حتَّىٰ يعلموا ما للزَّوجات من حقوقٍ، وأنَّه تجب مُراعاتُهنَّ، وحتَّىٰ يعرفوا قدر المال، فلا يُضيِّعوه بلا فائدةٍ.

والعِقد هو ما تلبسه المرأة في عنقِها.

من أمثلة القاعدة العامَّة ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ [الشَّرح]:

[١] **آية التَّيمُّم:** لمَّا عجزوا عن الماء وعسُر عليهم أمرُهم فرَّج الله عنهم، وأنزل آية التَّيمُّم، قال أُسيد بن حُضيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ)، ومن بركاتِهم أيضًا: خلافة أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقتالُه أهل الرِّدَّة، وتوليته عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ...

[٢] قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ فلن يضيع الولدُ، بل لابدَّ أن يُيسِّر الله من يرضعُه، ﴿فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ۝٦﴾ [الطَّلاق].

التَّبرُّك هو: (طلبُ البركة)، ومنه:

[١] **ممنوعٌ:** ضابطُه أنَّه كلُّ ما لم يثبت فيه أمرٌ شرعيٌّ أو حسِّيٌّ، مثل: التَّمسُّح بحُجرة النَّبيِّ ﷺ.

[٢] **مشروعٌ:** وقد يكون بـ:

[أ] **أمرٍ شرعيٍّ:** كالصَّلاة في المسجد الحرام، وقراءة القرآن.

[ب] **أمرٍ حسِّيٍّ:** كالتَّبرُّك بدراسة كتب أهل السُّنَّة.

حكمُ قولِ: (هذا من بركة فُلانٍ):

[١] **وفلانٌ حيٌّ:** فهذا جائزٌ، نحو قولك: (هذا من بركاتك، أنَّك أصلحت بين القوم).

[٢] **وفلانٌ ميِّتٌ:** فله حالان:

[أ] **الشَّيء وقع في زمانِه، وكان سببًا له:** فهذا جائزٌ؛ كقولنا: (نزول آية التَّيمُّم من بركات عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا).

[ب] **الشَّيء وقع بعد موتِه:** فهذا حرامٌ، وقد يصل إلىٰ حدِّ الشِّرك الأكبر.

حكمُ مُصاحبةُ الرَّجلِ لالتماسِ البركةِ:

[١] **جائزٌ:** إذا كان في صُحبته حُصولُ الخير؛ لكونه يأمر بالمعروفِ، وينهىٰ عن المُنكرِ، ويُعلِّمُ الخيرَ.

[٢] **غير جائزٍ:** إذا قصدَ حُصولَ البركةِ بمُجرَّدِ الصُّحبةِ.

عن أبي واقدٍ اللَّيثيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللهِ مَكَّةَ خَرَجَ بِنَا مَعَهُ قِبَلَ هَوَازِنَ، حَتَّىٰ مَرَرْنَا عَلَىٰ سِدْرَةِ الْكُفَّارِ، سِدْرَةٍ يَعْكُفُونَ حَوْلَهَا وَيَدْعُونَهَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السَّنَنُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ:** ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾[**الأعراف**:١٣٨]»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُمْ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ**». أخرجه أحمدُ والتِّرمذيُّ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤. (فَهْمُ الْآيَةِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الصَّحِيحِ، مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، أَيْ: يَسْعَىٰ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أَنَّ غَايَةَ أَمْرِ السَّعْيِ بَيْنَهُمَا أَنْ يَكُونَ مِنْ قِسْمِ الْمُبَاحِ، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ قَالَ: كُنَّا نَرَىٰ أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، وَبِهٰذَا عُرِفَ أَنَّ نَفْيَ الْجُنَاحِ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ بَيَانَ أَصْلِ حُكْمِ السَّعْيِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ نَفْيُ تَحَرُّجِهِمْ؛ لِإِمْسَاكِهِمْ عَنْهُ حَيْثُ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، أَمَّا أَصْلُ حُكْمِ السَّعْيِ فَقَدْ تَبَيَّنَ بِقَوْلِهِ: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾).

ما يُفهمُ من هذه الآية:

[١] ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾: فيه كونُ السَّعي شعيرةً من شعائر الله، وتعظيمُ شعائر الله من تقوىٰ القلوب؛ فهو أمرٌ مَطلوبٌ.

[٢] ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾: فيه نفيُ التَّحرُّج الَّذي كان يصيبهم عند السَّعي لظنِّهم أنَّ السَّعي من أمر الجاهليَّة.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(عُمُومُ اللَّفْظ وَخُصُوصُ السَّبَب:

إِذَا نَزَلَتِ الْآيَةُ لِسَبَبٍ خَاصٍّ وَلَفْظُهَا عَامٌّ كَانَ حُكْمُهَا شَامِلًا لِسَبَبِهَا، وَلِكُلِّ مَا يَتَنَاوَلُهُ لَفْظُهَا؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ تَشْرِيعًا عَامًّا لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ، فَكَانَتِ الْعِبْرَةُ بِعُمُومِ لَفْظِهِ لَا بِخُصُوصِ سَبَبِهِ).

إذا ورد نصٌّ عامٌّ وكان السَّبب خاصًّا، هل يختصُّ الحكمُ بالسَّبب أم يعُمُّه وغيرَه؟

[١] الخصوص عينيٌّ:

لا يُخصَّص العُموم بالسَّبب؛ بل يُقالُ: **(العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب)**، وسيأتي مثال هذا في كلام المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[٢] الخصوص وصفيٌّ:

يُخصَّص به العموم؛ لأنَّ حقيقة الوصف أنَّه عامٌّ.

مثالُه حديث جابرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَرَأَىٰ زِحَامًا وَرَجُلًا قَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟»، فَقَالُوا: صَائِمٌ، فَقَالَ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ». مُتَّفقٌ عليه. فيتنزَّل عموم النَّصِّ علىٰ من كانت حالتُه كهذا الرَّجل الَّذي ذُكر، ووجه هذا الحمل أنَّه ﷺ ذكر النَّصَّ علىٰ حالٍ مَخصوصةٍ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مِثَالُ ذَلِكَ: آيَاتُ اللِّعَانِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩﴾ [النُّور]، فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، فَقَرَأَ حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩﴾، الْحَدِيثَ.

فَهَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ بِسَبَبِ قَذْفِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ لِامْرَأَتِهِ، لَكِنَّ حُكْمَهَا شَامِلٌ لَهُ وَلِغَيْرِهِ، بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عُوَيْمِرَ الْعَجْلَانِيَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ رَجُلٌ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ؟ أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ»، فَأَمَرَهُمَا ﷺ بِالْمُلَاعَنَةِ بِمَا سَمَّى اللهُ فِي كِتَابِهِ، فَلَاعَنَهَا، الْحَدِيثَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ حُكْمَ هَذِهِ الْآيَاتِ شَامِلًا لِهِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ وَغَيْرِهِ).

اللِّعان:

[١] **سببُه:** أن يقذف الرَّجل زوجتَه بالزِّنا.

[٢] **سببُ التَّسميةِ:** أنَّ الرَّجل يقول فيه: (وأنَّ لعنة الله عليَّ...)، ولم يُسمَّ غضبًا؛ لأنَّ اللِّعان يُبتدأ به أوَّلًا.

الصَّحابيُّ غير معصومٍ، قد تقع منه الكبيرة، لكنَّها مُكفَّرةٌ عنه؛ لأنَّه:

[١] قد تاب منها.

[٢] أتى بحسناتٍ تمحوها.

[٣] غُفرت له بفضل سابقتِه.

[٤] غُفرت له بشفاعة محمَّدٍ ﷺ، والصَّحابة أحقُّ النَّاس بشفاعته ﷺ.

[٥] ابتُلي ببلاءٍ في الدُّنيا كُفِّر به عنه.

وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ لأهل بدرٍ: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**». مُتَّفقٌ عليه.

من فوائد قصَّة هلال بن أميَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

[١] (**الْبَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**): (البيِّنَةَ) بالنَّصب أي: أقم البيِّنَةَ، أو بالضَّمِّ أي: عليك البيِّنةُ.

[٢] (**إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ**): جملةٌ مُؤكَّدةٌ بـ: القسم، واللَّام، والنُّون، وفيها الثِّقة بالله، وحسنُ الظَّنِّ به.

[٣] (﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ...﴾): فيها التَّفريق بين رمي الرَّجل لزوجته ورميه لغيرها:

[أ] **في الزَّوجة:** إن لم يُقِم البيِّنة ولم تُقرَّ المرأة فإنَّهما يُلاعنان، فإن لاعنا لم يُحدَّا، ووجب التَّفريق بينهما، وحُرِّمت عليه تحريمًا مُؤبَّدًا.

[أ] **في غير الزَّوجة:** إن لم يُقِم البيِّنة ولم تُقرَّ المرأة فإنَّه يُحدُّ حدَّ القذف.

حكمُ مَن وجد رجلاً يزني بامرأتِه فقتله :

[١] **إذا أقام البيِّنة :** فإنَّه لا يُقتل؛ لأنَّه لمَّا نزل قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ [النُّور:٤] قال سعد بن عبادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ وَاللهِ إِنِّي لَأَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي». مُتَّفقٌ عليه. فأقرَّه النَّبيُّ ﷺ.

[٢] **إذا لم يقم البيِّنة :** وهذا هو الغالب، إذ يبعد أن يزني بها أمام النَّاس، وإنَّما في خفاءٍ، ويبعد أن يذهب الزَّوجُ بعد أن رأىٰ ذلك يتطلَّب الشُّهود، فقيل: يُقتل به، وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (يجب النَّظر إلىٰ حال الرَّجل إن كان من أهل الخير والصَّلاح، وصاحبُه المقتول من أهل الشَّرِّ والفساد = فيُقبل قولُه، وإلَّا فلا يُقبل)، وهذا هو الرَّاجح؛ لما فيه من إعمال القرائن، ولهذا أمثلةٌ في الشَّرع.

مَنزلةُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم:

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ في «الواسطيَّة»: (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر]، وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهُ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**». وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ «الْكِتَابُ» وَ«السُّنَّةُ» وَ«الإِجْمَاعُ» مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ -وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ- وَقَاتَلَ عَلَىٰ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَىٰ الأَنْصَارِ.

وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ -وَكَانُوا ثَلاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ-: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**». وَبِأَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَة، وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ كَالْعَشَرَةِ، وَكَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِم مِنَ الصَّحَابَةِ).

وفصَّلَ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أصول أهل السُّنة والجماعة في «مجموع الفتاوى» بقوله:

۞ سلامةُ قلوبِهم وألسنتِهم لأصحابِ رسول اللهِ ﷺ؛ كما وصَفَهم الله به في قولِه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر]، وطاعةً للنَّبيِّ ﷺ في قولِه: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**».

۞ وأنَّهم يَقْبلون ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ والإجْماعُ مِن فضائلِهم ومَراتبِهم.

۞ وأنَّهم يُمْسِكون عمَّا شجر بيْن الصَّحابة، ويقولون: إنَّ هذه الآثارَ المرويَّةَ في مساويهم منها ما هو كذبٌ، ومنها ما قد زِيدَ فيه ونُقِصَ، وغُيِّرَ عن وجهِه الصَّريح، والصَّحيحُ منه هم فيه مَعْذورون؛ إمَّا مُجْتهدون مُصِيبون، وإمَّا مُجتهدون مُخْطِئون.

۞ وأنَّهم مع ذلك لا يعتقدون أنَّ كلَّ واحدٍ من الصَّحابة معصومٌ عن كبائر الإثم وصغائره، بل تَجُوز عليهم الذُّنوب في الْجُملة.

۞ وأنَّ لهم من السَّوابق والفضائلِ ما يوجب مَغفرةَ ما يَصْدر منهم إنْ صدَر، حتَّىٰ إنَّه يُغفَرُ لَهم من السَّيِّئات ما لا يُغفَر لِمَن بعدهم؛ لأنَّ لَهم من الحسنات الَّتي تَمْحو السَّيِّئات ما ليس لِمَن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنَّهم: «**خَيْرُ الْقُرُونِ**»، وأنَّ الْمُدَّ من أحدهم إذا تصدَّق به كان أفضل من جبل أُحُدٍ ذهبًا مِمَّن بعدهم.

ثمَّ إذا كان قد صدر عن أحدهم ذنْبٌ فيكون قد تاب منه، أو أتىٰ بِحَسناتٍ تَمْحوه، أو غُفِرَ له بفضل سابقتِه، أو بشفاعة مُحمَّدٍ ﷺ الَّذي هم أحَقُّ النَّاس بشفاعتِه، أو ابْتُلِي ببلاءٍ في الدُّنيا كُفِّرَ به عنه.

فإذا كان هذا في الذُّنوب المُحقَّقة، فكيف بالأمورِ الَّتي كانوا فيها مُجْتهدين: إن أصابوا فلهم أجْران، وإن أخطؤوا فلهم أجْرٌ واحد، والْخَطأ مغفورٌ لَهم؟!

۞ وأنَّ القَدْرَ الَّذي يُنْكَرُ مِن فعْلِ بعضِهم قليلٌ نزْرٌ، مغمورٌ في جنب فضائل القوم ومَحاسنهم؛ من الإيمان بالله ورسولِه، والجهاد في سبيلِه، والْهِجرة، والنُّصرة، والعلم النَّافع، والعمَل الصَّالِح.

۞ وأنَّ مَن نظر في سيرة القوم بعِلْمٍ وبصيرةٍ، وما منَّ الله به عليهم من الفضائل؛ عَلِم يقينًا أنَّهم خيْرُ الْخَلق بعد الأنبياءِ، لا كان ولا يكونُ مثْلُهم، وأنَّهم هم صفوة الصَّفوة من قرون هذه الأُمَّة الَّتي هي خيرُ الأمم، وأكرَمُها علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

مُلخَّصٌ لبَعض أسبابِ النُّزول:

السُّورَةُ أو الآيةُ:	سببُ نُزولِها:
سورةُ الأنفال	نزَلَت في غَزوَةِ بَدرٍ وما تلاها مِن قَسم الغَنائِم ومُعاملَةِ الأسرىٰ.
سورةُ براءَةَ	نزَلَت في غَزوَةِ تَبوكَ، وما فعَلَه المُنافِقونَ والمُشركونَ، وما حصَلَ للثَّلاثَةِ المُخَلَّفينَ، وأولئِكَ الَّذين لم يجِدوا ما يُحمَلُون عليه.
سورةُ الأحزابِ	نزَلَت في غزوَةِ الخَندَقِ، وما أصابَ المُؤمنينَ مِن البَلاءِ والشِّدَّةِ.
سورةُ الفَتحِ	نزَلَت في صُلحُ الحَديبيَةِ، ومُبايَعةِ ١٤٠٠ مِن الصَّحابَةِ للنَّبيِّ ﷺ تحت الشَّجرَةِ بيعَةَ الرِّضوانِ.
سورةُ المُجادلةِ	نزَلَت في خَولَةَ بنتِ ثعلبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الَّتي ظاهَرَ مِنها زَوجُها أوسُ بنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
سورةُ الحَشرِ	نزَلَت في يَهودِ بني النَّضيرِ، الَّذين كادوا بالنَّبيِّ ﷺ بعد أن عاهَدهم، فأجلاهم ﷺ مِن دِيارِهم، وأخرَجَهم من المدينَةِ.
سورةُ الجِنِّ	نزَلَت في طائفَةٍ مِن الجنِّ خرجوا يبحَثون عن السَّبَبِ الَّذي مِن أجلِه حيلَ بينهم وبين خبَرِ السَّماءِ، فلمَّا سمِعوا قِراءَةَ النَّبيِّ ﷺ للقرآنِ في الصَّلاةِ آمنوا، ورجَعوا إلىٰ قومِهم يَدعونَهم.
سورَةُ الضُّحىٰ	«اشْتَكَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرُبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[الضُّحىٰ]» متَّفقٌ عليه.
سورةُ الإخلاصِ	رُوِيَ أنَّها نزَلَت جَوابًا لقُريشٍ لمَّا سألوا النَّبيَّ ﷺ وقالوا: «انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ».
آيةُ الظِّهارِ	نزَلَت في أَوس بن الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما تقدَّمَ.
آيةُ التَّيممُ	نزَلَت في فَقدِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عِقدَها في غَزوَةِ بَني المُصطَلِقِ، وما تَلا ذلِكَ مِن تَشريع التَّيمُّم لفاقِدِ الماءِ.

سادسًا: المكِّيُّ والمدنيُّ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ مُفَرَّقًا فِي خِلَالِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، قَضَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَكْثَرَهَا بِمَكَّةَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء].

وَلِذَلِكَ قَسَّمَ الْعُلَمَاءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- الْقُرْآنَ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ: مَكِّيٍّ وَمَدَنِيٍّ:

فَالْمَكِّيُّ: مَا نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ هِجْرَتِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

وَالْمَدَنِيُّ: مَا نَزَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ هِجْرَتِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

وَعَلَىٰ هَذَا فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، مِنَ الْقِسْمِ الْمَدَنِيِّ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ نَزَلَتْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِعَرَفَةَ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، نَزَلَتْ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ).

نزول القرآن الكريم:

- [١] بدأ نزوله وسنُّه ﷺ ٤٠ سنةً.
- [٢] لبث ﷺ ١٣ سنةً في مكَّة.
- [٣] لبث ﷺ ١٠ سنين في المدينة.
- [٤] توفِّي ﷺ وانقطع الوحي وسنُّه ٦٣ سنةً.

من معاني آية الإسراء:

- [١] ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾: جعلناه مُفرَّقًا.
- [٢] ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: علىٰ مهل، يقرؤونه شيئًا فشيئًا علىٰ التَّدريج؛ فيرسخ في قلوبهم ويعملون به.
- [٣] ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾: نزَّلناه شيئًا فشيئًا.

لماذا قسَّموا القرآن إلى مكِّيٍّ ومدنيٍّ فقط مع أنَّ منه ما نزل بغيرهما؟

إنَّما اقتصروا علىٰ القسمين رفعًا للمشقَّة، فكثيرٌ من الآيات نزلت في أسفاره ﷺ، ويصعب استقصاؤها كلِّها، فقسَّموه باعتبار الزَّمان لا باعتبار المكان، فالمكِّيُّ ما نزل قبل الهجرة ولو بغير مكَّة، والمدنيُّ ما نزل بعد الهجرة ولو بمكَّة.

ومثَّل رَحِمَهُ ٱللَّهُ للمدنيِّ الَّذي نزل بمكَّة بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣]، وذكر قول عمر في «صحيح البخاريِّ»: (نَزَلَتْ وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ)، وذلك في حجَّة الوداع.

من معاني آية المائدة:

[١] (ٱلۡيَوۡمَ): (أل) للعهد الحضوريِّ، أي: اليوم الَّذي تكلَّم فيه ﷺ.

[٢] (أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ): جعلتُه كاملًا.

[٣] (وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي): بإكمال الدِّين.

[٤] (وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا): فلا يرضىٰ من عباده غيرَه من الأديان.

سببُ قول عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ لليهوديِّ: (عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ):

[١] **بيانُ شرف المكان الَّذي نزلت فيه**: وهو عرفةُ، وعرفةُ هي المَشعرُ الحلالُ.

[٢] **بيانُ شرف الزَّمان الَّذي نزلت فيه**: من وجهين:

[أ] **يومُ عرفةَ**: يومُ عيد الحُجَّاج، وهو عيدٌ سنويٌّ.

[ب] **يومُ الجمعةِ**: وهو عيدُ المسلمين الأسبوعيُّ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَيَتَمَيَّزُ الْقِسْمُ الْمَكِّيُّ عَنِ الْمَدَنِيِّ مِنْ حَيْثُ الْأُسْلُوبُ وَالْمَوْضُوعُ:

أ. أَمَّا مِنْ حَيْثُ الْأُسْلُوبُ فَهُوَ:

١. الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ قُوَّةُ الْأُسْلُوبِ، وَشِدَّةُ الْخِطَابِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ الْمُخَاطَبِينَ مُعْرِضُونَ مُسْتَكْبِرُونَ، وَلَا يَلِيقُ بِهِمْ إِلَّا ذَلِكَ، اقْرَأْ سُورَتَي الْمُدَّثِرِ وَالْقَمَرِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِي أُسْلُوبِهِ اللِّينُ وَسُهُولَةُ الْخِطَابِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ الْمُخَاطَبِينَ مُقْبِلُونَ مُنْقَادُونَ، اقْرَأْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ.

٢. الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ قِصَرُ الْآيَاتِ، وَقُوَّةُ الْمُحَاجَّةِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ الْمُخَاطَبِينَ مُعَانِدُونَ مُشَاقُّونَ، فَخُوطِبُوا بِمَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُمْ، اقْرَأْ سُورَةَ الطُّورِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِيهِ طُولُ الْآيَاتِ، وَذِكْرُ الْأَحْكَامِ مُرْسَلَةً بِدُونِ مُحَاجَّةٍ؛ لِأَنَّ حَالَهُمْ تَقْتَضِي ذَلِكَ، اقْرَأْ آيَةَ الدَّيْنِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ).

الفرق بين المكيِّ والمدنيِّ من وجهين:

[١] الأسلوب:

[أ] الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ قُوَّةُ الْأُسْلُوبِ، وَشِدَّةُ الْخِطَابِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِي أُسْلُوبِهِ اللِّينُ وَسُهُولَةُ الْخِطَابِ.

[ب] الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ قِصَرُ الْآيَاتِ، وَقُوَّةُ الْمُحَاجَّةِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِيهِ طُولُ الْآيَاتِ، وَذِكْرُ الْأَحْكَامِ مُرْسَلَةً بِدُونِ مُحَاجَّةٍ.

[٢] الموضوع:

[أ] الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ وَالْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِيهِ تَفْصِيلُ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ.

[ب] الغالبُ على المدنيِّ الْإِفَاضَةُ فِي ذِكْرِ الْجِهَادِ وَالْمُنَافِقِينَ، بخلاف المكِّيِّ.

مثَّل المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لشدَّة الأسلوب المكِّيِّ بـ:

[١] **سورة المُدَّثِّر:** قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾ ما العقوبةُ؟ ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾[المُدَّثِّر]، هذا كلامٌ عظيمٌ جدًّا، قويٌّ في التَّهديد والإنذار.

[٢] **سورة القمر:** قال تعالىٰ: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾، فصارت الأرضُ كلُّها عيونًا تنبع، وقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ إلىٰ قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ٤٢ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ٤٣ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤﴾، والجواب عن سؤالهم: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ٤٦ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾[القمر].

ومن الأمثلة كذلك:

[٣] **سورة الواقعة:** قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٥٩ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦١ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ [الواقعة].

[٤] **سورة الطُّور:** قال جبير بن مُطعمٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٣٨﴾[الطُّور] كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ! أخرجه ابن ماجه.

ومثَّل رَحِمَهُ اللَّهُ للين الأسلوب المدنيِّ بآية الدَّين:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ ...﴾[البقرة]، والآية طويلةٌ وسهلةٌ، وليس فيها إلَّا أحكامٌ وتوجيهٌ؛ لأنَّ القوم مُنقادون مُستسلمون، لا يُناظرون ولا يُجادلون.

قاعدةٌ:

الأصل أنَّ السُّور المكِّيَّة كلُّها مكِّيَّةٌ، وأنَّ السُّور المدنيَّة كلُّها مدنيَّةٌ، ولا يُصدَّق كون آيةٍ من السُّورة مُستناةً إلَّا إذا ثبت ذلك بسندٍ صحيحٍ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ب. (وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ الْمَوْضُوعُ، فَهُوَ:

١. الْغَالِبُ فِي الْمَكِّيِّ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ وَالْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ، خُصُوصًا مَا يَتَعَلَّقُ بِتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَالْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ الْمُخَاطَبِينَ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، أَمَّا الْمَدَنِيُّ فَالْغَالِبُ فِيهِ تَفْصِيلُ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ؛ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ قَدْ تَقَرَّرَ فِي نُفُوسِهِمُ التَّوْحِيدُ وَالْعَقِيدَةُ السَّلِيمَةُ، فَهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ تَفْصِيلِ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ.

٢. الْإِفَاضَةُ فِي ذِكْرِ الْجِهَادِ وَأَحْكَامِهِ، وَالْمُنَافِقِينَ وَأَحْوَالِهِمْ فِي الْقِسْمِ الْمَدَنِيِّ؛ لِاقْتِضَاءِ الْحَالِ ذَلِكَ، حَيْثُ شُرِعَ الْجِهَادُ، وَظَهَرَ النِّفَاقُ، بِخِلَافِ الْقِسْمِ الْمَكِّيِّ).

ممَّا كثُر إنكاره من الكفَّار قبل الهجرة:

[١] **توحيدُ الألوهيَّة:** ومن ذلك ما حكاه الله عَزَّوَجَلَّ عنهم بقوله: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾[ص].

[٢] **البعث:** ومن ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ ﴾[المؤمنون].

ومن هذا ما رواه سعيد بن منصورٍ وغيره عن غزوان الغفاريِّ قال: جَآءَ أُبيُّ بن خلفٍ بِعظمِ نخرةٍ فَجعل يفُتُّه بَين يَدي النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: من يحيي الْعِظَام وَهِي رَمِيمٌ؟ فَأنْزلَ اللهُ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾[يس].

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في الآيات الأواخر من سورة يس ستَّة أدلَّةٍ علىٰ البعث:

[١] (يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ): لأنَّ القادر علىٰ ابتدائها قادرٌ علىٰ إعادتها، بل إعادتُها أهون عليه.

[٢] (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا): فجعل من رطوبة الأخضر وبرودته حرارةً ويبوسةً.

[٣] (وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ).

[٤] (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ).

[٥] (فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ): والَّذي بيده ملكوت كلِّ شيءٍ مُنزَّهٌ عن العجز.

[٦] (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ): فلو لم نرجع إلىٰ الله ليحاسبنا علىٰ أعمالنا لكان ذلك مُنافيًا للحكمة.

ومن أدلَّة قدرة اللَّه عَزَّوَجَلَّ على البعث الحسُّ:

[١] قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ بأشجارها وزرعها ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: علَتْ، قيل: إنَّ عُلُوَّها هو قشرة الأرض يدفعها النَّبات، وقيل: إنَّ عُلُوَّها عُلُوُّ النَّبات، ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾[الحجّ].

[٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾[فُصِّلت].

من خصائص السُّور المدنيَّة الإفاضة في ذكر:

[١] **الجهادِ والتَّرغيبِ فيه وبيان أحكامِه:** ولم يكن المسلمون في حاجةٍ إلىٰ ذلك قبل الهجرة؛ لأنَّهم لم يُؤمروا بالجهاد، ولم يكونوا يستطيعونه.

[٢] **المُنافقين:** ولا تكاد تجد في السُّور المكِّيَّة ذكرًا للمُنافقين؛ لأنَّهم إنَّما ظهروا بعد غزوة بدرٍ لمَّا قويت شوكة المؤمنين، لكن ورد في سورة العنكبوت -وهي مكِّيَّةٌ- قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۝١١﴾[العنكبوت].

علاماتٌ يعرف بها المكيُّ والمدنيُّ

[١] كلُّ سورَةٍ في أوَّلها حروفٌ مُقطعَّةٌ فهي مكِّيَّةٌ إلَّا البقرةُ وآلُ عِمرانَ.
[٢] كلُّ سورَةٍ فيها (كلَّا) فهي مكِّيَّةٌ إلَّا التَّكاثُر.
[٣] كلُّ سورَةٍ فيها سَجدةُ تِلاوَةٍ فهي مكِّيَّةٌ.
[٤] كلُّ سورَةٍ مَبدوءَةٍ بقَسَم فهي مكِّيَّةٌ.
[٥] كلُّ سورَةٍ مُفتَتَحَةٍ بالحَمدِ فهي مكِّيَّةٌ.
[٦] كلُّ سورَةٍ فيها قصَصُ الأنبياءِ مُفصَّلةً فهي مكِّيَّةٌ إلَّا البقرَة.
[٧] كلُّ سورَةٍ فيها (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) وليس فيها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) فهي مكِّيَّةٌ.
[٨] كلُّ سورَةٍ فيها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وليس فيها (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) فهي مدَنِيَّةٌ.

[٩] كلُّ سورَةٍ فيها ذِكرُ المُنافقين فهى مدنِيَّةٌ إلَّا سورةَ العَنكبوتُ ففيها خِلافٌ.	
[١٠] كلُّ سورَةٍ فيها حَدٌّ أو بيانُ فريضَةٍ فهى مدنِيَّةٌ.	

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فَوائِدُ مَعْرِفَةِ الْمَدَنِيِّ والْمَكِّيِّ:

مَعْرِفَةُ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ عُلُومِ الْقُرْآنِ الْمُهِمَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ فِيهَا فَوَائِدَ مِنْهَا:

١. ظُهُورُ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي أَعْلَىٰ مَرَاتِبِهَا، حَيْثُ يُخَاطَبُ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُمْ مِنْ: قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، أَوْ لِينٍ وَسُهُولَةٍ

٢. ظُهُورُ حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ فِي أَسْمَىٰ غَايَاتِهِ، حَيْثُ يَتَدَرَّجُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِحَسَبِ الْأَهَمِّ، عَلَىٰ مَا تَقْتَضِيهِ حَالُ الْمُخَاطَبِينَ، وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِلْقَبُولِ وَالتَّنْفِيذِ.

٣. تَرْبِيَةُ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَوْجِيهُهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَتَّبِعُوا مَا سَلَكَهُ الْقُرْآنُ فِي الْأُسْلُوبِ وَالْمَوْضُوعِ، مِنْ حَيْثُ الْمُخَاطَبِينَ، بِحَيْثُ يَبْدَأُ بِالْأَهَمِّ فَالْمُهِمِّ، وَتُسْتَعْمَلُ الشِّدَّةُ فِي مَوْضِعِهَا، وَالسُّهُولَةُ فِي مَوْضِعِهَا.

٤. تَمْيِيزُ النَّاسِخِ مِنَ الْمَنْسُوخِ، فِيمَا لَوْ وَرَدَتْ آيَتَانِ مَكِّيَّةٌ وَمَدَنِيَّةٌ، يَتَحَقَّقُ فِيهِمَا شُرُوطُ النَّسْخِ، فَإِنَّ الْمَدَنِيَّةَ نَاسِخَةٌ لِلْمَكِّيَّةِ؛ لِتَأَخُّرِ الْمَدَنِيَّةِ عَنْهَا).

فوائد معرفة المكِّي والمدني:

- [١] (ظُهُورُ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ).
- [٢] (ظُهُورُ حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ).
- [٣] (تَرْبِيَةُ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَوْجِيهُهُمْ).
- [٤] (تَمْيِيزُ النَّاسِخِ مِنَ الْمَنْسُوخِ).

الفائدةُ الأولى:	ويتفرَّعُ عنها:
أن نعرفَ أنَّ القرآنَ أبلغُ ما يكونُ في الكلام؛ لأنَّه يخاطبُ كلَّ قومٍ بما تقتضيه حالُهم. ⇦	أن نسلُكَ مَسلكَ القرآنِ، فنُخاطبَ كلَّ قومٍ بما تقتضيه حالُهم؛ فلا يستوي الجاهلُ جهلًا بسيطًا والعالمُ المُعاندُ.

الفائدةُ الثَّانية:

أن نعرفَ حكمة التَّشريع، حيث أتىٰ شيئًا فشيئًا لئلَّا يصعُب علىٰ النَّاس، فلم يُفرض الصَّوم والزَّكاة ونحوها في مكَّة، وإنَّما فُرضت وبُيِّنت في الآيات المدنيَّة.

ويتفرَّعُ عنها:

أن نسلُكَ مَسلكَ القرآنِ، فإذا رأينا شخصًا عنده مُنكراتٌ كثيرةٌ نبدأ في نصيحتِهِ بالأهمِّ فالمُهمِّ، وكذا في الأوامر نعطيه شيئًا فشيئًا حتَّىٰ يلين، ونبدأ بالمُتَّفق عليه الَّذي لا يكون فيه مُعارضةٌ؛ ليقبل منَّا.

الفائدة الثَّالثة:

تربية الدُّعاة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فالإنسان الَّذي آتاه الله الحكمة يعرف كيف يتصرَّف، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة:٢٦٩].

فينبغي للدَّاعي إلىٰ الله أن يبدأ بالأهمِّ فالمهمِّ، وأن يستعمل:

[١] السُّهولة في موضعها:

مثاله: جاء أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَهْ مَهْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ**»، فَتَرَكُوهُ حَتَّىٰ بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**». أخرجه مسلمٌ بتمامه.

وقال الأعرابيُّ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا! أخرجه البخاريُّ.

[٢] الشِّدَّة في موضعها:

مثاله: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَىٰ الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، فقَالَ ﷺ: «**فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرُ يُهْدَىٰ لَهُ أَمْ لَا؟**». مُتَّفقٌ عليه.

وكذلك: رَأَىٰ ﷺ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ وَقَالَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ!**». أخرجه مسلمٌ.

من المفاسد الَّتي قد تترتَّب على قيام الرَّجل من بوله قبل تمامه:

[١] لو قام فإمَّا أن يكون كاشفًا عورته، وإمَّا أن يغطِّيها فيصيب ثوبَه البول.

[٢] إذا قطع بوله كان ضررٌ علىٰ قنوات البول.

[٣] لو قام فلربَّما تساقطت نقطٌ من البول فتتَّسع رقعة النَّجاسة.

الفائدة الرَّابعة:

فإذا وجدنا آيتين مُتعارضتين، ولم يمكن الجمع بينهما؛ فإنَّنا نعمل بالنَّسخ، والآيات المدنيَّة ناسخةٌ للآيات المكِّيَّة؛ لأنَّها مُتأخِّرةٌ عنها.

والنَّسخ ثابتٌ في كلِّ الشَّرائع.

ومن أهمِّ شروط إثباته: معرفة المُتأخِّر من النَّصَّين، ولهذا فإنَّ عدد المواضع الَّتي يثبت فيها النَّسخ حقيقةً لا يبلغ أكثر من عشرةٍ كما ذكره ابن القيِّم في «إعلام الموقِّعين».

ولا يجوز ادِّعاء النَّسخ بمجرَّد العجز عن الجمع؛ لأنَّه من الكذب علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

النَّسخ:

[١] **لغةً:** الإزالة والنَّقل.

[٢] **اصطلاحًا:** (رفْع حكم دليلٍ شرعيٍّ أو لفظِه بدليلٍ من الكتاب والسُّنَّة):

خرَجَ بقولِنا: (رفْع حكم) تغييره من إيجابٍ إلىٰ إباحةٍ، أو من إباحةٍ إلىٰ تحريمٍ مثلًا، فخرج بذلك تخلُّف الحكم لفوات شرطٍ أو وجود مانعٍ؛ كأن يرتفع وجوب الزَّكاة لنقص النِّصاب؛ فلا يُسمَّىٰ ذلك نسخًا.

خرَجَ بقولِنا: (أو لفظه) لفظ الدَّليل الشَّرعيِّ؛ لأنَّ النَّسخ إمَّا أن يكون للحكم دون اللَّفظ، أو بالعكس، أو لهما جميعًا؛ كما سيأتي.

وخرَجَ بقولنا: (بدليلٍ من الكتاب والسُّنَّة) غيرهما من الأدلَّة فلا يُنسخ به.

النَّسخ جائزٌ عقلاً:

[١] لأنَّ الله بيده الأمر، وله الحكم؛ لأنَّه الرَّبُّ المالك، فله أن يُشرِّع لعباده ما تقتضيه حكمته ورحمته، وهل يمنع العقل أن يأمر المالكُ مَملوكَه بما أراد؟

[٢] ولأنَّ مُقتَضىٰ حِكمة الله ورحمته بعباده أن يشرِّع لهم ما يعلم تعالىٰ أنَّ فيه قيام مَصالح دينهم ودنياهم، والمَصالح تختلف بحسب الأحوال والأزمان، فقد يكون الحُكم في وقتٍ أو حالٍ أصلح للعباد، ويكون غيرُه في وقتٍ أو حالٍ أخرىٰ أصلح، والله عليمٌ حكيمٌ.

والنَّسخ واقعٌ شرعًا، ومن أدلَّته:

[١] قوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦].

[٢] قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾[الأنفال:٦٦]، وقوله: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾[البقرة:١٨٧]؛ فإنَّ هذا نصٌّ في تغيير الحكم السَّابق.

[٣] قوله ﷺ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا**». أخرجه مسلمٌ. فهٰذا نصٌّ في نسخ النَّهي عن زيارة القبور.

من حِكم النَّسخ:

[١] مُراعاة مَصالح العباد بتشريع ما هو أنفع لهم في دينهم ودنياهم.

[٢] التَّطوُّر في التَّشريع حتَّىٰ يبلغ الكمال.

[٣] اختبار المُكلَّفين باستعدادهم لقبول التَّحوُّل من حُكم إلىٰ آخر ورِضاهم بذلك.

[٤] اختبار المُكلَّفين بقيامهم: بوظيفة الشُّكر إذا كان النَّسخ إلىٰ أخفَّ، ووظيفة الصَّبر إذا كان النَّسخ إلىٰ أثقل.

شروطُ النَّسخ:

[١] تعذُّرُ الجمع بين الدَّليلين:

فإن أمكن الجمع فلا نسخ لإمكان العمل بكلٍّ منهما.

[٢] العلمُ بتأخُّر النَّاسخ:

[أ] **إمَّا بالنَّصِّ:** كقوله ﷺ: «**كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**». أخرجه مسلمٌ.

[ب] **أو بخبر الصَّحابيِّ:** كقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ**». أخرجه مسلمٌ.

[ج] **أو بالتَّاريخ:** مثل: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال:٦٦] الآية؛ و﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ يدلُّ علىٰ تأخُّر هذا الحكم، وكذا لو ذُكر أنَّ النَّبيَّ ﷺ حكم بشيءٍ قبل الهجرة، ثمَّ حكم بعدها بما يُخالفه، فالثَّاني ناسخٌ، ولا توجَدُ آيَةٌ مكِّيَّةٌ تنسَخُ آية مدنيَّةً.

[٣] ثبوتُ النَّاسخ:

[أ] اشترط الجمهور: أن يكون أقوىٰ من المَنسوخ أو مُماثلًا له؛ فلا يُنسخ المُتواتر عندهم بالآحاد وإن كان ثابتًا.

[ب] والأرجح أنَّه لا يُشترط أن يكون النَّاسخ أقوىٰ أو مُماثلًا؛ لأنَّ محلَّ النَّسخ الحُكم، ولا يُشترط في ثبوته التَّواتر.

ينقسم النَّسخ إلى أقسامٍ باعتبارات:

[١] باعتبارِ النَّصِّ المَنسوخِ.

[٢] باعتبارِ النَّاسخِ.

[٣] باعتبار خفَّةِ الحُكم.

النَّسخ باعتبار النَّصِّ المَنسوخ ثلاثة أقسامٍ:

[١] **ما نُسخ حكمُه وبقي لفظُه:** وهو كثيرٌ في القرآن، مثاله: آيتا المُصابرة، وهما قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ﴾[الأنفال:٦٥]، نُسخ حكمُها بـ: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ...﴾[الأنفال:٦٦].

الحكمةُ: بقاء ثواب التِّلاوة، وتذكير الأمَّة بحِكمة النِّسخ.

[٢] **ما نُسخ لفظُه وبقي حكمُه:** كآية الرَّجم، فقد ثبت في «الصَّحيحين» من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كَانَ فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، وَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَىٰ إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: وَاللهِ مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللهِ...**».

الحكمةُ: اختبار الأمَّة في العمل بما لا يجدون لفظَه في القرآن، عكس اليهود الَّذين كتموا نصَّ الرَّجم في التَّوراة.

[٣] **ما نُسخ حكمُه ولفظُه:** كنسخ حكم الرَّضعات العشر السَّابق في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

النَّسخ باعتبار النَّاسخ أربعة أقسامٍ:

[١] **نسخ القرآن بالقرآن:** ومثاله آيتا المُصابرة.

[٢] **نسخ القرآن بالسُّنَّة:** ولم نجد له مثالًا سليمًا.

[٣] **نسخ السُّنَّة بالقرآن:** ومثاله: نسخ استقبال بيت المَقدس الثَّابت بالسُّنَّة باستقبال الكعبة الثَّابت بقوله تعالىٰ: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾[البقرة:١٤٤].

[٤] **نسخ السُّنَّة بالسُّنَّة:** ومثاله قوله ﷺ: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيذِ فِي الْأَوْعِيَةِ، فَاشْرَبُوا فِيمَا شِئْتُمْ، وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا**». أخرجه مسلمٌ.

النَّسخُ باعتبارِ خِفَّةِ الحُكمِ وثِقَلِه ثلاثةُ أقسامٍ:

[١] **إلى أخفَّ:** وهو كثيرٌ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ﴾ [الأنفال:٦٦].

[٢] **إلى أثقلَ:** ومثالُه التَّدرُّج في تحريمِ الخمرِ، حيثُ انتُقِلَ مِن الإباحةِ إلىٰ التَّحريمِ وقتَ الصَّلواتِ، ثمَّ إلىٰ التَّحريمِ الكُلِّيِّ.

[٣] **إلى مُساوٍ:** ومثالُه نسخُ استقبالِ بيتِ المَقدِسِ بالكَعبَةِ.

صُوَرٌ يمتنِعُ فيها النَّسخِ:

[١] **الأخبار:**

[أ] **خبَرٌ محضٌ:** يمتَنِعُ نَسخُه؛ لأنَّ نسخ أحد الخبرين يستلزم أن يكون أحدهما كذبًا، والكذب مُستحيلٌ في أخبار الله ورسوله ﷺ.

[ب] **حُكمٌ في صورةِ الخبَرِ:** لا يمتنع نسخُه؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾[الأنفال:٦٥] الآية، فإنَّ هذا خبرٌ معناه الأمر، ولذا جاء نسخه في الآية الَّتي بعدها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾[الأنفال:٦٦].

[٢] **الأحكام الَّتي تكون مَصلَحةً في كلِّ زمانٍ ومكانٍ:**

[أ] **الأمرُ:** كالتَّوحيد، وأصول الإيمان، وأصول العبادات، ومَكارِم الأخلاق؛ من الصِّدق، والعفاف، والكرم، والشَّجاعة، ونحو ذلك؛ فلا يمكن نسخ الأمر بها.

[ب] **النَّهيُ:** عمَّا هو قبيحٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ كالشِّرك، والكفر، ومَساوِئ الأخلاق من الكذب والفجور والبُخل والجُبن ونحو ذلك.

يَمتَنِعُ النَّسخُ في الحالَين؛ إذ الشَّرائع كلُّها لتَحقيقِ المَصالح ودفع المَفاسد.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(الْحِكْمَةُ مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مفرَّقًا:

مِنْ تَقْسِيمِ الْقُرْآنِ إِلَى مَكِّيٍّ وَمَدَنِيٍّ يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُفَرَّقًا، وَلِنُزُولِهِ عَلَى هَـٰذَا الْوَجْهِ حِكَمٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا:

١. **تَثْبِيتُ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ﴾ **يَعْنِي: كَذَلِكَ نَزَّلْنَاهُ مُفَرَّقًا** ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ **لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ **[الفرقان].**

٢. **أَنْ يَسْهُلَ عَلَى النَّاسِ حِفْظُهُ وَفَهْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، حَيْثُ يُقْرَأُ عَلَيْهِمْ شَيْئًا فَشَيْئًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ **[الإسراء].**

٣. **تَنْشِيطُ الْهِمَمِ لِقَبُولِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَتَنْفِيذِهِ، حَيْثُ يَتَشَوَّقُ النَّاسُ بِلَهَفٍ وَشَوْقٍ إِلَى نُزُولِ الْآيَةِ، لَا سِيمَا عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا؛ كَمَا فِي آيَاتِ الْإِفْكِ وَاللِّعَانِ).**

حِكَمُ نزول القرآن مُفرَّقًا:

- [١] (تَثْبِيتُ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ).
- [٢] (أَنْ يَسْهُلَ عَلَى النَّاسِ حِفْظُهُ وَفَهْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ).
- [٣] (تَنْشِيطُ الْهِمَمِ لِقَبُولِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَتَنْفِيذِهِ).
- [٤] (التَّدَرُّجُ فِي التَّشْرِيعِ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْكَمَالِ).

الحِكمة الأولى:

تثبيتُ قلب النَّبيِّ ﷺ، ولو نزل جملةً واحدةً لحصلت الموعظة في أوَّل نزوله، لكن قد ينسىٰ الإنسان، وقد يغفل، فإذا نزل مرَّةً ثانيةً ازداد ثباتًا.

واستدلَّ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بآية الفرقان.

من معاني آية الفرقان:

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كما نزل في الكتب السَّابقة، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أنزلناه كذلك مُفرَّقًا، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: لأجل أن يكون مُرتَّلًا، والتَّرتيل: أن يقرأه شيئًا فشيئًا، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ ليصدُّوا النَّاس عن سبيل الله ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[الفرقان] أي: أحسن بيانًا ووضوحًا؛ لأنَّ الشُّبهة ترد علىٰ النَّبيِّ ﷺ في أوقاتٍ مُختلفةٍ، فإذا وردت الشُّبهة نزل القرآن في حلِّها.

الحِكمة الثَّانية:

أنَّه إذا نزل مُفرَّقًا سهُل علىٰ النَّاس:

[١] حفظُه.

[٢] فهمُه.

[٣] العملُ به.

ويتفرَّعُ عنها:

أنَّ من أراد أن يحفظ القرآن عن ظهر قلبٍ؛ فالأفضل ألَّا يقرأ جملةً واحدةً، بل يجعله مُفرَّقًا، يقرأ خمسة أسطرٍ حتَّىٰ يحفظها، ثمَّ خمسةً... فإذا أتمَّ جملةً صالحةً للإعادة أعادها كلَّها.

الحِكمة الثَّالثة:

أنَّه إذا تأخَّر نزول القرآن صار النَّاس يتشوَّقون، وينتظرونه بفارغ الصَّبر، فإذا نزل القرآن في شدَّة الاشتياق كان أدعىٰ لقبوله، والعمل به، والرَّاحة فيه، ومثَّل المُصنِّف لذلك بآية اللِّعان، والإفك، ومن الأمثلة كذلك: آية الظِّهار وغيرها.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤. (التَّدَرُّجُ فِي التَّشْرِيعِ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْكَمَالِ، كَمَا فِي آيَاتِ الْخَمْرِ الَّذِي نَشَأَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَأَلِفُوهُ، وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِمْ أَنْ يُجَابَهُوا بِالْمَنْعِ مِنْهُ مَنْعًا بَاتًّا، فَنَزَلَ فِي شَأْنِهِ:

أَوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة:٢١٩]، فَكَانَ فِي هٰذِهِ الْآيَةِ تَهْيِئَةٌ لِلنُّفُوسِ لِقَبُولِ تَحْرِيمِهِ، حَيْثُ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُمَارِسَ شَيْئًا إِثْمُهُ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِ.

ثُمَّ نَزَلَ ثَانِيًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[النِّساء:٤٣]، فَكَانَ فِي هٰذِهِ الْآيَةِ تَمْرِينٌ عَلَىٰ تَرْكِهِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، وَهِيَ أَوْقَاتُ الصَّلَوَاتِ.

ثُمَّ نَزَلَ ثَالِثًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة]، فَكَانَ فِي هٰذِهِ الْآيَاتِ الْمَنْعُ مِنَ الْخَمْرِ مَنْعًا بَاتًّا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، بَعْدَ أَنْ هُيِّئَتِ النُّفُوسُ ثُمَّ مُرِّنَتْ عَلَىٰ الْمَنْعِ مِنْهُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ).

الحِكمة الرَّابعة:

التَّدرُّج في التَّشريع، وأظهر الأمثلة علىٰ ذلك الخمر كما ذكره المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ، ومن ذلك الصَّلوات فُرضت ركعتين ثمَّ زيدت في الحضر، وكذلك الصِّيام كان الإنسان فيه مُخيَّرًا بين الصِّيام والإطعام، والصِّيامُ أفضل، ثمَّ بعد ذلك تعيَّن الصِّيام فكان سهلًا؛ لأنَّ النُّفوس تهيَّأت لإيجابه.

هل لنا أن نتدرَّج مع الـمَدعُوِّ:

[١] الـمُقصِّر في ترك الـمُنكَر:

نعم، لا لكي ينسلخ من الدِّين، ولا إقرارًا له علىٰ المعصية، وإنَّما تسهيلًا عليه.

مثالُه: من لم يستطع ترك التَّدخين مرَّةً واحدةً، وقال: اسمحوا لي أن أشربه في اليوم مرَّتين، نقول: لا بأس؛ لأنَّه ربَّما بالتَّدرُّج ينتفع.

[٢] الـمُقصِّر في فعل الواجب:

لا نتساهل فيه، بل نقول له: قم بالواجب.

مثالُه: لو قال رجلٌ: اسمحوا لي أن أصلِّي الظُّهر والعصر والمغرب فقط، وأمَّا الفجر والعشاء فيصعب عليَّ، فإنَّ النَّفس لا تطمئنُّ لذلك، بل نلزمه أن يصلِّي الجميع، مع أنَّه ورد عند أصحاب «السُّنن» بسندٍ صحيحٍ أنَّ ثقيفًا اشترطوا علىٰ النَّبيِّ ﷺ أن لا صدقة عليهم ولا جهاد، فقبل منهم ﷺ، وقال: «**سَيَتَصَدَّقُونَ وَيُجَاهِدُونَ إِذَا أَسْلَمُوا**».

ما هو الخمرُ؟

قال النَّبيُّ ﷺ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**». أخرجه مسلمٌ.

والإسكارُ هو: (تغطيةُ العقل علىٰ وجه الطَّرب واللَّذَّة)، سُمِّي خمرًا لأنَّه يغطِّي العقل كما يغطِّي الخِمارُ وجه المرأة ورأسَها.

حكم الخمر في أوَّل الإسلام:

كان الخمرُ حلالًا في أوَّل الإسلام؛ لأنَّ الإسلام أقرَّهم عليه كما في قصَّة حمزة رضي الله عنه المُتَّفق عليها.

وقيل إنَّ الخمر كان حلالًا بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[النَّحل:٦٧].

ثمَّ مرَّ تحريمُ الخمر بثلاث مَراحل كما ذكر المُصنِّفُ رحمه الله.

المرحلةُ الأولى من مراحل تحريم الخمر:

قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي: عن حكمهما، فلم يقل: حرامٌ، وإنَّما عرَّض فقال: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بالكيفيَّة ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بالكمِّيَّة، فالمنافع جمع جموعٍ يدلُّ علىٰ الكثرة، والإثم واحدٌ لكنَّه في الكيفيَّة أشدُّ، ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ﴾ كيفيَّةً، ولم يقل: أكثر؛ لأنَّ الكثرة ترجع إلىٰ الكمِّيَّة، ﴿مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة:٢١٩] أفرد النَّفع ليدلَّ علىٰ أنَّ المنافع الَّتي يظنُّها الظَّانُّ كثيرةً هي في الحقيقة نفعٌ واحدٌ، والميسرُ هو: (كلُّ مُعاملةٍ يكون الإنسان فيها إمَّا غانمًا وإمَّا غارمًا)، سُمِّيت كذلك ليُسر الرِّبح فيها.

وهذه الآية تهيئةٌ للتَّحريم؛ لأنَّ العاقل لا يُقدم علىٰ شيءٍ إثمُه أكبر من نفعه.

المرحلةُ الثَّانية من مراحل تحريم الخمر:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[النِّساء:٤٣]، وفي هذا تحريمُ شرب الخمر في أوقات الصَّلوات الخمس، تمرينًا للمؤمنين علىٰ ترك الخمر في بعض الأوقات.

وفي قولِه تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ عدَّة فوائد منها:

[١] أنَّ السَّكران لا يعلم ما يقول، فلو أنَّ سكرانًا أعتق جميع عبيده فإنَّهم لا يعتقون؛ لأنَّه لا يعلم ما يقول، وكذلك لو طلَّق نساءه فإنَّهنَّ لا يطلقن، ويُقاسُ عليه الغضبان الَّذي أطبق عليه الغضب.

[٢] وجوبُ الخشوع في الصَّلاة، وهو: (إحضار القلب)؛ لأنَّه لا يمكن أن يعلم ما يقول إلَّا إذا كان قلبُه حاضرًا، والرَّاجح أنَّ الصَّلاة لا تبطل مع عدم الخشوع؛ لقوله ﷺ: «**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّىٰ لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَىٰ النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّىٰ إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّىٰ إِذَا قَضَىٰ التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ، حَتَّىٰ يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّىٰ يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّىٰ**». مُتَّفقٌ عليه. ولم يُبطل صلاتَه.

المرحلةُ الثَّالثة من مراحل تحريم الخمر:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نداءٌ للتَّنبيه، وخصَّ المؤمنين لأنَّ إيمانهم يقتضي الامتثال والطَّاعة، ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ﴾ جمع نَصَبٍ وهي: الأوثان ﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾ وهي ما يُستَقسَمُ به، ﴿رِجۡسٞ﴾ أي: نجسةٌ نجاسةً معنويَّةً ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، قدَّم العلَّة قبل بيان الحكم؛ ليجعل النَّفس تُقبِلُ علىٰ الحكم عن اقتناعٍ وعقلٍ، ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ هذا هو الحكم، ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ للتَّعليل، ﴿تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ هذه هي ثمرة امتثال الحكم، والفلاحُ هو: (حصولُ المَطلوب، والنَّجاةُ من المَرهوب).

الأنصابُ والأزلامُ والخمر والميسر:

[١] من حيثُ أصلُ الحكم:

تشتركُ في كونِها تُنافي كمال التَّوحيدِ.

[٢] من حيثُ الحكمُ التَّفصيليُّ:

الأنصابُ أشدُّها تحريمًا؛ لأنَّها شركٌ أكبر، ثمَّ الأزلام دونها في التَّحريم، ثمَّ الخمر والميسر دونهما.

النَّجاسة (الرِّجس) نوعان:

[١] حسيَّةٌ:

ومن ذلك أنَّه ﷺ أمر مُناديًا يُنادي: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ؛ فَإِنَّهَا رِجْسٌ». مُتَّفقٌ عليه.

[٢] معنويَّةٌ:

ومن ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾[الحج].

وكذلك في آية المائدة نجاسةٌ حسِّيَّةٌ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أطلق علىٰ الأربعة أنَّها رجسٌ، وليس كلُّها يصحُّ أن يكون نجاسةً معنويَّةً، كما أنَّه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، فهي نجاسةٌ عمليَّةٌ.

هل الخمر نجسةٌ نجاسةً حسِّيَّةً؟

الخمر طاهرةٌ طهارةً حسِّيَّةً، ونجسةٌ نجاسةً معنويَّةً، وليست نجسةً نجاسةً حسِّيَّةً، ولا يلزم من كونها حرامًا كونُها نجسةً، ولا يلزم من كونه ﷺ وصفها بأنَّها أمُّ الخبائث أن تكون نجسةً، بل المقصود الخبائث المعنويَّة.

وممَّا يدلُّ علىٰ عدم نجاسة الخمر أنَّ الأصل الطَّهارة، ولمَّا لم يقم دليلٌ علىٰ كونها نجسةً نجاسةً حسِّيَّةً بقينا علىٰ الأصل، كما أنَّ لخمر لمَّا حُرِّمت أرقاها الصَّحابة من أوانيهم، ولم يُؤمَروا بغسل الأواني.

ما هي عقوبةُ شاربِ الخمرِ؟

عقوبة شارب الخمر الرَّدع والتَّعزير بما لا يقلُّ عن أربعين جلدةً، وليست حدًّا، وقد كان علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ يُضرب نحوًا من أربعين جلدةً، ثمَّ تقرَّرت الأربعون في عهد أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثمَّ لمَّا كثر شرب الخمر من حديثي العهد بالإسلام في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أشار عليه عبد الرَّحمن بن عوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يجعلها ثمانين جلدةً، ووافقه الصَّحابة علىٰ ذلك.

تتمَّة آيات المائدة:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾، فكلُّ عملٍ يوجب العداوة والبَغضاء فهو من وحي الشَّيطان، ﴿فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي: بسببهما، ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يصدُّنا عن ذكر الله باللِّسان، وعن ذكره بالجَنان بالقلب، وهذا هو البلاءُ! ومن شرب الخمر غفل عن ذكر الله، ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ والصَّلاةُ من ذكر الله، بل هي أفضله، نصَّ علىٰ الخاصِّ بعد العامِّ لشرفه، وصدُّ الشَّيطان عن الصَّلاة يكون بإشغال الإنسان عنها، أو بالوسوسة فيها، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ استفهامٌ بمعنىٰ الأمر، أي: فانتهوا، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ ولا فرق بينهما، لكن كلَّما كان الأمر أهمَّ احتيج إلىٰ التَّنصيص علىٰ

وجوب طاعة النَّبيِّ ﷺ، ﴿وَٱحۡذَرُواْ﴾ مُخالفتَهما، ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ ولم تحذروا مُخالفتَهما، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا﴾ للحصر، ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: البيِّن في نفسه، والمُبيِّن لمن يسمعه، فالرَّسول لا ينفعهم، وليس مسؤولًا عنهم، فهو عليه البلاغ فقط، فإذا بلَّغ فقد برئت ذمَّته، وكذا ورثتُه العلماء ليس عليهم إلَّا البلاغ.

مسألةٌ مهمَّةٌ:

ما كان فيه نسبةٌ قليلةٌ من الخمر (المُسكِر) لا تُؤثِّر فيه، مثل جزءٍ من مائة جزءٍ، حيث إنَّ من شربه لم يسكر به فهل يحرُم؟

الجواب: لا يحرم، ولا يصحُّ أن يُستدلَّ لتحريمه بما أخرجه أصحاب «السُّنن»: «**مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ**»؛ لأنَّ مُراده ﷺ الَّذي لا يحتمل سواه أنَّ: الشَّيء الَّذي إذا شربت منه كثيرًا سكرت فالقليل منه حرامٌ، وهذا الَّذي خالطته نسبةٌ قليلةٌ من الخمر لا يُسكِر الكثيرُ منه، فهو ليس بحرامٍ.

ومن ذلك: بعض الأدوية الَّتي فيها القليل من المُسكِر، وكذا بعض الأطياب، بشرط أن يكون المُسكِر فيها قليلًا جدًّا لا أثر له، ويجوز التَّطيُّب بها بلا إشكالٍ.

وأمَّا إذا كان المُسكِر فيها كثيرًا فالأحوط أن نجتنب التَّطيُّبَ، وكذلك بيعَها، وشراءَها، وغيرَ ذلك، فإذا دعت الحاجة لاستعمال المُسكِر في غير الشُّرب كتعقيم الجروح ونحوِها فلا بأس.

من مسائل السَّكران:

[١] **الطَّلاق:** لا يقع طلاقُه؛ لأنَّه لا يعلم ما يقولُ، وعند أحمد في «المُسند»: «**لَا طَلَاقَ وَلَا عِتَاقَ فِي إِغْلَاقٍ**»، والسَّكران مُغلقٌ عليه.

[٢] **القتل العمد:** لمَّا كان القتل العمد يتعلَّق بحقوق الآدميِّين قلنا: يُقتل قصاصًا، وقيل: لا يُقتل إلَّا إذا شرب الخمر ليقتُل؛ لأنَّ الحيل لا تُبطل الأحكام الشَّرعيَّة.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(تَرْتِيبُ الْقُرْآنِ:

تَرْتِيبُ الْقُرْآنِ: تِلَاوَتُهُ تَالِيًا بَعْضُهُ بَعْضًا، حَسَبَ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ، وَمَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: تَرْتِيبُ الْكَلِمَاتِ بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ كَلِمَةٍ فِي مَوْضِعِهَا مِنَ الْآيَةِ، وَهَذَا ثَابِتٌ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، وَلَا نَعْلَمُ مُخَالِفًا فِي وُجُوبِهِ، وَتَحْرِيمِ مُخَالَفَتِهِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقْرَأَ: (للهِ الْحَمْدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) بَدَلًا مِنْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة].

النَّوْعُ الثَّانِي: تَرْتِيبُ الْآيَاتِ بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ آيَةٍ فِي مَوْضِعِهَا مِنَ السُّورَةِ، وَهَذَا ثَابِتٌ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَىٰ الْقَوْلِ الرَّاجِحِ، وَتَحْرُمُ مُخَالَفَتُهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقْرَأَ: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ) بَدَلًا مِنْ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة].

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، وَقَدْ نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الْأُخْرَىٰ، يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وَهَذِهِ قَبْلَهَا فِي التِّلَاوَةِ، قَالَ: فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا ابْنَ أَخِي، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ.

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ، وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ السُّوَرُ ذَوَاتُ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ، دَعَا بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ، فَيَقُولُ: «ضَعُوا هٰذِهِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا».

النَّوْعُ الثَّالِثُ: تَرْتِيبُ السُّوَرِ بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّ سُورَةٍ فِي مَوْضِعِهَا مِنَ الْمُصْحَفِ، وَهَذَا ثَابِتٌ بِالِاجْتِهَادِ، فَلَا يَكُونُ وَاجِبًا، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّىٰ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ الْبَقَرَةَ، ثُمَّ النِّسَاءَ، ثُمَّ آلَ عِمْرَانَ، وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيقًا عَنِ الْأَحْنَفِ: أَنَّهُ قَرَأَ فِي الْأُولَىٰ بِالْكَهْفِ، وَفِي الثَّانِيَةِ بِيُوسُفَ، أَوْ يُونُسَ،

وَذَكَرَ أَنَّهُ صَلَّىٰ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصُّبْحَ بِهِمَا.
قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: تَجُوزُ قِرَاءَةُ هٰذِهِ قَبْلَ هٰذِهِ، وَكَذَا فِي الْكِتَابَةِ، وَلِهٰذَا تَنَوَّعَتْ مَصَاحِفُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي كِتَابَتِهَا، لَكِنْ لَمَّا اتَّفَقُوا عَلَىٰ الْمُصْحَفِ فِي زَمَنِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَارَ هٰذَا مِمَّا سَنَّهُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ، وَقَدْ دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَىٰ أَنَّ لَهُمْ سُنَّةً يَجِبُ اتِّبَاعُهَا).

التَّرتيبُ أربعةُ أنواعٍ:

[١] ترتيبُ الحروف في الكلمة، وهذا واجبٌ بإجماعٍ.

[٢] (تَرْتِيبُ الْكَلِمَاتِ) بعضِها مع بعضٍ، وهو كذلك واجبٌ بإجماعٍ.

[٣] (تَرْتِيبُ الْآيَاتِ) بعضِها مع بعضٍ، وهو واجبٌ علىٰ القول الرَّاجح.

[٤] (تَرْتِيبُ السُّوَرِ) بعضِها مع بعضٍ، وهو غير واجبٍ؛ لأنَّ التَّرتيب ثبت بالاجتهاد.

لم يذكر المُصنِّف في المتن النَّوع الأوَّل؛ لأنَّه لا أحد يتجرَّأ عليه، ولا شكَّ في تحريمه، فإنَّه غير جائزٍ بالنَّصِّ والإجماع؛ لأنَّه من تحريف الكلم عن مواضعه.

النَّوع الثَّاني: ترتيبُ الكلمات

ترتيبُ الكلمات واجبٌ باتِّفاقٍ، فلا يجوز أن يقرأ (للهِ الْحَمْدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) بدل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[الفاتحة].

هل تبطل الصَّلاة بتقديم كلمةٍ عن محلِّها:

[١] **في العمد:** تبطُل.

[٢] **في السَّهو:** لا تبطُل.

النَّوع الثَّالث: ترتيبُ الآيات

اختلف العلماء هل ترتيب الآيات توقيفيٌّ أو اجتهاديٌّ، والصَّحيح أنَّه قد دلَّ النَّصُّ علىٰ أنَّ ترتيب الآيات توقيفيٌّ، من ذلك ما أخرجه أحمد في «المُسند»: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَعَ هَذِهِ الْآيَةَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ...**»، وحكىٰ غير واحدٍ الإجماع عليه. وعلىٰ هذا فالرَّاجح أنَّ ترتيب الآيات واجبٌ تحرُم مُخالفتُه، فلا يجوز أن يقرأ: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) بدل ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة]، والمُخالفة في هذا أخفُّ من المُخالفة في ترتيب الكلمات.

النَّوع الرَّابع: ترتيبُ السُّور منه:

[١] **الاجتهاديُّ:** وهو الأكثر، ففي «صحيح مسلمٍ» من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه صلَّىٰ مع النَّبيِّ ﷺ ليلةً فقرأ في ركعةٍ البقرة ثمَّ النِّساء ثمَّ آل عمران.

[٢] **في السَّهو:** ومن ذلك قراءته ﷺ سبِّح والغاشية في الجمعة كما في «صحيح مسلمٍ» من حديث النُّعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولهذا فإنَّ ترتيب السُّور غير واجبٍ.

لماذا قدَّم الصَّحابة آل عمران على النِّساء في ترتيب المصحف؟

[١] لأنَّ النَّبيَّ ﷺ جمع بين البقرة وآل عمران في الفضل، قال ﷺ: «**اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». أخرجه مسلمٌ.

[٢] لعلَّ التَّرتيب اختلف بعد العرضة الأخيرة الَّتي عرضها النَّبيُّ ﷺ علىٰ جبريل، بعد أن سمعه حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيزول الإشكال حينئذٍ.

حكم مُخالفة ترتيب السُّور:

[١] **أمام عوامِّ النَّاس:** لا ينبغي؛ لما فيه من التَّشويش وإثارة الفتنة.

[٢] **في مجال التَّعليم:** لا بأس به، وجرت العادة بتعليم الصِّبيان بدءًا من سورة النَّاس.

ما علاقة القراءات الـمُتواترة بمصحف عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جمع النَّاس علىٰ مُصحفٍ واحدٍ، بعثه إلىٰ كلِّ أُفقٍ من الآفاق الإسلاميَّة، وكلُّ القراءات المُتواترة لا تخرج عن هذا المُصحف.

سابعًا: كِتَابَةُ الْقُرْآنِ وَجَمْعُه

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (لِكِتَابَةِ الْقُرْآنِ وَجَمْعِهِ ثَلَاثُ مَرَاحِلَ:

الْمَرْحَلَةُ الْأُولَىٰ: فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ الِاعْتِمَادُ فِي هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ عَلَىٰ الْحِفْظِ أَكْثَرَ مِنَ الِاعْتِمَادِ عَلَىٰ الْكِتَابَةِ؛ لِقُوَّةِ الذَّاكِرَةِ، وَسُرْعَةِ الْحِفْظِ، وَقِلَّةِ الْكَاتِبِينَ، وَوَسَائِلِ الْكِتَابَةِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُجْمَعْ فِي مُصْحَفٍ، بَلْ كَانَ مَنْ سَمِعَ آيَةً حَفِظَهَا، أَوْ كَتَبَهَا فِيمَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنْ عُسُبِ النَّخْلِ، وَرِقَاعِ الْجُلُودِ، وَلِخَافِ الْحِجَارَةِ، وَكِسَرِ الْأَكْتَافِ، وَكَانَ الْقُرَّاءُ عَدَدًا كَبِيرًا.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ سَبْعِينَ رَجُلًا يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ، فَعَرَضَ لَهُمْ حَيَّانِ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ -رَعْلٌ وَذَكْوَانُ- عِنْدَ بِئْرِ مَعُونَةٍ، فَقَتَلُوهُمْ، وَفِي الصَّحَابَةِ غَيْرُهُمْ كَثِيرٌ؛ كَالْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ).

فائدةٌ:

أوَّلُ مَن حفِظَ القرآنَ جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثمَّ نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، ثمَّ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وجمعَه مِنهم في حياةِ النَّبيِّ ﷺ أربعةٌ: «أُبَيٌّ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبُو زَيْدٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ». مُتَّفقٌ عليه.

مراحلُ كتابة القرآن ثلاثةٌ:

[١] في عهد النَّبيِّ ﷺ: كان الاعتماد علىٰ الحفظ أكثر من الكتابة، وكتب الصَّحابة أجزاءً مُتفرِّقةً من القرآن.

[٢] في عهد أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بمشورة عمر أمر أبو بكرٍ زيد بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن يجمع القرآن في مُصحفٍ واحدٍ لئلَّا يضيع، ولم يحمل النَّاس عليه.

[٣] في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خشي أن يفتتن النَّاس باختلاف القراءات، فأمر زيد بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يجمع مُصحفًا واحدًا وحمل النَّاس عليه، وحرَّق ما سواه.

من أسباب الاعتماد على الحفظ في العهد النَّبويِّ:

[١] قوَّة الذَّاكرة: كان الواحد من الصَّحابة لا يكاد ينسىٰ شيئًا حفظه، وكلَّما أراد شيئًا استحضره بسرعةٍ.

[٢] سرعة الحفظ: فتجد الواحد منهم يسمع الحديث الَّذي يبلغ الصَّفحة والصَّفحتين فيحفظه من مرَّةٍ واحدةٍ.

[٣] قلَّة الكتبة: قال ﷺ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ**». مُتَّفقٌ عليه. ولمَّا جاء الإسلام صاروا علماء العالم كلِّه!

[٤] قلَّة وسائل الكتابة: فلم يكن يوجد عندهم ورقٌ، ولا حبرٌ، ولا أقلامٌ...

ممَّا كانوا يكتبون عليه:

[١] عُسُبُ النَّخل: والعسيب هو الجريد إذا نُحِّي عنه خوصُه، أي: منبت الورق.

[٢] رِقاعُ الجُلود: يكتبون علىٰ رُقعة الجلد المَدبوغة.

[٣] لِخافُ الحِجارة: وهي حجارةٌ مَلساء تشبه العظم.

[٤] كِسَرُ الأكتاف: وهي أكتاف البعير، والشَّاة، والبقر وغيرها من الحيوان.

إشكالٌ والرَّدُّ عليه:

قال أنسٌ رضي الله عنه: «**مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَجْمَعِ الْقُرْآنَ غَيْرُ أَرْبَعَةٍ: أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ**». مُتَّفقٌ عليه. فهل معنىٰ هذا أنَّ القرآن منقولٌ بطريق الآحاد؟

[١] خبر الآحاد مقبولٌ؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**». أخرجه أحمد.

[٢] القرآن خبرٌ دينيٌّ، وجاءت السُّنَّة مُطَّردةً بقبول خبر الواحد فيها؛ كما في رؤية هلال رمضان.

[٣] حصل الإجماع بعد ذلك من الصَّحابة علىٰ هذا القرآن الَّذي بين أيدينا وقبولِه.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ: فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَسَبَبُهُ أَنَّهُ قُتِلَ فِي وَقْعَةِ الْيَمَامَةِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ، مِنْهُمْ سَالِمٌ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ، أَحَدُ مَنْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَخْذِ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ.

فَأَمَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بِجَمْعِهِ؛ لِئَلَّا يَضِيعَ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَشَارَ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بِجَمْعِ الْقُرْآنِ بَعْدَ وَقْعَةِ الْيَمَامَةِ، فَتَوَقَّفَ تَوَرُّعًا، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يُرَاجِعُهُ حَتَّىٰ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِذَلِكَ، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، فَأَتَاهُ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، لَا نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، قَالَ: فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُطَوَّلًا.

وَقَدْ وَافَقَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَعَدُّوهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ، حَتَّىٰ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَعْظَمُ النَّاسِ فِي الْمَصَاحِفِ أَجْرًا أَبُو بَكْرٍ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ كِتَابَ اللهِ).

فائدةٌ: يُستَفادُ من كلامِ المُؤلِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ أوَّل من أشارَ بجَمعِ القرآنِ هو عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لماذا توقَّف أبو بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في أوَّل الأمر؟

تورُّعًا منه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّ هذا لم يكن علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ، فخاف أن يكون إذا جمعه تصرَّف في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بما لم يفعله النَّبيُّ ﷺ.

لماذا جُعلت المصاحف عند حفصة بعد موت عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؟

لأنَّها أمُّ المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وكانت ذات ديانةٍ، وأمانةٍ، وعقلٍ، وحسن تصرُّفٍ.

ولهذا لمَّا وقف عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أرضه الَّتي في خيبر جعل النَّاظر عليه حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. أخرجه أبو داود. وقدَّمها علىٰ ابنه عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فائدةٌ في الرَّدِّ على الرَّافضة:

أثنىٰ عليٌّ علىٰ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بقوله: (أَعْظَمُ النَّاسِ فِي الْمَصَاحِفِ أَجْرًا أَبُو بَكْرٍ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ، هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَمَعَ كِتَابَ اللهِ)، وفي هذا وخزةٌ وطعنةٌ في صدور الرَّافضة الَّذين يُبغضون أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وربَّما كان بعضُهم يلعنُه -والعياذُ بالله-، فها هو عليُّ بن أبي طالبٍ -الَّذي يرون أنَّه إمام الأئمَّة- يقول فيه هذا القول!

مسائلُ أخرى خالف فيها الرَّافضة عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

[١] **المُتعة:** فقد روىٰ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تحريمها كما في «الصَّحيحين».

[٢] **المسح على الخفَّين:** فقد رواه عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ كما في «سنن أبي داود».

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ: فِي عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ، وَسَبَبُهُ اخْتِلَافُ النَّاسِ فِي الْقِرَاءَةِ، بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الصُّحُفِ الَّتِي فِي أَيْدِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فَخِيفَتِ الْفِتْنَةُ، فَأَمَرَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ تُجْمَعَ هَـٰذِهِ الصُّحُفُ فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ؛ لِئَلَّا يَخْتَلِفَ النَّاسُ فَيَتَنَازَعُوا فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ وَيَتَفَرَّقُوا.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدِمَ عَلَىٰ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ فَتْحِ أَرْمِينِيَّةَ وَأَذْرَبِيجَانَ، وَقَدْ أَفْزَعَهُ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَدْرِكْ هٰذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَىٰ حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَفَعَلَتْ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمٰنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي الْمُصْحَفِ، وَكَانَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ أَنْصارِيًّا، وَالثَّلَاثَةُ قُرَشِيِّينَ.

وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الثَّلَاثَةِ الْقُرَشِيِّينَ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّىٰ إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَىٰ حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَىٰ كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ، وَقَدْ فَعَلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هٰذَا بَعْدَ أَنِ اسْتَشَارَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لِمَا رَوَىٰ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَاللهِ مَا فَعَلَ الَّذِي فَعَلَ فِي الْمَصَاحِفِ إِلَّا عَنْ مَلَأٍ مِنَّا، قَالَ: أَرَىٰ أَنْ نَجْمَعَ النَّاسَ عَلَىٰ مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، فَلَا تَكُونَ فُرْقَةٌ وَلَا اخْتِلَافٌ، قُلْنَا: فَنِعْمَ مَا رَأَيْتَ.

وَقَالَ مُصْعَبُ بْنُ سَعْدٍ: أَدْرَكْتُ النَّاسَ مُتَوَافِرِينَ حِينَ حَرَّقَ عُثْمَانُ الْمَصَاحِفَ، فَأَعْجَبَهُمْ ذَلِكَ، أَوْ قَالَ: لَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَهُوَ مِنْ حَسَنَاتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّتِي وَافَقَهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا، وَكَانَتْ مُكَمِّلَةً لِجَمْعِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ جَمْعِهِ وَجَمْعِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ جَمْعِهِ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَقْيِيدُ الْقُرْآنِ كُلِّهِ مَجْمُوعًا فِي مُصْحَفٍ؛ حَتَّىٰ لَا يَضِيعَ مِنْهُ شَيْءٌ، دُونَ أَنْ يَحْمِلَ النَّاسَ عَلَىٰ الِاجْتِمَاعِ عَلَىٰ مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُ الِاخْتِلَافِ فِي قِرَاءَاتِهِمْ مَا يَدْعُو إِلَىٰ حَمْلِهِمْ عَلَىٰ الِاجْتِمَاعِ عَلَىٰ مُصْحَفٍ وَاحِدٍ.

وَأَمَّا الْغَرَضُ مِنْ جَمْعِهِ فِي عَهْدِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ تَقْيِيدُ الْقُرْآنِ كُلِّهِ مَجْمُوعًا فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ، يُحمَلُ النَّاسُ عَلَىٰ الِاجْتِمَاعِ عَلَيْهِ؛ لِظُهُورِ الْأَثَرِ الْمُخِيفِ، اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ.

وَقَدْ ظَهَرَتْ نَتَائِجُ هٰذَا الْجَمْعِ، حَيْثُ حَصَلَتْ بِهِ الْمَصْلَحَةُ الْعُظْمَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ: اجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ، وَاتِّفَاقِ الْكَلِمَةِ، وَحُلُولِ الْأُلْفَةِ، وَانْدَفَعَتْ بِهِ مَفْسَدَةٌ كُبْرَىٰ مِنْ: تَفَرُّقِ الْأُمَّةِ، وَاخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ، وَفُشُوِّ الْبَغْضَاءِ وَالْعَدَاوَةِ.

وَقَدْ بَقِيَ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ الْآنَ، مُتَّفَقًا عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، مُتَوَاتِرًا بَيْنَهُمْ، يَتَلَقَّاهُ الصَّغِيرُ عَنِ الْكَبِيرِ، لَمْ تَعْبَثْ بِهِ أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ، وَلَمْ تَطْمِسْهُ أَهْوَاءُ الزَّائِغِينَ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ، رَبِّ الْعَالَمِينَ).

سبب جَمعِ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّاسَ على مُصحفٍ واحدٍ:

قال النَّبيُّ ﷺ في الحديث المُتَّفق عليه: «**إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَؤُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ**»، فكان كلٌّ من الصَّحابة يقرأ بما سمع من النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ في عهد عثمان خاف المسلمون من هذا الاختلاف أن يؤدِّي إلىٰ اختلاف القلوب والآراء، وأن يؤدِّي إلىٰ القتال، فرأوا أن يُجمع علىٰ حرفٍ واحدٍ، فجمعوه علىٰ حرف قريشٍ؛ لأنَّه نزل بلغتهم، وأمَّا القراءاتُ المُتواترةُ فلاختلاف القرَّاء حسب الرِّواية، وحسب الكتابة.
قاعدةٌ عامَّةٌ: (**تغييرُ ما كان علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ من وسائل حفظ القرآن لا بأس به**).

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في «مجموع الفتاوى» (٣٩١/١٣):

وَلَا نِزَاعَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْحُرُوفَ السَّبْعَةَ الَّتِي أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَيْهَا:

(١) لَا تَتَضَمَّنُ تَنَاقُضَ الْمَعْنَىٰ وَتَضَادَّهُ؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ مَعْنَاهَا مُتَّفِقًا أَوْ مُتَقَارِبًا كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ أَحَدِكُمْ أَقْبِلْ وَهَلُمَّ وَتَعَالَ.

(٢) وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَىٰ أَحَدِهِمَا لَيْسَ هُوَ مَعْنَىٰ الْآخَرِ؛ لَكِنْ كِلَا الْمَعْنَيَيْنِ حَقٌّ، وَهَذَا اخْتِلَافُ تَنَوُّعٍ وَتَغَايُرٍ لَا اخْتِلَافُ تَضَادٍّ وَتَنَاقُضٍ، وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا حَدِيثِ: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، إنْ قُلْت: غَفُورًا رَحِيمًا، أَوْ قُلْت: عَزِيزًا حَكِيمًا؛ فَاَللَّهُ كَذَلِكَ، مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِآيَةِ عَذَابٍ أَوْ آيَةَ عَذَابٍ بِآيَةِ رَحْمَةٍ**».

(٣) وَمِنْ الْقِرَاءَاتِ مَا يَكُونُ الْمَعْنَىٰ فِيهَا مُتَّفِقًا مِنْ وَجْهٍ مُتَبَايِنًا مِنْ وَجْهٍ؛ كَقَوْلِهِ: (يَخْدَعُونَ) وَ(يُخَادِعُونَ)، وَ(يَكْذِبُونَ) وَ(يُكَذِّبُونَ)، وَ(لَمَسْتُمْ) وَ(لَامَسْتُمْ)، و(حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ) و(وَيَطَّهَّرْنَ)، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ الَّتِي يَتَغَايَرُ فِيهَا الْمَعْنَىٰ كُلُّهَا حَقٌّ.

(٤) وَكُلُّ قِرَاءَةٍ مِنْهَا مَعَ الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَىٰ بِمَنْزِلَةِ الْآيَةِ مَعَ الْآيَةِ، يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا كُلِّهَا، وَاتِّبَاعُ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ الْمَعْنَىٰ عِلْمًا وَعَمَلًا، لَا يَجُوزُ تَرْكُ مُوجِبِ إحْدَاهُمَا لِأَجْلِ الْأُخْرَىٰ ظَنًّا أَنَّ ذَلِكَ تَعَارُضٌ؛ بَلْ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ

كَفَرَ بِحَرْفٍ مِنْهُ فَقَدْ كَفَرَ بِهِ كُلِّهِ».

(٥) وَأَمَّا مَا اتَّحَدَ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ وَإِنَّمَا يَتَنَوَّعُ صِفَةُ النُّطْقِ بِهِ؛ كَالْهَمَزَاتِ، وَالْمَدَّاتِ، وَالْإِمَالَاتِ، وَنَقْلِ الْحَرَكَاتِ، وَالْإِظْهَارِ، وَالْإِدْغَامِ، وَالِاخْتِلَاسِ، وَتَرْقِيقِ اللَّامَاتِ وَالرَّاءَاتِ أَوْ تَغْلِيظِهَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُسَمَّىٰ الْقِرَاءَاتِ الْأُصُولَ = فَهَذَا أَظْهَرُ وَأَبْيَنُ فِي أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا تَضَادٌّ مِمَّا تَنَوَّعَ فِيهِ اللَّفْظُ أَوِ الْمَعْنَىٰ؛ إِذْ هَذِهِ الصِّفَاتُ الْمُتَنَوِّعَةُ فِي أَدَاءِ اللَّفْظِ لَا تُخْرِجُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَفْظًا وَاحِدًا، وَلَا يُعَدُّ ذَلِكَ فِيمَا اخْتَلَفَ لَفْظُهُ وَاتَّحَدَ مَعْنَاهُ أَوِ اخْتَلَفَ مَعْنَاهُ مِنَ الْمُتَرَادِفِ وَنَحْوِهِ، وَلِهَذَا كَانَ دُخُولُ هَذَا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنَ الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ الَّتِي أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَيْهَا مِنْ أَوْلَىٰ مَا يَتَنَوَّعُ فِيهِ اللَّفْظُ أَوِ الْمَعْنَىٰ، وَإِنْ وَافَقَ رَسْمَ الْمُصْحَفِ، وَهُوَ مَا يَخْتَلِفُ فِيهِ النَّقْطُ أَوِ الشَّكْلُ.

لماذا يوجدُ في القرآنِ آياتٌ كثيرةٌ ليست بلغةِ قريشٍ؟

[١] لأنَّ الحكم أغلبيٌّ.

[٢] لأنَّ هذه الكلمات أصلها ليست عربيَّةً، ولكنَّ قريشًا تكلَّموا بها.

أمثلةٌ أخرى عن الوسائل الَّتي استجدَّت بعد النَّبيِّ ﷺ:

[١] **الخطُّ في المسجد:** جُعلت الخُطوط في المساجد لتسوية الصُّفوف، وجُعلت في المسجد الحرام ليُستدلَّ بها علىٰ القبلة، وأنكرها بعض النَّاس، وإنكارُهم بعيدٌ عن الفقه، فهي وسائلُ لا غاياتٌ؛ لأنَّنا لا نتعبَّد الله عَزَّوَجَلَّ بها، ولكنَّنا اتَّخذناها وسيلةً، كما جمع الصَّحابة القرآن علىٰ حرفٍ واحدٍ وقد كان علىٰ عهده ﷺ علىٰ سبعةٍ.

[٢] **مُكبِّر الصَّوت:** رفع الصَّوت مقصودٌ؛ كما في غزوة حنينٍ لمَّا فرَّ النَّاس أمر النَّبيُّ ﷺ العبَّاس -وكان جهوريَّ الصَّوت- أن ينادي: «**أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟**». أخرجه مسلمٌ. والحاصل أنَّ المُكبِّر وسيلةٌ لتحصيل المقصود المَشروع.

قاعدةٌ: (**الوسيلةُ المُباحة إذا أدَّت إلىٰ الغرض المَقصود شرعًا؛ فالأصل أنَّها مَطلوبةٌ**).

شُبهةٌ والرَّدُّ عليها:

استدلَّ بعضُ النَّاس علىٰ تحسين البدعة بفعل أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جمع القرآن؛ لأنَّه فعل شيئًا لم يفعله النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويُجابُ: بأنَّ هناك فرقًا بين ما كان مَشروعًا وما لم يكن مَشروعًا، فما كان وسيلةً لمَشروعٍ فهو مَشروعٌ، أمَّا أن يشرع الإنسان شيئًا ابتداءً فهذا بدعةٌ لا يجوز.

ويُشترطُ في الوسيلة أن تكون مُباحةً.

فإذا قال الدَّاعي: عندي أناسٌ لا يتَّجهون إليَّ إلَّا إذا ضربتُ الموسيقىٰ؛ قيل له: هذه وسيلةٌ مُحرَّمةٌ، فلا يجوز استعمالُها.

هل لأهل الـمَغرب أن يقرؤوا بقراءتهم عند أهل الـمَشرق، والعكس؟

مَعلومٌ أنَّ أهل المَشرق لهم قراءةٌ غلبت عليهم، وأهل المَغرب لهم قراءةٌ غلبت عليهم، وكلُّ ذلك علىٰ حرف قريشٍ، وقد يحصُل فتنةٌ للنَّاس عند قراءة أحدهما بقراءته عند الآخر، ولهذا فإنَّنا نمنع ذلك، ونقول: أنت يا صاحب المَغرب؛ لا تقرأ بقراءتك إلَّا في مكانك، وكذلك صاحبُ المَشرق.

الاخْتِبَارُ الأَوَّلُ:

[١] اختر الإجابة الصَّحيحة:

- مِنْ أَجَلِّ فُنُونِ الْعِلْمِ؛ بَلْ هُوَ أَجَلُّهَا وَأَشْرَفُهَا، عِلْمُ: ○ الحديثِ. ○ التَّفسير. ○ الفقهِ.
- السَّبع الـمَثاني هي: ○ أوَّلُ سبع سُورِ مِن القُرآنِ. ○ الفاتِحة.
- أسباب النزول تتوقف علىٰ: ○ النَّقل والسَّماع. ○ الاجتهادِ. ○ معرفة المكِّيِّ والمدنيِّ.
- غايةُ أصول التَّفسيرِ هي:
  ○ استنباطُ الأحكام الفقهيَّة. ○ معرفةُ علوم القرآن. ○ جعلُ قواعد لفهم القرآن.
- جاء بيانُ تفسير الصَّلاة في: ○ القرآنِ. ○ أقوالِ الصَّحابة. ○ السُّنَّة.
- التَّفسيرُ هو: ○ بيانُ القصص القُرآنيِّ. ○ معرفةُ أحكام القرآن. ○ معرفةُ مَعاني القرآن.
- التَّأويل والتَّفسير معناهما: ○ متَّفقٌ. ○ متضادٌّ. ○ متقاربٌ.
- القائلُ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ فسَّر القرآن كلَّه: ○ ابنُ الجوزيِّ. ○ ابن تيميَّة. ○ الرَّازيُّ.
- أصولُ التَّفسير هي:
  ○ علومُ القرآن. ○ الأُسسُ الَّتي يقوم عليها التَّفسير. ○ بيانُ معاني القرآن.
- قواعدُ التَّفسير:
  ○ أخصُّ من قواعد التَّرجيح. ○ أعمُّ من قواعد التَّرجيح. ○ ليس بينهما فرقٌ.
- الأخصُّ من قواعد التَّفسير يُسمَّىٰ:
  ○ أصولَ التَّفسير. ○ قواعدَ التَّرجيح. ○ أصولَ الفقه.
- الرَّاجحُ أنَّ عدد آيات الأحكام: ○ ٢٠٠. ○ ٥٠٠. ○ ١٥٠. ○ ليست مَحصورةً في عددٍ مُعيَّن.
- القواعدُ والأُسس التَّي يقوم عليها التَّفسيرُ تُسمَّىٰ:
  ○ أصولَ التَّفسير. ○ علومَ القرآنِ. ○ مناهجَ التَّفسير. ○ جميعَ ما ذُكر.
- التَّفسيرُ يأتي في الغالب بمعنىٰ:
  ○ التَّأويل. ○ صرفِ اللَّفظ عن ظاهره. ○ المجازِ. ○ جميع ما ذُكر.
- مدرسةُ المدينة قامت علىٰ: ○ أبيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ○ عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❍ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ❍ أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

- مَن هو الصَّحابيُّ الَّذي قال فيه النَّبيُّ: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»؟

❍ ابن عبَّاس. ❍ أبيُّ بن كعب. ❍ عثمان بن عفَّان. ❍ ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

- مَعنىٰ «**يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ**»: ❍ يُصلِّي به. ❍ يقرأُه. ❍ يتلوه. ❍ يفعل ما أُمِر به.

- مِن مَزايا هذا النَّوع مِن التَّفسير أنَّه يغلب عليه الاختصارُ في القول مع الوفاء بالمَعنىٰ؟

❍ تفسيرُ أتباع التَّابعين. ❍ التَّفسيرُ الفقهيُّ. ❍ تفسيرُ المُتأخِّرين. ❍ التَّفسيرُ النَّبويُّ.

- تدوينُ التَّفسيرِ وحذف أسانيد الأحاديث والآثار كان في المرحلة:

❍ الأولىٰ. ❍ الثَّانيةِ. ❍ الثَّالثةِ.

- ذِكرُ بعض أفراد العامِّ علىٰ سبيل المثال من أسباب اختلاف؟

❍ التَّنوُّع. ❍ التَّضادِّ. ❍ كلاهما.

- (صرفُ اللَّفظ عن الاحتمال الرَّاجح إلىٰ الاحتمال المَرجوح لدليلٍ يقترنُ) يُسمَّىٰ:

❍ التَّفسيرَ. ❍ التَّأويلَ. ❍ المجازَ. ❍ الجميع.

- أقوالُهم في التَّفسير حجَّةٌ إذا اتَّفقوا، من هم؟

❍ الصَّحابةُ. ❍ التَّابعون. ❍ كلاهما. ❍ لا شيء ممَّا ذُكِر.

- روايةُ القليل من الإسرائيليَّات تميَّز به منهجُ؟

❍ التَّابعينَ. ❍ الصَّحابةِ. ❍ المدرسةِ العقليَّةِ. ❍ لا شيء ممَّا ذُكِر.

- اعتنىٰ السُّيوطيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «تفسيره» بـالتَّفسير: ❍ اللُّغويِّ. ❍ الفقهيِّ. ❍ بالمأثور.

- أسبابُ النُّزول المرويَّة عن الصَّحابيِّ لها حكم المَرفوع دائمًا: ❍ صح. ❍ خطأٌ.

- قالَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَالْآيَاتُ وَالْبَرَاهِينُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، وَهِيَ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ آيَاتِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُسَمِّيهَا مَنْ يُسَمِّيهَا مِنَ النُّظَّارِ (❍ مُعْجِزَاتٍ ❍ آيَاتٍ)، وَتُسَمَّىٰ (❍ دَلَائِلَ النُّبُوَّةِ ❍ أَعْلَامَ النُّبُوَّةِ ❍ الجميع)، وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ إِذَا سُمِّيَتْ بِهَا آيَاتُ الْأَنْبِيَاءِ كَانَتْ أَدَلَّ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ مِنْ لَفْظِ (❍ الْمُعْجِزَاتِ ❍ الآيَاتِ)، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَفْظُ (❍ الْمُعْجِزَاتِ ❍ الآيَاتِ) مَوْجُودًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا فِيهِ لَفْظُ (❍ الْآيَةِ ❍ الْبَيِّنَةِ ❍ الْبُرْهَانِ ❍ الجميع)».

- إذا فُسِّرَ القرآنُ الكريمُ أو تُرجِمَ فإنَّه تَفسيرَه وترجمَتَه: ❍ يُسَمَّيان قرآنًا. ❍ لا يُسَمَّيان قرآنًا.

- مِن صفاتِ القرآنِ الكريمِ: ❍ النُّور. ❍ العزيز. ❍ المُبارك. ❍ المجيد. ❍ المَوعظة.
❍ الكريم. ❍ المُبين. ❍ المُهيمن. ❍ البلاغُ. ❍ الحكيم.
- ترتيب المُصحَفِ: ❍ تَوقيفيٌّ. ❍ اجتِهاديٌّ.
- لا يجوزُ للقُرَّاءِ الاجتِهادُ في القِراءاتِ. ❍ صح. ❍ خطأ.
- أوَّلُ من أشارَ بجَمعِ القرآنِ الكريم هو: ❍ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ❍ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ❍ عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- من طُرُق مَعرفة النَّاسخ والمَنسوخ: تصريح الرَّاوي بتاريخ سَماعِه لهما. ❍ صح. ❍ خطأ.
- يَستدلُّ بخُطبة عُمر وتلاوتِه آية الرَّجم القائلون بجواز نسخ التِّلاوة دون الحكم.
❍ صح. ❍ خطأ.
- يصحُّ نسخ المُتواتر بالآحاد. ❍ صح. ❍ خطأ.

[٢] اجب عن كلٍّ ممَّا يلي:

- مَتَىٰ نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ؟ ....
- وَمَنْ نَزَلَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ ....
- ما هو أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ؟ ....
- اذكُر سببي نزولِ القرآنِ:

[١] .... [٢] ....

- ينقسِمُ القرآنُ باعتبارِ زمانِ نزولِه إلىٰ قسمين:

[١] .... [٢] ....

- بيِّن الحكمةَ مِن نزولِ القرآنِ مُفرَّقًا: ....

....

- كيفُ كانت كتابةُ القرآن وجمعُه علىٰ عهدِ النَّبيِّ ﷺ: ....

....

- جُمِع القرآنُ ثلاثَ مرَّاتٍ: في عهـدِ ....
ثمَّ في خلافةِ: .... ثمَّ ....
- اذكُر معنىٰ التَّفسيرِ:
لغةً: ....

اصطلاحًا: ....

- الْوَاجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ هو: ....

....

....

- الْمَرْجِعُ فِي التَّفْسِيرِ إِلَىٰ:

[١] .... [٢] ....

[٣] .... [٤] ....

[٥] ....

- اذكُرْ أَنْوَاعَ الاخْتِلَافِ الْوَارِدِ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ.:

[١] .... [٢] ....

[٣] ....

- المَقصودُ بترجمة القرآنِ:

لغةً: ....

اصطلاحًا: ....

- ترجمةُ القرآن علىٰ نوعين:

[١] .... وحكمه: ....

[٢] .... وحكمه: ....

- رتِّب العلوم الشَّرعيَّةَ التَّاليةَ:

( ) القراءات ( ) التَّفسير ( ) الفقه ( ) علوم القرآن ( ) الحديث ( ) الفرائض

[٣] أكمل ما يلي:

النَّسخ:	لغةً: ....
	اصطلاحًا: ....
	شرح التَّعريف: ....
	....

حكم النَّسخ:

[١] ....

[٢] ....

ما يمتنع نسخه:

[١] ....

[٢] ....

شروط النَّسخ:

[١] .... [٢] ....

[٣] ....

يكون العلم بتأخُّر النَّاسخ بـ:

[١] ....

[٢] ....

[٣] ....

حكمة نسخ اللَّفظ لا الحكم:

[١] ....

[٢] ....

حكمة نسخ الحكم لا اللَّفظ:

[١] ....

[٢] ....

أقسام النَّسخ باعتبار النَّصِّ:

[١] .... [٢] ....

[٣] ....

أقسام النَّسخ باعتبار النَّاسخ:

[١] .... [٢] ....

[٣] .... [٤] ....

الحكمة من النَّسخ:

[١] .... [٢] ....

[٣] .... [٤] ....

[٤] صِل فوائِدَ النُّزول مِن الحقلِ (أ) بأمثلَتِها من الحقلِ (ب):

(أ) فوائدُ أسباب النُّزول:	(ب) الأمثلةُ:
فهم الآية على الوجه الصحيح:	آية التَّيمُّم.
بيان عناية الله برسوله والدفاع عنه:	﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ ﴾

(أ) فوائدُ أسباب النُّزول:	(ب) الأمثلةُ:
	[الفرقان:٣٢].
بيان عناية الله بعباده في تفريج كُربهم:	﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾[البقرة:١٥٨].

[٥] أعطِ مثالاً لكلٍّ ممَّا يلي:

الموضوع:	مثاله:	الموضوع:	مثاله:
نسخ الكتاب بالإجماع:		نسخٌ بمعنىٰ الإزالة:	
نسخٌ بمَعنىٰ النَّقل:		خبرٌ لا يُمكن نسخُه:	
حكمٌ صالحٌ لكلِّ زمانٍ:		حكمٌ عُلِم تأخُّره بالنَّصِّ:	
حكمٌ عُلِم تأخُّره بخبر صحابيٍّ:		نسخٌ إلىٰ أثقلَ:	
		حكمٌ عُلِم تأخُّره بالتَّاريخ:	
نسخٌ إلىٰ أخفَّ:		نسخٌ إلىٰ مُساوٍ:	

[٦] أكمل ما يلي:

الـمَجاز:

هو: .... مثاله: ....

أقسام النَّاس فيه: [١] ....

[٢] .... [٣] ....

الرَّاجح: .... لأمورٍ: [١] ....

[٢] .... [٣] ....

[٤] .... [٥] ....

[٦] ....

لماذا ذُكِرَ في أصول الفقه؟ ....

التَّفسِيرُ

أوَّلاً: تَعرِيفُ التَّفْسِيرِ وَحُكْمُهُ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (التَّفْسِيرُ لُغَةً مِنَ الفَسْرِ، وَهُوَ: الْكَشْفُ عَنِ الْمُغَطَّىٰ، وَفِي الِاصْطِلَاحِ: بَيَانُ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَعَلُّمُ التَّفْسِيرِ وَاجِبٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمَّد].

وَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَىٰ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بَيَّنَ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ إِنْزَالِ هٰذَا الْقُرْآنِ الْمُبَارَكِ أَنْ يَتَدَبَّرَ النَّاسُ آيَاتِهِ، وَيَتَّعِظُوا بِمَا فِيهَا، وَالتَّدَبُّرُ هُوَ التَّأَمُّلُ فِي الْأَلْفَاظِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ مَعَانِيهَا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَاتَتِ الْحِكْمَةُ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ، وَصَارَ مُجَرَّدَ أَلْفَاظٍ لَا تَأْثِيرَ لَهَا، وَلِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الِاتِّعَاظُ بِمَا فِي الْقُرْآنِ بِدُونِ فَهْمِ مَعَانِيهِ.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَبَّخَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، وَأَشَارَ إِلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْإِقْفَالِ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، وَعَدَمِ وُصُولِ الْخَيْرِ إِلَيْهَا).

مَعنى التَّفسير:

[١] **لغةً:** (مِنَ الفَسْرِ، وَهُوَ: الْكَشْفُ عَنِ الْمُغَطَّىٰ)، ومن ذلك فَسْرُ. القِشر عن الثَّمرة حتَّىٰ يتبيَّن ما بداخل القشر.

[٢] **اصطلاحًا:** (بَيَانُ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ)، وأمَّا ما سوىٰ القرآن فيُسمَّىٰ في الواقع شرحًا، والفرق بينهما عُرفيٌّ.

حكم تفسير القرآن:

تفسير القرآن واجبٌ يأثم الإنسانُ بتركه؛ لأنَّ المقصود من إنزاله هو فهم مَعناه، والعملُ به، وإذا كنَّا لا نفهم المَعنىٰ صار القرآن كأنَّه عربيٌّ بين أعاجم.

هل فهمُ مَعنى القرآن صعبٌ؟

فهمُه ليس صعبًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧﴾[القمر]، أي: هل من مُتذكِّرٍ؟ والاستفهام للتَّشويق؛ لأنَّه لمَّا أخبر وأكَّد أنَّ الله تعالىٰ يسَّره للذِّكر شوَّق إلىٰ ادِّكاره وفهمه، فإذا أقبلت بصدقٍ لتفهم معنىٰ كلامه عَزَّوَجَلَّ فإنَّه لابدَّ أن يُيسَّر لك، إمَّا بفتحٍ يفتحُه الله عليك، وإمَّا بجلب عالمٍ يُبيِّن معناه، وإمَّا بكُتب تفسيرٍ تُوضِّح المَعنىٰ.

تنبيهٌ: تكرَّر قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ ثلاث مرَّاتٍ في سورة القمر، وجاءَ في كلِّ مرَّةٍ عقِبَ قصَّةٍ من قصَصِ الأمم الغابرَةِ، وقُصِدَ بالاستِفهامِ الأمرُ بالتَّذكُّرِ لا حَقيقةُ الاستفهام، والحِكمَةُ مِن التَّكرارِ التَّنبيهُ والتَّأكيدُ علىٰ ضرورة التَّدبُّر في أنباءِ الغابرين من الأمَمِ، والاعتبارِ بمَصيرِ العاصين المُكذِّبين منهم.

ذكرَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ تَيسيرَ اللهِ القرآنَ للذِّكرِ يتضمَّنُ:

- [١] تيسيرَ ألفاظِه للحِفظِ.
- [٢] تيسيرَ مَعانيه للفَهمِ.
- [٣] تيسيرَ أوامرِه ونَواهيه للامتِثالِ.

تعلُّم التَّفسير منه:

[١] **واجبٌ عينيٌّ:** وهو ما لا يسوغ جهلُه، يجب علىٰ كلِّ إنسانٍ أن يعرف ما أُمر به في القرآن الكريم؛ مثل قولِه تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[البقرة:٤٣] فيجب أن يعرف كيفيَّة إقامة الصَّلاة، وكيف يزكِّي إذا كان عنده مالٌ.

[٢] **واجبٌ كفائيٌّ:** وهو ما زاد علىٰ ذلك، فيجب علىٰ المسلمين عمومًا أن يقوموا به، فإن قام به أحدٌ يُكتفىٰ به لكونِه مَأمونًا مَوثوقًا مَرجعًا للمسلمين في التَّفسير حصل الواجبُ، ولا يُمكن للمسلمين أن يدعوا كتاب ربِّهم دون أن يفهموا مَعانيَه.

الحكمة من إنزال القرآن:

[١] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: اللَّام للتَّعليل، فيجب تدبُّر -أي: التَّأمُّل في- كلِّ الآيات:

[أ] **الطَّويلة**: مثل آية الدَّين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

[ب] **والقصيرة**: مثل: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ [المُدَّثِّر]، من الَّذي نظر؟ وهل نظر بفكره أم بعينه؟ ...

[٢] ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: ليتَّعظ أولو العقول، والعقل هو اللُّبُّ، ورجلٌ بلا عقل ليس برجلٍ في الواقع.

قال المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**لَا يُمْكِنُ الِاتِّعَاظُ بِمَا فِي الْقُرْآنِ بِدُونِ فَهْمِ مَعَانِيهِ**).

مَعنى الـمَوعظة والاتِّعاظ:

ليس هو لين القلب وخشوعُه وما أشبه ذلك فقط، وإنَّما الاتِّعاظ هو (**التزامُ الأحكام**)؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ﴾[النِّساء:٥٨].

دليلٌ آخر:

قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ استفهامٌ يُرادُ به التَّوبيخ، ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمَّد]، (أم) هنا بمَعنىٰ (بل)؛ فهي مُنقطعةٌ، والمَعنىٰ: بل قلوبُهم مُقفلةٌ عن تدبُّر القرآن، والأقفال جمع قُفل، وهو ما تُغلق به الأشياء، فلمَّا وبَّخ الله عَزَّ وَجَلَّ الَّذين لا يتدبَّرون القرآن، ووصَّفهم بأنَّ قلوبَهم مُغلقةٌ؛ دلَّ علىٰ أنَّ تدبُّر القرآن واجبٌ كما سبق.

فائدةٌ:

أوَّلُ علمٍ عُلِّمَه النَّبيُّ ﷺ هو علمُ التَّفسيرُ.

نزَلَ القرآنُ العظيمُ:

[١] **جملةً واحِدةً:** مِن اللَّوحِ المَحفوظِ إلىٰ السَّماءِ الدُّنيا في ليلَةِ القَدرِ، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾[القدر].

[٢] **مُنجَّمًا:** من السَّماءِ الدُّنيا علىٰ النَّبيِّ ﷺ، حسَبَ الحاجَةِ والمُناسبَةِ، ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[الإسراء:١٠٦].

قالَ المُصنِّف ﵀: (وَكَانَ سَلَفُ الْأُمَّةِ عَلَىٰ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ الْوَاجِبَةِ، يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ أَلْفَاظَهُ وَمَعَانِيَهُ؛ لِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَتَمَكَّنُونَ مِنَ الْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ عَلَىٰ مُرَادِ اللهِ بِهِ، فَإِنَّ الْعَمَلَ بِمَا لَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ، وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِؤُونَنَا الْقُرْآنَ كَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا).

أثر أبي عبد الرَّحمن السُّلميِّ أخرجه أحمد في «المُسند» وابن أبي شيبة في «المُصنَّف»، وهو من رواية عطاء بن السَّائب، وقد اختلط في آخر عمره، ففي صحَّة الخبر خلافٌ.
وهذا الَّذي كان عليه الصَّحابة هو الَّذي ينبغي أن نكون عليه؛ نتعلَّم المعنىٰ ثمَّ نعمل به.

قالَ المُصنِّف ﵀: (قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: وَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ الْعِلْمِ كَالطِّبِّ وَالْحِسَابِ وَلَا يَسْتَشْرِحُونَهُ، فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ، وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ، وَدُنْيَاهُمْ؟
وَيَجِبُ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ عَنْ طَرِيقِ الْكِتَابَةِ أَوِ الْمُشَافَهَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وَتَبْيِينُ الْكِتَابِ لِلنَّاسِ شَامِلٌ لِتَبْيِينِ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، فَيَكُونُ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ مِمَّا أَخَذَ اللهُ الْعَهْدَ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ بِبَيَانِهِ.
وَالْغَرَضُ مِنْ تَعَلُّمِ التَّفْسِيرِ هُوَ الْوُصُولُ إِلَىٰ الْغَايَاتِ الْحَمِيدَةِ، وَالثَّمَرَاتِ الْجَلِيلَةِ، وَهِيَ التَّصْدِيقُ بِأَخْبَارِهِ، وَالِانْتِفَاعُ بِهَا، وَتَطْبِيقُ أَحْكَامِهِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي أَرَادَهُ اللهُ؛ لِيُعْبَدَ اللهُ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ.).

كان الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يمتثلون ما أُمروا به في القرآن، رجالُهم ونساؤُهم، فإذا نزلت آياتٌ في البيع تعلَّموها وعملوا بها، وامتثلوا أمره الله عَزَّوَجَلَّ وأمر رسوله ﷺ امتثالًا تامًّا؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾[الجمعة:٩].

هل يجبُ على العلماءِ أن يُبيِّنوا للنَّاسِ مَعنى القرآن ولو لم يسألوهم؟

نعم، يجب عليهم البيان سواءٌ سألوهم بلسان المَقال، أو بلسان الحال، فإذا سمع أنَّ النَّاس يُفسِّرون بعض الآيات علىٰ غير ما أراده الله؛ فالواجب عليه أن يُبيِّن المَعنىٰ الَّذي أراده الله عَزَّوَجَلَّ، والعوامُّ قد يُفسِّرون القرآن علىٰ غير مُراد الله عَزَّوَجَلَّ، بل قد يصنعون آياتٍ من عندِهم! وينبغي للعالم وطالب العلم أن يجعل للعامَّة مجلسًا لتفسير القرآن.

الغرض من تعلُّم التَّفسير:

[١] **تصديقُ الأخبار والانتفاعُ بها:** فإذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾ [النِّساء]؛ فهذا خبرٌ، فتصدِّق بأنَّ الله سميعٌ بصيرٌ، وتنتفع بخشية الله فلا تقول ما يسمع الله عَزَّوَجَلَّ منك ممَّا لا يرضاه، ولا تفعل ما يبصره عَزَّوَجَلَّ منك ممَّا لا يرضاه، قال تعالىٰ عن قصص الأنبياء السَّابقين: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾[يوسف:١١١].

[٢] **تطبيق الأحكام على مُراد اللَّه:** فتعبد الله علىٰ بصيرةٍ، وتعرف كيف تعبد الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما أراده منك.

هل فسَّر النَّبيُّ ﷺ القرآنَ كاملاً؟

قالَ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ لِأَصْحَابِهِ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَلْفَاظَهُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾[النَّحل:٤٤] يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا، وَقَدْ قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ كَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا».

ثَانِيًا: الْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ أَنْ يُشْعِرَ نَفْسَهُ حِينَ يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ مُتَرْجِمٌ عَنِ اللهِ تَعالَىٰ، شَاهِدٌ عَلَيْهِ بِمَا أَرَادَ مِنْ كَلَامِهِ، فَيَكُونُ مُعَظِّمًا لِهَذِهِ الشَّهَادَةِ، خَائِفًا مِنْ أَنْ يَقُولَ عَلَىٰ اللهِ بِلَا عِلْمٍ، فَيَقَعَ فِيمَا حَرَّمَ اللهُ، فَيَخْزَىٰ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٣﴾[الأعراف]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾[الزُّمر]).

المُفسِّر لكلام اللَّه عَزَّوَجَلَّ بمثابة:

[١] المُترجم عنه: فليحذر أن يقول: (أراد الله كذا) كاذبًا علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وهو لم يُرده.

[٢] الشَّاهد عليه: أنَّه أراد بكلامه كذا وكذا.

من أمثلة التَّفسير الخاطئ:

[١] ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾[النَّمل:٨٨]: فسَّرها بعض المُتأخِّرين بأنَّ المُراد بها في الدُّنيا، وأنَّ هذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ الأرض تدور، فنسألهم:

هل التَّرجمة مُطابقةٌ للمُترجَم؟

وهل تشهدون علىٰ الله بأنَّه أراد هذا المَعنىٰ شهادةً تُسألون عنها؟

[٢] ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾ [الرَّحمن:٣٤]: فسَّرها بعض المُتأخِّرين بالأقمار الصِّناعيَّة، ووصول النَّاس إلىٰ الفضاء الخارجيِّ، وأنَّهم بذلك نفذوا من أقطار السَّموات والأرض، وهذا لا شكَّ أنَّه تحريفٌ.

دليل تحريم القول على الله عَزَّوَجَلَّ بغير علمٍ في التَّفسير وغيره:

قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾ فيها حصرٌ، بمعنىٰ: لم يحرِّم إلَّا ما ذكر هنا، ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ جمع فاحشةٍ، وهي: (**كلُّ ما يُستَفحش شرعًا أو عقلًا**)، ولا يُقال: عادةً؛ لأنَّ عادة النَّاس قد تجيز المُنكر شرعًا، والغالب أنَّ الشَّرع والعقل مُتلازمان، فكلُّ ما يستفشحه الشَّرع يستفحشه العقل، لكن قد يستفحش العقل شيئًا لا يستفحشه الشَّرع.

﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ تحتمل معنيين:

الأوَّل: ما ظهر للنَّاس وما خفي عليهم، **والثَّاني**: ما ظهر فُحشُه، وما خفي فُحشُه.

﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾ كلُّ ما يأثم به الإنسان، ﴿وَٱلۡبَغۡيَ﴾ أي: العدوان علىٰ النَّاس، ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، فكلُّ بغيٍ هو بغير حقٍّ، ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾ في ذاته عَزَّوَجَلَّ، وفي رُبوبيَّته، وفي ألوهيَّته، وفي أسمائه وصفاته، ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنًا﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾[الأعراف] سواءٌ في تفسير كلامه، أو إثبات أحكامه، أو نفيها، أو غير ذلك.

وهذه الآية جاءت علىٰ وجه التَّرقِّي، فأشدُّ المُحرَّمات المَذكورة أن يقول الإنسان علىٰ الله ما لا يعلم؛ وهو أشدُّ من الشِّرك في أنَّ إفساده يتعدَّاه إلىٰ غيره، بخلاف الشِّرك.

جزاء الكاذب على الله عَزَّوَجَلَّ في التَّفسير:

قال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾[الزُّمر]، فالَّذي يُفسِّر القرآن بغير ما أراد الله كاذبًا علىٰ الله يكون وجهه -بلا شكٍّ- ممَّن قال الله فيهم: ﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾.

فالتَّفسير خطيرٌ، لكن مع ذلك هو مع النِّيَّة الصَّادقة يسيرٌ، ييسِّره الله ويسهِّله ويوفِّق الإنسان للصَّواب فيه.

ثَالِثًا: الْمَرْجِعُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (يُرْجَعُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ إِلَىٰ مَا يَأْتِي:

أ. كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ: فَيُفَسَّرُ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ بِهِ.

وَلِذَلِكَ أَمْثِلَةٌ مِنْهَا:

أَوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس]، فَقَدْ فَسَّرَ أَوْلِيَاءَ اللهِ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس]

ثَانِيًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾ [الطَّارق]، فَقَدْ فَسَّرَ الطَّارِقَ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطَّارق].

ثَالِثًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النَّازعات]، فَقَدْ فَسَّرَ ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَتَيْنِ بَعْدَهَا: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النَّازعات]).

مَراجع تفسير القرآن خمسةٌ:

[١] القرآن: أولىٰ ما يُفسَّر به القرآن هو القرآن؛ لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أعلم بمُراده من غيره.	**[٢] السُّنَّة:** فالنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبلِّغٌ عن ربِّه، وهو أعلم النَّاس بمُراد الله عَزَّ وَجَلَّ.	**[٣] كلام الصَّحابة:** فالقرآن نزل في عصرهم، وبلغتهم، وهم أصدق النَّاس بعد الرُّسل.	**[٤] كلام التَّابعين:** فهم الَّذين أخذوا التَّفسير عن الصَّحابة ونقلوه لنا.	**[٥] ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشَّرعيَّة واللُّغويَّة:** والأصل تقديم المَعنىٰ الشَّرعي علىٰ اللُّغويِّ إلَّا لدليل يدلُّ علىٰ إرادة اللُّغويِّ.

المثال الأوَّل لتفسير القرآن بالقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيما يُستقبَلُ، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ فيما مضىٰ؛ لأنَّه قد فات ما مضىٰ بالإيمان والتَّقوىٰ، والحزن يكون علىٰ فوات المَحبوب، وفسَّر عَزَّوَجَلَّ الأولياء فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾[يونس]، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا».

حكم من ادَّعى الولاية:

من قال: (أنا وليٌّ لله)؛ قلنا: القرآن يكذِّبك، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾[يونس]، وقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[النَّجم:٣٣]، وأنت زكَّيت نفسك، فلم تتَّق الله، فلست بوليٍّ.

ومن زاد علىٰ ذلك فقال مثلًا: (أنا وليٌّ لله، فيحلُّ لي أن أتزوَّج خمسين امرأةً) وغير ذلك، قلنا: أنت من أعداء الله.

ونقل شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عبد القادر الجيلانيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: (كُنْت مَرَّةً فِي الْعِبَادَةِ فَرَأَيْت عَرْشًا عَظِيمًا وَعَلَيْهِ نُورٌ فَقَالَ لِي: يَا عَبْدَ الْقَادِرِ أَنَا رَبُّك وَقَدْ حَلَلْت لَك مَا حَرَّمْت عَلَىٰ غَيْرِك، قَالَ: فَقَلَتْ لَهُ: أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ؟! اخْسَأْ يَا عَدُوَّ اللهِ، قَالَ: فَتَمَزَّقَ ذَلِكَ النُّورُ وَصَارَ ظُلْمَةً، وَقَالَ: يَا عَبْدَ الْقَادِرِ؛ نَجَوْت مِنِّي بِفِقْهِك فِي دِينِك، وَعِلْمِك وَبِمُنَازَلَاتِك فِي أَحْوَالِك).

المثال الثَّاني لتفسير القرآن بالقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١﴾، كونُ الواو في (وَٱلطَّارِقِ) للقسم أولىٰ من كونها عاطفةً؛ ليكون ما بعدها مُستقلًّا، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢﴾، وفسَّر الله عَزَّوَجَلَّ الطَّارق بقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣﴾[الطَّارق] أي: الثَّاقب للظَّلام بنوره، والثَّاقب للشَّياطين الَّذين يسترِقون السَّمع؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠﴾[الصَّافَّات].

المثال الثَّالث لتفسير القرآن بالقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[النَّازعات]، هذه الآية مُشكلةٌ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[فُصِّلت].

وفسَّر الله عَزَّوَجَلَّ الدَّحو بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النَّازعات].

أمثلَةٌ أخرى لتفسير القرآن بالقرآن:

الآيةُ:	تفسيرُها:
﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾[الطَّارق].	﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾[الطَّارق].
﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢].	﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[لقمان].
﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[المائدة:١].	﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ...﴾[المائدة:٣].
﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾[النَّازعات].	﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النَّازعات]
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾[آل عمران].	قُيِّدَت بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[النِّساء:١٨].

الآيةُ:	تفسيرُها:
﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾[البقرة:٢٢٨].	خُصِّصَت بقولِه تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾[الطَّلاق:٤]، وقولِه: ﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ﴾[الأحزاب:٤٩].
﴿حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾[هود].	﴿حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾[الذَّاريات].
﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾[المعارج].	﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١﴾[المعارج].
﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾[المُطفِّفين].	خُصِّصَت بقولِه تعالىٰ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾[القيامة].

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ:

(كَلَام رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيُفَسَّرُ الْقُرْآنُ بِالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمُرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ كَلَامِهِ.

وَلِذَلِكَ أَمْثِلَةٌ مِنْهَا:

أَوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[يونس:٢٦]، فَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الزِّيَادَةَ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ، فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ صَرِيحًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَرَوَاهُ جَرِيرٌ مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثٍ قَالَ فِيهِ: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾.

ثَانِيًا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الْقُوَّةَ بِالرَّمْيِ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ).

تنبيهٌ مهمٌّ:

عند تفسير القرآن بالسُّنَّة أو بكلام الصَّحابة لابدَّ من مُلاحظة أنَّه قد يكون من باب ذكر بعض أنواع ما يدخل في الآية، لا أنَّ المُرادَ تفسيرُ كلِّ المَعنىٰ.

المثال الأوَّل لتفسير القرآن بالسُّنَّة:

قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ، ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مُبتدأٌ مُؤخَّرٌ، أي: الدَّارُ الحُسنىٰ، وهي الجنَّة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، قال النَّبيُّ ﷺ -كما في «صحيح مسلمٍ» من حديث صهيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «**فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ**»، وتلا الآية، وتلاوتُه ﷺ للآية تدلُّ علىٰ أنَّ رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ هي الزِّيادة المَذكورة.

المثال الثَّاني لتفسير القرآن بالسُّنَّة:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ أي: الكفَّار ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فما المَقصود بالقوَّة هنا؟ أخرج مسلمٌ من حديث عقبة بن عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ تلا الآية علىٰ المنبر ثمَّ قال: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»، والرَّمي أكمل القوَّة، ولهذا أجاز الشَّرعُ المُسابقة بالرَّمي بعِوضٍ.

السِّلاح نوعان:

[١] **السِّلاح الأبيض:** كالسَّكاكين والسُّيوف وما أشبهها.

[٢] **الرَّمي:** وهو أقوىٰ؛ لأنَّه يكون من بعيدٍ، فهو أبلغ من المُلاقاة باليد.

والرَّمي يختلف من زمنٍ لآخر، كان في عهد النَّبيِّ ﷺ بالنِّبال وما أشبهها، ثمَّ صار بالبندقيَّة، ثمَّ صار في يومِنا بالصَّواريخ عابرة القارَّات

أمثلَةٌ أخرى لتفسير القرآن بالسُّنَّةِ:

الآيةُ:	تفسيرُها:
﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾[البقرة:١٨٧].	قال ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ». متَّفقٌ عليه.
﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨].	قُيِّدَت بقولِه ﷺ: «تُقْطَعُ الْيَدُ فِي رُبُعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا». متَّفقٌ عليه. وبقولِه ﷺ: «اقْطَعُوا يَدَهَا». أخرَجَه أحمَدُ.
﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾[الكوثر].	«نَهَرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ». متَّفقٌ عليه واللَّفظُ لمسلم.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ج. (كَلَامِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لَاسِيمَا ذَوُو الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْعِنَايَةِ بِالتَّفْسِيرِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ، وَفِي عَصْرِهِمْ، وَلِأَنَّهُمْ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ أَصْدَقُ النَّاسِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ، وَأَسْلَمُهُمْ مِنَ الْأَهْوَاءِ، وَأَطْهَرُهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ التَّوْفِيقِ لِلصَّوَابِ.

وَلِذَلِكَ أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النِّساء: ٤٣]، فَقَدْ صَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ فَسَّرَ الْمُلَامَسَةَ بِالْجِمَاعِ).

هل الصَّحابةُ سواءٌ في تفسير القرآن؟

المَرجعُ في تفسير القرآن إلىٰ ذوي العلم من الصَّحابة، المُعتَنين بالتَّفسير، والصَّحابة درجاتٌ في العلم والفقه.

سبب تقديم الصَّحابة على غيرِهم في التَّفسير:

[١] **أنَّ القرآن نزل بلغتهم وفي عصرِهم:** فكان ﷺ يخطبُهم بسورة ق، ولو خطبت بها الآن لم تكف؛ لأنَّ النَّاس لا يستفيدون منها إلَّا ما قد يحصُل من ترقيق قلوبهم.

[٢] **أنَّهم أصدقُ النَّاس بعد الرُّسل:** في طلب الحقِّ، لا شكَّ في ذلك.

[٣] **وأسلمُهم من الأهواء:** وإنَّما افترقت الأمَّة وكثرت الأهواء بعدَهم، أمَّا في عهدهم فقليلٌ إن لم نقل مَعدومٌ.

[٤] **وأطهرُهم من مُخالفة أمر الله:** فمُخالفةُ أمر الله ﷻ ومَعصيتُه تحولان بين المرء وبين التَّوفيق للصَّواب.

القرآن نزل:

[١] **بلغةِ الصَّحابة:** فهم أولىٰ بمعرفة مَعناه من غيرهم.

مثالُه: في «صحيح البخاريِّ»: (كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يُدْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: إِنَّ لَنَا أَبْنَاءَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ تَعْلَمُ، فَسَأَلَ عُمَرُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾[النَّصر]، فَقَالَ: أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ، قَالَ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ).

[٢] **في عصرِ الصَّحابة:** فيعرفون القرائن الَّتي يُراد بها المَعنىٰ.

مثالُه: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[البقرة:١٥٨]، فهم منها الصَّحابة وجوب السَّعي لا إباحتَه وعدمَ تحريمه، وذلك لأنَّهم كانوا يتحرَّجون من الطَّواف بينهما لظنِّهم أنَّه من أمر الجاهليَّة، فنزلت الآية ترفع عنهم الحرج.

تنبيهٌ مُهمٌّ:

الصَّحابة أعلم الخلق بعد النَّبيِّ ﷺ بتفسير كلام الله عَزَّوَجَلَّ، لا سيما فيما يتعلَّق بالأحكام، وما يتعلَّق بالفقه في الدِّين، وبالعقيدة، أمَّا ما يتعلَّق بالعلوم الفلكيَّة أو الأرضيَّة فقد يكون مَن بعدهم عنده علمٌ كثيرٌ؛ لأنَّهم أوتوا من وسائل الوصول إلىٰ هذه المَعلومة ما لم يُؤتَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

مثال تفسير الصَّحابة للقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ لا تستطيعون الطَّهارة بالماء، ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وليس عندكم ماءٌ، ﴿أَوۡ﴾ بمعنىٰ الواو ﴿جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ إشارةٌ إلىٰ مُوجِب الوضوء، ﴿أَوۡ﴾ للتَّقسيم ﴿لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[النِّساء:٤٣] إشارةٌ إلىٰ مُوجِب الغسل، وليس مَعناها اللَّمس باليد؛ لأنَّ اللَّمس باليد مُوجِبٌ للوضوء، وليس من البلاغة الإشارة إلىٰ مُوجِبين من مُوجِبات الوضوء وإغفال مُوجِبات الغُسل.

وبهذا يتبيَّن كمال فقه ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ معنىٰ ﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾: جامعتم.

وجاء في قراءةٍ سبعيَّةٍ: (أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ)، وهما بمعنًىٰ، لكن لمَّا كان الجماع قد يحصل به التَّلذُّذ من جانبٍ واحدٍ أو من الجانبين جاءت المُفاعلةُ: ﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾، وكلامُ الله عَزَّوَجَلَّ يُفسِّر بعضُه بعضًا، فالآية بمعنىٰ الجاع علىٰ التَّقديرين، فلا نعدل إلىٰ غيرِه.

من بلاغة هذه الآية أنَّها تضمَّنت:

- [١] نوعين ممَّا يُتطهَّر به:
  - [أ] الماء: وهو الأصل.
  - [ب] التُّراب: عند عدم الماء.
- [٢] نوعين من الطَّهارة:
  - [أ] الوضوء.
  - [ب] الغُسل.
- [٣] نوعين ممَّا يُتطهَّر منه:
  - [أ] الغائط: إشارةً إلىٰ موجبات الوضوء.
  - [ب] مُلامسة النِّساء: إشارةً إلىٰ موجبات الغُسل.

اختلف الفقهاء في نقض الوضوء بمسِّ المرأة على ثلاثة أقوالٍ:

[١] **الأوَّل:** أنَّه ينقض الوضوء مُطلقًا، فإذا قدم الرَّجل من سفرٍ وهو مُتوضِّئٌ فصافح ابنته وجب عليه الوضوءُ!

[٢] **الثَّاني:** أنَّه لا ينقض الوضوء مُطلقًا، ولو كان بشهوةٍ، وهو الصَّحيح، وفي «مُصنَّف عبد الرَّزَّاق» عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (مَا أُبَالِي قَبَّلْتُهَا أَوْ شَمَمْتُ رَيْحَانًا)، وكذلك لا ينتقض الصَّوم به.

[٣] **الثَّالث:** أنَّه إذا كان بلذَّةٍ ينقض الوضوء، وإذا كان بغير لذَّةٍ لا ينقض الوضوء.

أمثلةٌ لتَفسير القرآن بالإجماع الـمُنعَقِد بين الصَّحابَة ومَن بعدَهم:

الآيةُ:	تفسيرُها:
﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ﴾[النِّساء:١٢].	أي: أخٌ أو أختٌ لأمٍّ، ولا يَدخُلُ فيها الإخوَةُ الأشقَّاءُ أو لأبٍ؛ لأنَّهم عصبةٌ.
﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾[الطَّلاق:٢].	أي: إذا قارَبن أجلهنَّ، أمَّا إذا انقضىٰ أجلُهنَّ فلا رجعةَ.
﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر].	أي: حتَّىٰ يأتِيَك المَوتُ، وأمَّا ما ذهَبَ إليه الصُّوفِيَّةُ من انقِطاعِ التَّكليفِ فمُخالِفٌ للإجماع، ولا عِبرَةَ به.
﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ [يوسف:١٠٠].	أي: سَجدوا تحيَّةً له، لا عِبادَةً له -عِياذًا باللهِ-، وكانَ سجودُ التَّحِيَّةِ سائغًا في شَريعَتِهم، ثمَّ نُسِخَ في شَرعِنا.
﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة:٥٤].	أي: فليَقتُل بعضُكم بعضًا، وأمَّا قَتلُ الإنسانِ نَفسَهُ فمُحرَّمٌ في كلِّ الشَّرائِع.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

د. (كَلَامِ التَّابِعِينَ الَّذِينَ اعْتَنَوْا بِأَخْذِ التَّفْسِيرِ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ التَّابِعِينَ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ الصَّحَابَةِ، وَأَسْلَمُ مِنَ الْأَهْوَاءِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ، وَلَمْ تَكُنِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَغَيَّرَتْ كَثِيرًا فِي عَصْرِهِمْ، فَكَانُوا أَقْرَبَ إِلَى الصَّوَابِ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: إِذَا أَجْمَعُوا -يَعْنِي التَّابِعِينَ- عَلَى الشَّيْءِ فَلَا يُرْتَابُ فِي كَوْنِهِ حُجَّةً، فَإِنِ اخْتَلَفُوا فَلَا يَكُونُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ حُجَّةً عَلَى بَعْضٍ، وَلَا عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَيُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ، أَوِ السُّنَّةِ، أَوْ عُمُومِ لُغَةِ الْعَرَبِ، أَوْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ أَيْضًا: مَنْ عَدَلَ عَنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفْسِيرِهِمْ إِلَى مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ كَانَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ؛ بَلْ مُبْتَدِعًا، وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مَغْفُورًا لَهُ خَطَؤُهُ، ثُمَّ قَالَ: فَمَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ وَفَسَّرَ الْقُرْآنَ بِخِلَافِ تَفْسِيرِهِمْ، فَقَدْ أَخْطَأَ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ جَمِيعًا).

من أسباب تقديم تفسير التَّابعين على تفسير مَن بعدهم:

[١] أنَّهم أفضل ممَّن بعدهم، قال النَّبيُّ ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**». مُتَّفقٌ عليه. والمُراد بالتَّخيير الجنسُ، فجنسُ الصَّحابة هو الأَخْيَرُ، ثمَّ جنسُ التَّابعين، وقد يوجدُ في التَّابعين من هو خيرٌ من بعض الصَّحابة في العلم والدِّين، لا في الصُّحبة.

[٢] أنَّهم (**أَسْلَمُ مِنَ الْأَهْوَاءِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ**) لا مَن قبلهم، ولهذا تجد كلامَ بعض التَّابعين يكاد يكون مثل كلام الصَّحابة، حتَّى إنَّك أحيانًا لا تكاد تُميِّز بين أثر التَّابعيِّ وأثر الصَّحابيِّ.

[٣] (**لَمْ تَكُنِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَغَيَّرَتْ كَثِيرًا فِي عَصْرِهِمْ**)، وإنَّما تغيَّرت كثيرًا لمَّا فتح المسلمون البلاد، وامتزجوا بأهلها، فأخذوا منهم كلماتٍ، وتأثَّروا بلغاتهم.

ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ التَّابعين قد:

[١] **يُجمعون على تفسيرٍ مُعيَّن:** فإجماعُهم حجَّةٌ علىٰ مَن بعدهم، ليس لأحدٍ أن يخالفهم فيه.

[٢] **يختلفون في التَّفسير:** فلا يكون قولُ بعضهم حجَّةً علىٰ بعضٍ، وإنَّما يُنظر إلىٰ ما يرجِّحه الدَّليل.

التَّرجيح بين تفاسير التَّابعين يكون بـ:

[١] لغة القرآن: وهي الحقيقة الشَّرعيَّة.

[٢] لغة السُّنَّة.

[٣] أقوال الصَّحابة.

[٤] عموم لغة العرب.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

٥. (مَا تَقْتَضِيهِ الْكَلِمَاتُ مِنَ الْمَعَانِي الشَّرْعِيَّةِ أَوِ اللُّغَوِيَّةِ حَسَبَ السِّيَاقِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النِّساء: ١٠٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزُّخرف]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

فَإِنِ اخْتَلَفَ الْمَعْنَىٰ الشَّرْعِيُّ وَاللُّغَوِيُّ أُخَذَ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعِيُّ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ لِبَيَانِ الشَّرْعِ، لَا لِبَيَانِ اللُّغَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ دَلِيلٌ يَتَرَجَّحُ بِهِ الْمَعْنَىٰ اللُّغَوِيُّ فَيُؤْخَذُ بِهِ.

مِثَالُ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْمَعْنَيَانِ وَقُدِّمَ الشَّرْعِيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التَّوبة:٨٤]، فَالصَّلَاةُ فِي اللُّغَةِ الدُّعَاءُ، وَفِي الشَّرْعِ هُنَا الْوُقُوفُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ لِلدُّعَاءِ لَهُ بِصِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ، فَيُقَدَّمُ الْمَعْنَىٰ الشَّرْعِيُّ؛ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ لِلْمُتَكَلِّمِ، الْمَعْهُودُ لِلْمُخَاطَبِ، وَأَمَّا مَنْعُ الدُّعَاءِ لَهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِطْلَاقِ فَمِنْ دَلِيلٍ آخَرَ.

وَمِثَالُ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْمَعْنَيَانِ وَقُدِّمَ فِيهِ اللُّغَوِيُّ بِالدَّلِيلِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التَّوبة: ١٠٣]، فَالْمُرَادُ بِالصَّلَاةِ هُنَا الدُّعَاءُ، وَبِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِصَدَقَةِ قَوْمٍ صَلَّىٰ عَلَيْهِمْ، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ».

وَأَمْثِلَةُ مَا اتَّفَقَ فِيهِ الْمَعْنَيَانِ الشَّرْعِيُّ وَاللُّغَوِيُّ كَثِيرَةٌ؛ كَالسَّمَاءِ، وَالْأَرْضِ، وَالصِّدْقِ، وَالْكَذِبِ، وَالْحِجْرِ، وَالْإِنْسَانِ).

من أدلَّة اعتبار المعنى اللُّغويِّ في التَّفسير:

[١] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النِّساء: ١٠٥]: قال بعض أهل العلم: إذا نزلت بك نازلةٌ فقدِّم بين يدي حلِّها الاستغفارَ؛ لأنَّ المَعاصيَ تَحولُ بين الإنسان والحقِّ والتَّوفيق للصَّواب.

[٢] ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزُّخرف]: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: صيَّرناه، لأنَّ الفعل (جعل) تعدَّىٰ إلىٰ مفعولين، وليس كما قالت الجهميَّة: خلقناه، وكذلك ليس معناه أنَّ القرآن كان بغير العربيَّة ثمَّ نُقل وصُيِّر إليها.

[٣] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي: بلغتهم، ويُستفادُ منها جواز مُخاطبة مَن لا يفهم العربيَّة بلغته الَّتي يفهمها.

القاعدة:

المَعنىٰ اللُّغويُّ مُعتبرٌ في التَّفسير، لكنَّ الأصل أنَّ المَعنىٰ الشَّرعيَّ مُقدَّمٌ عليه إذا وُجد، إلَّا إذا دلَّ دليلٌ علىٰ تقديم المَعنىٰ اللُّغويِّ فيُعمَلُ به.

مثال ذلك: حكم:

[١] الصَّلاة على المُنافق والكافر:

حرامٌ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا ﴾[التَّوبة:٨٤]، فنقدِّم المَعنىٰ الشَّرعيَّ للصَّلاة -أي: صلاة الجنازة المَعروفة- علىٰ المَعنىٰ اللُّغويِّ وهو الدُّعاء.

[٢] الدُّعاء للمُنافق والكافر بعد موته:

حرامٌ كذلك؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾[التَّوبة:١١٣]، ولقوله ﷺ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي**». أخرجه مسلمٌ.

يُستثنىٰ من ذلك شفاعتُه ﷺ في عمِّه أبي طالبٍ، فقد أذن له الله عَزَّوَجَلَّ فيها، قال ﷺ: «**فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ**». مُتَّفقٌ عليه. وسبب إذن الله عَزَّوَجَلَّ له في أن يشفع في عمِّه دون أبيه وأمِّه أنَّ عمَّه نصره ودافع عنه، وذبَّ عن الإسلام.

مثال تقديم المَعنىٰ اللُّغويِّ علىٰ الشَّرعيِّ:

قال تعالىٰ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾[التَّوبة:١٠٣]، نحملُها علىٰ المَعنىٰ اللُّغويِّ للصَّلاة، أي: ادعُ لهم، وذلك لحديث ابن أبي أوفىٰ في «الصَّحيحين»: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَةٍ قَالَ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ**»، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ**».

مثال اتِّفاق المَعنىٰ اللُّغويِّ مع الشَّرعيِّ:

لفظ (السَّماء) مَعناه في اللُّغة: العلوُّ، أو السَّقف المَرفوعُ، وكذا في الشَّرع، قال تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[المُلك:١٦] أي: في العُلُوِّ، وقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ﴾ [الذَّاريات:٤٧] أي: السَّماء المَبنيَّةُ الَّتي هي السَّقف المَرفوع.

رَابِعًا: الِاخْتِلافُ الْوارِدُ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الِاخْتِلَافُ الْوَارِدُ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَام:
الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: اخْتِلَافٌ فِي اللَّفْظِ دُونَ الْمَعْنَىٰ، فَهَذَا لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي مَعْنَىٰ الْآيَةِ، مِثَالُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿قَضَىٰ﴾ أَمَرَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: وَصَّىٰ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: أَوْجَبَ، وَهَذِهِ التَّفْسِيرَاتُ مَعْنَاهَا وَاحِدٌ أَوْ مُتَقَارِبٌ، فَلَا تَأْثِيرَ لِهَذَا الِاخْتِلَافِ فِي مَعْنَىٰ الْآيَةِ).

أقسامُ الاختلافِ الواردِ في التَّفسيرِ بالـمَأثورِ:

- [١] الاختلاف في اللَّفظ دون الـمَعنى: فلا تأثير له على معنى الآية.
- [٢] الاختلافُ في اللَّفظ والمَعنى، والآية تحتملُ الـمَعنيين: فتُحملُ الآية على المَعنيين معًا؛ لأنَّه لا تضادَّ بينهما.
- [٣] الاختلافُ في اللَّفظ والمَعنى، والآية لا تحتملُ الـمَعنيين: فيُرجَّحُ بينهما بما يقتضيه السِّياق، وغير ذلك من القرائن.

قاعدَتان مهمَّتان:

الأولى: بابُ بَيانِ مَعاني القُرآنِ الكريمِ قد بيَّنه القرآنُ، والسُّنَّةُ، والصَّحابةُ، والتَّابعون، فإذا اختلف الصَّحابةُ والتَّابعونَ علىٰ قَولين فلا يجوزُ إحداثُ قولٍ ثالثٍ، بخِلافِ بابِ الاستِدلالِ والاستِنباطِ من الآياتِ، فهو جائزٌ بشروطِه.

الثَّانيَةُ: بابُ بيانِ المَعاني أضيَقُ من بابِ الاستدلالِ في تفسير القرآنِ الكريمِ.

مثالُ القسم الأوَّل:

قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]، ذكر المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ لفظ (قضىٰ) فُسِّر علىٰ ثلاثة معانٍ: (أَمَرَ)، و(وَصَّىٰ)، و(أَوْجَبَ)، وكلُّها مَعانيها مُتقاربةٌ، فلا تضادَّ بينها، ولهذا لا يُمكن أن يُقال بأنَّ في تفسير الآية ثلاثة أقوالٍ، فلا تأثير للاختلاف.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (الْقِسْمُ الثَّانِي: اخْتِلَافٌ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَىٰ، وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيَيْنِ؛ لِعَدَمِ التَّضَادِّ بَيْنَهُمَا؛ فَتُحْمَلُ الْآيَةُ عَلَيْهِمَا، وَتُفَسَّرُ بِهِمَا، وَيَكُونُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا الِاخْتِلَافِ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ ذُكِرَ عَلَىٰ وَجْهِ التَّمْثِيلِ لِمَا تَعْنِيهِ الْآيَةُ، أَوِ التَّنْوِيعِ.

مِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾[الأعراف]، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَقِيلَ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَلْقَاءِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ: أَنْ تُحْمَلَ الْآيَةُ عَلَيْهَا كُلِّهَا؛ لِأَنَّهَا تَحْمِلُهَا مِنْ غَيْرِ تَضَادٍّ، وَيَكُونُ كُلُّ قَوْلٍ ذُكِرَ عَلَىٰ وَجْهِ التَّمْثِيلِ.

وَمِثَالٌ آخَرُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾﴾[النَّبأ]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿دِهَاقٗا﴾ مَمْلُوءَةً، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُتَتَابِعَةً، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: صَافِيَةً، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، وَالْآيَةُ تَحْتَمِلُهَا، فَتُحْمَلُ عَلَيْهَا جَمِيعًا، وَيَكُونُ كُلُّ قَوْلٍ لِنَوْعٍ مِنَ الْمَعْنَىٰ).

المثال الأوَّل للقسم الثَّاني:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: تخلَّىٰ عنها، كما ينسلخ جلد الشَّاة، ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: اتَّبعه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾[الأعراف] فالله عَزَّوَجَلَّ يرفع بالعلم أقوامًا في الدُّنيا والآخرة، أو في الآخرة دون الدُّنيا، ويضع به آخرين، فاختُلف في الرَّجل المَذكور في الآية، فقيل: من بني إسرائيل، وقيل: من اليمن، وقيل: من البلقاء، وهذا اختلافٌ في اللَّفظ والمَعنىٰ، إلَّا أنَّه يمكن حمل الآية علىٰ الأقوال جميعها لعدم التَّضادِّ بين المَعاني المُفسَّر بها، فتُحمل عليها كلِّها، ويكون المَذكورون من باب التَّمثيل.

لكنَّ لفظ ﴿ٱلَّذِي﴾ في الآية مُفردٌ، فكيف يحتمل أكثر من شخصٍ؟ الجواب: اسم الموصول وإن كان مُفردًا فإنَّه يدلُّ علىٰ العموم، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الزُّمر].

المثال الثَّاني للقسم الثَّاني:

قال تعالىٰ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾[النَّبأ]، قيل: (مَمْلُوءَةً)، وقيل: (مُتَتَابِعَةً)، وقيل: (صَافِيَةً)، وهي مَعانٍ مُختلفةٌ، لكنَّها غير مُتضادَّةٍ، فتكون الكأس مُتصَّفةٍ بالصِّفات الثَّلاثة معًا.

مثالٌ ثالثٌ للقسم الثَّاني:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾﴾[التَّكوير]، ولفظ ﴿عَسۡعَسَ﴾ يعني: (أقبل)، و(أدبر)، ولا تنافي بين المَعنيين، فتُحمل الآية عليهما معًا.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الْقِسْمُ الثَّالِثُ: اخْتِلَافُ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَىٰ، وَالْآيَةُ لَا تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيَيْنِ مَعًا؛ لِلتَّضَادِّ بَيْنَهُمَا، فَتُحْمَلُ الْآيَةُ عَلَىٰ الْأَرْجَحِ مِنْهُمَا بِدَلَالَةِ السِّيَاقِ أَوْ غَيْرِهِ.

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾[البقرة]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَيْرَ بَاغٍ فِي الْمَيْتَةِ، وَلَا عَادٍ فِي أَكْلِهِ، وَقِيلَ: غَيْرَ خَارِجٍ عَلَىٰ الْإِمَامِ وَلَا عَاصٍ بِسَفَرِهِ، وَالْأَرْجَحُ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّهُ لَا دَلِيلَ فِي الْآيَةِ عَلَىٰ الثَّانِي، وَلِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِحِلِّ مَا ذُكِرَ دَفْعُ الضَّرُورَةِ، وَهِيَ وَاقِعَةٌ فِي حَالِ الْخُرُوجِ عَلَىٰ الْإِمَامِ، وَفِي حَالِ السَّفَرِ الْمُحَرَّمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَمِثَالٌ آخَرُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾[البقرة: ٢٣٧]، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِي الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ: هُوَ الزَّوْجُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الْوَلِيُّ، وَالرَّاجِحُ الْأَوَّلُ؛ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَىٰ عَلَيْهِ، وَلِأَنَّهُ قَدْ رُوِيَ فِيهِ حَدِيثٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ).

المثال الأوَّل للقسم الثَّالث:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي: ما مات حتف نفسه، ويُستثنىٰ منها السَّمكُ والجرادُ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي: المَسفوح، ويُستثنىٰ من الدَّم الكبدُ والطُّحالُ، وما يبقىٰ في اللَّحم والعروق بعد الذَّكاة الشَّرعيَّة، ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ وهو مَعروفٌ، ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: سُمِّي عليه غيرُ اسم الله، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي: ألجأته الضَّرورة إلىٰ أكل هذه المُحرَّمات، ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾[البقرة]:

[١] قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (غَيْرَ بَاغٍ فِي الْمَيْتَةِ) أي: طالبٍ لها، (وَلَا عَادٍ فِي أَكْلِهِ) أي: أكل بقدر الضَّرورة فقط.

[٢] وقيل: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ (غَيْرَ خَارِجٍ عَلَىٰ الْإِمَامِ)، و﴿وَلَا عَادٍ﴾ (وَلَا عَاصٍ بِسَفَرِهِ).

هذا التَّفسيرُ أرجح؛ لأنَّه يؤيِّده قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣﴾[المائدة]، ولأنَّه لا دليل في الآية علىٰ التَّفسير الثَّاني.

هل يُقدِّم المُضطرُّ الميتة أم ما ذُبح لغير الله؟

لو أنَّ مُضطرًّا وجد ميتةً وذبيحةً ذُبحت لغير الله فإنَّه يأخذ بأقلِّهما ضررًا، والغالب أنَّ الَّتي ذُبحت لغير الله أقلُّ ضررًا من الميتة؛ لأنَّ الميتة قد تسرَّب إليها بعض الميكروبات.

المُسافر يكون:

[١] **عاصيًا في سفره:**
إذا ارتكب مُحرَّمًا في سفره.
ويجوز له القصر في سفره.

[٢] **عاصيًا بسفره:**
إذا أنشأ السَّفر لأجل ارتكاب المُحرَّم.
ولا يجوز له القصر في سفره.

المثال الثَّاني للقسم الثَّالث:

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾، الفاء واقعةٌ في جواب الشَّرط، و(نصف) مُبتدأٌ خبره مَحذوفٌ تقديره (فلهُنَّ) أو (فلكم)، ويجوز أن نجعل (نصف) خبر المُبتدأ المَحذوف، ويكون التَّقدير: (فالواجب نصف ما فرضتم)، ويحتمل أن يكون تقديره:

[١] **واجبٌ لكم:** فيكون النِّصفُ والباقي للأزواج.

[٢] **واجبٌ لهنَّ:** فيكون النِّصف للزَّوجات، وهذا أقرب إلىٰ المَعنىٰ.

استثنى الله عَزَّوَجَلَّ من وجوب النِّصف:

[١] ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾: أي تعفو الزَّوجات عن النِّصف الَّذي لهنَّ، وهذا واضحٌ ولا إشكال فيه.

[٢] ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾: من هو الَّذي بيده عقدة النِّكاح؟

[أ] قال عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (**هُوَ الزَّوْجُ**)، وهو أرجح لأمورٍ:

- لأنَّه جاء فيه حديثٌ عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ولدلالة التَّقسيم عليه، فـ: ﴿أَن يَعْفُونَ﴾ للزَّوجات، و﴿أَوْ يَعْفُوَا۟﴾ للأزواج، فيكون العفو مُعتبرًا من الجانبين، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن يَعْفُونَ﴾ يغني عن ذكر الوليِّ؛ لأنَّ كلاهما من جانب الزَّوجة.
- لو قلنا: إنَّ الأب يملك أن يعفو عن النِّصف فإنَّ فيه نظرًا؛ لأنَّه يسقط حقَّها، فكيف إذا كان الوليُّ غير الأب؟!

[ب] قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (**هُوَ الْوَلِيُّ**).

مثالٌ ثالثٌ للقسم الثَّالث:

قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ ﴾[البقرة:٢٢٨]، اختلف السَّلف في معنىٰ القروء علىٰ قولين:

[١] **الحِيَضُ:** وهذا هو الصَّواب؛ لدلالة السُّنَّة في المُستحاضة عليه.

[٢] **الأطهارُ.**

فائدةٌ:

الاختِلافُ في تفسير القرآنِ الكريمِ أقلُّ بكثيرٍ من الاختلافِ في الأحكامِ الفقهيَّةِ، وذلك لأنَّ تفسيرَ القرآنِ هو تبيينُ مَعاني ألفاظِه ومُرادِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ منها، وهذا شيءٌ يقِلُّ فيه الخِلافُ، بينما الأحكامُ الفقهيَّةُ مَبنيَّةٌ علىٰ الاجتهادِ والنَّظرِ والقياسِ، ولهذا صارَ الاختِلافُ فيها أكثرَ.

فائدةٌ أخرى:

إنَّما فُسِّرَ القرآنُ الكريمُ من أجلِ الهدايَةِ لا من لمُجرَّدِ معرفةِ الألفاظِ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أنزلَ القرآن هدايةً للنَّاسِ، ليُخرِجَهم به من الظُّلُماتِ إلىٰ النُّورِ، ويَهديَهم إلىٰ صراطِ العَزيزِ الحَميدِ، قالَ تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾[إبراهيم].

خامِسًا: تَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (التَّرْجَمَةُ لُغَةً: تُطْلَقُ عَلَىٰ مَعَانٍ تَرْجِعُ إِلَـىٰ الْبَيَـانِ وَالْإِيضَـاحِ، وَفِـي الِاصْطِلَاحِ: التَّعْبِيرُ عَنِ الْكَلَامِ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ.

وَتَرْجَمَةُ الْقُرْآنِ: التَّعْبِيرُ عَنْ مَعْنَاهُ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ.

وَالتَّرْجَمَةُ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: تَرْجَمَةٌ حَرْفِيَّةٌ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُوضَعَ تَرْجَمَةُ كُلِّ كَلِمَةٍ بِإِزَائِهَا.

الثَّانِي: تَرْجَمَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، أَوْ تَفْسِيرِيَّةٌ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُعَبَّرَ عَنْ مَعْنَىٰ الْكَلَامِ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ مِـنْ غَيْـرِ مُرَاعَاةِ الْمُفْرَدَاتِ وَالتَّرْتِيبِ.

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزُّخرف].

فَالتَّرْجَمَةُ الْحَرْفِيَّةُ: أَنْ يُتَرْجِمَ كَلِمَاتِ هَذِهِ الْآيَةِ كَلِمَةً كَلِمَةً، فَيُتَرْجِمَ (إِنَّا)، ثُمَّ (جَعَلْنَٰهُ)، ثُمَّ (قُرْءَٰنًا)، ثُمَّ (عَرَبِيًّا)، وَهَكَذَا...

وَالتَّرْجَمَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ: أَنْ يُتَرْجِمَ مَعْنَىٰ الْآيَةِ كُلِّهَا، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ مَعْنَىٰ كُلِّ كَلِمَةٍ وَتَرْتِيبِهَا، وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ مَعْنَىٰ التَّفْسِيرِ الْإِجْمَالِيِّ).

تعريف التَّرجمة:

[١] لغةً:

(تُطْلَقُ عَلَىٰ مَعَانٍ تَرْجِعُ إِلَىٰ الْبَيَانِ وَالْإِيضَاحِ)، ولهذا إذا كلَّمك إنسانٌ لكلامٍ لا تعرف مَعناه تقول له: ترجم لي هذا، أي: بيِّنه، حتَّىٰ وإن كان بلغتك، فالتَّرجمة والتَّفسير مَعناهما واحدٌ.

[٢] اصطلاحًا:

(التَّعْبِيرُ عَنِ الْكَلَامِ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ)، وهذا أصحُّ من قول بعضهم: (نقل الكلام من لغةٍ إلىٰ أخرىٰ)؛ لأنَّ الكلام الأوَّل لم يُنقل، ولك عُبِّر عنه، وعليه فترجمة القرآن: (التَّعْبِيرُ عَنْ مَعْنَاهُ بِلُغَةٍ أُخْرَىٰ).

ترجمة القرآن نوعان:

[١] ترجمةٌ حرفيَّةٌ:
(أَنْ يُوضَعَ تَرْجَمَةُ كُلِّ كَلِمَةٍ بِإِزَائِهَا)، فنترجم كلَّ كلمةٍ علىٰ حدةٍ بنفس ترتيبها في اللُّغة العربيَّة.

[٢] ترجمةٌ معنويَّةٌ تفسيريَّةٌ:
(بِأَنْ يُعَبَّرَ عَنْ مَعْنَىٰ الْكَلَامِ) بدون التَّقيُّد بمَعاني المُفردات، ولا بترتيبها، والتَّرجمة قد تكون أطول أو أقصر من الأصل.

مثَّل المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ يعني: القرآن، و﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ بمعنىٰ: صيَّرناه، ﴿قُرْءَٰنًا﴾ مَقروءًا أو قارئًا، بمعنىٰ: جامع، ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣﴾[الزُّخرف] أي: لأجل أن تعقلوه وتفهموه، يُخبر تعالىٰ أنَّه جعله بلغة العرب من أجل أن يعقله العرب.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(حُكْمُ تَرْجَمَةِ الْقُرْآنِ:

التَّرْجَمَةُ الْحَرْفِيَّةُ بِالنِّسْبَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُسْتَحِيلَةٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّرْجَمَةِ شُرُوطٌ لَا يُمْكِنُ تَحَقُّقُهَا مَعَهَا وَهِيَ:

أ. وُجُودُ مُفْرَدَاتٍ فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ إِلَيْهَا بِإِزَاءِ حُرُوفِ اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا.

ب. وُجُودُ أَدَوَاتٍ لِلْمَعَانِي فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ إِلَيْهَا مُسَاوِيَةً أَوْ مُشَابِهَةً لِلْأَدَوَاتِ فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا.

ج. تَمَاثُلُ اللُّغَتَيْنِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا وَإِلَيْهَا فِي تَرْتِيبِ الْكَلِمَاتِ حِينَ تَرْكِيبِهَا فِي الْجُمَلِ، وَالصِّفَاتِ، وَالْإِضَافَاتِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ التَّرْجَمَةَ الْحَرْفِيَّةَ يُمْكِنُ تَحَقُّقُهَا فِي بَعْضِ آيَةٍ أَوْ نَحْوِهَا، وَلَكِنَّهَا -وَإِنْ أَمْكَنَ تَحَقُّقُهَا فِي نَحْوِ ذَلِكَ- مُحَرَّمَةٌ؛ لِأَنَّهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تُؤَدِّيَ الْمَعْنَىٰ بِكَمَالِهِ، وَلَا أَنْ تُؤَثِّرَ فِي النُّفُوسِ تَأْثِيرَ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ، وَلَا ضَرُورَةَ تَدْعُو إِلَيْهَا؛ لِلاسْتِغْنَاءِ عَنْهَا

بِالتَّرْجَمَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ.
وَعَلَىٰ هَذَا فَالتَّرْجَمَةُ الْحَرْفِيَّةُ إِنْ أَمْكَنَتْ حِسًّا فِي بَعْضِ الْكَلِمَاتِ فَهِيَ مَمْنُوعَةٌ شَرْعًا، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُتَرْجِمَ كَلِمَةً خَاصَّةً بِلُغَةِ مَنْ يُخَاطِبُهُ لِيَفْهَمَهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُتَرْجِمَ التَّرْكِيبَ كُلَّهُ = فَلَا بَأْسَ).

يُشترط في جواز التَّرجمة الحرفيَّة ثلاثة شروطٍ:

[١] (**وُجُودُ مُفْرَدَاتٍ فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ إِلَيْهَا بِإِزَاءِ حُرُوفِ اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا**)، وهذا قد يتعذَّر؛ لأنَّه يوجد في بعض اللُّغات حروفٌ ساقطةٌ.

[٢] (**وُجُودُ أَدَوَاتٍ لِلْمَعَانِي فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ إِلَيْهَا مُسَاوِيَةً أَوْ مُشَابِهَةً لِلْأَدَوَاتِ فِي اللُّغَةِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا**)، وهذه أيضًا قد تتعذَّر، وأدوات المَعاني هي: أداة الاستفهام، وأداة والنَّفي، وأداة التَّوكيد، وما أشبهها.

[٣] (**تَمَاثُلُ اللُّغَتَيْنِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا وَإِلَيْهَا فِي تَرْتِيبِ الْكَلِمَاتِ حِينَ تَرْكِيبِهَا فِي الْجُمَلِ، وَالصِّفَاتِ، وَالْإِضَافَاتِ**)، فتجد مثلًا في العربيَّة أنَّ الخبر مُتأخِّرٌ عن المُبتدأ، وتجده في اللُّغات الأخرىٰ مُقدَّمًا عليه، وكذلك تجد الحركات تختلف...

حكم التَّرجمة الحرفيَّة:

[١] (**مُستحيلةٌ**): وهو قول الأكثر؛ لعدم تحقُّق الشُّروط الثَّلاثة السَّابقة.

[٢] (**مُحرَّمةٌ**): إذا قلنا هي مُمكنةٌ في بعض الآيات أو جزئها، لأسبابٍ:

[أ] لأنَّها لا يمكن أن تُؤدِّي المَعنىٰ بكماله، لا من جهة التَّقديم والتَّأخير، ولا من جهة حروف المَعاني والتَّوكيد...

[ب] لأنَّها لا تؤثِّر في النُّفوس كتأثير القرآن العربيِّ.

[ج] لأنَّ التَّرجمة المَعنويَّة تُغني عنها.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَمَّا التَّرْجَمَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ لِلْقُرْآنِ فَهِيَ جَائِزَةٌ فِي الْأَصْلِ؛ لِأَنَّهُ لَا مَحْظُورَ فِيهَا، وَقَدْ تَجِبُ حِينَ تَكُونُ وَسِيلَةً إِلَىٰ إِبْلَاغِ الْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ لِغَيْرِ النَّاطِقِينَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ لِأَنَّ إِبْلَاغَ ذَلِكَ وَاجِبٌ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

لَكِنْ يُشْتَرَطُ لِجَوَازِ ذَلِكَ شُرُوطٌ:

الْأَوَّلُ: أَلَّا تُجْعَلَ بَدِيلًا عَنِ الْقُرْآنِ بِحَيْثُ يُسْتَغْنَىٰ بِهَا عَنْهُ، وَعَلَىٰ هَذَا فَلَابُدَّ أَنْ يُكْتَبَ الْقُرْآنُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَإِلَىٰ جَانِبِهِ هَذِهِ التَّرْجَمَةُ؛ لِتَكُونَ كَالتَّفْسِيرِ لَهُ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُتَرْجِمُ عَالِمًا بِمَدْلُولَاتِ الْأَلْفَاظِ فِي اللُّغَتَيْنِ الْمُتَرْجَمِ مِنْهَا وَإِلَيْهَا، وَمَا تَقْتَضِيهِ حَسَبَ السِّيَاقِ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَعَانِي الْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ.

وَلَا تُقْبَلُ التَّرْجَمَةُ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَّا مِنْ مَأْمُونٍ عَلَيْهَا، بِحَيْثُ يَكُونُ مُسْلِمًا مُسْتَقِيمًا فِي دِينِهِ).

حكم التَّرجمة المَعنويَّة:

- [١] **جائزةٌ:** في الأصل؛ لأنَّه لا مَحذور فيها.
- [٢] **واجبةٌ:** إذا توقَّف عليها إبلاغُ الشَّرع؛ لأنَّ ما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فو واجبٌ، مثل ترجمة خطبة الجمعة، نقول: واجبةٌ؛ لأنَّ غير النَّاطقين بالعربيَّة لا يدرون ماذا يقول الخطيب.

شروط جواز التَّرجمة المَعنويَّة أربعةٌ:

ثلاثة شروطٍ تعود إلى حكم التَّرجمة:

- [١] (أَلَّا تُجْعَلَ بَدِيلًا عَنِ الْقُرْآنِ بِحَيْثُ يُسْتَغْنَىٰ بِهَا عَنْهُ).
- [٢] (أَنْ يَكُونَ الْمُتَرْجِمُ عَالِمًا بِمَدْلُولَاتِ الْأَلْفَاظِ).
- [٣] (أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمَعَانِي الْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ).

شرطٌ لا يعود إليها:

- [٤] أن يكون المُترجم مأمونًا: (مُسْلِمًا مُسْتَقِيمًا).

توضيح الشَّرط الأوَّل:

لا ينبغي أن يُكتب القرآن كلُّه بالتَّرجمة المَعنويَّة فقط، بحيث لا يُقرأ القرآن، فإنَّ هذا لا يجوز؛ لأنَّه لابدَّ أن يُقرأ القرآن، فأفضل سبيلٍ في ذلك أن نجعل القرآن باللُّغة العربيَّة في صفحةٍ، والتَّرجمة في صفحةٍ، أو في نصف صفحةٍ والتَّرجمة في نصف صفحةٍ.

توضيح الشَّرط الثَّاني:

لابدَّ أن يكون المُترجم عالمًا بمدلولات الألفاظ في اللُّغتين، وما تقتضيه الألفاظ حسب السِّياق، حتَّىٰ يتمكَّن من التَّعبير عن إحدىٰ اللُّغتين بالأخرىٰ، وأمَّا إذا لم يكن قويًّا فلا يحلُّ له أن يُترجم، ولا يُؤمر.

بيان الشَّرط الثَّالث:

لابدَّ أن يكون المُترجم عالمًا بمعاني الألفاظ الشَّرعيَّة في القرآن، فيعرف مَعنىٰ الصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحجِّ، والغيبة... فإن لم يكن عالمًا بها فلا يجوز؛ لأنَّه ربَّما يُفسِّرها بمُقتضىٰ اللُّغة العربيَّة دون الحقيقة الشَّرعيَّة.

بيان الشَّرط الرَّابع:

لابدَّ أن يكون المُترجم مَوثوقًا، ذا عقيدةٍ سليمةٍ، نأمن منه ألَّا يُحرِّف القرآن علىٰ عقيدته.

هل القرآنُ الـمُترجَمُ يأخذ حكم القرآن الأصل؟

القرآنُ المُترجَمُ لا يأخذ حكم القرآن غير المُترجَم، فيجوز مسُّه بغير وضوءٍ، ويجوز بيعُه وشراؤُه... إلخ، لكن إذا وُجد الأصلُ فيُنظر إلىٰ أيِّهما أكثر، فيكون الحكمُ للأكثر.

سَادِسًا: الْمُشْتَهِرُونَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (اشْتَهَرَ بِالتَّفْسِيرِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، ذَكَرَ السُّيُوطِيُّ مِنْهُمُ: الْخُلَفَاءَ الْأَرْبَعَةَ؛ أَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إِلَّا أَنَّ الرِّوَايَةَ عَنِ الثَّلَاثَةِ الْأَوَّلِينَ لَمْ تَكُنْ كَثِيرَةً لِانْشِغَالِهِمْ بِالْخِلَافَةِ، وَقِلَّةِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ النَّقْلِ فِي ذَلِكَ لِكَثْرَةِ الْعَالِمِينَ بِالتَّفْسِيرِ.

وَمِنَ الْمُشْتَهِرِينَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ أَيْضًا: عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، فَلْنُتَرْجِمْ لِحَيَاةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَعَ هَذَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

[١] عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: هُوَ ابْنُ عَمِّ الرَّسُولِ ﷺ، وَزَوْجُ ابْنَتِهِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهَا، وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَرَابَتِهِ، اشْتَهَرَ بِهَذَا الِاسْمِ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو الْحَسَنِ، وَأَبُو تُرَابٍ.

وُلِدَ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِعَشْرِ سِنِينَ، وَتَرَبَّى فِي حِجْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَشَهِدَ مَعَهُ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا، وَكَانَ صَاحِبَ اللِّوَاءِ فِي مُعْظَمِهَا، وَلَمْ يَتَخَلَّفْ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، خَلَّفَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَهْلِهِ، وَقَالَ لَهُ: «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي؟».

نُقِلَ لَهُ مِنَ الْمَنَاقِبِ وَالْفَضَائِلِ مَا لَمْ يُنْقَلْ لِغَيْرِهِ، وَهَلَكَ بِهِ طَائِفَتَانِ:

- النَّوَاصِبُ: الَّذِينَ نَصَبُوا لَهُ الْعَدَاوَةَ، وَحَاوَلُوا إِخْفَاءَ مَنَاقِبِهِ.
- وَالرَّوَافِضُ: الَّذِينَ بَالَغُوا فِيمَا زَعَمُوهُ مِنْ حُبِّهِ، وَأَحْدَثُوا لَهُ مِنَ الْمَنَاقِبِ الَّتِي وَضَعُوهَا مَا هُوَ فِي غِنًىٰ عَنْهُ؛ بَلْ هُوَ عِنْدَ التَّأَمُّلِ مِنَ الْمَثَالِبِ.

اشْتَهَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالشَّجَاعَةِ وَالذَّكَاءِ مَعَ الْعِلْمِ وَالزَّكَاءِ، حَتَّىٰ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَعَوَّذُ مِنْ مُعْضِلَةٍ لَيْسَ لَهَا أَبُو الْحَسَنِ، وَمِنْ أَمْثِلَةِ النَّحْوِيِّينَ: قَضِيَّةٌ وَلَا أَبَا حَسَنٍ لَهَا، وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: سَلُونِي، سَلُونِي، وَسَلُونِي عَنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَوَاللهِ مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أُنْزِلَتْ بِلَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِذَا جَاءَنَا الثَّبْتُ عَنْ عَلِيٍّ لَمْ نَعْدِلْ بِهِ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَخَذْتُ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

كَانَ أَحَدَ أَهْلِ الشُّورَىٰ الَّذِينَ رَشَّحَهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِتَعْيِينِ الْخَلِيفَةِ، فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَأَبَىٰ إِلَّا بِشُرُوطٍ لَمْ يَقْبَلْ بَعْضَهَا، ثُمَّ بَايَعَ عُثْمَانَ، فَبَايَعَهُ عَلِيٌّ وَالنَّاسُ، ثُمَّ بُويِعَ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ عُثْمَانَ حَتَّىٰ قُتِلَ شَهِيدًا فِي الْكُوفَةِ لَيْلَةَ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، سَنَةَ أَرْبَعِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو (أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ قَرَابَتِهِ)، وأمَّا أوَّل مَن آمن مِن الصَّحابة الرِّجال مُطلقًا فـ:

[١] **ورقة بن نوفلٍ:** هو أوَّل من آمن بنبوَّة النَّبيِّ ﷺ، آمن قبل الرِّسالة، ومات قبلها، فإذا عرَّفنا الصَّحابيِّ بأنَّه من آمن بالنَّبيِّ ﷺ ولو قبل الرِّسالة، فإنَّه يكون صحابيًّا، وأسلم قبل أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولمَّا قصَّ عليه النَّبيُّ ﷺ ما حصل في الغار قال: «يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ». مُتَّفقٌ عليه.

[٢] **أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:** هو أوَّل من آمن برسالة النَّبيِّ ﷺ، أقرَّ له بذلك عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كُنيةُ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

[١] **أبو الحسن:** لأنَّ أكبر أولاده هو الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[٢] **أبو ترابٍ:** كنَّاه بها النَّبيُّ ﷺ، رآه وَهُوَ مُضْطَجِعٌ، قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ، وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ: «قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ». مُتَّفقٌ عليه.

مَعنى قوله ﷺ: «بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ»:

موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهارون عَلَيْهِ السَّلَامُ: اخلُفني في قومي، واصبر، والنَّبيُّ ﷺ لمَّا خَرَجَ إِلَىٰ تَبُوكَ اسْتَخْلَفَ عَلِيًّا، فَقَالَ: أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟ قَالَ: «أَلَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ»، فهو من النَّبيِّ ﷺ بمنزلة هارون من موسىٰ في هذه الخلافة المَخصوصة المَقصورة، وليس في الخلافة المُطلقة كما زعمت الرَّافضة.

بيان كذبِ الرَّوافض في زعمِهم حبَّ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَالرَّوَافِضُ الَّذِينَ بَالَغُوا فِيمَا زَعَمُوهُ مِنْ حُبِّهِ)؛ لأنَّ هذا الَّذي يُظهرونه، لكنَّ حقيقة الأمر أنَّهم يُخالفونه في أشياء؛ كإعلانه علىٰ المنبر أنَّ أبا بكرٍ وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا هما خير الأمَّة، وروايته المسح علىٰ الخفَّين عن النَّبيِّ ﷺ.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَحْدَثُوا لَهُ مِنَ الْمَنَاقِبِ الَّتِي وَضَعُوهَا مَا هُوَ فِي غِنًىٰ عَنْهُ؛ بَلْ هُوَ عِنْدَ التَّأَمُّلِ مِنَ الْمَثَالِبِ)، ومن ذلك زعمُهم أنَّه كان يصلِّي بين المَغرب والعشاء ألف ركعةٍ! وهذا إن صحَّ فإنَّه من أكبر المثالب؛ إذ كيف يكون ركوعه وسجوده؟! وقال النبيُّ ﷺ للأعرابيِّ الَّذي لم يطمئنَّ في صلاته: «إِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». مُتَّفقٌ عليه.

قولُه رَحِمَهُ اللهُ: (يَتَعَوَّذُ مِنْ مُعْضِلَةٍ لَيْسَ لَهَا أَبُو الْحَسَنِ):

المُعضِلةُ هي المشكلة الَّتي تعضُلُ الإنسانَ وتقطع تفكيره، وقد كان عليٌّ مَعروفًا بالذَّكاء والعقل، فإذا كان أبو الحسن رَحِمَهُ اللهُ للمُعضلة فُرجت.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: ([٢] عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودِ بْنِ غَافِلٍ الْهُذَلِيُّ، وَأُمُّهُ أُمُّ عَبْدٍ، كَانَ يُنْسَبُ إِلَيْهَا أَحْيَانًا، وَكَانَ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ فِي الْإِسْلَامِ، وَهَاجَرَ الْهِجْرَتَيْنِ، وَشَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْمَشَاهِدِ.

تَلَقَّىٰ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ: «إِنَّكَ لَغُلَامٌ مُعَلَّمٌ»، وَقَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَقَالَ: وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّىٰ بِكِتَابِ اللهِ تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ.

وَكَانَ مِمَّنْ خَدَمَ النَّبِيَّ ﷺ، فَكَانَ صَاحِبَ نَعْلَيْهِ وَطَهُورِهِ وَوِسَادِهِ، حَتَّىٰ قَالَ أَبُو مُوسَىٰ

الْأَشْعَرِيُّ: قَدِمْتُ أَنَا وَأَخِي مِنَ الْيَمَنِ، فَمَكَثْنَا حِينًا مَا نَرَىٰ إِلَّا أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِمَا نَرَىٰ مِنْ دُخُولِهِ وَدُخُولِ أُمِّهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ أَجْلِ مُلَازَمَتِهِ النَّبِيَّ ﷺ تَأَثَّرَ بِهِ وَبِهَدْيِهِ، حَتَّىٰ قَالَ فِيهِ حُذَيْفَةُ: مَا أَعْرِفُ أَحَدًا أَقْرَبَ هَدْيًا وَسَمْتًا وَدَلًّا بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ.

بَعَثَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَىٰ الْكُوفَةِ لِيُعَلِّمَهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، وَبَعَثَ عَمَّارًا أَمِيرًا، وَقَالَ: إِنَّهُمَا مِنَ النُّجَبَاءِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاقْتَدُوا بِهِمَا، ثُمَّ أَمَّرَهُ عُثْمَانُ عَلَىٰ الْكُوفَةِ، ثُمَّ عَزَلَهُ وَأَمَرَهُ بِالرُّجُوعِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، فَتُوُفِّيَ فِيهَا سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ، وَدُفِنَ بِالْبَقِيعِ وَهُوَ ابْنُ بِضْعٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً).

دفع شبهةٍ:

قال ابن مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ)، وقال: (وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ)، ولا شكَّ أنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يريد أن يزكِّي نفسه؛ لأنَّه أطهر من ذلك، لكنَّه أراد أن يحثَّ النَّاس علىٰ تلقِّي التَّفسير عنه؛ لأنَّ النَّاس إذا علموا أنَّه بهذه المَنزلة من العلم أكبُّوا عليه، وأخذوا منه، وهذا لا حرج فيه عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والله تعالىٰ أعلم بالنِّيَّات.

خدمتُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنَّبيِّ ﷺ:

قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (كَانَ صَاحِبَ نَعْلَيْهِ) أي: يحمل النَّعلين إن استغنىٰ عنهما النَّبيُّ ﷺ، (وَطَهُورِهِ) أي: الماء الَّذي يتطهَّر به النَّبيُّ ﷺ، (وَوِسَادِهِ) أي: الوسادة الَّتي يتَّكئ عليها.

قُربُ سَمتِه ودَلِّه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من النَّبيِّ ﷺ:

قال حذيفة رَحِمَهُ اللهُ: (مَا أَعْرِفُ أَحَدًا أَقْرَبَ هَدْيًا وَسَمْتًا وَدَلًّا بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ). أخرجه البخاريُّ.

ولهذا كان كلامه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُشبه كلام النَّبيِّ ﷺ، حتَّىٰ لكأنَّه يخرج من مِشكاة النُّبوَّة، ومن ذلك قولُه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَىٰ اللهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَىٰ بِهِنَّ...). أخرجه مسلمٌ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: ([٣] عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وُلِدَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ، لَازَمَ النَّبِيَّ ﷺ لِأَنَّهُ ابْنُ عَمِّهِ، وَخَالَتُهُ مَيْمُونَةُ تَحْتَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَضَمَّهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ صَدْرِهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «الْكِتَابِ»، وَقَالَ لَهُ حِينَ وَضَعَ لَهُ وَضُوءَهُ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»، فَكَانَ بِهَذَا الدُّعَاءِ الْمُبَارَكِ حَبْرَ الْأُمَّةِ فِي نَشْرِ التَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ، حَيْثُ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْحِرْصِ عَلَىٰ الْعِلْمِ، وَالْجِدِّ فِي طَلَبِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ تَلَقِّيهِ وَبَذْلِهِ، فَنَالَ بِذَلِكَ مَكَانًا عَالِيًا، حَتَّىٰ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَدْعُوهُ إِلَىٰ مَجَالِسِهِ، وَيَأْخُذُ بِقَوْلِهِ، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: أَلَا تَدْعُو أَبْنَاءَنَا كَمَا تَدْعُو ابْنَ عَبَّاسٍ؟! فَقَالَ لَهُمْ: ذَاكُمْ فَتَىٰ الْكُهُولِ، لَهُ لِسَانٌ سَؤُولٌ، وَقَلْبٌ عَقُولٌ، ثُمَّ دَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ لِيُرِيَهُمْ مِنْهُ مَا رَآهُ، فَقَالَ عُمَرُ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ حَتَّىٰ خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا فُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ، فَقَالَ عُمَرُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: أَكَذَلِكَ تَقُولُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قَالَ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النَّصر]، قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَنِعْمَ تُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ، لَوْ أَدْرَكَ أَسْنَانَنَا مَا عَاشَرَهُ مِنَّا أَحَدٌ، أَيْ: مَا كَانَ نَظِيرًا لَهُ، هَذَا مَعَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ عَاشَ بَعْدَهُ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَا ظَنُّكَ

بِمَا اكْتَسَبَ بَعْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ؟!
وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ لِسَائِلٍ سَأَلَهُ عَنْ آيَةٍ: انْطَلِقْ إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ فَاسْأَلْهُ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ مَنْ بَقِيَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَالَ عَطَاءٌ: مَا رَأَيْتُ قَطُّ أَكْرَمَ مِنْ مَجْلِسِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِقْهًا، وَأَعْظَمَ خَشْيَةً، إِنَّ أَصْحَابَ الْفِقْهِ عِنْدَهُ، وَأَصْحَابَ الْقُرْآنِ عِنْدَهُ، وَأَصْحَابَ الشِّعْرِ عِنْدَهُ، يُصَدِّرُهُمْ كُلَّهُمْ مِنْ وَادٍ وَاسِعٍ.
وَقَالَ أَبُو وَائِلٍ: خَطَبَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَهُوَ عَلَىٰ الْمَوْسِمِ -أَيْ: وَالٍ عَلَىٰ مَوْسِمِ الْحَجِّ مِنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَافْتَتَحَ سُورَةَ النُّورِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيُفَسِّرُ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: مَا رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ كَلَامَ رَجُلٍ مِثْلِهِ، وَلَوْ سَمِعَتْهُ فَارِسُ وَالرُّومُ وَالتُّرْكُ لَأَسْلَمَتْ!
وَلَّاهُ عُثْمَانُ عَلَىٰ مَوْسِمِ الْحَجِّ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ، وَوَلَّاهُ عَلِيٌّ عَلَىٰ الْبَصْرَةِ، فَلَمَّا قُتِلَ مَضَىٰ إِلَىٰ الْحِجَازِ، فَأَقَامَ فِي مَكَّةَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا إِلَىٰ الطَّائِفِ فَمَاتَ فِيهَا سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ عَنْ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ سَنَةً).

أُبَيُّ بنُ كَعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
هو أبو المُنذِرِ أُبَيُّ بنُ كَعبِ بنِ قَيسٍ الأنصاريُّ، من بني النَّجَّارِ مِن الخَزرَجِ، أسلَمَ قبلَ الهِجرَةِ، وشَهِدَ بيعةَ العقبَةِ الثَّانيةِ مع السَّبعين من الأنصارِ، وشَهِدَ مع النَّبيِّ ﷺ بدرًا، وأُحُدًا، والخندقَ، والمَشاهِدَ كلَّها، كان أحدَ الأربعةِ الَّذين جمَعوا القرآنَ في حياةِ النَّبيِّ ﷺ، وعرَضَه عليه ﷺ في حياتِه، وقالَ له ﷺ كما عند مسلمٍ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»، يشهَدُ له بالعلم، وكانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكتُبُ الوَحيَ.
تفرَّغ للعِبادَةِ بعد وفاةِ النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ لمَّا رَأىٰ حاجَةَ النَّاسِ إليه جلَسَ للتَّعليم، فعُرِفَ بتَفسيرِ القرآنِ، وروايَةِ الحَديثِ، وأخَذَ عنه ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرُه مِن صِغارِ الصَّحابَةِ.
اختُلِفَ في وفاتِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والأكثَرُ علىٰ أنَّها في خِلافَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قاعدةٌ: يُقبَلُ قَولُ الصَّحابِيِّ في المُغَيَّباتِ بشَرطَين:

[١] ألَّا يَكونَ في الخبرِ شُبهَةُ كَونِه من الإسرائيليَّاتِ.

[٢] ألَّا يكونَ الرَّاوي ممَّن عُرِفَ بالأخذِ عن بَني إسرائيلَ.

سَابعًا: الْمُشْتَهِرُونَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ التَّابِعِينَ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (اشْتَهَرَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ التَّابِعِينَ كَثِيرُونَ، فَمِنْهُمْ:

أ. أَهْلُ مَكَّةَ: وَهُمْ أَتْبَاعُ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ كَمُجَاهِدٍ، وَعِكْرِمَةَ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ.

ب. أَهْلُ الْمَدِينَةِ: وَهُمْ أَتْبَاعُ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ؛ كَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ.

ج. أَهْلُ الْكُوفَةِ: وَهُمْ أَتْبَاعُ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ كَقَتَادَةَ، وَعَلْقَمَةَ، وَالشَّعْبِيِّ.

فَلْنُتَرْجِمْ لِحَيَاةِ اثْنَيْنِ مِنْ هَؤُلَاءِ: مُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ.

١. مُجَاهِدٌ: هُوَ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرٍ الْمَكِّيُّ، مَوْلَىٰ السَّائِبِ بْنِ أَبِي السَّائِبِ الْمَخْزُومِيِّ، وُلِدَ سَنَةَ إِحْدَىٰ وَعِشْرِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَأَخَذَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، رَوَىٰ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ، وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا، وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ، وَاعْتَمَدَ تَفْسِيرَهُ الشَّافِعِيُّ، وَالْبُخَارِيُّ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَنْقُلُ عَنْهُ فِي «صَحِيحِهِ»، وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي آخِرِ تَرْجَمَتِهِ: أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَىٰ إِمَامَةِ مُجَاهِدٍ وَالِاحْتِجَاجِ بِهِ، تُوُفِّيَ فِي مَكَّةَ وَهُوَ سَاجِدٌ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَمِائَةٍ عَنْ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً.

٢. قَتَادَةُ: هُوَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ السَّدُوسِيُّ الْبَصْرِيُّ، وُلِدَ أَكْمَهَ -أَيْ: أَعْمَي- سَنَةَ إِحْدَىٰ وَسِتِّينَ، وَجَدَّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَكَانَ لَهُ حَافِظَةٌ قَوِيَّةٌ، حَتَّىٰ قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: مَا قُلْتُ لِمُحَدِّثٍ قَطُّ أَعِدْ لِي، وَمَا سَمِعَتْ أُذُنَايَ شَيْئًا قَطُّ إِلَّا وَعَاهُ قَلْبِي، وَذَكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فَأَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ، فَجَعَلَ يَنْشُرُ مِنْ عِلْمِهِ وَفِقْهِهِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِالِاخْتِلَافِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَوَصَفَهُ بِالْحِفْظِ وَالْفِقْهِ، وَقَالَ: قَلَّمَا تَجِدُ مَنْ يَتَقَدَّمُهُ، أَمَّا الْمِثْلُ فَلَعَلَّ، وَقَالَ: هُوَ أَحْفَظُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا إِلَّا حَفِظَهُ، وَتُوُفِّيَ فِي وَاسِطٍ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ عَنْ سِتَّةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَلَّمَا تَجِدُ مَنْ يَتَقَدَّمُهُ)، يعني: لم يكن شخصٌ أعظم منه، (أَمَّا الْمِثْلُ فَلَعَلَّ) ولم يجزم بأن يكون له مثيلٌ.
وقد رُمي قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ بالتَّدليس، لكنَّهم يقولون: إنَّ روايته عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ (عن) مُتَّصلةٌ، ولهذا يروي عنه البخاريُّ ومسلمٌ بهذه الصِّيغة عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المُشتَهِرونَ بالتَّفسيرِ مِن التَّابعينَ:

[١] مدرسةُ التَّفسيرِ بمكَّةَ

(ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا):

[أ] سعيدُ بن جُبيرٍ.
[ب] مُجاهد بن جبر.
[ج] عِكرمة بن عبد الله مَولى ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
[د] طاوس بنُ كيسانَ.
[هـ] عطاء بن أبي رباحٍ.

[٢] مدرسةُ التَّفسيرِ بالمدينةِ

(أُبيِّ بن كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ):

[أ] أبو العالية رُفيعُ بن مِهرانَ الرِّياحيُّ.
[ب] محمَّد بن كعبٍ القرظيُّ.
[ج] زيدُ بن أسلَمَ.

[٣] مدرسةُ التَّفسيرِ بالعراقِ

(ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ):

[أ] علقمة بن قيسٍ.
[ب] مَسروقُ بن الأجدَعِ.
[ج] الأسود بن يزيد.
[د] مُرَّةُ الهمدانيُّ.
[هـ] عامرٌ الشَّعبيُّ.
[و] الحسن البصريُّ.
[ز] قتادةُ بن دِعامةَ.

الاِخْتِبَارُ الثَّاني:

[١] اختر الإجابة الصَّحيحة:

- تعلُّم التَّفسير: ○ واجبٌ. ○ مستحبٌّ. ○ جائزٌ.
- أكثرُ مَن رُوي عنه التَّفسير مِن هؤلاء: ○ أبو بكر. ○ عمر. ○ ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.
- أقوالُ التَّابعين في التَّفسير: ○ حجَّةٌ. ○ ليست حجَّةً. ○ حجَّةٌ علىٰ مَن بعدهم.
- السَّلفُ هم: ○ الصَّحابةُ. ○ التَّابعون. ○ أهلُ القرون الثَّلاثة المُفضَّلةِ.
- مِن أشهر مَن عُنِيَ بتفسير القرآن بالقرآن: ○ الثَّعلبيُّ. ○ ابنُ كثير. ○ الألوسيُّ.
- تفسيرُ آيات الأحكام والاستنباطُ منها يُسمَّىٰ:

  ○ التَّفسيرَ بالمأثور. ○ التَّفسير الفقهيَّ. ○ التَّفسيرَ العلميَّ.
- صاحبُ «الدُّرِّ المَنثور في التَّفسير بالمَأثور» هو:

  ○ ابنُ الجوزيِّ. ○ النَّوويُّ. ○ ابنُ العربيِّ. ○ السُّيوطيُّ.
- اشتهر ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بمعرفة: ○ النَّاسخ والمَنسوخ. ○ أسباب النُّزولِ. ○ لغاتِ العرب.
- صاحبُ «البحر المُحيطِ» هو: ○ أبو حيَّانَ الأندلسيُّ. ○ البيضاويُّ. ○ النَّسفيُّ.
- قامت المرحلة الأولىٰ من مراحل التَّفسير علىٰ:

  ○ الرِّوايةِ والحفظ. ○ اختِصارِ الأسانيدِ. ○ الكتابةِ.
- سمَّىٰ الشَّوكانيُّ تفسيرَه: ○ «روحَ المَعاني». ○ «الكشَّافَ». ○ «فتحَ القدير».
- الأقوالُ المتعارضةُ في التَّفسير تُسمَّىٰ اختلافَ: ○ تنوُّع. ○ تضادٍّ. ○ الجميع.
- عند تعارض أقوال المُفسِّرين نلجأ إلىٰ: ○ الجمع بين الأقوالِ. ○ التَّرجيح. ○ التَّوقُّفِ.
- اعتنىٰ ابنُ جريرٍ الطَّبريُّ في تفسيره بـ:

  ○ المَأثورِ. ○ المَأثورِ والنَّقد والتَّرجيح بين الأقوال. ○ الأحكام الفقهيَّة.
- توسيعُ دلالة بعضِ الآيات بما ثبت في الحقائق العلميَّة يُسمَّىٰ بالتَّفسيرِ:

  ○ العقليِّ. ○ البيانيِّ. ○ العلميِّ.
- أقلُّ المَذاهب تأليفًا في التَّفسير الفقهيِّ: ○ المالكيَّةُ. ○ الحَنابلةُ. ○ الشَّافعيَّةُ.

- الَّذي جمع «أحكام القرآن» للشَّافعيِّ هو: ❍ العراقيُّ. ❍ البيهقيُّ. ❍ ابنُ حجر.
- ظهرت بوادرُ التَّفسير العقليِّ في: ❍ عصر السَّلف. ❍ عصر المُعتزلةِ. ❍ العصر الحديثِ.
- كُتب معاني القرآن الكريم مِن مَصادرِ التَّفسير: ❍ العلميِّ. ❍ البيانيِّ. ❍ اللُّغويِّ.
- اختصر البغويُّ تفسيره مِن تفسير: ❍ ابن جرير. ❍ ابن كثير. ❍ الثَّعلبيِّ.
- غلبت النَّاحية البلاغيَّة علىٰ تفسير: ❍ الزَّمخشريِّ. ❍ الواحديِّ. ❍ ابن جُزيٍّ.
- نصر الزَّمخشريُّ في تفسيره مذهب: ❍ الأشاعرةِ. ❍ المُعتزلةِ. ❍ أهل السُّنَّة.
- ممَّن اعتنىٰ بالتَّرجيح بين الأقوال: ❍ ابنُ الجوزيِّ. ❍ ابنُ عطيَّة. ❍ الماورديُّ.
- اشتملت «مقدِّمةٌ في أصول التَّفسير» لابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ علىٰ:

❍ تفسيرِ بعض سور القرآن. ❍ نقدِ بعض كتب التَّفسير. ❍ شرحِ بعض الاحاديث.

- جمع البيهقيُّ «أحكام القرآن» لـ: ❍ الشَّافعيِّ. ❍ ابن عطيَّة. ❍ أبي حنيفة.
- تقديمُ العقل عند المُنازعة بينه وبين ظاهر الآيات يُسمَّىٰ التَّفسيرَ:

❍ بالظَّاهرِ. ❍ العلميَّ. ❍ العقليَّ. ❍ الإشاريَّ.

- من الأُسسِ الَّتي بُني عليها منهج المدرسة العقليَّة في التَّفسير الوِحدةُ المَوضوعيَّةُ في:

❍ السُّورةِ القرآنيَّة. ❍ القرآنِ الكريم. ❍ الجميع.

- مِن مَصادرِ التَّفسير اللُّغويِّ كتب: ❍ غريب القرآن. ❍ أحكام القرآنِ. ❍ التَّفسير العلميِّ.
- ممَّن شنَّع علىٰ أهل السُّنَّةِ في تفسيره:

❍ ابنُ جُزيٍّ. ❍ ابنُ جرير. ❍ الزَّمخشريُّ. ❍ السُّيوطيُّ.

- ذكرَ القُرطبيُّ في تفسيره «الجامعِ لأحكام القرآن»: ❍ تفسيرَ آيات الأحكام فقط.

❍ تفسيرَ القرآنِ كلِّه مع مَزيدِ عِنايةٍ بآيات الأحكام. ❍ الفقهَ علىٰ مذهب الحنفيَّةِ.

- احتوىٰ كتابُ «القواعدِ الحِسان» للسِّعديِّ علىٰ (❍ ٤٠ ❍ ٦٠ ❍ ٥٠ ❍ ٧١) قاعدةً.
- اشتمل كتابُ «التَّفسيرُ والمُفسِّرون» علىٰ:

❍ تفسيرِ القرآن كلِّه. ❍ تفسيرِ بعض سور القرآن. ❍ التَّفسيرِ العلميِّ. ❍ نشأةِ التَّفسير، وتطوُّرِه ومَناهجِ المُفسِّرين، وألوانِ التَّفسير.

- لم يثبُت وُقوعُ التَّأليفِ والجَمعِ في علم التَّفسير إلَّا بعد:

❍ زمنِ الصَّحابةِ. ❍ زمنِ التَّابعين. ❍ القرنِ الخامس. ❍ القرنِ السَّادس.

- ألَّف ابنُ عطيَّة تفسيرًا سُمِّيَ بـ:

❍ «البحرِ المُحيطِ». ❍ «السِّراجِ المُنيرِ». ❍ «المِصباحِ المُنيرِ». ❍ «المحرَّرِ الوَجيز».

- مِن أسباب اختلافِ التَّنوُّع:

❍ الاختلافُ في اللَّفظ مع الاتِّفاق في المعنىٰ. ❍ ذِكرُ بعض أفراد العامِّ علىٰ سبيل المثال.

❍ أن يكونَ اللَّفظُ مُحتملًا لأكثر من مَعنًىٰ. ❍ جميعُ ما ذُكِر.

- من أسباب اختلافِ التَّضادِّ: ❍ الاختلافُ في المعنىٰ اللُّغويِّ. ❍ الاختلافُ بسبب المَذهب العقديِّ. ❍ الاختلافُ بسبب المذهب الفقهيِّ. ❍ جميعُ ما ذُكِر.

- الاختلافُ في تفسير السَّبع المَثاني لأجل:

❍ الاختلافِ في الرِّوايةِ عن الرَّسول ﷺ. ❍ الاختلافِ في عَود الضَّمير.

❍ الاختلافِ في المُطلقِ والمُقيَّد. ❍ الاختلافِ في العامِّ والخاصِّ.

- مُصطلحُ تفسير القرآن بالقرآن:

❍ يلزم منه القطعُ بصحَّة ذلك التَّفسير. ❍ لا يلزم منه القطعُ. ❍ يلزمُ منه التَّوقُّفُ.

- اعتنىٰ ابنُ كثيرٍ في تفسيره بـ:

❍ الإعراب. ❍ تفسير القرآن بالقرآن. ❍ البلاغةِ. ❍ الأوَّلِ والثَّالثِ.

- مُصطلحُ السُّنَّة النَّبويَّة: ❍ أعمُّ من التَّفسير النَّبويِّ. ❍ أخصُّ من التَّفسير النَّبويِّ. ❍ ليس بينهما فرقٌ. ❍ لا شيء ممَّا ذُكِرَ.

- التَّفسيرُ المَنقولُ عن الصَّحابة له حُكمُ:

❍ المَرفوعِ. ❍ المَوقوفِ. ❍ المَقطوعِ. ❍ يختلفُ؛ لأنَّ له أنواعًا مُختلفةً.

- اذا اختلف الصَّحابةُ في التَّفسير فأقوالُهم:

❍ ليست بحجَّةٍ. ❍ حُجَّةٌ. ❍ يُرجَّح بينَها. ❍ لا شيء ممَّا ذُكِرَ.

- علقمة بن قيسٍ النَّخعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تلاميذِ مدرسة التَّفسير في:

❍ الكوفةِ. ❍ المدينةِ. ❍ مكَّةَ.

- مُجاهد بن جَبْر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تلاميذ مدرسة التَّفسير في: ❍ الكوفةِ. ❍ المدينةِ. ❍ مكَّةَ.

- أغلب الاختلاف بين الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في التَّفسير من باب اختلافِ: ❍ التَّنوُّع. ❍ التَّضادِّ.

- سلك الشَّيخُ عبد الرَّحمن ابنُ سعديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره أسلوب التَّفسير:

❍ التَّحليليِّ. ❍ الإجماليِّ. ❍ المَوضوعيِّ.

- معنىٰ كلمةِ «التَّفسير» في اللُّغة: ❍ الرُّجوعُ. ❍ الإبانةُ والكشفُ. ❍ أساسُ الشَّيء.

- كتابُ «أحكامِ القرآن» لأبي بكر ابن العربيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِن المُؤلَّفات علىٰ المذهب:

❍ الشَّافعيِّ. ❍ الحنفيِّ. ❍ الحنبليِّ. ❍ المالكيِّ.

- يتميَّزُ تفسير «زاد المَسير» لابن الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بـ: ❍ ذِكر الرِّوايات بأسانيدها.

❍ جَمْع أقوالِ المُفسِّرين وترتيبها. ❍ التَّوسُّع في الإعراب والمَسائل النَّحويَّة.

- مُؤلِّفُ تفسير «الدُّرِّ المَنثور» هو: ❍ الطَّبريُّ. ❍ البيضاويُّ. ❍ السُّيوطيُّ. ❍ البغويُّ.

- اسمُ المُفسِّرِ ابنِ عطيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ هو: ❍ إسماعيلُ بن عمر. ❍ عبدُ الحقِّ بن غالبٍ.

❍ الحُسين بن مسعودٍ. ❍ محمَّدُ بنُ جرير.

- توفِّي الإمامُ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ سنة:

❍ ٩١١هـ. ❍ ٧٧٤هـ. ❍ ٥١٦هـ. ❍ ٣١٠هـ.

- تفسيرُ البغويِّ رَحِمَهُ اللَّهُ مُختصرٌ من تفسير:

❍ الطَّبريِّ. ❍ ابن كثير. ❍ ابن عطيَّةَ. ❍ الثَّعلبيِّ.

- مِن التَّفاسيرِ الَّتي سلكت التِّجاهَ الجتِماعيَّ في التَّفسيرِ:

❍ تفسيرُ الزَّمخشريِّ. ❍ تفسيرُ الرَّازيِّ. ❍ تفسيرُ المَنارِ.

القُرْآنُ مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ

أوَّلًا: وَصفُ القُرْآنِ بِالإِحْكَامِ وَالتَّشَابُهِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (يَتَنَوَّعُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِاعْتِبَارِ الْإِحْكَامِ وَالتَّشَابُهِ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: الْإِحْكَامُ الْعَامُّ الَّذِي وُصِفَ بِهِ الْقُرْآنُ كُلُّهُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود]، وَقَوْلِهِ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزُّخرف].

وَمَعْنَىٰ هَذَا الْإِحْكَامِ: الْإِتْقَانُ وَالْجَوْدَةُ فِي أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، فَهُوَ فِي غَايَةِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ، أَخْبَارُهُ كُلُّهَا صِدْقٌ نَافِعَةٌ، لَيْسَ فِيهَا كَذِبٌ، وَلَا تَنَاقُضٌ، وَلَا لَغْوٌ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَأَحْكَامُهُ كُلُّهَا عَدْلٌ، وَحِكَمُهُ لَيْسَ فِيهَا جَوْرٌ، وَلَا تَعَارُضٌ، وَلَا حُكْمٌ سَفِيهٌ.

النَّوْعُ الثَّانِي: التَّشَابُهُ الْعَامُّ الَّذِي وُصِفَ بِهِ الْقُرْآنُ كُلُّهُ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمر: ٢٣].

وَمَعْنَىٰ هَذَا التَّشَابُهِ: أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْكَمَالِ، وَالْجَوْدَةِ، وَالْغَايَاتِ الْحَمِيدَةِ، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النِّساء].

النَّوْعُ الثَّالِثُ: الْإِحْكَامُ الْخَاصُّ بِبَعْضِهِ، وَالتَّشَابُهُ الْخَاصُّ بِبَعْضِهِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران].

وَمَعْنَىٰ هَذَا الْإِحْكَامِ: أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْآيَةِ وَاضِحًا جَلِيًّا، لَا خَفَاءَ فِيهِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾[الحجرات:١٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة] وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ﴾[البقرة: ٢٧٥] وَقَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[المائدة:٣]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَمَعْنَىٰ هَذَا التَّشَابُهِ: أَنْ يَكُونَ مَعْنَىٰ الْآيَةِ مُشْتَبِهًا خَفِيًّا، بِحَيْثُ يَتَوَهَّمُ مِنْهُ الْوَاهِمُ مَا لَا يَلِيقُ بِاللهِ تَعَالَىٰ، أَوْ كِتَابِهِ، أَوْ رَسُولِهِ، وَيَفْهَمُ مِنْهُ الْعَالِمُ الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ خِلَافَ ذَلِكَ).

وُصف القرآن بأنَّه:

[١] مُحكَمٌ كلُّه: أي: مُتقَنٌ جيِّدٌ في ألفاظه ومَعانيه.

[٢] مُتشابهٌ كلُّه: يُشبه بعضُه بعضًا في: الكمال، والجودة، والإحكام، والأحكام، والأخبار، وغيرها.

[٣] منه الـمُحكَم ومنه الـمُتشابه: فالمُحكم منه هو الواضح الجليُّ الَّذي لا خفاء فيه، والمُتشابه منه هو الخفيُّ الَّذي يفهم حقيقتَه الرَّاسخ في العلم، ويتوهَّم المُتوهِّم منه غير مُراد الله عَزَّوَجَلَّ.

من أدلَّة الإحكام العامِّ للقرآن:

[١] قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾[يونس]، وهذا واضحٌ أنَّه عامٌّ لكلِّ القرآن.

[٢] قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: أُتقنت، وقيل: أُجملت؛ بدليل قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾، ولا تنافي بينهما، ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾[هود] هو الله عَزَّوَجَلَّ: ذو الحكمة، الخبير ببواطن الأمور وظواهرها.

[٣] قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾[الزُّخرف]، فالقرآن كلُّه حكيمٌ بمعنىٰ مُحكَمٍ، وبمعنىٰ حاكمٍ؛ لأنَّه أداة الحُكم.

القرآنُ كلُّه مُحكَمٌ مُتقَنٌ جيِّدٌ، فهل يتفاضل؟

[١] **من حيثُ المُتكلِّمُ به:** لا يتفاضل؛ لأنَّ المُتكلِّم به واحدٌ.

[٢] **من حيثُ الأسلوبُ والمَعنى:** يتفاضل؛ ولذلك أدلَّةٌ منها قوله ﷺ لأُبيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؛ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**»، قال: آية الكرسيِّ، فضرب علىٰ صدره وقال: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**». أخرجه مسلمٌ.

دليلُ التَّشابُه العامِّ للقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾، ولم يقل: بعضُه مُتشابهٌ، ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ بدلٌ من ﴿أَحۡسَنَ﴾، ﴿مَّثَانِيَ﴾ تُثنَّىٰ فيه المَعاني والأحكامُ والأوصافُ، ولهذا تجد الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه العزيز إذا ذكر ثواب المؤمنين ذكر ثواب المُجرمين؛ كما ذكر كتاب الفجَّار وكتاب الأبرار في سورة المُطفِّفين، وأيضًا مثاني بالنِّسبة لصفات الخلق؛ كقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾[التَّغابن:٢].

﴿مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ﴾ خوفًا وتعظيمًا ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[الزُّمر:٢٣].

دليلُ الإحكام والتَّشابُه الوجهيَّين للقرآن:

قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ﴾ للتَّبعيض، قسَّم الله القرآن إلىٰ قسمين: ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هذا القسم الأوَّل، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ وهذا القسم الثَّاني، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾، يعني: يتَّبعون المُتشابه ويحصرونه، ويوردونه علىٰ النَّاس ليُلبِّسوا عليهم دينَهم، ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾[آل عمران].

واختلف السَّلف هل الوقف عند ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ أم يوصل؟

اختلف السَّلفُ في الوقف في ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾:

[١] الوقفُ على ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾:

وهو قول أكثر السَّلف، فيكون ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ مُبتدأً وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ خبرَه.

والتَّأويلُ عندهم بمعنىٰ علم حقائق هذه المُشتبِهات، ومآلِها في المُستقبل، وهذا لا يعلمُه إلَّا الله.

[٢] الوصلُ:

وهو قول بعض السَّلف، فتكون جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حالًا من الرَّاسخين في العلم في موضع نصبٍ.

والتَّأويل عندهم بمعنىٰ التَّفسير، فإنَّ الرَّاسخين في العلم يعلمونه؛ كما قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ».

وبناءً علىٰ هذا فإنَّنا في القراءة: إذا جعلنا التَّأويل بمعنىٰ التَّفسير فالوصل أولىٰ، وإذا جعلناه بمعنىٰ ما يؤول إليه الشَّيء فالفصل أولىٰ.

الحكمة من وجود التَّشابه الخاصِّ في القرآن:

الحكمة من ذلك هي الامتحان والابتلاء؛ ليعلم الله عَزَّوَجَلَّ مَن في قلبه زيغٌ، ومن ليس في قلبه زيغٌ؛ لأنَّ من في قلبه زيغٌ يتَّبع المُتشابه ليضرب كلام الله بعضَه ببعضٍ، وأمَّا الَّذي أعطاه الله الرُّسوخ في العلم فإنَّه يعرف حقيقة المُتشابه.

هل للحروف الهجائيَّة مَعنًى في ذاتِها؟

ليس لها مَعنًىٰ في ذاتها؛ لأنَّ القرآن بلسانٍ عربيٍّ، والعرب لا يرون للحروف مَعنًىٰ في ذاتها، لكنَّ لها مَغزًىٰ، وهو أنَّ هذا القرآن الَّذي أعجز العرب لم يأت بجديدٍ عليهم؛ بل أتىٰ ممَّا يُركِّبون منه كلامهم وهي الحروف، ومع هذا عجزوا أن يأتوا بمثله.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مِثالُهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِاللهِ تَعالَىٰ: أَنْ يَتَوَهَّمَ وَاهِمٌ مِنْ قَوْلِـهِ تَعَـالَىٰ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤] أَنَّ للهِ يَدَيْنِ مُماثِلَتَيْنِ لِأَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ.

وَمِثَالُهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ: أَنْ يَتَوَهَّمَ وَاهِمٌ تَنَاقُضَ الْقُرْآنِ وَتَكْذِيبَ بَعْضِهِ بَعْضًا حِينَ يَقُولُ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾[النِّساء: ٧٩] وَيَقُولُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾[النِّساء].

وَمِثَالُهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِرَسُولِ اللهِ: أَنْ يَتَوَهَّمَ وَاهِمٌ مِنْ قَوْلِـهِ تَعَـالَىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤﴾[يونس]، ظَاهِرُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ شَاكًّا فِيمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ).

ضربَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمثلةً للمُتشابه الخاص:

[١] فيما يتعلَّق بالله:

قال تعالىٰ: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[المائدة:٦٤]، قد يتوهَّم منها الواهم فيقول: إنَّ الله خاطبنا بما نعلم، ونحن لا نعلم يدًا إلَّا مثل أيدي المَخلوقين، وهذا يقتضي أن تكون يده عَزَّ وَجَلَّ كأيدي المَخلوقين!

[٢] فيما يتعلَّق بالقرآن:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النِّساء:٧٩]، وقال عن الحسنة والسَّيِّئة: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[النِّساء:٧٨]، قد يتوهَّم منها الواهم التَّناقض، وليس فيها تناقضٌ كما سيأتي.

[٣] فيما يتعلَّق بالنَّبيِّ ﷺ:

قال تعالىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [يونس:٩٤]، قد يتوهَّم الواهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان شاكًّا، والنَّبيُّ ﷺ لم يشكَّ، وقد شهد له الله عَزَّ وَجَلَّ بالإيمان: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ﴾[البقرة:٢٨٥].

وقد ألَّف الشَّيخ محمَّدٌ الأمين الشِّنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا سمَّاه: «**دفع إيهام الاضطراب في آيات الكتاب**».

ثانيًا: مَوْقِفُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ وَالزَّائِغِينَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنَّ مَوْقِفَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ وَمَوْقِفَ الزَّائِغِينَ مِنْهُ بَيَّنَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، فَقَالَ فِي الزَّائِغِينَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾، وَقَالَ فِي الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فَالزَّائِغُونَ يَتَّخِذُونَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ وَسِيلَةً لِلطَّعْنِ فِي كِتَابِ اللهِ، وَفِتْنَةِ النَّاسِ عَنْهُ، وَتَأْوِيلِهِ لِغَيْرِ مَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ، فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ، وَأَمَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، فَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَيْسَ فِيهِ اخْتِلَافٌ وَلَا تَنَاقُضٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّسَاء].

وَمَا جَاءَ مُشْتَبِهًا رَدُّوهُ إِلَىٰ الْمُحْكَمِ؛ لِيَكُونَ الْجَمِيعُ مُحْكَمًا.

وَيَقُولُونَ فِي الْمِثَالِ الْأَوَّلِ: إِنَّ للهِ تَعَالَىٰ يَدَيْنِ حَقِيقِيَّتَيْنِ، عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، لَا تُمَاثِلَانِ أَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ، كَمَا أَنَّ لَهُ ذَاتًا لَا تُمَاثِلُ ذَوَاتِ الْمَخْلُوقِينَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورىٰ]).

الخلافُ في ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾:

[١] قولُ المُمثِّلة:	[٢] قولُ المؤوِّلة:	[٣] قولُ أهل السُّنَّة:
لله عَزَّ وَجَلَّ يدان مُماثلتان لأيدي المَخلوقين، وعلَّتهم في ذلك أنَّ الله خاطبنا بما نعلم، ونحن لا نعلم إلَّا ما نشاهد.	اليد بمَعنىٰ: النِّعمة، أو القدرة؛ لأنَّ ظاهر الآية التَّمثيل، ولهذا يجب صرفُها عن ظاهرها إلىٰ أمرٍ مَعنويٍّ.	نثبت لله عَزَّ وَجَلَّ يدين حقيقيَّتين؛ لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أثبتهما، لكنَّهما لا تماثلان أيدي المَخلوقين.

دليل أهل السُّنَّة في إثبات يدين حقيقيَّتين:

[١] **نقليٌّ:** وهو قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشُّورىٰ].

[٢] **عقليٌّ:** إذا كان لله عَزَّوَجَلَّ ذاتٌ لا تشبه ذوات المَخلوقين؛ فليكن له صفاتٌ لا تشبه صفات المَخلوقين؛ لأنَّ الصِّفات تابعةٌ للذَّات، واليد المُضافة مثلًا إلىٰ الجمل ليست كالمُضافة إلىٰ الأرنب، فصفات كلِّ شيءٍ تناسبُه.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَيَقُولُونَ فِي الْمِثَالِ الثَّانِي: إِنَّ الْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ كِلْتَاهُمَا بِتَقْدِيرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنَّ الْحَسَنَةَ سَبَبُهَا التَّفَضُّلُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، أَمَّا السَّيِّئَةُ فَسَبَبُهَا فِعْلُ الْعَبْدِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ٣٠﴾ [الشُّورىٰ]، فَإِضَافَةُ السَّيِّئَةِ إِلَىٰ الْعَبْدِ مِنْ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَىٰ سَبَبِهِ، لَا مِنْ إِضَافَتِهِ إِلَىٰ مُقَدِّرِهِ، أَمَّا إِضَافَةُ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فَمِنْ بَابِ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَىٰ مُقَدِّرِهِ، وَبِهَذَا يَزُولُ مَا يُوهِمُ الِاخْتِلَافَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ، لِانْفِكَاكِ الْجِهَةِ).

السَّيِّئة تُضاف إلى:

[١] **الإنسان:** من باب إضافة الشَّيء إلىٰ سببه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[النِّساء:٧٩].

[٢] **الله** عَزَّوَجَلَّ: من باب إضافة الشَّيء إلىٰ مُقدِّره، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[النِّساء:٧٨].

وبينهما فرقٌ، وإذا انفكَّت الجهة زال التَّعارض، لكنَّ أهل الباطل يجعلون من هذا وسيلةً إلىٰ الطَّعن في القرآن، فهؤلاء لا يُفتح عليهم، ولا يُوفَّقون للجمع بين ما يُتوهَّم منه التَّعارض، وأمَّا الَّذي يحاول الجمع فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يوفِّقه إليه.

وتوهُّم التَّناقض يقع كثيرًا من الطُّلَّاب، ولو أعمل الواحد منهم ذهنه وتأمَّل في الدَّليلين زال التَّعارض المُتوهَّم وعرف أنَّه لا تناقض بينهما.

أمثلةٌ أخرى لما يُتوهَّم منه التَّناقض:

[١] قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾[النِّساء]، فبيَّن أنَّ الكافرين لا يكتمون الله شيئًا يوم القيامة، وقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأنعام]، وفيها أنَّهم يكتمون الله، وقد يتوهَّم الواهم منهما التَّناقض، لكنَّ الرَّاسخين يعلمون أنَّ يوم القيامة خمسون ألف سنةٍ، وهذه المُدَّة تتغيَّر فيها الأحوال، فقد يكتمون مرَّةً ولا يكتمون أخرىٰ.

[٢] قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم﴾[آل عمران:١٠٦]، وقال: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾[طه]، فقد يتوهَّم الواهم منهما التَّناقض، والرَّاسخون في العلم يقولون كما في المثال الأوَّل: إنَّ يوم القيامة يومٌ طويلٌ جدًّا، وقد تتغيَّر فيه الأحوال، فتكون وجوههم تارةً سودًا وتارةً زرقًا، أو يقولون: إنَّ الأزرق شديد الزُّرقة يميل إلىٰ السَّواد، فيصحُّ أن يوصف بالسَّواد علىٰ هذا الاعتبار.

قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (**وَيَقُولُونَ فِي الْمِثَالِ الثَّالِثِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ شَكٌّ فِيمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، بَلْ هُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهِ، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي نَفْسِ السُّورَةِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[يونس:١٠٤]، الْمَعْنَىٰ: إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ فَأَنَا عَلَىٰ يَقِينٍ مِنْهُ، وَلِهَذَا لا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ؛ بَلْ أَكْفُرُ بِهِمْ، وَأَعْبُدُ اللهَ، وَلا يَلْزَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أَنْ يَكُونَ الشَّكُّ جَائِزًا عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ وَاقِعًا مِنْهُ، أَلا تَرَىٰ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[الزُّخرف]، هَلْ يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ الْوَلَدُ جَائِزًا عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ أَوْ حَاصِلًا؟! كَلَّا، فَهَذَا لَمْ يَكُنْ حَاصِلًا وَلا جَائِزًا عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[مريم].**

وَلا يَلْزَمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أَنْ يَكُونَ الامْتِرَاءُ وَاقِعًا مِنَ

الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّ النَّهْيَ عَنِ الشَّيْءِ قَدْ يُوَجَّهُ إِلَىٰ مَنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ، أَلَا تَـرَىٰ قَوْلَـهُ تَعَـالَىٰ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾[القصص]؟ **وِمَن الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَمْ يَصُدُّوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ آيَـاتِ اللهِ، وَأَنَّ النَّبِـيَّ ﷺ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ شِرْكٌ، وَالْغَرَضُ مِنْ تَوْجِيهِ النَّهْيِ إِلَىٰ مَنْ لَا يَقَعُ مِنْـهُ التَّنْدِيـدُ بِمَـنْ وَقَـعَ مِنْـهُ، وَالتَّحْـذِيرُ مِـنْ مَنَـاهِجِهِمْ، وَبِهَـذَا يَـزُولُ الِاشْـتِبَاهُ، وَظَـنُّ مَـا لَا يَلِيـقُ بِالرَّسُـولِ ﷺ).**

الدَّليل على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يشكَّ فيما أُنزل إليه:

[١] قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا أيُّها الرَّسول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾، والمَعنىٰ: إن كنتم في شكٍّ فأنا علىٰ يقينٍ، ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ﴾[يونس:١٠٤].

[٢] أنَّ هناك فرقًا بين (إن) و(إذا) الشَّرطيَّتين، فـ(إذا) تفيد الوقوع، و(إن) لا تفيده، بل قد تأتي في أمحل المُحال، ومن ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[الزُّخرف]، ولا يلزم منها أنَّ الله يتَّخذ ولدًا؛ لأنَّه مُحالٌ في حقِّه عَزَّوَجَلَّ، وإنَّما معناها: إن فُرض أنَّ له ولدًا فأنا أوَّل العابدين لهذا الولد.

وقيل: ﴿إِن﴾ في الآية نافيةٌ، فيكون مَعناها: قل ما كان للرَّحمن ولدٌ، وعلىٰ هذا يلزم تأويل ﴿ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ علىٰ مَعنىٰ المؤمنين ليستقيم السِّياق، فتكون العبادة مُطلَقةً علىٰ الإيمان بجامع الذُّلِّ في كلٍّ منهما.

لكنَّ هذا التَّفسير يُنافي الظَّاهر من الآية مُنافاةً تامَّةً، والأوَّل أولىٰ.

وهذه الآية من أعوص الإيرادات في آيات القرآن الكريم.

هل يلزم من ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ وقوعُ الامتراء منه ﷺ أو جوازُه؟

لا يلزم وقوعُه منه ﷺ، وذلك لأنَّ النَّهي عن الشَّيء قد يُوجَّه إلىٰ من لم يقع منه: كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾[القصص]، ومَعلومٌ أنَّهم لم يصُدُّوا النَّبيَّ ﷺ عن آيات الله، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يقع منه شيءٌ.

وكذلك فإنَّ النَّهي عن الشَّيء لا يلزم منه جواز وقوعه، فالنَّبيُّ ﷺ مُثبَّتٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يجوز أن يقع منه صدودٌ عن آيات الله، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[الإسراء].

ثمَّ إنَّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ لا يلزم منه وقوع الشِّرك منه ﷺ، ولا جوازُ وقوعه.

الحِكمةُ من توجيه النَّهي إلى من لا يمكن أن يقع منه الـمَنهيِّ عنه:

الحكمة من ذلك التَّنديد بمن وقع منهم، والتَّحذير من مَناهجهم، علىٰ حدِّ قول القائل: (إيَّاكِ أعني، واسمعي يا جارة).

ثَالِثًا: أَنْوَاعُ التَّشَابُهِ فِي الْقُرْآنِ

قَالَ الْمُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التَّشَابُهُ الْوَاقِعُ فِي الْقُرْآنِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: حَقِيقِيٌّ، وَهُوَ: مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَهُ الْبَشَرُ؛ كَحَقَائِقِ صِفَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّنَا وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ مَعَانِيَ هَذِهِ الصِّفَاتِ، لَكِنَّنَا لَا نُدْرِكُ حَقَائِقَهَا وَكَيْفِيَّتَهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام]، وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه] كَيْفَ اسْتَوَىٰ؟ قَالَ: الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَهَذَا النَّوْعُ لَا يُسْأَلُ عَنِ اسْتِكْشَافِهِ؛ لِتَعَذُّرِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: نِسْبِيٌّ، وَهُوَ: مَا يَكُونُ مُشْتَبِهًا عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، فَيَكُونُ مَعْلُومًا لِلرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَهَذَا النَّوْعُ يُسْأَلُ عَنِ اسْتِكْشَافِهِ وَبَيَانِهِ؛ لِإِمْكَانِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، إِذْ لَا يُوجَدُ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ لَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران]، وَقَالَ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّحل]، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة] وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النِّساء].

وَأَمْثِلَةُ هَذَا النَّوْعِ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشُّورىٰ:١١]، حَيْثُ اشْتَبَهَ عَلَىٰ أَهْلِ التَّعْطِيلِ، فَفَهِمُوا مِنْهُ انْتِفَاءَ الصِّفَاتِ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَادَّعَوْا أَنَّ ثُبُوتَهَا يَسْتَلْزِمُ الْمُمَاثَلَةَ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ ثُبُوتِ الصِّفَاتِ لَهُ، وَأَنَّ إِثْبَاتَ أَصْلِ الْمَعْنَىٰ لَا يَسْتَلْزِمُ الْمُمَاثَلَةَ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النِّساء]، حَيْثُ اشْتَبَهَ عَلَىٰ

الْوَعِيدِيَّةِ، فَفَهِمُوا مِنْهُ أَنَّ قَاتِلَ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَطَرَدُوا ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ ذَنْبٍ دُونَ الشِّرْكِ فَهُوَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحجّ]، حَيْثُ اشْتَبَهَ عَلَى الْجَبْرِيَّةِ، فَفَهِمُوا مِنْهُ أَنَّ الْعَبْدَ مَجْبُورٌ عَلَىٰ عَمَلِهِ، وَادَّعَوْا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ إِرَادَةٌ وَلَا قُدْرَةٌ عَلَيْهِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ لِلْعَبْدِ إِرَادَةً وَقُدْرَةً، وَأَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ نَوْعَانِ: اخْتِيَارِيٌّ، وَغَيْرُ اخْتِيَارِيٍّ.

وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ -أَصْحَابُ الْعُقُولِ- يَعْرِفُونَ كَيْفَ يُخْرِجُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةَ إِلَىٰ مَعْنًى يَتَلَاءَمُ مَعَ الْآيَاتِ الْأُخْرَىٰ، فَيَبْقَىٰ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحَكَمًا لَا اشْتِبَاهَ فِيهِ).

التَّشابُه الواقعُ في القرآن نوعان:

[١] حقيقيٌّ:

[أ] تعريفه: (مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَهُ الْبَشَرُ)، مثل حقائق صفات الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّه لا يُعلَم كُنهُها وحقيقتُها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه]...

[ب] حُكمُه: (لَا يُسْأَلُ عَنِ اسْتِكْشَافِهِ؛ لِتَعَذُّرِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ)، وإنَّما نكِلُ علمَه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والظَّاهر أنَّ النَّهي عن السُّؤال للتَّحريم.

[٢] نسبيٌّ:

[أ] تعريفه: (مَا يَكُونُ مُشْتَبِهًا عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ)، ولا يُمكن أن يجهله كلُّ النَّاس، قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٨].

[ب] حكمُه: (يُسْأَلُ عَنِ اسْتِكْشَافِهِ وَبَيَانِهِ؛ لِإِمْكَانِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ)، قال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النَّحل].

مَعنى قول الإمام مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الاستواء:

لمَّا سُئل مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن كيفيَّة الاستواء؛ قال: (**الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ**) أي: مَعلوم المَعنىٰ في اللُّغة العربيَّة، (**وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ**) أي: لا يُدرَك بالعقل، وإذا لم يُدرَك بالعقل فلا مَردَّ إلَّا إلىٰ السَّمع، والسَّمعُ لم يرد به، (**وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ**) لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أخبر به عن نفسه، (**وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ**) لأنَّه سُؤالٌ عمَّا لا يُدرَكُ بالعقل، ولم يرد فيه دليلٌ من السَّمع.

الدَّليلُ نوعان:

[١] **السَّمعُ:** وهو الكتابُ والسُّنَّةُ؛ لأنَّهما مَسموعان.

[٢] **العقلُ:** والنَّظرُ، ويُسمَّىٰ المُتكلِّمون بالنُّظَّار؛ لأنَّهم ادَّعوا أنَّهم أهل العقول.

آياتُ الصِّفات من:

[١] **المُحكَم:** باعتبار المَعنىٰ، فمَعناها واضحٌ ظاهرٌ، وليس مَعناها خفيًّا.

[٢] **المُتشابه:** باعتبار الكيفيَّة؛ لأنَّنا لا يمكن أن نصل إلىٰ حقائقها.

لا يوجد في القرآن شيءٌ لا يتبيَّن مَعناه لأحدٍ من النَّاس، والدَّليل:

[١] ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: كلِّ النَّاس، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لا يهتدي ويتَّعظ به إلَّا المُتَّقون.

[٢] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو مُبينٌ، وكلُّ شيءٍ يحتاج النَّاس إلىٰ بيانه فإنَّه مَوجودٌ في القرآن، إمَّا مَنصوصًا عليه، أو مَدلولًا عليه بالإشارة.

[٣] ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي: قرأه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عليك، ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩﴾ لفظًا ومَعنًىٰ.

[٤] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤﴾ والبرهان والنُّور لابدَّ أن يكون بيِّنًا.

لـماذا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قراءة جبريل بقوله: ﴿قَرَأْنَهُ﴾؟

لمَّا كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولًا من ربِّ العالمين، صارت قراءتُه كقراءة الله عَزَّوَجَلَّ، فأطلق الله عَزَّوَجَلَّ الفعل علىٰ نفسه والمُرادُ به الرَّسول؛ لأنَّ الرَّسول مُبلِّغٌ.

ومن هذا الباب قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، ولا يُمكن أن يُبايعوا الله عَزَّوَجَلَّ فوق العرش وهم تحت الشَّجرة، فهم إنَّما بايعوا النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومُبايعة الرَّسول مُبايعةٌ لله، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:١٠] والَّذي فوق أيديهم هو يد الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلىٰ هذا فلا إشكال في الآية.

المثال الأوَّل للتَّشابُه النِّسبيِّ:

قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[الشُّورىٰ:١١]، ضلَّ في هذه الآية طائفتان:

[١] طائفةٌ غلوا في نفيها، وفهموا أنَّها تدلُّ علىٰ نفي كلِّ الصِّفات، وقالوا: إنَّك إذا أثبتَّ أيَّ صفةٍ فقد مثَّلتَ.

[٢] طائفةٌ قالوا: ليس كمثله شيءٌ في الصِّفات الخبريَّة فقط؛ كالوجه واليدين وما أشبه ذلك.

[٣] وقال أهل السُّنَّة: ليس كمثله شيءٌ في كلِّ الصِّفات، ونفيُ المثل يدلُّ علىٰ ثبوت أصل المَعنىٰ؛ وإلَّا لكان نفيُ المثل لغوًا.

المثال الثَّاني للتَّشابُه النِّسبيِّ:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[النِّساء]، فهم منها الوعيديَّة -وهم المُعتزلة والخوارج- أنَّ قاتل المؤمن عمدًا مُخلَّدٌ في النَّار؛ لأنَّهم قالوا بنصوص الوعيد وأعرضوا عن نصوص الرَّجاء، وكلاهما قال: إنَّ فاعل الكبيرة مُخلَّدٌ في النَّار، لكنَّ بينهما فرقًا.

الفرق بين الخوارج والـمُعتزلة في فاعل الكبيرة:

[١] **الخوارج:** قالوا: إنَّ فاعل الكبيرة كافرٌ في الدُّنيا؛ لأنَّ حكم الخُلود لا يكون إلَّا للكافرين، وبناءً علىٰ هذا الأصل استحلُّوا دماء المسلمين.

[٢] **الـمُعتزلة:** قالوا: إنَّ فاعل الكبيرة في الدُّنيا في منزلةٍ بين المنزلتين، لا مؤمنٌ ولا كافرٌ، فلم يستحلُّوا دمه، لكن وافقوا الخوارج في كونه مُخلَّدًا في النَّار.

دفع التَّوهُّم في آية النِّساء:

من المناسبات الجيِّدة أنَّ آية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾[النِّساء:٩٣] وقعت بين آيتين تدلَّان علىٰ أنَّ ما سوىٰ الشِّرك تحت المشيئة، وهما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾[النِّساء]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾[النِّساء].

لكنَّ الأصل في الخلود الدَّوام، وذكر التَّأبيد من باب التَّوكيد فقط، فكيف توجيه قوله تعالىٰ: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾؟

[١] تفسير ابن عبَّاسٍ: القتل العمد سببٌ للخلود في النَّار، لكن قد يوجد مانعٌ -وهو الإيمان- فينتفي الخلود، فالشَّيء لا يتمُّ إلَّا بوجود شروطه وانتفاء مَوانعه، وهذا هو أقرب الأقوال إلىٰ الصَّواب.

[٢] وقيل: المُراد بالخلود هنا المُكث الطَّويل دون تأبيدٍ، وهو تفسيرٌ سائغٌ في اللُّغة العربيَّة، لكن يرد عليه أنَّه ثبت في السُّنَّة خلود قاتل نفسه في النَّار، وكذا من قتل نفسه بشيءٍ فإنَّه يُخلَّد في العذاب به.

[٣] وقيل: يُحكَم بخلوده في النَّار إذا كان مُستحلًّا دم المَقتول، وهذا قولٌ مَردودٌ.

[٤] وقيل: الآية مُطلقةٌ، فيكفر قاتل المؤمن عمدًا علىٰ كلِّ حالٍ، وهو قولٌ غير سديدٍ.

المثال الثَّالث للتَّشابُه النِّسبيِّ:

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أي: قد علمتَ، والاستفهام هنا للتَّقرير، والخطاب للنَّبيِّ ﷺ، أو لكلِّ من يتأتَّىٰ خطابُه، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿مَا﴾ اسمٌ مَوصولٌ يدلُّ علىٰ العموم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: ما في السَّماء والأرض مَكتوبٌ في اللَّوح المَحفوظ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: كتابة ما في السَّماء والأرض، ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾[الحجّ].

اشتبهت هذه الآية علىٰ الجبريَّة، ففهموا منها أنَّ العبد مَجبورٌ علىٰ عمله، وادَّعوا أنَّه ليس له إرادةٌ ولا قدرةٌ ولا اختيارٌ، وأنَّ حركاته كتحرُّك الرِّيش في الهواء.

ولا شكَّ أنَّ هذا قولٌ باطلٌ، ودليل بُطلانه:

[١] السَّمع:

أثبت الله ﷿ المشيئة للعبد في عدَّة آياتٍ، منها: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التَّكوير]، وأثبت له القدرة كما في قوله: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم].

[٢] العقل:

من المَعلوم أنَّه لو كان الله مُجبرًا عبادَه علىٰ ما يفعلون، ثمَّ يعذِّبهم في المُخالفة؛ لكان هذا أمرًا لا يليق بالله ﷿؛ لأنَّه ظلمٌ.

[٣] الحسُّ:

فكلُّ إنسانٍ يعرف أنَّه يدخل ويخرج ويذهب ويجيء باختياره، ولا يرىٰ أنَّ أحدًا يُكرهه علىٰ هذا.

تنبيهٌ:

فعل العبد نوعان: اختياريٌّ، وغير اختياريٍّ، فالأوَّل يُؤاخذ عليه، والثَّاني لا يُؤاخذ عليه.

وينبغي للإنسان أن يسأل الله ﷿ دائمًا أن يهديه للحقِّ في العقائد والعمليَّات.

وانظر إلىٰ فعل الرَّسول ﷺ، كان يفتتح قيام اللَّيل -وهو أوَّل صلاةٍ يصلِّيها بعد النَّوم- بقوله: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**». أخرجه مسلمٌ.

رابِعًا: الْحِكْمَةُ فِي تَنَوُّعِ الْقُرْآنِ إِلَى مُحْكَمٍ وَمُتَشَابِهٍ

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحْكَمًا لَفَاتَتِ الْحِكْمَةُ مِنَ الِاخْتِبَارِ بِهِ تَصْدِيقًا وَعَمَلًا؛ لِظُهُورِ مَعْنَاهُ، وَعَدَمِ الْمَجَالِ لِتَحْرِيفِهِ، وَالتَّمَسُّكِ بِالْمُتَشَابِهِ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَلَوْ كَانَ كُلُّهُ مُتَشَابِهًا لَفَاتَ كَوْنُهُ بَيَانًا وَهُدًى لِلنَّاسِ، وَلَمَا أَمْكَنَ الْعَمَلُ بِهِ، وَبِنَاءُ الْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بِحِكْمَتِهِ جَعَلَ مِنْهُ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ، يُرْجَعُ إِلَيْهِنَّ عِنْدَ التَّشَابُهِ، وَأُخَرَ مُتَشَابِهَاتٍ امْتِحَانًا لِلْعِبَادِ؛ لِيَتَبَيَّنَ صَادِقُ الْإِيمَانِ مِمَّنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ.

فَإِنَّ صَادِقَ الْإِيمَانِ يَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمَا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ بَاطِلٌ أَوْ تَنَاقُضٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصِّلت]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّساء].

وَأَمَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ فَيَتَّخِذُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ سَبِيلًا إِلَىٰ تَحْرِيفِ الْمُحْكَمِ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَىٰ فِي التَّشْكِيكِ فِي الْأَخْبَارِ، وَالِاسْتِكْبَارِ عَنِ الْأَحْكَامِ، وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ يَحْتَجُّونَ عَلَىٰ انْحِرَافِهِمْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ).

لو كان القرآن:

[١] كلُّه مُحكمًا:

والإحكام هنا هو وضوح المَعنىٰ وبيانه لكلِّ النَّاس، فلو كان القرآن كلُّه بيِّنًا لفاتت الحكمة من الاختبار والامتحان بين المؤمن الرَّاسخ في العلم، ومن في قلبه زيغٌ.

[٢] كلُّه مُتشابهًا:

والتَّشابه هنا هو خفاء المَعنىٰ علىٰ بعض النَّاس، فإذا كان القرآن كلُّه خفيًّا فات البيان للنَّاس والإيضاح، ولم يمكن العمل بمَضمونه، ولا بناء العقيدة السَّليمة عليه.

مُوهِمُ التَّعارُض فِي القُرْآن

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (التَّعارُضُ فِي الْقُرْآنِ أَنْ تَتَقابَلَ آيَتانِ، بِحَيْثُ يَمْنَعُ مَدْلُول إِحْدَاهُمَا مَدْلُولَ الْأُخْرَىٰ، مِثْلَ أَنْ تَكُونَ إِحْدَاهُمَا مُثْبِتَةً لِشَيْءٍ وَالْأُخْرَىٰ نَافِيَةً فِيهِ.

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ التَّعارُضُ بَيْنَ آيَتَيْنِ مَدْلُولُهُمَا خَبَرِيٌّ؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ كَوْنُ إِحْدَاهُمَا كَذِبًا، وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ فِي أَخْبَارِ اللهِ تَعَالَىٰ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾[النِّساء]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾[النِّساء]، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ التَّعارُضُ بَيْنَ آيَتَيْنِ مَدْلُولُهُمَا حُكْمِيٌّ؛ لِأَنَّ الْأَخِيرَةَ مِنْهُمَا نَاسِخَةٌ لِلْأُولَىٰ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[البقرة: ١٠٦]، وَإِذَا ثَبَتَ النَّسْخُ كَانَ حُكْمُ الْأُولَىٰ غَيْرَ قَائِمٍ وَلَا مُعَارِضٍ لِلْأَخِيرَةِ، وَإِذَا رَأَيْتَ مَا يُوهِمُ التَّعارُضَ مِنْ ذَلِكَ، فَحَاوِلِ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا، فَإِنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ وَجَبَ عَلَيْكَ التَّوَقُّفُ، وَتَكِلُ الْأَمْرَ إِلَىٰ عَالِمِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ أَمْثِلَةً كَثِيرَةً لِمَا يُوهِمُ التَّعارُضَ، بَيَّنُوا الْجَمْعَ فِي ذَلِكَ، وَمِنْ أَجْمَعِ مَا رَأَيْتُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ كِتَابُ «دَفْعِ إِيهَامِ الِاضْطِرَابِ عَنْ آيِ الْكِتَابِ» لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْأَمِينِ الشِّنْقِيطِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

فَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الْقُرْآنِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[البقرة]، وَقَوْلُهُ فِيهِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[البقرة: ١٨٥]، فَجَعَلَ هِدَايَةَ الْقُرْآنِ فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ خَاصَّةً بِالْمُتَّقِينَ، وَفِي الثَّانِيَةِ عَامَّةً لِلنَّاسِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْهِدَايَةَ فِي الْأُولَىٰ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَالِانْتِفَاعِ، وَالْهِدَايَةَ فِي الثَّانِيَةِ هِدَايَةُ التَّبْيِينِ وَالْإِرْشَادِ.

وَنَظِيرُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الرَّسُولِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص: ٥٦] وَقَوْلُهُ فِيهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[الشُّورىٰ]، فَالْأُولَىٰ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، وَالثَّانِيَةُ هِدَايَةُ التَّبْيِينِ).

قاعدةٌ مهمَّةٌ:

(كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عن التَّعارُضِ والاختلافِ)، ولهذا قـالَ المُؤلِّـفُ رَحِمَهُ اللهُ: (**مُـوهِمُ التَّعَارُضِ فِي الْقُرْآنِ**)؛ لأنَّ التَّعارُضَ غيرُ حَقيقيٍّ وإنَّما مُتوَهَّمٌ، قالَ تعـالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّساء].

تقابل المَعنيين على نوعين:

[١] **تقابلٌ من كلِّ وجهٍ:** بحيث يمنع مَدلول أحدهما مَدلول الآخر، فهذا هو التَّعارض المَقصود في هذا الباب.

[٢] **تقابلٌ من بعض الوجوه:** لا يمنع مَدلول أحدهما مَدلول الآخر؛ كما يكون بين العامِّ والخاصِّ، فهذا ليس بتعارضٍ، فالعامُّ فيه شمول الحكم للأفراد، والخاصُّ يختصُّ بأحدها.

التَّعارض في:

[١] **الأخبار:** بحيث تأتي آيةٌ تثبت شيئًا وأخرىٰ تنفيه، وهذا غير واقعٍ في القرآن؛ لأنَّه لو وقع للزم أن تكون إحدىٰ الآيتين كاذبةً، وهذا مُستحيلٌ في خبره عَزَّوَجَلَّ.

[٢] **الأحكام:** إذا وقع في القرآن فإنَّ الآية المُتأخِّرة منهما تكون ناسخةً للمُتقدِّمة؛ لأنَّ النَّسخ جائزٌ في الأحكام، فلا تبقىٰ المُقابلة والمُقاومة.

فائدة كتاب «دَفْعِ إِيهَامِ الاضْطِرَابِ عَنْ آيِ الْكِتَابِ»:

أهمِّيَّة هذا الكتاب في أنَّ الإنسان يتعوَّد به كيف يجمع بين الآيات، يوقن بأنَّ القرآن ليس فيه تعارضٌ، لذلك ينبغي للإنسان أن يطالع مثل هذه الكتب الَّتي فيها الجمع بين الآيات الَّتي ظاهرها التَّعارض.

الهداية نوعان:

[١] **هداية توفيقٍ وعملٍ**: وهي خاصَّةٌ بالمُتَّقين، ومنها قوله تعالىٰ عن القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[البقرة]، وقوله عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

ولفظ ﴿أَحْبَبْتَ﴾ يحتمل مَعنيين:

[أ] (أَحْبَبْتَهُ): والآية نزلت في أبي طالبٍ، وهذا يقتضي أنَّه ﷺ يحبُّ عمَّه أبا طالبٍ، ولا يُلام علىٰ حبِّه له؛ لأنَّه يحبُّه لقرابته وإحسانه إليه، وليس لدينه، وهذا المَعنىٰ أقرب؛ لأنَّه ليس فيه تقديرٌ، والأصل عدم التَّقدير.

[ب] (أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ): وهذا فيه تقدير مَحذوفٍ.

[٢] **هداية بيانٍ وإرشادٍ**: وهي عامَّةٌ لكلِّ النَّاس، ومنها قوله تعالىٰ عن القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقوله عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾[الشُّورىٰ].

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣﴾ [الشُّعراء]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١﴾[هود]، فَفِي الْآيَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ نَفْيُ الْأُلُوهِيَّةِ عَمَّا سِوَى اللهِ تَعَالَىٰ، وَفِي الْأُخْرَيَيْنِ إِثْبَاتُ الْأُلُوهِيَّةِ لِغَيْرِهِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ ذٰلِكَ أَنَّ الْأُلُوهِيَّةَ الْخَاصَّةَ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ هِيَ الْأُلُوهِيَّةُ الْحَقَّةُ، وَأَنَّ الْمُثْبَتَةَ لِغَيْرِهِ هِيَ الْأُلُوهِيَّةُ الْبَاطِلَةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝٦٢﴾[الحجّ].**

وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾[الأعراف:٢٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾

[الإسراء]، فَفِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ نَفَىٰ أَنْ يَأْمُرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْفَحْشَاءِ، وَظَاهِرُ الثَّانِيَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَأْمُرُ بِمَا هُوَ فِسْقٌ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْأَمْرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ هُوَ الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ، وَاللهُ تَعَالَىٰ لَا يَأْمُرُ شَرْعًا بِالْفَحْشَاءِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النَّحل]، وَالْأَمْرُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ هُوَ الْأَمْرُ الْكَوْنِيُّ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَأْمُرُ كَوْنًا بِمَا شَاءَ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

المثال الثَّالث:

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ ﴾ فعلَّلوا بأمرين: أنَّهم وجدوا عليها آباءهم، وأنَّ الله أمرهم بها، فردَّ الله عليهم العلَّة الأولىٰ بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ ﴾[الأعراف:٢٨]، ولم يرُدَّ الثَّانية؛ لأنَّها حقٌّ، والحقُّ يُقبل ولو من الكافر، بل ولو من الشَّيطان نفسه! وفي الآية أنَّ الله لا يأمر بالفحشاء.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾﴾[الإسراء]، وفيها أنَّ الله يأمر بالفسق، فكيف يُجمع بينهما؟

الجمع بينهما بأنَّ أمر الله عَزَّوَجَلَّ نوعان:

[١] **أمرٌ شرعيٌّ:** ومنه الآية الأولىٰ، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يأمر شرعًا بالفحشاء، بل هو ينهىٰ عن الفحشاء والمُنكر.

[٢] **أمرٌ كونيٌّ:** فإنَّ كلَّ ما وقع في السَّماء والأرض فهو بأمره الكونيِّ، ومن هذا قولُه تعالىٰ: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾، أي: أمرًا كونيًّا، وحملها بعضهم علىٰ الشَّرعيِّ، بمعنىٰ: (إذا أردنا أن نهلك قريةً أرسلنا الرُّسل إليهم ففسقوا فدمَّرناهم)، وهذا غلطٌ لمُنافاته حكمة الله عَزَّوَجَلَّ.

الْقَسَمُ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْقَسَمُ بِفَتْحِ الْقَافِ وَالسِّينِ: الْيَمِينُ، وَهُوَ: تَأْكِيدُ الشَّيْءِ بِذِكْرِ مُعَظَّمٍ بِالْوَاوِ أَوْ إِحْدَىٰ أَخَوَاتِهَا، وَأَدَوَاتُهُ ثَلَاثَةٌ:

- الْوَاوُ: مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾[الذَّاريات:٢٣]، وَيُحْذَفُ مَعَهَا الْعَامِلُ وُجُوبًا، وَلَا يَلِيهَا إِلَّا اسْمٌ ظَاهِرٌ.
- وَالْبَاءُ: مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾[القيامة]، وَيَجُوزُ مَعَهَا ذِكْرُ الْعَامِلِ كَمَا فِي هَذَا الْمِثَالِ، وَيَجُوزُ حَذْفُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾[ص]، وَيَجُوزُ أَنْ يَلِيَهَا اسْمٌ ظَاهِرٌ كَمَا مَثَّلْنَا، وَأَنْ يَلِيَهَا ضَمِيرٌ كَمَا فِي قَوْلِكَ: اللهُ رَبِّي، وَبِهِ أَحْلِفُ لَيَنْصُرَنَّ الْمُؤْمِنِينَ.
- وَالتَّاءُ: مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝٥٦﴾[النَّحل]، وَيُحْذَفُ مَعَهَا الْعَامِلُ وُجُوبًا، وَلَا يَلِيهَا إِلَّا اسْمُ اللهِ، أَوْ رَبِّ، مِثْلَ: تَرَبِّ الْكَعْبَةِ لَأَحُجَّنَّ إِنْ شَاءَ اللهُ).

ضبط لفظ (القسم):

[٤] الْقَسَمُ:	[٣] الْقِسَمُ:	[٢] الْقَسْمُ:	[١] الْقِسْمُ:
بمعنىٰ اليمين، والحَلِف.	بمعنىٰ: ما يُقدَّر لابن آدم.	بمعنىٰ: تقسيم الشَّيء.	بمعنىٰ: الجنس، أو الصِّنف، وما أشبه ذلك.

القَسَم هو تأكيد الشَّيء بـ:

[١] (ذِكر مُعظَّمٍ)، سواءٌ كان المُعظَّم:

[أ] يستحقُّ التَّعظيم: وهو الله عَزَّوَجَلَّ وحده.

[ب] لا يستحقُّ التَّعظيم: فالَّذين يحلفون باللَّات والعُزَّىٰ ومَناة قَسَمهم صحيحٌ لغةً؛ لأنَّهم يعظِّمونهم.

وحُكم الحلف بغير اللَّه عَزَّوَجَلَّ شرعًا أنَّه:

[أ] شركٌ أكبر: إذا اعتقد أنَّه يستحقُّ من التَّعظيم كما يستحقُّ الله.

[ب] شركٌ أصغر: إذا لم يعتقد ذلك.

[٢] (على وجهٍ مَخصوصٍ):

بحروف القَسَم الثَّلاثة:
(الواو)، و(الباء)، و(التَّاء).
ويُقسم أحيانًا بـ(الهاء)، نحو: (ها اللهِ لأفعلنَّ).
ولهذا ذكر المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَخَوَاتِهَا).

وعلىٰ هذا فلو قال: (حرامٌ عليَّ أن أفعل كذا) فإنَّه لا يكون قسمًا بغير الله، وليس شركًا، لكنَّ حكمه حكمُ اليمين؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾[التَّحريم].

من أحكام القَسَم:

[١] لا ينبغي للإنسان أن يحلف بالله إلَّا عند الحاجة والضَّرورة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩].

[٢] ينبغي لمن حلف أن يستثني بـ(إن شاء الله)؛ ليسهُل أمرُه، ولئلَّا تترتَّب عليه كفَّارةٌ إذا حنث.

[٣] لا يجوز الحلف بغير الله مهما كانت مَنزلتُه، ولو كان النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يجوز القَسَم بـ:

- [١] **اللَّه:** وهذا هو الأكثر.
- [٢] **ما يختصُّ به من الأسماء:** مثل: الرَّحمن، وربِّ العالمين، ونحوها.
- [٣] **الصِّفات المَعنويَّة:** مثل: العلم، والقدرة، والسَّمع، والبصر، والعزَّة، ونحوها.
- [٤] **الصِّفات الخبريَّة:** الَّتي يُعبَّر بها عن ذاته عَزَّوَجَلَّ، مثل: الوجه، قال تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[الرَّحمن]، فعبَّر بالوجه عن الذَّات.

وأمَّا الصِّفات الخبريَّة الَّتي لا يُعبَّر بها عن الذَّات فلا يجوز القسم بها، مثل: اليد، والعين، والرِّجل، ونحوها، فلا يجوز مثلًا أن يقول: (وَيَدِ الله).

القَسَم إذا كان على شيءٍ:

- [١] **ماضٍ؛ فلا كفَّارة في الحِنث:**
  - [أ] **ولا يأثم:** إذا كان صادقًا.
  - [ب] **ويأثم:** إذا كان كاذبًا، فإذا تضمَّن اليمين أكلَ مالِ الغير بغير حقٍّ = كانت اليمينَ الغموسَ الَّتي تغمس صاحبَها في النَّار.
- [٢] **مُستقبَلٍ؛ فينقسم إلى:**
  - [أ] **يمينِ لَغوٍ:** وهي الَّتي تجري علىٰ الإنسان بغير قصدٍ، نحو: (لا والله)، و(بلىٰ والله)، وهذه لا كفَّارة فيها.
  - [ب] **يمينٍ مَعقودةٍ:** وهي الَّتي يقصدها الإنسان، فإذا قصد:
    - **الخبرَ:** فلا كفَّارة.
    - **إيقاعَ الفعل:** ففيها الكفَّارة إذا حنث.
  - [ج] **يمينٍ على ما يظُنُّ وقوعَه:** فلا كفَّارة عليه إذا لم يقع علىٰ الصَّحيح.

القسمُ بالواو هو الأكثرُ، والفرقُ بينَها وبينَ الباءِ والتَّاءِ:

[١] أنَّه يجبُ حذفُ العاملِ مع الواو والتَّاء:
فلا يصحُّ أن تقول: (أقسم واللهِ لتفعلنَّ كذا)، أو (أقسم تالله)؛ بخلاف الباء فإنَّه يجوز فيها إثباتُه: (أقسم بالله لتفعلنَّ كذا)، ويجوز حذفُه: (بالله لتفعلنَّ كذا).

[٢] أنَّه يجبُ أن يَلِيَ الواو اسمٌ ظاهرٌ:
فلا يجوز أن يليَ الواو ضميرٌ؛ بخلاف الباء فإنَّه يجوز فيها مثلًا: (اللهُ أقسمُ به لتفعلنَّ كذا).
وأمَّا التَّاء فلا يصحُّ أن يليَها سوىٰ (الله) و(ربِّ).

والخلاصة: أنَّ الواو هي أكثر حروف القسم الثَّلاثة استعمالًا، والباء هي أوسُعها من حيث طريقةُ الاستعمال (ما يصحُّ أن يتقدَّمها وأن يليَها)، والتَّاء هي أضيقُها.

خلافُ المُفسِّرين في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

[١] ﴿لَآ﴾ نافيةٌ لفعلٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: (لا صحَّة لما تزعُمون من إنكار البعث، أُقسم بيوم القيامة).

[٢] ﴿لَآ﴾ نافيةٌ لفعلٍ مَوجودٍ، والتَّقديرُ: (لا أقسم بكذا علىٰ كذا؛ لأنَّه لا يحتاج إلىٰ قَسَمٍ).

[٣] ﴿لَآ﴾ للتَّنبيه، والجملة جملةٌ ثُبوتيَّةٌ، لا جملةٌ مَنفيَّةٌ، وهذا هو أصحُّ الأقوال، وأقلُّها تكلُّفًا.

سُمِّيَ يومَ القيامة لأنَّه اليومُ الَّذي:

[١] يقوم النَّاس فيه من قبورهم لربِّ العالمين قيام رجلٍ واحدٍ.

[٢] يقوم في الأشهادُ، فتشهد الرُّسل علىٰ أُممِهم، وتشهد هذه الأمَّة علىٰ أمم الرُّسل، ويشهد محمَّدٌ ﷺ علىٰ هذه الأمَّة.

[٣] يُقامُ فيه العدلُ.

قاعدةٌ هامَّةٌ في التَّفسير:

كلُّ قَسَمٍ في القرآن لابدَّ أن يكون بينَه وبين المُقسَم عليه مُناسبةٌ، لكنَّ المُناسبة: قد تكون ظاهرةً، وقد تكون خفيَّةً.

قالَ المُصنِّف ﷺ: (وَالْأَصْلُ ذِكْرُ الْمُقْسَمِ بِهِ، وَهُوَ كَثِيرٌ كَمَا فِي الْأَمْثِلَةِ السَّابِقَةِ.
وَقَدْ يُحْذَفُ وَحْدَهُ، مِثْلَ قَوْلِكَ: أَحْلِفُ عَلَيْكَ لَتَجْتَهِدَنَّ.
وَقَدْ يُحْذَفُ مَعَ الْعَامِلِ، وَهُوَ كَثِيرٌ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾[التَّكاثر].
وَالْأَصْلُ ذِكْرُ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وَهُوَ كَثِيرٌ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ [التَّغابن:٧].
وَقَدْ يُحْذَفُ جَوَازًا مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾[ق]، وَتَقْدِيرُهُ: لَيَهْلِكُنَّ.
وَقَدْ يُحْذَفُ وُجُوبًا إِذَا تَقَدَّمَهُ أَوِ اكْتَنَفَهُ مَا يُغْنِي عَنْهُ، قَالَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي «الْمُغْنِي»، وَمَثَّلَ لَهُ بِنَحْوِ: زَيْدٌ قَائِمٌ وَاللهِ، وَزَيْدٌ وَاللهِ قَائِمٌ).

الأصلُ في القَسَم ذِكرُ المُقسَم به، لكن قد:

[١] يُحذف وحدَه:

كما في قولِك: (أَحْلِفُ عَلَيْكَ لَتَجْتَهِدَنَّ)، فالمَحلوفُ له مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: (أحلِفُ بالله عليك لتَجتهدنَّ).

[٢] يُحذف هو والعامل معًا:

وهو كثيرٌ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾[التَّكاثر]، والتَّقديرُ: (ثمَّ أُقسم بالله لتُسألُنَّ).

ومن أمثلة ذكرهما معًا في القرآن قولُه تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ نَنطِقُونَ ۝٢٣﴾[الذَّاريات]، وقولُه: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝٥٦﴾[النَّحل]...

الأصلُ في القَسَم ذِكرُ المُقسَم عليه، لكن قد:

[١] يُحذف جوازًا:

كما في قوله تعالىٰ: ﴿قٓ﴾ حرف هجاءٍ، وسبق أنَّ الرَّاجح أنَّه ليس له مَعنًىٰ في حدِّ ذاتِه، ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ هذا هو المُقسَم به، والمُقسَمُ عليه مَحذوفٌ تقديرُه: (لَيَهْلِكُنَّ)، وقيل: (لَيُبْعَثُنَّ)، وقيل: لا حاجة لذكره؛ لأنَّه مَعلومٌ من السِّياق.

[٢] يُحذف وجوبًا: إذا:

[أ] تقدَّمه ما يُغني عنه:

مثل: (زيدٌ قائمٌ واللهِ)، مَعناه: (واللهِ إنَّ زيدًا لَقائمٌ)، ولو قلت: (زيدٌ قائمٌ، والله إنَّه لَقائمٌ) لكان لَغوًا.

[ب] اكتنفه ما يُغني عنه:

يعني كان القَسَم بين أجزاء الجملة، مثل: (زيدٌ واللهِ قائمٌ).

ومن أمثلة ذِكر المُقسَم عليه -وهو كثيرٌ- قولُه تعالىٰ: ﴿قُلۡ﴾ يا أيُّها الرَّسول للَّذين زعموا أنَّهم لن يُبعَثوا ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾[التَّغابن:٧]، فحلَف لهم بالله وهم قومٌ مُنكِرون، وهذا أسلوبٌ من أساليب اللُّغة العربيَّة: أنَّ الكلامَ يُؤكَّد بالقَسَم، وإذا لم ينتفع هؤلاء بالقَسَم انتفع غيرُهم، فيكون حجَّةً عليهم من وجهٍ، ونبراسًا لغيرهم من وجهٍ آخر.

أمر اللهُ عَزَّوَجَلَّ نبيَّه ﷺ بالقَسَم في ثلاثةِ مَواضعَ من القرآنِ:

[١] على القرآن:

في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ [يونس].

[٢] على السَّاعة:

في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ:٣].

[٣] على البعث:

في قوله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾[التَّغابن:٧].

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلِلْقَسَمِ فَائِدَتَانِ:

- إِحْدَاهُمَا: بَيَانُ عَظَمَةِ الْمُقْسَمِ بِهِ.
- وَالثَّانِيَةُ: بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وَإِرَادَةُ تَوْكِيدِهِ، وَلِـذَا لَا يَحْسُـنُ الْقَسَـمُ إِلَّا فِـي الْأَحْوَالِ التَّالِيَةِ:
  - الْأُولَىٰ: أَنْ يَكُونَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ذَا أَهَمِّيَّةٍ.
  - الثَّانِيَةُ: أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ مُتَرَدِّدًا فِي شَأْنِهِ.
  - الثَّالِثَةُ: أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ مُنْكِرًا لَهُ).

للقَسَم فائدتان:

[١] (بيانُ عظَمةِ الْمُقْسَمِ بِهِ):

ولهذا لا يجوز للمَخلوق أن يحلِف بغير الله عَزَّوَجَلَّ، لكن يجوز لله عَزَّوَجَلَّ أن يحلِف بنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو بما شاء من مَخلوقاتِه.

[٢] (بَيانُ أهمِّيَّةِ الْمُقْسَمِ عَلَيْه):

ولهذا فإنَّ حَلِفَ الله عَزَّوَجَلَّ بمَخلوقٍ من مَخلوقاتِه يدلُّ علىٰ عظمته، وأنَّه جديرٌ بأن يكون مُقسَمًا به.

لا يحسُنُ القَسَمُ إلاَّ في ثلاث أحوالٍ:

[١] (أنْ يكُونَ الْمُقْسَمُ عليْهِ ذَا أَهمِّيَّة):

حتَّىٰ وإن كان المُخاطَبُ غير مُنكرٍ له؛ لبيان أهمِّيَّة المُقسَم عليه، وأمَّا ما ليس له أهمِّيَّةٌ فلا يُقسَمُ عليه سواءٌ صدَّق المُخاطَبُ أو لا.

[٢] (أنْ يكُونَ الْمُخَاطبُ مُتردِّدًا في شَأْنه):

وهنا يحسُنُ القَسَمُ ولا يجبُ؛ لأنَّ المُخاطَب قد يكفيه الخبرُ المُجرَّدُ، فتحلِفُ ليطمئِنَّ ويزولَ عنه الشَّكُّ.

[٣] (أَنْ يكُونَ الْمُخَاطَبُ مُنْكرًا لَهُ):

وهنا يجب تأكيدُ الكلام ليكون المُخاطَبُ مُطمئنًّا، سواءٌ بالقَسَم، أو بغيره ممَّا يُناسبُه.

ممَّا يكونُ في مَعنى القَسَم، وليس قسمًا حقيقةً:

[١] (لَعَمْرُكَ) أو (لَعَمْرِي):
يجوز ذلك؛ لأنَّه قد جاء عن النَّبيِّ ﷺ عند أحمد، وعن عائشة في «الصَّحيحين»، وهو في مَعنىٰ القَسَم، لكن في حقيقتِه ليس قَسَمًا يُرادُ به الحَلِفُ الَّذي يكون شركًا أو كُفرًا.

[٢] (يمينُ اللَّهِ):
وكذلك قولُ: (عهدُ اللهِ).

[٣] (يعلمُ اللَّه ما فعلتُ كذا):
قال بعضُ العلماء: إنَّ هذا من أحطر ما يكون في باب القَسَم، والقائل علىٰ خطرٍ عظيمٍ إذا كذب؛ لأنَّ قولَه هذا يقتضي أنَّ الله جاهلٌ عياذًا بالله!
قال تعالىٰ: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾[يس]، وهذا كذلك في مَعنىٰ القَسَم، ولهذا أُجيب بما يُجابُ به القَسَمُ: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾.

القَصَصُ

أوَّلاً: معنى القَصَص وأقْسَامُها

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْقَصَصُ وَالْقَصُّ لُغَةً: تَتَبُّعُ الْأَثَرِ، وَفِي الِاصْطِلَاحِ: الْإِخْبَارُ عَنْ قَضِيَّةٍ ذَاتِ مَرَاحِلَ، يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وَقَصَصُ الْقُرْآنِ:

- أَصْدَقُ الْقَصَصِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾[النِّساء]، وَذَلِكَ لِتَمَامِ مُطَابَقَتِهَا لِلْوَاقِعِ.
- وَأَحْسَنُ الْقَصَصِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[يوسف:٣]، وَذَلِكَ لِاشْتِمَالِهَا عَلَىٰ أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الْكَمَالِ فِي الْبَلَاغَةِ وَجَلَالِ الْمَعْنَىٰ.
- وَأَنْفَعُ الْقَصَصِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، وَذَلِكَ لِقُوَّةِ تَأْثِيرِهَا فِي إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَخْلَاقِ.

وَهِيَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

١. قِسْمٌ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَمَا جَرَىٰ لَهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ وَالْكَافِرِينَ.
٢. وَقِسْمٌ عَنْ أَفْرَادٍ وَطَوَائِفَ جَرَىٰ لَهُمْ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ، فَنَقَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ؛ كَقِصَّةِ مَرْيَمَ، وَلُقْمَانَ، وَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، وَذِي الْقَرْنَيْنِ، وَقَارُونَ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَأَصْحَابِ الْفِيلِ، وَأَصْحَابِ الْأُخْدُودِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.
٣. وَقِسْمٌ عَنْ حَوَادِثَ وَأَقْوَامٍ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ؛ كَقِصَّةِ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَأُحُدٍ، وَالْأَحْزَابِ، وَبَنِي قُرَيْظَةَ، وَبَنِي النَّضِيرِ، وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَأَبِي لَهَبٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ).

مِن فوائد القصَصِ القرآنيِّ:

[١] الاقتداءُ بالأنبياءِ والرُّسلِ عليهم السلام: قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

[٢] اجتنابُ سُلوكِ المُجرمين: قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾ [الأنعام:٥٥].

[٣] التَّفكُّرُ: قال تعالىٰ: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٦].

[٤] الاعتِبارُ: قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١].

[٥] وسيلةٌ تربويَّةٌ، وزادٌ للمُعلِّمين: قال تعالىٰ: ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران:٤٤].

[٦] آيةٌ للنَّبيِّ ﷺ: قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ [يوسف].

تعريفُ القَصَصِ:

[١] لغةً: (تَتَبُّعُ الْأَثَرِ)، ومنه قولُه تعالىٰ عن موسىٰ والفتىٰ: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف] أي: يقُصَّان الأثرَ ويتبَعانِه.

[٢] اصطلاحًا: (الْإِخْبَارُ عَنْ قَضِيَّةٍ ذَاتِ مَرَاحِلَ، يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا)، فلو قلتَ: (زيدٌ قائمٌ) لم تكن قِصَّةً؛ لأنَّها ليست ذات مَراحلَ يتبعُ بعضُها بعضًا.

قَصَصُ القرآنِ:

[١] أصدقُ القَصَص:

وهذا لا شكَّ فيه؛ لأنَّ المُخبِر به هو الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾[النِّساء]، والاستفهامُ بمَعنىٰ النَّفي والتَّحَدِّي، وذلك لتمام مُطابقتها للواقع، ليس فيها مِريةٌ بوجهٍ، وهذا هو الصِّدقُ، بل إنَّ ما أخبر اللهُ به آكَدُ عندنا ممَّا شاهدناه بأعيُننا؛ لأنَّه لا يعتَريه لَبسٌ.

[٢] أحسنُ القَصَص:

لفظًا ومَعنًىٰ؛ لقولِه تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف:٣]، وهذا لكمال بلاغة القرآن.

[٣] أنفعُ القَصَص:

لقوَّة تأثيرها في إصلاح القلوب، والأقوال، والأعمال، والأخلاق، قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف:١١١].

وكذلك قَصَصُ السُّنَّة الصَّحيحة الثَّابتة مثلُ القرآن من حيثُ الصِّدقُ، وهي أحسنُ قَصَصِ الخلق وأنفعُها، وقد قصَّ النَّبيُّ ﷺ علىٰ أمَّته أشياء كثيرةً عن بني إسرائيل وغيرهم، وكلُّه حقٌّ وصدقٌ، وفيه عِبرةٌ ومَنفعةٌ.

ما ينبغي مع قَصَصِ القرآن والسُّنَّة:

يحسُن للواحد منَّا أن يأخذ قصَّةً من القَصَص يتتبَّعُها في: تفسيرها، ومَعناها الإجماليِّ، وفوائدها، وما تتضمَّنه من الأحكام والحِكَم، ولو عوَّد الإنسان نفسه علىٰ هذا لحصل له خيرٌ كثيرٌ.

مثالٌ: انظر إلىٰ خطاب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه ومُحاورته معه، قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾[مريم:٤٣]، فأتىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأسلوبٍ حسنٍ وتحاشىٰ أن يقول: أنت جاهلٌ وأنا أعلم منك؛ لأنَّها شديدةٌ علىٰ الأب، وربَّما تُنفِّرُه.

قَصَصُ القرآن على ثلاثة أقسامٍ:

[١] عن الأنبياء والـمُرسلين السَّابقين:

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾[إبراهيم:٩].

[٢] عن أفرادٍ وطوائفَ قبل النَّبيِّ ﷺ:

(كَقِصَّةِ مَرْيَمَ، وَلُقْمَانَ، وَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، وَذِي الْقَرْنَيْنِ، وَقَارُونَ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ...).

[٣] عن حوادثَ وأقوامٍ في عهد النَّبيِّ ﷺ:

(كَقِصَّةِ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَأُحُدٍ، وَالْأَحْزَابِ، وَبَنِي قُرَيْظَةَ، وَبَنِي النَّضِيرِ، وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَأَبِي لَهَبٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ).

من عِبر قصَّة مريم بنت عمران:

قال تعالىٰ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ والمرأة النُّفساء تجدها في العادة ضعيفةً، والهَزُّ بجِذع النَّخلة أصعب من الهَزِّ برأسها، ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾[مريم] أي: يسقط من فوقك رُطَبٌ طريٌّ ثريٌّ جَنِيٌّ، لا ينفقس إذا وقع علىٰ الأرض، بل كالَّذي جناه الإنسانُ بنفسه، وهذه وهذه آيةٌ وعِبرةٌ يعتبر بها الإنسان علىٰ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

من عِبر قصَّة لقمان:

والَّذي يظهر أنَّ لقمان رجلٌ صالحٌ، أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ الحكمة، وليس نبيًّا.

قال تعالىٰ في قصَّته: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان]، وهذه كلُّها حِكمٌ.

من عِبر قصَّة الَّذي مرَّ على القرية:

قال تعالىٰ: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ﴾ أي: كيف ﴿يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ﴾؟ فأراه الله ذلك، ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾؛ لأنَّ الله أماته في أوَّل اليوم وأحياه في آخر اليوم، والوقت يذهب إذا لم تكن الرُّوح في الجسم، كما يحصل مع النَّائم والمُغمىٰ عليه، ﴿قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ أي: لم يتغيَّر، لا باللَّون، ولا بالرَّائحة، ولا باليُبوسة، وهذا من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل: إنَّ الطَّعام كان عنبًا، وقيل غيرُه، ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾، فالطَّعام لم يتغيَّر ولكنَّ الحمار صار عظامًا، فلمَّا نظر إلىٰ العظام إذا هي تلوحُ، ويركب بعضُها بعضًا، وتنشز بالعصب، ثمَّ تُكسىٰ باللَّحم، ثمَّ قام الحمار، سبحان الله! ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [البقرة]، وهذه القصَّة تحيي القلب، ويعرف بها قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

من عِبر قصَّة ذي القرنين:

ذو القرنين آتاه الله عَزَّوَجَلَّ مُلكًا عظيمًا بلغ مَشارق الأرض ومَغاربها، ومن أعظم عِبر هذه القصَّة أنَّه أتىٰ علىٰ قوم لا يكادون يَفقَهون قولًا بأنفسهم، ولا يُفقِهون أيضًا، فقالوا: ﴿إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ أي: نعطيك دراهم، ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾؛ لأنَّه مَلِكٌ عظيمٌ، فظنُّوا أنَّه يأخذ الرِّشوة، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ ممَّا تُعطونني، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥﴾ والرَّدم أعظمُ من السَّدِّ، ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ فزبَروا له الحديد، وأحمىٰ عليه النَّار، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾، فأفرغ عليه نحاسًا ذائبًا، فتلاصق الحديد بعضُه ببعضٍ بالنُّحاس، ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ﴾؛ لأنَّه أملس، ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف]، وهذه من القصص الغريبة!

من عِبر قصَّة قارون:

كان قارونُ رجلًا غنيًّا من قوم موسىٰ ﷺ، ولكنَّه كفر به، واستعلىٰ بما أعطاه الله من المال، وبغىٰ علىٰ قومه، وآتاه الله من الكنوز ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾، أي: لا يستطيعون حمل المَفاتيح، فكيف بالخزائن وما فيها؟! فقال الله عَزَّ وَجَلَّ حين طغىٰ هذا الرَّجل: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١﴾[القَصص].

من عِبر قصَّة أصحاب الكهف:

وهم سبعةٌ مُخلصون لله مُوحِّدون، ومعهم كلبُهم، رجوا من قومهم المُشركين مُهاجرين إلىٰ الله، وما أحدٌ قصد الله فخاب أبدًا، فآواهم الله عَزَّ وَجَلَّ، فهيَّأ لهم كهفًا واسعًا وجهُه إلىٰ الشَّمال الشَّرقيِّ، لا تأتيه الشَّمس إذا أشرقت ولا إذا غربت، قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، أي: شيءٌ يسيرٌ عند الغروب، فبقوا نائمين فترةً طويلةً، لا يملُّون، ولا يجوعون، ولا يعطشون، إلَّا أنَّ الله قال: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾؛ لئلَّا تفسد أجسادُهم، ولم يقل: (يتقلَّبون)؛ لأنَّ فعل النَّائم لا يُنسَبُ إليه، فقد رُفع عنه القلم، ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾، فبقوا ثلاثمائة سنةٍ وتسع سنواتٍ، حتَّىٰ أخلف الله عن الملك الأوَّل المُشرك ملكًا آخر صالحًا، فلمَّا بعثهم الله عَزَّ وَجَلَّ تنازعوا، ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾؛ لأنَّهم ناموا أوَّل النَّهار، واستيقظوا آخر النَّهار، وطلبوا أن يُبعث واحدٌ منهم بدراهمهم إلىٰ المدينة ليشتري طعامًا، فلمَّا ذهب إلىٰ المدينة رأوا السِّكَّة قديمةً، فتعجَّبوا منه، وهذه القصَّة فيها عِبرٌ عظيمةٌ.

من عِبر قصَّة أصحاب الفيل:

وهو قومٌ جاءوا ليهدموا الكعبة، وذلك أنَّ ملك اليمن وضع عنده كعبةً تضاهي الكعبة الَّتي بمكَّة من أجل أن يحجَّ النَّاس إليها، فجاء أحد العرب إلىٰ هذه الكعبة وتغوَّط فيها إهانةً لها، فغضب الملك وبعث إلىٰ مكَّة جُندًا عظيمًا يتقدَّمهم فيلٌ عظيمٌ، يريد أن يهدم الكعبة، فلمَّا وصل مكانًا يُسمَّىٰ المُغمَّس أبىٰ الفيلُ أن يتقدَّم، إذا وجَّهوه إلىٰ مكَّة وقف، وإذا وجَّهوه إلىٰ اليمن هرول بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، زعم بعض العلماء أنَّ الفيل حُبس في وادي مُحسِّرٍ وليس بصحيحٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾ أي: جماعاتٍ مُتفرِّقةً، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾ تضرب الواحد من رأسه، وتخرج من دُبُره، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾[الفيل]، والعصف هو الزَّرع الَّذي أكلته الإبل أو البقر، ووطِئته بأقدامها.

من عِبر قصَّة أصحاب الأخدود:

الأخدود جمع خدٍّ، وهو الحفر في الأرض كحفر السَّواقي، فأصحاب الأخدود قومٌ اعتدوا علىٰ قومٍ مؤمنين بالله عَزَّوَجَلَّ عدوانًا بشعًا، وحاولوا جعلهم يرتدُّون عن إيمانهم فأبوا، قال تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾﴾، فخدُّوا الأخاديد، وأضرموا فيها النَّار، وجعلوا يُلقون المؤمنين في النَّار وهم قعودٌ مُتفكِّهين حولها، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾، ما هي إلَّا عداوةٌ دينيَّةٌ من هؤلاء المُعتدين، ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾[البروج]، عُلم منها أنَّهم لو تابوا لم يُعذَّبوا؛ لأنَّ التَّوبة تجُبُّ ما قبلها حتَّىٰ وإن كان مُتعلِّقًا بالغير، ولا يُعترض علىٰ هذا بكونه حقَّ آدميٍّ؛ لأنَّ قتل هؤلاء الكفَّار للمؤمنين ليس لكونهم آدميِّين؛ بل لإيمانهم، فإذا آمنوا ارتفع عنهم أثر هذا القتل، وهذا من حِلم الله عَزَّوَجَلَّ.

في سورة البقرة خمسُ قَصَصٍ في إحياء المَوتى:

[١] في قوم موسىٰ لمَّا قالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فماتوا، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾، ثمَّ بعثهم الله وهم ينظرون.

[٢] في أصحاب البقرة، تنازعوا في قتيلٍ لهم، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرةً، ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فحيا الرَّجل، وقال: قتلني فلانٌ.

[٣] في الَّذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت؛ لوقوع الوباء بأرضهم، فأراهم الله أنَّه لا مفرَّ من قدر الله، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ﴾.

[٤] في صاحب القرية الَّذي مرَّ عليها وهي خاويةٌ علىٰ عروشها، وقد تقدَّم هذا.

[٥] في قصَّة إبراهيم عليه السلام، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾، فالإنسان مَأمورٌ بأن يزيد في إيمانه من طمأنينة القلب والثَّبات، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ اذبحهنَّ واخلط بعضهنَّ ببعضٍ ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ أيُّها الطُّيور أقبلي، ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ﴾ فأحياها الله عَزَّ وَجَلَّ وأقبلت عليه سعيًا لا طيرانًا.

تنبيهٌ:

قَصَص القرآن كثيرةٌ جدًّا، وكلُّها نافعةٌ، وفيها عِبرةٌ، وقد ألَّف فيها الكثير، لكن خلط بعضهم الحابل بالنَّابل، وصاروا كحاطب ليلٍ، ولذلك يجب الحذر ممَّا أُلِّف في قَصَص الأنبياء، وغيرها من قَصَص القرآن.

الَّذي ذُكر في القرآن من هذه الأمَّة:

[١] باسمه:

[أ] زيد بن حارثة ﵁:

ذُكر في مَقام المدح، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧].

[ب] أبو لهبٍ:

عمُّ رسول الله ﷺ، ذُكر في مَقام الذَّمِّ، قال تعالىٰ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ [المسد].

[٢] بوصفٍ تامٍّ ينطبق عليه:

أبو بكرٍ ﵁: في قوله تعالىٰ: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ﴾ [التَّوبة:٤٠] أجمع المُفسِّرون أنَّ المُراد بها أبو بكرٍ ﵁، وقال بعض العلماء: نزل فيه كذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ [اللَّيل].

هل قصَّةُ يوسُفَ ﵇ هي أحسنُ قصَصِ القرآن مُطلقًا؟

قالَ تعالىٰ: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ...﴾ [يوسف]، وليس المُرادُ أنَّ قصَّة يوسُفَ ﵇ هي أحسنُ ما قُصَّ في القرآنِ مُطلَقًا، فأين ما جرىٰ ليوسُفَ ﵇ ممَّا جرىٰ لموسىٰ ونوحٍ وإبراهيمَ وغيرهم مِن الأنبياءِ والرُّسل ﵈، وأين ما عودِيَ يوسُفُ ﵇ ممَّا عودوا، وأين نصرُه مِن نصرِهم، ويَكفيك قصَّةُ موسىٰ ﵇ وما جرىٰ له مع فِرعون وغيره، فلا شكَّ أن قصَّتَه أعظَمُ وأشرَفُ، فهي أعظَمُ قصَص الأنبياءِ، ولهذا ثنَّاها اللهُ ﷿ أكثرَ من غيرِها، وبسَطَها وطوَّلَها أكثرَ من غيرِها.

وأمَّا تَفضيلُ قصَّةِ يوسُفَ ﵇ فهو تَفضيلٌ مِن وُجوهٍ، وليس تَفضيلًا مُطلَقًا.

من أمثِلَةِ التَّفضيلِ الوَجهِيِّ بينَ قصَصِ القرآنِ:

[١] **قصَّةُ يوسُفَ** عليه السلام**:**

هي أحسَنُ القصَصِ باعتِبارِ صَبره عليه السلام وتَقواه عند الابتِلاءِ، وباعتِبارِ حُسنِ عاقِبَتِه في الدُّنيا، وقد ابتُلِيَ عليه السلام وعودِيَ في أمورٍ دُنيَوِيَّةٍ، فحسَدَه إخوَتُه، وابتُلِيَ بالسِّجنِ، ثمَّ بالمُلكِ.

[٢] **قصَّةُ ذي القَرنَين:**

هي أحسَنُ قصَصِ المُلوكِ.

[٣] **قصَّةُ أهلِ الكَهفِ:**

هي أحسَنُ قصَصِ أولياءِ اللهِ الَّذين كانوا في زمَنِ الفَترَةِ.

ثانيًا: الحِكْمَةُ مِنْ قَصصِ الْقُرْآنِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلِلْقَصَصِ فِي الْقُرْآنِ حِكَمٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ، مِنْهَا:

١. بَيَانُ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ فِيمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْقَصَصُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾[القمر].

٢. بَيَانُ عَدْلِهِ تَعَالَىٰ بِعُقُوبَةِ الْمُكَذِّبِينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ عَنِ الْمُكَذِّبِينَ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ﴾[هود:١٠١].

٣. بَيَانُ فَضْلِهِ تَعَالَىٰ بِمَثُوبَةِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ۝٣٥﴾[القمر].

٤. تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لَهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾[فاطر].

٥. تَرْغِيبُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْإِيمَانِ بِالثَّبَاتِ عَلَيْهِ، وَالِازْدِيَادِ مِنْهُ، إِذْ عَلِمُوا نَجَاةَ الْمُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ، وَانْتِصَارَ مَنْ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾[الأنبياء]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾[الرُّوم].

٦. تَحْذِيرُ الْكَافِرِينَ مِنَ الِاسْتِمْرَارِ فِي كُفْرِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾[محمَّد].

٧. إِثْبَاتُ رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ أَخْبَارَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾[هود]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن

قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [إبراهيم:٩]).

الحكمة الأولى: بيانُ حِكمةِ اللّهِ تعالى

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم﴾ يعني: قريشًا، ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ أي: أخبار الأمم السَّابقة، ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ٤﴾ أي: ازدجارٌ عن المَعاصي والتَّكذيب، وفي هذا الَّذي جاءهم ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾ مُؤثِّرةٌ، ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥﴾[القمر]، يجوز أن تكون (ما):

[١] **نافيةً**: أي: (لم تغن عنهم النُّذر شيئًا)، ويؤيِّده قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾[هود:١٠١].

[٢] **استفهاميَّةً**: أي: (أيُّ شيءٍ تغني عنهم النُّذر؟)، وهذا أظهر.

الحكمة الثَّانية: بيانُ عَدلِ اللّهِ تعالى

لمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وصف الأنبياء، وإهلاك قومهم، قال: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾[هود].

الحكمة الثَّالثة: بيانُ فضلِ اللّهِ تعالى

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾[القمر]، وقال: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾[هود]، والظَّاهر أنَّ ذلك لمَّا امتدَّ امتدَّت العقوبة من السَّحر إلىٰ الصَّباح، فصار موعد إهلاكهم جميعًا الصَّباح.

إشكالٌ والجواب عنه:

قال تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذَّاريات]؛ فهل الإيمان والإسلام شيءٌ واحدٌ؟

في الآية دليلٌ علىٰ أنَّهما ليسا شيئًا واحدًا، قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والَّذي خرج هو لوطٌ وأهله إلَّا امرأته، كانت معهم في الدَّار، وكان ظاهرها أنَّها مسلمةٌ، ولم تخرج لأنَّها كانت كافرةً، ولهذا قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

الحكمة الرَّابعة: تسليةُ النَّبيِّ ﷺ

النَّبيُّ ﷺ يحبُّ من جميع النَّاس أن يؤمنوا، ويضيق صدره بما يقول الكافرون، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر:٩٧]، ولهذا فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يسلِّيه بذكر أخبار الأمم السَّابقة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات البيِّنات، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ جمع زَبورٍ وهو الكتاب، ويُطلَق علىٰ الكتاب المُعيَّن؛ كما أُطلق علىٰ كتاب داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ عطف المُرادف علىٰ مُرادفه؛ لبيان إنارة الكتب للنَّاس طريق الهداية، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر]، ولا شكَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ يتسلَّىٰ بهذا ويتصبَّر.

الحكمة الخامسة: ترغيبُ المؤمنينَ في الإيمانِ

يرغِّب الله عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين في الثَّبات علىٰ الإيمان، والازدياد منه.

ولمَّا قال يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء]، فمن قال هذه الكلمات وهو في غمٍّ وهو مؤمنٌ أنَّ الله يُنجيه بها = نجَّاه الله.

وقد أوجب الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ نفسه نصر المؤمنين فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الرُّوم].

نصر الله عَزَّوَجَلَّ للعباد على نوعين:

[١] نصرٌ في الدُّنيا والآخرة.	[٢] نصرٌ في الآخرة فقط.

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١]، فالله عَزَّوَجَلَّ ينصر هؤلاء الأنبياء المَقتولين في الآخرة قطعًا، وربَّما في الدُّنيا أيضًا بنصر أقوالهم وما دعوا إليه؛ فالآثار الَّتي تبقىٰ بعد الإنسان من أعظم النَّصر.

وأمَّا المؤمنون الَّذين صدَّقوا المُرسَلين واتَّبعوهم فلابدَّ أن يُنصروا؛ لأنَّ الله تكفَّل بذلك: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾، فيه إثبات صفة الانتقام لله، ولا تُقال علىٰ سبيل الإطلاق؛ لأنَّها لم تَرِدْ إلَّا مُقيَّدةً، ولهذا فإنَّه ليس من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ المُنتقِم.

الحكمة السَّادسة: تحذيرُ الكافرين

يُحذِّرهم الله عَزَّوَجَلَّ بذكر هذه القَصَص من الاستمرار في الكفر، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سير قلوبٍ؛ لأنَّه أعمُّ من سير الأقدام، فالقلوب تصل إلىٰ ما لم تصل إليه الأقدام، ومن ذلك الماضي، ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أفسد عليهم أمرهم، فلم ينجحوا، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾[محمَّد] للكافرين المَوجودين الآن أمثال ما كان للسَّابقين، أي: فاحذروا أيُّها الكفَّار أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم من التَّدمير.

الحكمة السَّابعة: إثبات رسالة النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فإنَّ أخبار الأمم السَّابقة لا يعلمها إلَّا الله، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾[هود]، فلمَّا قصَّها صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الوجه المُطابق دلَّ علىٰ أنَّه رسولٌ؛ لأنَّه كان أمِّيًّا لا يقرأ، ولا يكتب، ولا يتلقَّىٰ الأخبار إلَّا من طريق الوحي.

ثَالِثًا: تَكْرَارُ القَصَصِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (مِنَ الْقَصَصِ الْقُرْآنِيَّةِ مَا لَا يَأْتِي إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، مِثْلَ قِصَّةِ لُقْمَانَ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَمِنْهَا مَا يَأْتِي مُتَكَرِّرًا حَسَبَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ، وَتَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ، وَلَا يَكُونُ هَذَا الْمُتَكَرِّرُ عَلَىٰ وَجْهٍ وَاحِدٍ؛ بَلْ يَخْتَلِفُ فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ، وَاللِّينِ وَالشِّدَّةِ، وَذِكْرِ بَعْضِ جَوَانِبِ الْقِصَّةِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ آخَرَ.

وَمِنَ الْحِكْمَةِ فِي هَذَا التَّكْرَارِ:

١. بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ تِلْكَ الْقِصَّةِ؛ لِأَنَّ تَكْرَارَهَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْعِنَايَةِ بِهَا.

٢. تَوْكِيدُ تِلْكَ الْقِصَّةِ لِتَثْبُتَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ.

٣. مُرَاعَاةُ الزَّمَنِ وَحَالِ الْمُخَاطَبِينَ بِهَا، وَلِهَذَا تَجِدُ الْإِيجَازَ وَالشِّدَّةَ غَالِبًا فِيمَا أَتَىٰ مِنَ الْقَصَصِ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ، وَالْعَكْسَ فِيمَا أَتَىٰ فِي السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ.

٤. بَيَانُ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي ظُهُورِ هَذِهِ الْقَصَصِ عَلَىٰ هَذَا الْوَجْهِ وَذَاكَ الْوَجْهِ عَلَىٰ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ.

٥. ظُهُورُ صِدْقِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَىٰ، حَيْثُ تَأْتِي هَذِهِ الْقَصَصُ مُتَنَوِّعَةً بِدُونِ تَنَاقُضٍ).

اختلافُ القِصَّةِ المُتكرِّرة:

قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَلَا يَكُونُ هَذَا الْمُتَكَرِّرُ عَلَىٰ وَجْهٍ وَاحِدٍ) وإن وُجد فهو قليلٌ جدًّا؛ (بَلْ يَخْتَلِفُ فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ، وَاللِّينِ وَالشِّدَّةِ، وَذِكْرِ بَعْضِ جَوَانِبِ الْقِصَّةِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ آخَرَ).

فمثلًا من أقصر القَصَص وأشدِّها ما جاء في سورة القمر، فإنَّ القَصَص قصيرةٌ جدًّا، لكن فيها قَوارعُ عظيمةٌ، تُختم كلُّ واحدةٍ منها بـ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥﴾[القمر]، فالَّذي يقرأ السُّورة بتدبُّرٍ لابدَّ أن يتأثَّر؛ لأنَّها عظيمةٌ.

من أمثلة تَكرار القَصَص في القرآن:

قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩﴾[الأعراف]، فالقائل هو قوم فرعون، وقال: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾[الشُّعراء] فجعل القائل هو فرعون؛ لأنَّ فرعون قال، ثمَّ صدَّقه هؤلاء وتابعوه، وأخذوا يُطنطنون ويُدندنون بقوله.

أكثر القَصَص تَكرارًا في القرآن:

هي قصَّة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ الحاجة تدعو إلىٰ ذلك، لأنَّ اليهود كانوا مَوجودين في المدينة، وقريبين من قريشٍ، وكذلك النَّصارىٰ في نجران وغيرها، ولذلك تكرَّرت قصَّة موسىٰ وعيسىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أكثر من غيرهما حسب ما تقتضيه المَصلحة.

من حِكَم تَكرار القَصَص في القرآن:

[١] (بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ تِلْكَ الْقِصَّةِ).

[٢] (تَوْكِيدُ تِلْكَ الْقِصَّةِ) اعتناءً بها، وتثبيتًا، وترسيخًا.

[٣] (مُرَاعَاةُ الزَّمَنِ وَحَالِ الْمُخَاطَبِينَ).

[٤] (بَيَانُ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ)؛ لأنَّ مُطابقة الكلام لمُقتضىٰ الحال هو البلاغة في الحقيقة.

[٥] (ظُهُورُ صِدْقِ الْقُرْآنِ) في كونها تأتي من وجوهٍ مُتعدِّدةٍ، وبلا تناقضٍ، وفيها صدق النَّبيِّ ﷺ، فالكاذب يأتي بالكلام الثَّاني مثل الأوَّل لئلَّا يظهر كذبُه.

قد نجد بعض القَصَص المُتكرِّرة يُعارض بعضها في الظَّاهر؛ كما في قول فرعون وملئه عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩﴾[الأعراف]، وفي موضعٍ آخر: ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾[يونس:٢]، والجمع بينهما سهلٌ، وهو أنَّهم قالوا هذا في وقتٍ وهذا في وقتٍ.

الإسْرَائِيلِيَّاتُ

أوَّلاً: الإِسْرَائِيلِيَّاتُ وَأَنْوَاعُهَا

قَالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْأَخْبَارُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْيَهُودِ -وَهُوَ الْأَكْثَرُ- أَوْ مِنَ النَّصَارَىٰ.

وَتَنْقَسِمُ هَذِهِ الْأَخْبَارُ إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

الْأَوَّلُ: مَا أَقَرَّهُ الْإِسْلَامُ، وَشَهِدَ بِصِدْقِهِ؛ فَهُوَ حَقٌّ.

مِثَالُهُ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمٰوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَاضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمر].

الثَّانِي: مَا أَنْكَرَهُ الْإِسْلَامُ، وَشَهِدَ بِكَذِبِهِ؛ فَهُوَ بَاطِلٌ.

مِثَالُهُ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣].

الثَّالِثُ: مَا لَمْ يُقِرَّهُ الْإِسْلَامُ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ؛ فَيَجِبُ التَّوَقُّفُ فِيهِ؛ لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦] الْآيَةَ»، وَلَكِنَّ التَّحَدُّثَ بِهَذَا النَّوْعِ

جائِزٌ، إِذَا لَمْ يُخْشَ مَحْذُورٌ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَغَالِبُ مَا يُرْوَىٰ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ لَيْسَ بِذِي فَائِدَةٍ فِي الدِّينِ؛ كَتَعْيِينِ لَوْنِ كَلْبِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَنَحْوِهِ).

مَعْنَى الإِسْرَائِيلِيَّاتِ:

هي: (**الْأَخْبَارُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ**)، سُمِّيت بذلك نسبةً إلىٰ إسرائيل عليه السلام -وهو نبيٌّ-، وبنوا إسرائيل هم اليهود والنَّصارىٰ، وسُمِّيت إسرائيليَّاتٍ من باب النِّسبة إلىٰ المُضاف إليه، وقد ذكر علماء النَّحو أنَّ النِّسبة إلىٰ المُضاف والمُضاف إليه تكون إمَّا لهما معًا، وإمَّا للمُضاف إذا كان أشهر، وإمَّا للمُضاف إليه.

ويجب الحذر من الإسرائيليَّات، خصوصًا إذا كانت تتضمَّن عيبًا أو لمزًا لأحدٍ من الأنبياء؛ مثل قصة سليمان وداود عليهما السلام.

الإسرائيليَّات ثلاثة أنواعٍ:

[١] **ما أقرَّه الإسلام وصدَّقه**: فهو حقٌّ يجب قَبولُه وتصديقُه.

[٢] **ما أنكره الإسلام وكذَّبه**: فهو باطلٌ يجب إنكارُه وتكذيبُه.

[٣] **ما لم يُقرَّه الإسلام، ولم يُنكره**: فالواجب التَّوقُّفُ فيه، وعدمُ تصديقه أو تكذيبه.

لأنَّنا قد نُصدِّق باطلًا، أو نُكذِّب حقًّا، وقد قال ﷺ: «**لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ**»، ويجوز التَّكلُّم بهذا النَّوع بشرط أن لا يُخشىٰ مَحذورٌ؛ لقوله ﷺ: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ**»، والمَحذور الَّذي يُخشىٰ أن يتَّجه النَّاس إلىٰ هذه القَصَص، ويدَعوا ما جاء في القرآن والسُّنَّة، ففي هذه الحال تكون حكايتُها مُحرَّمةً.

مثال النَّوع الأوَّل:

(جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمٰوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَاضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ) وليس تعجُّبًا منه وإنكارًا له؛ كما زعمه أهل التَّحريف الَّذين يقولون: إنَّ الله ليس له أصابع -والعياذ بالله-، وليسوا بأعلم من ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القائل: (تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ)! ولو كان قولُ الحَبر مُنكرًا ما اكتفىٰ النَّبيُّ ﷺ بالضَّحك، ولأنكره صراحةً، ثمَّ قرأ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ أي: ما عُظِّم الله حقَّ تعظيمه، مع أنَّه ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾.

فائدةٌ:

لفظ (إصبع) فيه عشر لغاتٍ؛ كما في قول الشَّاعر:

وَلَفْـظَ أُنْمُلَـةِ ثَلِّـثْ وَثَالِثَـهُ ... وَالتِّسْعُ فِي أُصْبُعٍ وَاخْتِمْ بِأُصْبُوعِ

مثال النَّوع الثَّاني:

(كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾[البقرة:٢٢٣])؛ لأنَّ اليهود يرون أنَّ الولد لا يجيء سالمًا إلَّا إذا جامعها من القُبُل، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ تكذيبَهم، فدلَّت الآية علىٰ أنَّ وطء المرأة في قُبُلها من خلفها جائزٌ.

وفي هذه الآية إشارةٌ إلىٰ قاعدةٍ مهمَّةٍ وهي أنَّ: (**المَأذون فيه لا يمكن أن يُحدث شرًّا**)؛ لأنَّ الله لا يُحلُّ لهم ما يضرُّهم، وجاء في خبرٍ مَوضوعٍ مَكذوبٍ في البقر: «**أَلْبَانُهَا شِفَاءٌ، وَسَمْنُهَا دَوَاءٌ، وَلُحُومُهَا دَاءٌ**»، ولا يمكن أن يكون داءً وقد أحلَّه الله لنا!

ثانِيًا: حُكْمُ سُؤَالِ بَنِي إِسْرائِيلَ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَمَّا سُؤَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ فَإِنَّهُ حَرَامٌ؛ لِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، أَوْ تُكَذِّبُوا بحقٍّ، وَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي».

وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ؛ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ﷺ أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِاللهِ مَحْضًا، لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَغَيَّرُوا، فَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ، قَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ لِيَشْتَرُوا بِذَلِكَ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَوَ لَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ؟ فَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ).

تنبيهٌ:

ذكر بعض العلماء أنَّ ابن عبَّاسٍ ممَّن عُرف بالأخذ عن بني إسرائيل، والأثر المَنقول يبيِّن أنَّ هذا لا صحَّة له؛ إذ كيف ينقل عنهم وهو ينهىٰ عنهم؟!

قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ﷺ أَحْدَثُ الْأَخْبَارِ بِاللهِ مَحْضًا، لَمْ يُشَبْ) أي: لم يُبدَّل، ولم يزَد فيه أو يُنقص، (وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللهُ... فَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ)، كيف هم يسألوننا عن الَّذي أُنزل إلينا مع أنَّه آخر ما نزل، ثمَّ نحن نسألهم؟! وهذا من باب الإغراء في ترك سؤالهم، وهو كلامٌ عظيمٌ فيه تحذيرٌ ونهيٌ لعقول من في عصرنا ممَّن يذهبون ليأخذوا النُّظم والقوانين والحُكم بين النَّاس من الكفَّار، ويحكمون فيها بين المسلمين!

ثالِثًا: مَوْقِفُ الْعُلَماءِ مِنَ الإسْرائيليّاتِ

قـالَ الْمُصـنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (اخْتَلَفَـتْ مَوَاقِـفُ الْعُلَمَـاءِ -وَلَا سِـيَمَا الْمُفَسِّـرُونَ- مِـنْ هَـذِهِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ:

أ. فَمِنْهُمْ مَنْ أَكْثَرَ مِنْهَا مَقْرُونَـةً بِأَسَـانِيدِهَا، وَرَأَىٰ أَنَّـهُ بِـذِكْرِ أَسَـانِيدِهَا خَـرَجَ مِـنْ عُهْدَتِهَا؛ مِثْلَ ابْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ.

ب. وَمِنْهُمْ مَنْ أَكْثَرَ مِنْهَا، وَجَرَّدَهَا مِنَ الْأَسَانِيدِ غَالِبًا، فَكَانَ حَاطِبَ لَيْلٍ؛ مِثْلَ الْبَغَوِيِّ الَّذِي قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ عَنْ «تَفْسِيرِهِ»: إِنَّهُ مُخْتَصَرٌ مِـنَ الثَّعْلَبِـيِّ، لَكِنَّـهُ صَانَهُ عَنِ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ وَالْآرَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَقَالَ عَنِ الثَّعْلَبِيِّ: إِنَّهُ حَاطِبُ لَيْلٍ يَنْقُلُ مَا وَجَدَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ مِنْ: صَحِيحٍ، وَضَعِيفٍ، وَمَوْضُوعٍ.

ج. وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ كَثِيرًا مِنْهَا، وَتَعَقَّبَ الْبَعْضَ مِمَّا ذَكَرَهُ بِالتَّضْعِيفِ أَوِ الْإِنْكَارِ؛ مِثْلَ ابْنِ كَثِيرٍ.

د. وَمِنْهُمْ مَنْ بَالَغَ فِي رَدِّهَا، وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهَا شَيْئًا يَجْعَلُـهُ تَفْسِـيرًا لِلْقُـرْآنِ؛ كَمُحَمَّـدِ رَشِيدِ رِضَا).

مَواقف العلماء في اعتبار الإسرائيليّات:

[١] (مَنْ أَكْثَرَ مِنْهَا مَقْرُونَةً بِأَسَانِيدِهَا، وَرَأَىٰ أَنَّهُ بِذِكْرِ أَسَانِيدِهَا خَرَجَ مِنْ عُهْدَتِهَا).	[٢] (مَنْ أَكْثَرَ مِنْهَا، وَجَرَّدَهَا مِنَ الْأَسَانِيدِ غَالِبًا)، وهذا أقلُّ رتبةً من الأوَّل.	[٣] (مَنْ ذَكَرَ كَثِيرًا مِنْهَا، وَتَعَقَّبَ الْبَعْضَ مِمَّا ذَكَرَهُ بِالتَّضْعِيفِ أَوِ الْإِنْكَارِ)؛ كابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، تعقَّب بعضها، وأنكره أشدَّ الإنكار، وهذا القسم أحسن من الَّذي قبله.	[٤] (مَنْ بَالَغَ فِي رَدِّهَا، وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهَا شَيْئًا)؛ كمحمَّد رشيد رضا وغيره من المُعاصرين.

اعتراضٌ على النَّوع الأوَّل:

قد يُقال: إنَّ ظنَّهم أنَّهم خرجوا من عهدة الأخبار بنقل أسانيدها فيه نظرٌ؛ لأنَّ إذا ذكرها فقد لا يتيسَّر للقارئ أن يُراجع أصولها، ولكن يُعتذر عن ابن جريرٍ وغيره أنَّه -والله أعلم- لم يكن لهم فراغٌ في تمحيصها وتحريرها، وخافوا من ضياع الصَّحيح منها، فقالوا: نثبتُها، ولعلَّ الله يأتي بمن ينقِّحها ويحرِّرها.

تفسير البغويِّ:

فيه من الإسرائيليَّات الكثير، يذكرها بدون الأسانيد، ولا يتعقَّبها، وهذه هفوةٌ منه. لكنَّه من حيث اللُّغةُ جيِّدٌ، وتفسيره تفسير تجزئةٍ، أي: يُفسِّر جملةً جملةً، وليس كبعض المُفسِّرين يذكر الآيات الكثيرة ثمَّ يذكر المَعنىٰ مُجملًا، وكما ذكر شيخ الإسلام تفسيره خيرٌ من تفسير الثَّعلبيِّ؛ لأنَّه (صَانَهُ عَنِ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ وَالْآرَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ).

تفسير محمَّد رشيد رضا:

فيه مَسائل جيِّدةٌ، ومُؤلِّفُه ممَّن يميل إلىٰ الاستقلال الفكريِّ، أي: غالبًا ما يرجع إلىٰ فكره دون أن يرجع إلىٰ غيره، لكن مع ذلك يكون استنباطُه وفهمُه جيِّدًا في تفسير القرآن، ثمَّ يتعرَّض أحيانًا لأحوال المسلمين الواقعة، ويُطبِّق عليها آيات القرآن، لكنَّه لم يُتِمَّه.

تنبيهاتٌ في التَّعامُلِ مع الإسرائيليَّات:

- لا ينبغي أن تُذكَرَ الإسرائيليَّاتُ إلَّا نادرًا، فنتوسَّطُ فيها، مع ضرورَةِ التَّنبيهِ علىٰ الصَّحيح منها والباطل، وفي الصَّحيح مَندوحَةٌ عن الضَّعيفِ والمَوضوع.
- يُحدَّث عن الإسرائيلِيَّاتِ في الآدابِ والزُّهدِ والورَع، أو بقصَصٍ تُناسِبُ أشياءَ في القرآنِ أو السُّنَّةِ، فما وافقَ الحقَّ قبلناه، وما رأيناه باطلًا اعتبَرناه مِنْ أكاذيبِ أهلِ الكتابِ.
- نستفيدُ ممَّا ورَدَ عن أهل الكتابِ في إيضاحِ المعنىٰ، وتعضيدِه، ومعرفَةِ شيءٍ من التَّفاصيل الَّتي جاءَت مُجملَةً في الكِتاب والسُّنَّةِ، ولأجل الاتِّعاظِ به والاعتِبار.

الضَّمِيرُ

أوَّلاً: معْنَى الضَّمِيرِ وأَنْوَاعُهُ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (الضَّمِيرُ لُغَةً: مِنَ الضُّمُورِ -وَهُوَ الْهُزَالُ-؛ لِقِلَّةِ حُرُوفِهِ، أَوْ مِنَ الْإِضْمَارِ -وَهُوَ الْإِخْفَاءُ-؛ لِكَثْرَةِ اسْتِتَارِهِ.

وَفِي الِاصْطِلَاحِ: مَا كُنِّيَ بِهِ عَنِ الظَّاهِرِ اخْتِصَارًا، وَقِيلَ: مَا دَلَّ عَلَىٰ حُضُورٍ أَوْ غَيْبَةٍ لَا مِنْ مَادَّتِهِمَا.

- فَالدَّالُّ عَلَىٰ الْحُضُورِ نَوْعَانِ:

١. أَحَدُهُمَا: مَا وُضِعَ لِلْمُتَكَلِّمِ؛ مِثْلَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[غافر:٤٤].

٢. الثَّانِي: مَا وُضِعَ لِلْمُخَاطَبِ؛ مِثْلَ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة:٧].

وَهَذَانِ لَا يَحْتَاجَانِ إِلَى مَرْجِعٍ اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ الْحُضُورِ عَنْهُ.

- وَالدَّالُّ عَلَىٰ الْغَائِبِ: مَا وُضِعَ لِلْغَائِبِ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْ مَرْجِعٍ يَعُودُ عَلَيْهِ.

وَالْأَصْلُ فِي الْمَرْجِعِ أَنْ يَكُونَ سَابِقًا عَلَىٰ الضَّمِيرِ لَفْظًا وَرُتْبَةً، مُطَابِقًا لَهُ لَفْظًا وَمَعْنًى؛ مِثْلَ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾[هود:٤٥].

وَقَدْ يَكُونُ مَفْهُومًا مِنْ مَادَّةِ الْفِعْلِ السَّابِقِ؛ مِثْلَ: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

وَقَدْ يَسْبِقُ لَفْظًا لَا رُتْبَةً؛ مِثْلَ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾[البقرة:١٢٤].

وَقَدْ يَسْبِقُ رُتْبَةً لَا لَفْظًا؛ مِثْلَ: (حَمَلَ كِتَابَهُ الطَّالِبُ).

وَقَدْ يَكُونُ مَفْهُومًا مِنَ السِّيَاقِ؛ مِثْلَ: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾[النِّساء:١١]، فَالضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ الْمَفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا تَرَكَ﴾.

وَقَدْ لَا يُطَابِقُ الضَّمِيرُ مَعْنًى؛ مِثْلَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ

نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون]؛ فَالضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ بِاعْتِبَارِ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّ الْمَجْعُولَ نُطْفَةً لَيْسَ الْإِنْسَانَ الْأَوَّلَ.

وَإِذَا كَانَ الْمَرْجِعُ صَالِحًا لِلْمُفْرَدِ وَالْجَمْعِ، جَازَ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَيْهِ بِأَحَدِهِمَا؛ مِثْلَ: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطَّلاق:١١].

وَالْأَصْلُ اتِّحَادُ مَرْجِعِ الضَّمَائِرِ إِذَا تَعَدَّدَتْ؛ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النَّجم]، فَضَمَائِرُ الرَّفْعِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَعُودُ إِلَىٰ ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ.

وَالْأَصْلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَىٰ أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، إِلَّا فِي الْمُتَضَايِفَيْنِ فَيَعُودُ عَلَىٰ الْمُضَافِ؛ لِأَنَّهُ الْمُتَحَدَّثُ عَنْهُ.

مِثَالُ الْأَوَّلِ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء:٢].

وَمِثَالُ الثَّانِي: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم:٣٤].

وَقَدْ يَأْتِي عَلَىٰ خِلَافِ الْأَصْلِ فِيمَا سَبَقَ بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ).

الضَّمير لغةً:

[١] (مِنَ الضُّمُورِ -وَهُوَ الْهُزَالُ-؛ لِقِلَّةِ حُرُوفِهِ)، فمنه ما هو علىٰ حرفٍ واحدٍ فقط مثل: (الهاء)، أو علىٰ حرفين مثل: (هو)، أو علىٰ ثلاثةٍ مثل: (نحن).

وانظر مثلًا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ ... أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ [الأحزاب:٣٥]، كيف ناب الضَّمير (هم) عن عشرين كلمةً!

[٢] (مِنَ الْإِضْمَارِ -وَهُوَ الْإِخْفَاءُ-؛ لِكَثْرَةِ اسْتِتَارِهِ).

الضَّميرُ اصطلاحًا:

[١] (مَا كُنِّيَ بِهِ عَنِ الظَّاهِرِ اخْتِصَارًا)، فإذا قلت: (عمرٌو ضربه بَكرٌ) فالهاء نابت عن عمرٍو اختصارًا.

[٢] (مَا دَلَّ عَلَىٰ حُضُورٍ أَوْ غَيْبَةٍ لَا مِنْ مَادَّتِهِمَا)، وهذا تفسير ابن مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في الألفيَّة، وخرج بـ(لَا مِنْ مَادَّتِهِمَا) لفظ (حضر) و(غاب) وما تصرَّف منهما فهي ليست من الضَّمائر.

ينقسمُ الضَّميرُ إلى نوعين:

[١] **ضميرُ حضورٍ:** وهو نوعان:

[أ] **للمُتكلِّم:** مثل (الياء) في: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر:٤٤].

[ب] **للمُخاطَب:** مثل (التَّاء) في: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧].

(لَا يَحْتَاجَانِ إِلَىٰ مَرْجِعٍ) يرجعان إليه؛ (اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ الْحُضُورِ عَنْهُ).

[٢] **ضميرُ غيبةٍ:**

مثل (هم) في: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة:٧]. وضمير الغائب (لَابُدَّ لَهُ مِنْ مَرْجِعٍ يَعُودُ عَلَيْهِ)، فـ(هم) في الآية يعود علىٰ ﴿الَّذِينَ﴾.

قاعدةٌ في تقديرِ الضَّميرِ المُستَتِرِ:

[١] **ضميرُ الحُضورِ:**

إذا كان تقدير الضَّمير (أنا) أو (أنت) أو (نحن) مثلًا فهو مُستترٌ وجوبًا.

مثالُه: الفاعل في (أَقُومُ) مُستترٌ وجوبًا، وتقديره (أنا).

[٢] **ضميرُ الغَيبَةِ:**

إذا كان تقدير الضَّمير (هو) مثلًا أو (هي) فهو مُستترٌ جوازًا.

مثالُه: الضَّميرُ في (قَامَ) مُستترٌ جوازًا، وتقديره (هو).

ترتيبُ المَرجعِ مع الضَّميرِ:

[١] الأصل أن يكونَ المَرجعُ سابقًا لفظًا ورتبةً:

كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾[هود:٤٥]؛ فالهاء في ﴿رَّبَّهُۥ﴾ تعود علىٰ ﴿نُوحٌ﴾، و﴿نُوحٌ﴾ سابقٌ لفظًا، كما أنَّه فاعلٌ، والفاعل أسبق رتبةً.

[٢] قد يسبقُ لفظًا لا رتبةً:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾[البقرة:١٢٤]، فالهاء في ﴿رَبُّهُۥ﴾ تعود علىٰ ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ السَّابق لفظًا، لكنَّ ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ مَفعولٌ به فهو مُؤخَّرٌ رُتبةً.

[٣] قد يسبقُ رتبةً لا لفظًا:

مثل: (حَمَلَ كِتَابَهُ الطَّالِبُ)، فالهاء تعود علىٰ (الطَّالِبُ) المُؤخَّر لفظًا، لكنَّه فاعلٌ فهو مُقدَّمٌ رتبةً.

مُطابقةُ الضَّميرِ للمَرجعِ:

[١] الأصل أن يُطابقَه لفظًا ومعنًى:

كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾[هود:٤٥]؛ والهاء ضميرٌ مُفردٌ مُذكَّرٌ يرجع علىٰ ﴿نُوحٌ﴾ المُفرد المُذكَّر، فهو مُطابقٌ له لفظًا ومَعنًىٰ.

[٢] قد يُخالفُه لفظًا:

كقوله تعالىٰ: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[المائدة:٨] فالمَرجع هو العدل، وهو مَفهومٌ من ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، فالضَّميرُ غير مُطابقٍ لفظًا.

وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾[النِّساء:١١]، فالضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ يَعود علىٰ الميِّت المَفهوم من السِّياق.

[٣] قد يُخالفُه معنًى:

كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ﴾[المؤمنون]، فالضَّمير في ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ يعود علىٰ الإنسان لفظًا، ولو قلنا إنَّه مُطابقٌ له مَعنًىٰ لكان آدم عليه السلام قد تحوَّل إلىٰ نطفةٍ!

إذا كانَ المَرجِعُ صالحًا للمُفرَدِ والجمعِ:

(جَازَ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَيْهِ بِأَحَدِهِمَا) أي: إمَّا الجمع أو المُفرد، مثالُ ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[الطَّلاق:١١]، فضميرُ المُفرد في ﴿يُدْخِلْهُ﴾ راجعٌ علىٰ (مَنْ) الشَّرطيَّة الَّتي تصلح للمُفرد والجمع معًا، وضميرُ الجمع في ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ عائدٌ علىٰ (مَنْ) كذلك.

تعدُّدُ الضَّمائرِ:

الأصل عند تعدُّد الضَّمائر أنَّ مَرجعها واحدٌ، وهو الأقرب إلىٰ المَعنىٰ؛ لأنَّك إذا أرجعت كلَّ ضميرٍ إلىٰ مَرجعٍ تشتَّت الضَّمائر، وصار الكلام مُبهمًا خفيًّا.

مثال ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ الهاء تعود علىٰ النَّبيِّ ﷺ، ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ جبريلُ عليه السلام، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ هيئةٍ حسنةٍ ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ كمُل، فكان علىٰ خِلقته الَّتي خُلق عليها، له ستُّ مائة جناحٍ، ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ الشَّيء المُرتفع في الجوِّ، ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريلُ ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ﴾ جبريلُ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ النَّبيِّ ﷺ ﴿مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ جبريلُ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، أو اللهُ عز وجل إلىٰ جبريل عليه السلام، وقال بعض العلماء: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ الله عز وجل، وحملهم علىٰ ذلك قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[النَّجم]، فرَاعَوا آخر الآية ولم يُراعُوا أوَّلها، وشتَّتوا الضَّمائر، والصَّواب المُتعيَّن هو الأوَّل.

الأصلُ عَودُ الضَّميرِ:

[١] إلى أقربِ مَذكورٍ: مثالُه قولُه تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ﴾ الكتاب؛ لأنَّه أقرب مَذكورٍ، ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الإسراء:٢].

[٢] إلَّا في المُتضايفين: فالأصل عَودُه إلىٰ المُضاف، مثالُه قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[إبراهيم:٣٤] النِّعمة، ودليله تأنيثُ الضَّمير.

أمثلةٌ لما يأتي على خلافِ الأصل:

[١] في قولِه تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾[الحجّ:٧٨]، اختُلف في المُسَمِّي علىٰ قولين:

- [أ] **الله** عَزَّوَجَلَّ: لأنَّ الحديث هكذا مَجراه، وهذا هو الرَّاجح من السِّياق.
- [ب] **إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: لأنَّه هو أقرب مَذكورٍ.

[٢] قولُه ﷺ: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**». مُتَّفقٌ عليه.
اختُلف في مَرجع الهاء علىٰ قولين:

- [أ] **الله** عَزَّوَجَلَّ: لأنَّه هو الخالق.
- [ب] **آدم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: لأنَّه هو أقرب مَذكورٍ.

هذا هو الرَّاجح، ومَعناه:

- (علىٰ صورةِ الله) إضافة تشريفٍ وتكريمٍ، مثل قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٧٣]، ولهذا جاء في الحديث نفسه: «**إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ**»؛ لتكريمِه، وهذا قريبٌ ليس ببعيدٍ.
- (علىٰ صورةِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ)، ولا يُنافي هذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشُّورىٰ:١١]؛ لأنَّه لا يلزم من كونه علىٰ صورته أن يكون مُماثلًا له.

هذا التَّفسير يمنعه شيئان:

- أنَّه لا مزيَّة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا كان المَعنىٰ: خلقه الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ صورة آدم؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ خلقه اللهُ علىٰ صورة نفسِه، حتَّىٰ الفرسُ خلقه الله علىٰ صورته، وكذا إبليس...
- أنَّه ورد بلفظٍ صريحٍ: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَىٰ صُورَةِ الرَّحْمَنِ**». أخرجه الحاكم والطَّبرانيُّ. فيُحملُ الضَّميرُ المُبهَمُ علىٰ الظَّاهر المُفصَّل.

مثالٌ آخرُ لِـما جاءَ على غيرِ الأصلِ:

قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾، الضَّمير في ﴿صَلَّىٰٓ﴾ يعودُ علىٰ النَّبيِّ ﷺ لا إلىٰ الَّذي ينهىٰ، ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾[العلق] كلُّه يرجع إلىٰ النَّبيِّ ﷺ.

ثَانِيًا: الإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (الْأَصْلُ أَنْ يُؤْتَىٰ فِي مَكَانِ الضَّمِيرِ بِالضَّـمِيرِ؛ لِأَنَّـهُ أَبْـيَنُ لِلْمَعْنَـىٰ، وَأَخْصَرُ لِلَّفْـظِ، وَلِهَـذَا نَـابَ الضَّـمِيرُ بِقَوْلِـهِ تَعَـالَىٰ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[الأحزاب] عَنْ عِشْرِينَ كَلِمَةً الْمَذْكُورَةَ قَبْلَهُ، وَرُبَّمَا يُؤْتَىٰ مَكَانَ الضَّـمِيرِ بِالِاسْـمِ الظَّاهِرِ، وَهُوَ مَا يُسَمَّىٰ: الْإِظْهَارَ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ، وَلَـهُ فَوَائِـدُ كثيـرةٌ تَظْهَـرُ بِحَسَـبِ السِّيَاقِ، مِنْهَا:

١. الْحُكْمُ عَلَىٰ مَرْجِعِهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الِاسْمُ الظَّاهِرُ.
٢. بَيَانُ عِلَّةِ الْحُكْمِ.
٣. عُمُومُ الْحُكْمِ لِكُلِّ مُتَّصِفٍ بِمَا يَقْتَضِيهِ الِاسْمُ الظَّاهِرُ

مِثَالُ ذَلِك قَوْلُـهُ تَعَـالَىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾[البقرة]، وَلَمْ يَقُلْ: فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لَهُ، فَأَفَادَ هَذَا الْإِظْهَارُ:

١. الْحُكْمَ بِالْكُفْرِ عَلَىٰ مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ، وَجِبْرِيلَ، وَمِيكَالَ.
٢. أَنَّ اللهَ عَدُوٌّ لَهُمْ؛ لِكُفْرِهِمْ.
٣. أَنَّ كُلَّ كَافِرٍ فَاللهُ عَدُوٌّ لَهُ.

مِثَالٌ آخَرُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾[الأعراف]، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ، فَأَفَادَ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ:

١. الْحُكْمَ بِالْإِصْلَاحِ لِلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ الْكِتَابَ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ.
٢. أَنَّ اللهَ آجَرَهُمْ لِإِصْلَاحِهِمْ.
٣. أَنَّ كُلَّ مُصْلِحٍ لَهُ أَجْرٌ غَيْرُ مُضَاعٍ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَقَدْ يَتَعَيَّنُ الْإِظْهَارُ كَمَا لَوْ تَقَدَّمَ الضَّمِيرَ مَرْجِعَانِ يَصْلُحُ عَوْدُهُ إِلَىٰ كُـلٍّ مِنْهُمَـا، وَالْمُـرَادُ أَحَدُهُمَا؛ مِثْلَ: اللَّهُمَّ أَصْلِحِ لِلْمُسْلِمِينَ وُلَاةَ أُمُورِهِمْ، وَبِطَانَةَ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ، إِذْ لَـوْ قِيـلَ: وَبِطَانَتَهُمْ لَأَوْهَمَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِطَانَةَ الْمُسْلِمِينَ).

الأصلُ أن يُؤتى في مَكانِ الضَّميرِ بالضَّمير لوجهين:

[١] **لأنَّه أبينُ للمعنى:** لأنَّك إذا أظهرت في مَكان الإضمار فقد يظنُّ الظَّانُّ أنَّ هذا الكلام لا يرجعُ إلىٰ ما سبق.

[٢] **لأنَّه أخصر للَّفظ:** لما سبق أنَّ الضَّمير هو (مَا كُنِّيَ بِهِ عَنِ الظَّاهِرِ اخْتِصَارًا)، ومثَّل المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ ... أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾[الأحزاب:٣٥]، حيث ناب الضَّمير (هم) عن عشرين كلمةً، ولو أُعيدت كان الكلام طويلًا ركيكًا.

فوائدُ الإظهارِ في مَوضعِ الإضمار:

[١] (**الْحُكْمُ عَلَىٰ مَرْجِعِهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الِاسْمُ الظَّاهِرُ**).

[٢] (**بَيَانُ عِلَّةِ الْحُكْمِ**)، وهو أنَّ علَّته ما دلَّ عليه ذلك الاسمُ الظَّاهر.

[٣] (**عُمُومُ الْحُكْمِ لِكُلِّ مُتَّصِفٍ بِمَا يَقْتَضِيهِ الِاسْمُ الظَّاهِرُ**)، أي: إرادة العموم.

[٤] **التَّنبيه:** لأنَّ السِّياق إذا كان يقتضي الإضمار ثمَّ جاء الإظهارُ؛ فإنَّ الإنسان يتوقَّف: لماذا جاء الإظهارُ؟ فيكونُ فيه تنبيهٌ للقارئ أو المُخاطَب.

بيانُ الفائدةِ الأولى:

المَقصودُ منها أنَّنا نحكم علىٰ المَرجع بما يقتضيه الاسمُ الظَّاهرُ، فإذا كان الاسمُ الظَّاهرُ يقتضي الكفر حكمنا علىٰ مَرجعه بأنَّه كافرٌ، وإذا كان يقتضي الظُّلم حكمنا علىٰ مَرجعه بأنَّه ظالمٌ، وهكذا.

المثالُ الأوَّلُ:

قولُه تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾[البقرة]، مُقتضىٰ السِّياق أن يُقال: (فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لَهُ)، ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ فأفادنا:

[١] الحكم بالكفر علىٰ مَن كان عدُوًّا لله، وملائكتِه، ورسلِه، وجبريلَ، وميكالَ، ولو أضمر لم نستفد كفر مَن كان عدُوًّا لهؤلاء، وإنَّما يكون الله عدُوًّا له، لكن لا ندري هل هو كافرٌ، أم ظالمٌ، أم فاسقٌ؟

[٢] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ تفيد التَّعليل: أنَّ الله عدوٌّ لهم لكُفرهم، ولو أضمر لم تتبيَّن علَّة العداوة.

[٣] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ تُفيد العُموم، وهو أنَّ كلَّ كافرٍ فاللهُ عَزَّوَجَلَّ عدوٌّ له.

[٤] لما كان الكلام علىٰ نسقٍ واحدٍ، ثمَّ جاء ما يُخالفُه؛ فإنَّ السَّامع سيتوقَّف ويتنبَّه.

المثالُ الثَّاني:

قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ تمسُّكًا تامًّا ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾[الأعراف]، مُقتضىٰ السِّياق أن يُقال: (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ)، ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾؛ فأفادنا:

[١] الحكم للَّين يُمسِّكون بالكتاب، ويقيمون الصَّلاة بأنَّهم مُصلحون، ولو قال: (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَهُمْ) لم يتبيَّن هذا.

[٢] أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ آجرهم لإصلاحهم، وهذه إفادةٌ عاليةٌ.

[٣] أنَّ كلَّ مُصلحٍ فله أجرٌ غيرُ مُضاعٍ عند الله عَزَّوَجَلَّ.

[٤] تنبيه القارئ أو السَّامع كما تقدَّم.

قاعدةٌ: يتعيَّن الإظهارُ إذا خيفَ الالتباسُ

هذه قاعدةٌ مَعروفةٌ في النَّحو: (إذا خيف الالتِباسُ وجب أن يُحوَّل الكلامُ إلىٰ ما ليس فيه التِباسٌ)، قال المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَدْ يَتَعَيَّنُ الْإِظْهَارُ كَمَا لَوْ تَقَدَّمَ الضَّمِيرَ مَرْجِعَانِ يَصْلُحُ عَوْدُهُ إِلَىٰ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَالْمُرَادُ أَحَدُهُمَا؛ مِثْلَ: اللَّهُمَّ أَصْلِح لِلْمُسْلِمِينَ وُلَاةَ أُمُورِهِمْ، وَبِطَانَةَ وُلَاةِ أُمُورِهِمْ، إِذْ لَوْ قِيلَ: وَبِطَانَتَهُمْ لَأَوْهَمَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِطَانَةَ الْمُسْلِمِينَ)، وهذا واضحٌ.

ثالِثًا: ضَمِيرُ الفَصْلِ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ: (ضَمِيرُ الْفَصْلِ حَرْفٌ بِصِيغَةِ ضَمِيرِ الرَّفْعِ الْمُنْفَصِلِ، يَقَعُ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ إِذَا كَانَا مَعْرِفَتَيْنِ، وَيَكُونُ:

- بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾[طه:١٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥﴾[الصَّافَّات:١٦٥].
- وَبِضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[المائدة:١١٧].
- وَبِضَمِيرِ الْغَائِبِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾[البقرة].

وَلَهُ ثَلَاثَةُ فَوَائِدَ:

- الْأُولَىٰ: التَّوْكِيدُ، فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ هُوَ أَخُوكَ؛ أَوْكَدُ مِنْ قَوْلِكَ: زَيْدٌ أَخُوكَ.
- الثَّانِيَةُ: الْحَصْرُ، وَهُوَ: اخْتِصَاصُ مَا قَبْلَهُ بِمَا بَعْدَهُ، فَإِنَّ قَوْلَكَ: الْمُجْتَهِدُ هُوَ النَّاجِحُ؛ يُفِيدُ اخْتِصَاصَ الْمُجْتَهِدِ بِالنَّجَاحِ.
- ثَالِثًا: الْفَصْلُ، أَيْ: التَّمْيِيزُ بَيْنَ كَوْنِ مَا بَعْدَهُ خَبَرًا أَوْ تَابِعًا، فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ الْفَاضِلُ؛ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ صِفَةً لِزَيْدٍ، وَالْخَبَرُ مُنْتَظَرٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ خَبَرًا، وَإِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ هُوَ الْفَاضِلُ؛ تَعَيَّنَ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ خَبَرًا؛ لِوُجُودِ ضَمِيرِ الْفَصْلِ).

ضَمِيرُ الفَصلِ:

(حَرْفٌ بِصِيغَةِ ضَمِيرِ الرَّفْعِ الْمُنْفَصِلِ)، هذا يدلُّ علىٰ أنَّه لا محلَّ له من الإعراب، قال تعالىٰ: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠﴾[الشُّعراء]، ولو كان له محلٌّ من الإعراب لقال: (هم الغالبون)، (يَقَعُ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ إِذَا كَانَا مَعْرِفَتَيْنِ) سواءٌ كانا مَنسوخين أم غير مَنسوخين.

يأتي ضميرُ الفَصلِ:

[١] **بضمير المُتكلِّم:**

كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه:١٤]، فالضَّمير ﴿أَنَا﴾ وقع بين المُبتدأ وهو (الياء) في ﴿إِنَّنِيٓ﴾ والخبر ﴿ٱللَّهُ﴾، وكلاهما مَعرفةٌ، وهما مَنسوخان.

وكقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥﴾ [الصَّافات:١٦٥]، ولو قال: (وإنَّا الصَّافُّونَ) صحَّ، لكن أُتي بضمير الفصل للفوائد الَّتي ستأتي.

[٢] **بضمير المُخاطَب:**

كقوله تعالىٰ: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المائدة:١١٧]، فالضَّمير ﴿أَنتَ﴾ وقع بين المُبتدأ وهو (التَّاء) في ﴿كُنتَ﴾ والخبر ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾، وكلاهما مَعرفةٌ، وهما مَنسوخان.

[٣] **بضمير الغائب:**

كقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البقرة:٥]، فالضَّمير ﴿هُمُ﴾ وقع بين المُبتدأ (أُولَئِكَ) والخبر ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، وكلاهما مَعرفةٌ، وهما غير مَنسوخين.

فوائدُ الإتيانِ بضميرِ الفَصلِ:

[١] **التَّوكيدُ:**

(فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ هُوَ أَخُوكَ؛ أَوْكَدُ مِنْ قَوْلِكَ: زَيْدٌ أَخُوكَ).

[٢] **الحصرُ:**

(وَهُوَ: اخْتِصَاصُ مَا قَبْلَهُ بِمَا بَعْدَهُ، فَإِنَّ قَوْلَكَ: الْمُجْتَهِدُ هُوَ النَّاجِحُ؛ يُفِيدُ اخْتِصَاصَ الْمُجْتَهِدِ بِالنَّجَاحِ)، وغيرُ المُجتهد لا نجاح له، وربَّما يُعبِّر بعضُهم بقوله: يُفيد الحصر، والمَعنىٰ واحدٌ.

[٣] **الفَصلُ:**

(أَيْ: التَّمْيِيزُ بَيْنَ كَوْنِ مَا بَعْدَهُ خَبَرًا أَوْ تَابِعًا، فَإِنَّ قَوْلَكَ: زَيْدٌ الْفَاضِلُ؛ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ صِفَةً لِزَيْدٍ، وَالْخَبَرُ مُنْتَظَرٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ خَبَرًا، وَإِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ هُوَ الْفَاضِلُ؛ تَعَيَّنَ أَنْ تَكُونَ الْفَاضِلُ خَبَرًا).

هل ضَميرُ الفَصلِ هو ضميرُ الشَّأنِ؟

ضميرُ الفصل غيرُ ضمير الشَّأن، فضميرُ الشَّأن له مَحلٌّ من الإعراب، ويكون مَحذوفًا، بين ضميرُ الفصل مَوجودٌ، وليس له مَحلٌّ من الإعراب.

ولهذا فإنَّ تقسيم بعضِهم الخير إلىٰ جملةٍ إسميَّةٍ وفعليَّةٍ ضعيفٌ، فمثلًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨﴾[آل عمران]، يقولون: ﴿أَنتَ﴾ ضميرٌ مُنفصلٌ، وهو مُبتدأٌ ثانٍ، و﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾ خبرٌ، وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّك إذا أعربتَ هكذا صار الخبرُ جملةً، وأصل الخبر مُفرَدٌ.

رَابِعًا: الالْتِفَاتُ

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (الِالْتِفَاتُ: تَحْوِيلُ أُسْلُوبِ الْكَلَامِ مِنْ وَجْهٍ إِلَىٰ آخَرَ، وَلَهُ صُوَرٌ مِنْهَا:

١. الِالْتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ الْخِطَابِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة]، فَحَوَّلَ الْكَلَامَ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِيَّاكَ﴾.

٢. الِالْتِفَاتُ مِنَ الْخِطَابِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس:٢٢]، فَحَوَّلَ الْكَلَامَ مِنَ الْخِطَابِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾.

٣. الِالْتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ التَّكَلُّمِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾[المائدة:١٢]، فَحَوَّلَ الْكَلَامَ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ التَّكَلُّمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَعَثْنَا﴾.

٤. الِالْتِفَاتُ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر]، فَحَوَّلَ الْكَلَامَ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

وَلِلِالْتِفَاتِ فَوَائِدُ مِنْهَا:

١. حَمْلُ الْمُخَاطَبِ عَلَىٰ الِانْتِبَاهِ؛ لِتَغَيُّرِ وَجْهِ الْأُسْلُوبِ عَلَيْهِ.

٢. حَمْلُهُ عَلَىٰ التَّفْكِيرِ فِي الْمَعْنَىٰ؛ لِأَنَّ تَغَيُّرَ وَجْهِ الْأُسْلُوبِ يُؤَدِّي إِلَىٰ التَّفْكِيرِ فِي السَّبَبِ.

٣. دَفْعُ السَّآمَةِ وَالْمَلَلِ عَنْهُ؛ لِأَنَّ بَقَاءَ الْأُسْلُوبِ عَلَىٰ وَجْهٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي إِلَىٰ الْمَلَلِ غَالِبًا.

وَهَٰذِهِ الْفَوَائِدُ عَامَّةٌ لِلِالْتِفَاتِ فِي جَمِيعِ صُوَرِهِ، أَمَّا الْفَوَائِدُ الْخَاصَّةُ فَتَتَعَيَّنُ فِي كُلِّ صُورَةٍ حَسَبَ مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ).

براعةُ الاختتام:

براعة الاختتام أن يُؤتىٰ في آخر الكلام بما يدلُّ علىٰ الانتهاء، وختمُ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بباب (الالتفات) كأنَّه التف عن هذا الكتاب إلىٰ آخر.

الالتفاتُ هو: (تَحْوِيلُ أُسْلُوبِ الْكَلَامِ مِنْ وَجْهٍ إِلَى آخَرَ)، وله صُوَرٌ:

[١] (مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ).

[٢] (مِنَ الْخِطَابِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ).

[٣] (مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ).

[٤] (مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ).

فوائدُ عامَّةٌ في الالتفاتِ:

[١] (حَمْلُ الْمُخَاطَبِ عَلَى الِانْتِبَاهِ)؛ لتغيُّر وجه الأسلوب، وهذا يلزم منه انتباهُ المُخاطَب، وانظر مثلًا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة:٦٩]، إذا قرأتها انتبهتَ: لماذا صارت ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ مرفوعةً؟

[٢] (حَمْلُهُ عَلَى التَّفْكِيرِ فِي الْمَعْنَىٰ)؛ لأنَّ تغيُّر وجه الأسلوب يؤدِّي إلىٰ التَّفكير في السَّبب، والتماس العلَّة.

[٣] (دَفْعُ السَّآمَةِ وَالْمَلَلِ عَنْهُ)؛ لأنَّ بقاء الأسلوب علىٰ وجهٍ واحدةٍ يؤدِّي إلىٰ الملل غالبًا، ولذلك ذهب بعض القرَّاء إلىٰ تغيير الأسلوب بالصَّوت، وبعض الخطباء إذا أتىٰ علىٰ آيةٍ يقرؤها تلاوةً مُرتَّلةً، وهذا لا بأس به؛ لأنَّه يؤدِّي للانتباه، لكنَّه قد يشوِّش علىٰ السَّامع فيجعلهُ يُفكِّر: هل هذا الفعلُ جائزٌ؟

مثالُ النَّوعِ الأوَّلِ من الالتفاتِ:

قولُه تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ كلُّها بصيغة الغَيبة، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، التفاتٌ إلىٰ الخِطاب.

والفوائد الثَّلاثة المَذكورة مَوجودةٌ هنا، وهي فوائد عامَّةٌ في كلِّ التفاتٍ، لكنَّ الخاصَّة هنا أنَّك لمَّا أثنيت علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بما أثنيت به من كونه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ كأنَّه بهذا الثَّناء صار حاضرًا أمامك، فقلتَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

ومن الأمثلة كذلك قولُه تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾، وهذا بصيغة الغَيبة، والمَقصودُ هو النَّبيُّ ﷺ، ثمَّ قال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾[عبس] انتقل إلىٰ الخطاب، ولم يقُل أوَّلًا: (عَبَسْتَ وَتَوَلَّيْتَ) لما فيه من الغضاضة في حقِّه ﷺ.

مثالُ النَّوعِ الثَّاني من الالتفاتِ:

قولُه تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ خطابٌ، ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ انتقل إلىٰ الغَيبة، ولم يقل: (وجرين بكم) كراهة أن يتَّصف المُخاطبون -وهم المسلمون- بما ذُكر بعد ذلك، ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢﴾[يونس]، فهذه الأوصاف لا تُوجَّه إلىٰ المُخاطَبين المُسلمين لما فيها من الغضاضة.

مثالُ النَّوعِ الثَّالث من الالتفاتِ:

قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بصيغة الغَيبة، ﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾[المائدة:١٢] انتقل اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلىٰ التَّكلُّم، ولم يقل: (وَبَعَثَ)، والتَّكلُّم أبلغ إشارةً إلىٰ عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه هو الَّذي يبعثُ الرُّسل.

مثالُ النَّوعِ الرَّابعِ من الالتفاتِ:

قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ بصيغة التَّكلُّم، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾[الكوثر] انتقل اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلىٰ الغَيبة، ولم يقل: (فَصَلِّ لَنَا)، ومن الفوائد الخاصَّة هنا فائدةُ الإظهار، وهي: الإشارة إلىٰ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ منحك هذا للفضائل الخاصَّة بك؛ لأنَّ الكوثر من خصائص الرَّسول ﷺ.

قالَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وَاللهُ أَعْلَمُ،

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ،

وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ،

تَمَّ، وَللهِ الْحَمْدُ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

الاخْتِبَارُ الثَّالثُ:

[١] اختر الإجابة الصَّحيحة:

- يلزمُ مِن روايةِ الصَّحابةِ للاسرائيليَّات: ❍ قَبولُها. ❍ تضعيفُها. ❍ التَّوقُّفُ فيها.
- اتَّسمَت روايةُ الصَّحابة لأخبار بني إسرائيلَ بـ: ❍ الكثرةِ. ❍ القلَّةِ. ❍ التَّوسُّطِ.
- الأخبارُ المَنقولةُ عن أهل الكتاب تُسمَّىٰ:

❍ المَوقوفاتِ. ❍ المَقطوعاتِ. ❍ الإسرائيليَّاتِ.
- قد يُستغنىٰ عن جواب القَسَم من غير تقدير: ❍ صح. ❍ خطأٌ.
- يلزمُ اقترانُ (اللَّام) بجوابِ القسم إذا كان: (ماضيًا مُثبَتًا مُتصرِّفًا مُتقدِّمَ المَعمولِ):

❍ صح. ❍ خطأٌ.
- القَسَمُ يكون في الغالب: (جُملةً طلبيَّةً): ❍ صح. ❍ خطأٌ.

مُلْحَقٌ فِيهِ بَعْضُ الْمُتُونِ الْمُهِمَّةِ لِطَالِبِ الْعِلْمِ فِي أَبْوَابِ الاعْتِقَادِ وَأُصُولِ التَّفْسِيرِ

متن: «مُقَدِّمَةٌ فِي أُصُولِ التَّفْسِيرِ»

لِشَيْخِ الإِسْلَامِ:

أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الحَلِيمِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ ﷺ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ سَأَلَنِي بَعْضُ الْإِخْوَانِ أَنْ أَكْتُبَ لَهُ «مُقَدِّمَةً» تَتَضَمَّنُ قَوَاعِدَ كُلِّيَّةً، تُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَمَعْرِفَةِ تَفْسِيرِهِ وَمَعَانِيهِ، وَالتَّمْيِيزِ -فِي مَنْقُولِ ذَلِكَ وَمَعْقُولِهِ- بَيْنَ الْحَقِّ وَأَنْوَاعِ الْأَبَاطِيلِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ الدَّلِيلِ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْأَقَاوِيلِ؛ فَإِنَّ الْكُتُبَ الْمُصَنَّفَةَ فِي التَّفْسِيرِ مَشْحُونَةٌ بِالْغَثِّ وَالسَّمِينِ، وَالْبَاطِلِ الْوَاضِحِ وَالْحَقِّ الْمُبِينِ.

وَالْعِلْمُ إِمَّا نَقْلٌ مُصَدَّقٌ عَنْ مَعْصُومٍ، وَإِمَّا قَوْلٌ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مَعْلُومٌ، وَمَا سِوَىٰ هَـٰذَا فَإِمَّا مُزَيَّفٌ مَرْدُودٌ، وَإِمَّا مَوْقُوفٌ لَا يُعْلَمُ أَنَّهُ بَهْرَجٌ وَلَا مَنْقُودٌ.

وَحَاجَةُ الْأُمَّةِ مَاسَّةٌ إِلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ: **حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَىٰ كَثْرَةِ التَّرْدِيدِ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، مَنْ قَالَ بِهِ صُدِّقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَمَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَىٰ الْهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ
أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ
حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ [إبراهيم].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

وَقَدْ كَتَبْتُ هٰذه «**الْمُقَدِّمَةَ**» مُخْتَصَرَةً، بِحَسَبِ تَيْسِيرِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ إِمْلَاءِ الْفُؤَادِ، وَاللهُ الْهَادِي إِلَىٰ سَبِيلِ الرَّشَادِ.

فَصْلٌ فِي أَنّ النَّبِي ﷺ بيَّنَ لأَصْحَابِهِ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ

يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ لأَصْحَابِهِ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ؛ كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَلْفَاظَهُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] يَتَنَاوَلُ هٰذا وَهٰذا.

وَقَدْ قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ، -كَـ: عُثْمَانَ بْنِ عفَّان، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَغَيْرِهِمَا-: (أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا). وَلِهٰذا كَانُوا يَبْقَوْنَ مُدَّةً فِي حِفْظِ السُّورَةِ.

وَقَالَ أَنَسٌ: (كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ «الْبَقَرَةَ» وَ«آلَ عِمْرَانَ» جَدَّ فِي أَعْيُنِنَا).

وَأَقَامَ ابْنُ عُمَرَ عَلَىٰ حِفْظِ «الْبَقَرَةِ» عِدَّةَ سِنِينَ -قِيلَ: ثَمَانِي سِنِينَ- ذَكَرَهُ مَالِكٌ.

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢، محمد:٢٤]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾

[المؤمنون:٦٨]، وَتَدَبُّرُ الْكَلَامِ بِدُونِ فَهْمِ مَعَانِيهِ لَا يُمْكِنُ.

وَكَذَلِكَ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف]، وَعَقْلُ الْكَلَامِ مُتَضَمِّنٌ لِفَهْمِه.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ فَالْمَقْصُودُ مِنْهُ: فَهْمُ مَعَانِيهِ، دُونَ مُجَرَّدِ أَلْفَاظِهِ، فَالْقُرْآنُ أَوْلَىٰ بِذَلِكَ.

وَأَيْضًا فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ الْعِلْمِ كَـ«الطِّبِّ» وَ«الْحِسَابِ»، وَلَا يَسْتَشْرِحُوهُ، فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؟!

وَلِهَٰذا كَانَ النِّزَاعُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ فِي «تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» قَلِيلًا جِدًّا، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي الصَّحَابَةِ، فَهُوَ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَكُلَّمَا كَانَ الْعَصْرُ أَشْرَفَ كَانَ الِاجْتِمَاعُ والِائتِلَافُ وَالْعِلْمُ وَالْبَيَانُ فِيهِ أَكْثَرَ.

وَمِنَ التَّابِعِينَ مَنْ تَلَقَّىٰ جَمِيعَ التَّفْسِيرِ عَنِ الصَّحَابَةِ؛ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ: (عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ، وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا).

وَلِهَٰذا قَالَ الثَّوْرِيُّ: (إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُك بِهِ).

وَلِهَٰذا يَعْتَمِدُ عَلَىٰ تَفْسِيرِهِ: الشَّافِعِيُّ وَالْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَكَذَلِكَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ مِمَّنْ صَنَّفَ فِي التَّفْسِيرِ يُكَرِّرُ الطُّرُقَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ التَّابِعِينَ تَلَقَّوُا التَّفْسِيرَ عَنْ الصَّحَابَةِ كَمَا تَلَقَّوْا عَنْهُمْ عِلْمَ السُّنَّةِ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَتَكَلَّمُونَ فِي بَعْضِ ذَلِكَ بِالِاسْتِنْبَاطِ وَالِاسْتِدْلَالِ؛ كَمَا يَتَكَلَّمُونَ فِي بَعْضِ السُّنَنِ بِالِاسْتِنْبَاطِ وَالِاسْتِدْلَالِ.

فَصْلٌ فِي اخْتِلَافِ السَّلَفِ فِي التَّفْسِيرِ وَأَنَّهُ اخْتِلَافُ تَنَوُّعٍ

وَالْخِلَافُ بَيْنَ السَّلَفِ فِي التَّفْسِيرِ قَلِيلٌ، وَخِلَافُهُمْ فِي الْأَحْكَامِ أَكْثَرُ مِنْ خِلَافِهِمْ فِي التَّفْسِيرِ، وَغَالِبُ مَا يَصِحُّ عَنْهُمْ مِنَ الْخِلَافِ يَرْجِعُ إِلَىٰ «اخْتِلَافِ تَنَوُّعٍ» لَا «اخْتِلَافِ تَضَادٍّ»، وَذَلِكَ صِنْفَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُعَبِّرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنِ الْمُرَادِ بِعِبَارَةٍ غَيْرِ عِبَارَةِ صَاحِبِهِ، تَدُلُّ عَلَىٰ مَعْنًىٰ فِي الْمُسَمَّىٰ غَيْرِ الْمَعْنَىٰ الْآخَرِ، مَعَ اتِّحَادِ الْمُسَمَّىٰ، بِمَنْزِلَةِ الْأَسْمَاءِ الْمُتَكَافِئَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمُتَرَادِفَةِ وَالْمُتَبَايِنَةِ؛ كَمَا قِيلَ فِي اسْمِ السَّيْفِ: «الصَّارِمُ» وَ«الْمُهَنَّدُ». وَذَلِكَ مِثْلُ: أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، وَأَسْمَاءِ رَسُولِ الله ﷺ، وَأَسْمَاءِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ أَسْمَاءَ اللهِ كُلَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ مُسَمًّىٰ وَاحِدٍ.

فَلَيْسَ دُعَاؤُهُ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ مُضَادًّا لِدُعَائِهِ بِاسْمٍ آخَرَ؛ بَلْ إِنَّ الأَمْرَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]، وَكُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ الْمُسَمَّاةِ وَعَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا الاسْمُ؛ كَـ«الْعَلِيمِ» يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ وَالْعِلْمِ، وَ«الْقَدِيرِ» يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ وَالْقُدْرَةِ، وَ«الرَّحِيمِ» يَدُلُّ عَلَىٰ الذَّاتِ وَالرَّحْمَةِ.

وَمَنْ أَنْكَرَ دَلَالَةَ أَسْمَائِهِ عَلَىٰ صِفَاتِهِ مِمَّنْ يَدَّعِي الظَّاهِرَ، فَقَوْلُهُ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ غُلَاةِ الْبَاطِنِيَّةِ «الْقَرَامِطَةِ» الَّذِينَ يَقُولُونَ: (لَا يُقَالُ هُوَ حَيٌّ وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ)؛ بَلْ يَنْفُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ؛ فَإِنَّ أُولَئِكَ «الْقَرَامِطَةَ الْبَاطِنِيَّةَ» لَا يُنْكِرُونَ اسْمًا هُوَ عَلَمٌ مَحْضٌ كَالْمُضْمَرَاتِ وَإِنَّمَا يُنْكِرُونَ مَا فِي أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ مِنْ صِفَاتِ الْإِثْبَاتِ؛ فَمَنْ وَافَقَهُمْ عَلَىٰ مَقْصُودِهِمْ كَانَ -مَعَ دَعْوَاهُ الْغُلُوَّ فِي الظَّاهِرِ- مُوَافِقًا لِغُلَاةِ الْبَاطِنِيَّةِ فِي ذَلِكَ، وَلَيْسَ هٰذا مَوْضِعَ بَسْطِ ذَلِكَ.

وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ: أَنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ ذَاتِهِ، وَعَلَىٰ مَا فِي الاسْمِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي فِي الِاسْمِ الآخَرِ بِطَرِيقِ اللُّزُومِ.

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُ: «مُحَمَّدٍ»، وَ«أَحْمَدَ»، وَ«الْمَاحِي»، وَ«الْحَاشِرِ»، وَ«الْعَاقِبِ».

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ؛ مِثْلُ: «الْقُرْآنِ»، وَ«الْفُرْقَانِ»، وَ«الْهُدَىٰ»، وَ«الشِّفَاءِ»، وَ«الْبَيَانِ»، وَ«الْكِتَابِ»، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

فَإِذَا كَانَ مَقْصُودُ السَّائِلِ تَعْيِينَ الْمُسَمَّىٰ، عَبَّرْنَا عَنْهُ بِأَيِّ اسْمٍ كَانَ إِذَا عُرِفَ مُسَمَّىٰ هٰذا الاسْمِ، وَقَدْ يَكُونُ الاسْمُ عَلَمًا، وَقَدْ يَكُونُ صِفَةً.

كَمَنْ يَسْأَلُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ [طه:١٢٤] مَا ذِكْرُهُ؟، فَيُقَالُ لَهُ: هُوَ «الْقُرْآنُ» مَثَلًا، أَوْ: مَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْكُتُبِ، فَإِنَّ «الذِّكْرَ» مَصْدَرٌ، وَالْمَصْدَرُ تَارَةً يُضَافُ إِلَىٰ

الْفَاعِلِ، وَتَارَةً إِلَىٰ الْمَفْعُولِ.

فَإِذَا قِيلَ: ذِكْرُ اللهِ بِالْمَعْنَىٰ الثَّانِي، كَانَ مَا يُذْكَرُ بِهِ؛ مِثْلَ قَوْلِ الْعَبْدِ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ».

وَإِذَا قِيلَ بِالْمَعْنَىٰ الْأَوَّلِ كَانَ مَا يَذْكُرُهُ هُوَ، وَهُوَ كَلَامُهُ، وَهَـٰذا هُوَ الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ [طه:١٢٤]؛ لأَنَّهُ قَالَ قَبْلَ ذَلِكَ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه]، وَهُدَاهُ هُوَ: مَا أَنْزَلَهُ مِنَ الذِّكْرِ، وَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾[طه].

وَالْمَقْصُودُ: أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الذِّكْرَ هُوَ كَلَامُهُ الْمُنَزَّلُ، أَوْ هُوَ ذِكْرُ الْعَبْدِ لَهُ، فَسَوَاءٌ قِيلَ: (ذِكْرِي) كِتَابِي، أَوْ كَلَامِي، أَوْ هُدَايَ.. أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ؛ فَإِنَ الْمُسَمَّىٰ وَاحِدًا.

وَإِنْ كَانَ مَقْصُودُ السَّائِلِ مَعْرِفَةَ مَا فِي الِاسْمِ مِنَ الصِّفَةِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ فَلَا بُدَّ مِنْ قَدْرٍ زَائِدٍ عَلَىٰ تَعْيِينِ الْمُسَمَّىٰ؛ مِثْلُ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ: ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر:٢٣]، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ اللهُ؛ لَكِنَّ مُرَادَهُ: مَا مَعْنَىٰ كَوْنِهِ قُدُّوسًا سَلَامًا مُؤْمِنًا؟، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

إِذَا عُرِفَ هـٰذا، فَالسَّلَفُ كَثِيرًا مَا يُعَبِّرُونَ عَنِ الْمُسَمَّىٰ بِعِبَارَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ عَيْنِهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الصِّفَةِ مَا لَيْسَ فِي الِاسْمِ الْآخَرِ؛ كَمَنْ يَقُولُ: (أَحْمَدُ هُوَ: الْحَاشِرُ، وَالْمَاحِي، وَالْعَاقِبُ). وَ(الْقُدُّوسُ: هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)؛ أَيْ: أَنَّ الْمُسَمَّىٰ وَاحِدٌ، لَا أَنَّ هـٰذه الصِّفَةَ هِيَ هـٰذه الصِّفَةُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هـٰذا لَيْسَ اخْتِلَافَ تَضَادٍّ كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ النَّاسِ؛ مِثَالُ ذَلِكَ: تَفْسِيرُهُمْ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ «الْقُرْآنُ»؛ أَيْ: اتِّبَاعُهُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَرَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ -مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ-: «**هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ**».

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ «الإِسْلَامُ»؛ لِقَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ: «**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا: صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، وَفِي السُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَىٰ الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، وَدَاعٍ يَدْعُو عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ**»، قَالَ: «**فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللهِ،**

وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ، وَالدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ».

فَهٰذانِ الْقَوْلَانِ مُتَّفِقَانِ؛ لِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ اتِّبَاعُ «الْقُرْآنِ»؛ وَلَكِنْ كُلٌّ مِنْهُمَا نَبَّهَ عَلَىٰ وَصْفٍ غَيْرِ الْوَصْفِ الْآخَرِ، كَمَا أَنَّ لَفْظَ (الصِّرَاطِ) يُشْعِرُ بِوَصْفٍ ثَالِثٍ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ «السُّنَّةُ وَالْجَمَاعَةُ».

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ «طَرِيقُ الْعُبُودِيَّةِ».

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: هُوَ «طَاعَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ»، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ أَشَارُوا إِلَىٰ ذَاتٍ وَاحِدَةٍ؛ لَكِنْ وَصَفَهَا كُلٌّ مِنْهُمْ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهَا.

الصِّنْفُ الثَّانِي: أَنْ يَذْكُرَ كُلٌّ مِنْهُمْ مِنَ الِاسْمِ الْعَامِّ بَعْضَ أَنْوَاعِهِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّمْثِيلِ، وَتَنْبِيهِ الْمُسْتَمِعِ عَلَىٰ النَّوْعِ، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْحَدِّ الْمُطَابِقِ لِلْمَحْدُودِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ.

مِثْلُ سَائِلٍ أَعْجَمِيٍّ سَأَلَ عَنْ مُسَمَّىٰ لَفْظِ «الْخُبْزِ» فَأُرِيَ رَغِيفًا، وَقِيلَ لَهُ: هٰذا. فَالْإِشَارَةُ إِلَىٰ نَوْعِ هٰذَا، لَا إِلَىٰ هٰذا الرَّغِيفِ وَحْدَهُ.

مِثَالُ ذَلِكَ: مَا نُقِلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢].

فَمَعْلُومٌ أَنَّ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ يَتَنَاوَلُ الْمُضَيِّعَ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُنْتَهِكَ لِلْمُحَرَّمَاتِ، وَالْمُقْتَصِدُ يَتَنَاوَلُ فَاعِلَ الْوَاجِبَاتِ وَتَارِكَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالسَّابِقُ يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ سَبَقَ فَتَقَرَّبَ بِالْحَسَنَاتِ مَعَ الْوَاجِبَاتِ.

فَالْمُقْتَصِدُونَ هُمْ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة].

ثُمَّ إِنَّ كُلًّا مِنْهُمْ يَذْكُرُ هٰذا فِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ.

كَقَوْلِ الْقَائِلِ: «السَّابِقُ»: الَّذِي يُصَلِّي فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ، وَ«الْمُقْتَصِدُ»: الَّذِي يُصَلِّي فِي أَثْنَائِهِ، وَ«الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ»: الَّذِي يُؤَخِّرُ الْعَصْرَ إِلَىٰ الاصْفِرَارِ.

أو يَقُولُ: السَّابِقُ وَالْمُقْتَصِدُ قَدْ ذَكَرَهُمْ فِي آخِرِ «سُورَةِ الْبَقَرَةِ»، فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْمُحْسِنَ بِالصَّدَقَةِ، وَالظَّالِمَ بِأَكْلِ الرِّبَا، وَالْعَادِلَ بِالْبَيْعِ، وَالنَّاسُ فِي الْأَمْوَالِ إِمَّا مُحْسِنٌ، وَإِمَّا عَادِلٌ، وَإِمَّا ظَالِمٌ؛ فَـ«السَّابِقُ» الْمُحْسِنُ بِأَدَاءِ الْمُسْتَحَبَّاتِ مَعَ الْوَاجِبَاتِ وَ«الظَّالِمُ» آكِلُ الرِّبَا، أَوْ

مَانِعُ الزَّكَاةِ، وَ«الْمُقْتَصِدُ» الَّذِي يُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَلَا يَأْكُلُ الرِّبَا، وَأَمْثَالَ هَـٰذِه الأَقَاوِيل.

فَكُلُّ قَوْلٍ: فِيهِ ذِكْرُ نَوْعٍ دَاخِلٌ فِي الآيَةِ، إِنَّمَا ذُكِرَ لِتَعْرِيفِ الْمُسْتَمِعِ بِتَنَاوُلِ الْآيَةِ لَهُ، وَتَنْبِيهِهِ بِهِ عَلَىٰ نَظِيرِه، فَإِنَّ التَّعْرِيفَ بِالْمِثَالِ قَدْ يُسَهِّلُ أَكْثَرَ مِنَ التَّعْرِيفِ بِالْحَدِّ الْمُطابِقِ.

وَالْعَقْلُ السَّلِيمُ يَتَفَطَّنُ لِلنَّوْعِ؛ كَمَا يَتَفَطَّنُ إِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَىٰ رَغِيفٍ، فَقِيلَ لَهُ: هَـٰذا هُوَ الْخُبْزُ.

وَقَدْ يَجِيءُ كَثِيرًا مِنْ هَـٰذا الْبَابِ قَوْلُهُمْ: هَـٰذه الآيَةُ نَزَلَتْ فِي كَذَا، لَاسِيَّمَا إِنْ كَانَ الْمَذْكُورُ شَخْصًا؛ كَأَسْبَابِ النُّزُولِ الْمَذْكُورَةِ فِي التَّفْسِيرِ؛ كَقَوْلِهِمْ:

إِنَّ «آيَةَ الظِّهَارِ» نَزَلَتْ فِي امْرَأَةِ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ.

وَإِنَّ «آيَةَ اللِّعَانِ» نَزَلَتْ فِي عُوَيْمَرْ العَجْلَانِي، أَوْ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ.

وَإِنَّ «آيَةَ الْكَلَالَةِ» نَزَلَتْ فِي جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ.

وَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة:٤٩]، نَزَلَتْ فِي «بَنِي قُرَيْظَةَ» وَ«النَّضِيرِ».

وَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ ﴾ [الأنفال:١٦]، نَزَلَتْ فِي «بَدْرٍ».

وَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ [المائدة:١٠٦] نَزَلَتْ فِي قَضِيَّةِ تَمِيمٍ الدَّارِي وَعَدِيٍّ بْنِ بَدَّاءٍ.

وَقَوْلُ أَبِي أَيُّوبَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، نَزَلَتْ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ... الْحَدِيثَ.

وَنَظَائِرُ هَـٰذا كَثِيرٌ مِمَّا يَذْكُرُونَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ، أَوْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، أَوْ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَالَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمْ يَقْصِدُوا أَنَّ حُكْمَ الْآيَةِ مُخْتَصٌّ بِأُولَئِكَ الأَعْيَانِ دُونَ غَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّ هَـٰذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ.

وَالنَّاسُ وَإِنْ تَنَازَعُوا فِي اللَّفْظِ الْعَامِّ الْوَارِدِ عَلَىٰ سَبَبٍ، هَلْ يَخْتَصُّ بِسَبَبِهِ أَمْ لَا؟ فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ: إِنَّ عُمُومَاتِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَخْتَصُّ بِالشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ، وَإِنَّمَا غَايَةُ مَا يُقَالُ: إِنَّهَا تَخْتَصُّ بِنَوْعِ ذَلِكَ الشَّخْصِ؛ فَتَعُمُّ مَا يُشْبِهُهُ، وَلَا يَكُونُ الْعُمُومُ فِيهَا

بِحَسَبِ اللَّفْظِ.

وَالآيَةُ الَّتِي لَهَا سَبَبٌ مُعَيَّنٌ؛ إنْ كَانَتْ «أَمْـرًا» أَوْ «نَهْيًـا» فَهِـيَ مُتَنَاوِلَـةٌ لِـذَلِكَ الشَّـخْصِ وَلِغَيْرِهِ مِمَّنْ كَانَ بِمَنْزِلَتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ «خَبَرًا» بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ فَهِيَ مُتَنَاوِلَةٌ لِذَلِكَ الشَّخْصِ وَلِمَنْ كَانَ بِمَنْزِلَتِهِ.

وَمَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ تُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِ الْآيَةِ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ يُورِثُ الْعِلْـمَ بِالْمُسَـبَّبِ؛ وَلِهـٰذا كَانَ أَصَحُّ قَوْلَيِ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ إذَا لَمْ يُعْرَفْ مَا نَوَاهُ الْحَالِفُ: رُجِعَ إلَىٰ سَبَبِ يَمِينِهِ وَمَـا هَيَّجَهَا وَأَثَارَهَا.

وَقَوْلُهُمْ: «نَزَلَتْ هـٰذه الآيَةُ فِي كَذَا» يُرَادُ بِهِ تَارَةً أَنَّهُ سَبَبُ النُّزُولِ، وَيُرَادُ بِهِ تَارَةً أَنَّ هـٰذَا دَاخِلٌ فِي الْآيَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ السَّبَبُ؛ كَمَا تَقُولُ: (عَنَىٰ بِهـٰذه الآيَةِ كَذَا).

وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي قَوْلِ الصَّاحِبِ: «نَزَلَتْ هـٰذِهِ الْآيَةُ فِي كَذَا»، وَهَلْ يَجْـرِي مَجْـرَىٰ «الْمُسْنَدِ» -كَمَا لَوْ ذُكِرَ السَّبَبُ الَّذِي أُنْزِلَتْ لأَجْلِهِ-؟، أَوْ يَجْرِي مَجْرَىٰ التَّفْسِيرِ مِنْـهُ الَّـذِي لَيْسَ بِـ«مُسْنَدٍ»؟

فَالْبُخَارِيُّ يُدْخِلُهُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَغَيْرُهُ لَا يُدْخِلُهُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَأَكْثَرُ «الْمَسَـانِيدِ» عَلَـىٰ هـٰذا الاصْطِلَاحِ كَـ«مُسْنَدِ أَحْمَدَ» وَغَيْرِهِ؛ بِخِلَافِ مَا إذَا ذَكَرَ سَبَبًا نَزَلَتْ عَقِبَهُ، فَـإِنَّهُمْ كُلَّهُـمْ يُدْخِلُونَ مِثْلَ هـٰذا فِي «الْمُسْنَدِ».

وَإِذَا عُرِفَ هَـٰذَا؛ فَقَوْلُ أَحَدِهِمْ: «نَزَلَتْ فِي كَذَا»، لَا يُنَافِي قَوْلَ الْآخَرِ: «نَزَلَتْ فِي كَـذَا» إذَا كَانَ اللَّفْظُ يَتَنَاوَلُهُمَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمِثَالِ.

وَإِذَا ذَكَرَ أَحَدُهُمْ لَهَا سَبَبًا نَزَلَتْ لأَجْلِهِ وَذَكَرَ الآخَرُ سَبَبًا؛ فَقَدْ يُمْكِنُ صِدْقُهُمَا بِأَنْ تَكُونَ نَزَلَتْ عَقِبَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ، أَوْ تَكُونَ نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ؛ مَرَّةً لِهـٰذا السَّبَبِ وَمَرَّةً لِهـٰذا السَّبَبِ.

وَهَـٰذَانِ الصِّنْفَانِ اللَّذَانِ ذَكَرْنَاهُمَا فِي تَنَوُّعِ التَّفْسِيرِ:

تَارَةً لِتَنَوُّعِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

وَتَارَةً لِذِكْرِ بَعْضِ أَنْوَاعِ الْمُسَمَّىٰ وَأَقْسَامِهِ؛ كَالتَّمْثِيلَاتِ -هُمَا الْغَالِبُ فِي تَفْسِـيرِ سَـلَفِ الأُمَّةِ الَّذِي يُظَنُّ أَنَّهُ مُخْتَلِفٌ.

وَمِنَ التَّنَازُعِ الْمَوْجُودِ عَنْهُمْ مَا يَكُونُ اللَّفْظُ فِيهِ مُحْتَمِلًا لِلأَمْرَيْنِ:

إمَّا لِكَوْنِهِ مُشْتَرَكًا فِي اللُّغَةِ؛ كَلَفْظِ (قَسْوَرَة) الَّذِي يُرَادُ بِهِ الرَّامِي وَيُرَادُ بِهِ الأَسَدُ. وَلَفْـظِ

(عَسْعَسَ) الَّذِي يُرَادُ بِهِ إِقْبَالُ اللَّيْلِ وَإِدْبَارُهُ.

وَإِمَّا لِكَوْنِهِ مُتَوَاطِئًا فِي الأَصْلِ؛ لَكِنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَحَدُ النَّوْعَيْنِ، أَوْ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ؛ كَالضَّمَائِرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [النجم]، وَكَلَفْظِ: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [الفجر]، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فَمِثْلُ هٰذا قَدْ يُرَادَ بِهِ كُلُّ الْمَعَانِي الَّتِي قَالَهَا السَّلَفُ، وَقَدْ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ.

فَالْأَوَّلُ إِمَّا لِكَوْنِ الآيَةِ نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ، فَأُرِيدَ بِهَا هٰذا تَارَةً وَهٰذا تَارَةً، وَإِمَّا لِكَوْنِ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ مَعْنَيَاهُ؛ إِذْ قَدْ جَوَّزَ ذَلِكَ أَكْثَرُ فُقَهَاءِ: الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنْبَلِيَّةُ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ، وَإِمَّا لِكَوْنِ اللَّفْظِ مُتَوَاطِئًا فَيَكُونُ عَامًّا، إِذَا لَمْ يَكُنْ لِتَخْصِيصِهِ مُوجِبٌ. فَهٰذا النَّوْعُ إِذَا صَحَّ فِيهِ الْقَوْلَانِ كَانَ مِنَ الصِّنْفِ الثَّانِي.

وَمِنَ الْأَقْوَالِ الْمَوْجُودَةِ عَنْهُمْ -وَيَجْعَلُهَا بَعْضُ النَّاسِ اخْتِلَافًا-: أَنْ يُعَبِّرُوا عَنِ الْمَعَانِي بِأَلْفَاظٍ مُتَقَارِبَةٍ لَا مُتَرَادِفَةٍ، فَإِنَّ التَّرَادُفَ فِي اللُّغَةِ قَلِيلٌ، وَأَمَّا فِي أَلْفَاظِ «الْقُرْآنِ» فَإِمَّا نَادِرٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ، وَقَلَّ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ لَفْظٍ وَاحِدٍ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي جَمِيعَ مَعْنَاهُ؛ بَلْ يَكُونُ فِيهِ تَقْرِيبٌ لِمَعْنَاهُ، وَهٰذا مِنْ أَسْبَابِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.

فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الطور]، إِنَّ «الْمَوْرَ» هُوَ الْحَرَكَةُ كَانَ تَقْرِيبًا، إِذِ الْمَوْرُ حَرَكَةٌ خَفِيفَةٌ سَرِيعَةٌ.

وَكَذَلِكَ إِذَا قَالَ: «الْوَحْيُ» الإِعْلَامُ، أَوْ قِيلَ: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [النحل:١٢٣]: أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ، أَوْ قِيلَ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء:٤]؛ أَيْ: أَعْلَمْنَا، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

فَهٰذا كُلُّهُ تَقْرِيبٌ لَا تَحْقِيقٌ، فَإِنَّ «الْوَحْيَ» هُوَ إِعْلَامٌ سَرِيعٌ خَفِيٌّ، وَالْقَضَاءُ إِلَيْهِمْ أَخَصُّ مِنَ الْإِعْلَامِ فَإِنَّ فِيهِ إِنْزَالًا إِلَيْهِمْ وَإِيحَاءً إِلَيْهِم.

وَالْعَرَبُ تُضَمِّنُ الْفِعْلَ مَعْنَىٰ الْفِعْلِ، وَتُعَدِّيهِ تَعْدِيَتَهُ.

وَمِنْ هُنَا غَلِطَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْحُرُوفِ تَقُومُ مَقَامَ بَعْضٍ؛ كَمَا يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ [ص:٢٤]، أَيْ: مَعَ نِعَاجِهِ، وَ: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:٥٢، الصف:١٤] أَيْ: مَعَ اللهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَالتَّحْقِيقُ مَا قَالَهُ نُحَاةُ الْبَصْرَةِ مِنَ التَّضْمِينِ؛ فَسُؤَالُ النَّعْجَةِ يَتَضَمَّنُ جَمْعَهَا وَضَمَّهَا إِلَىٰ نِعَاجِهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء:٧٣]، ضُمِّنَ مَعْنَىٰ (يُزِيغُونَك وَيَصُدُّونَك).

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ [الأنبياء:٧٧]، ضُمِّنَ مَعْنَىٰ (نَجَّيْنَاهُ وَخَلَّصْنَاهُ). وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ [الإنسان:٦]، ضُمِّنَ (يُرْوَىٰ بِهَا)، وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ.

وَمَنْ قَالَ: ﴿لَا رَيْبَ﴾ [البقرة:٢]: لَا شَكَّ. فَهَٰذا تَقْرِيبٌ، وَإِلَّا فَالرَّيْبُ فِيهِ اضْطِرَابٌ وَحَرَكَةٌ؛ كَمَا قَالَ: «دَعْ مَا يَرِيبُك إِلَىٰ مَا لَا يَرِيبُك»، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ: مَرَّ بِظَبْيٍ حَاقِفٍ. فَقَالَ: «لَا يَرِيبُهُ أَحَدٌ»؛ فَكَمَا أَنَّ «الْيَقِينَ» ضُمِّنَ السُّكُونَ وَالطُّمَأْنِينَةَ، فَـ«الرَّيْبُ» ضِدُّهُ ضُمِّنَ الِاضْطِرَابَ وَالْحَرَكَةَ.

وَلَفْظُ «الشَّكِّ» وَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ هَٰذا الْمَعْنَىٰ؛ لَكِنَّ لَفْظَهُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:٢]: هَٰذا الْقُرْآنُ، فَهَٰذا تَقْرِيبٌ؛ لِأَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا فَالْإِشَارَةُ بِجِهَةِ الْحُضُورِ غَيْرُ الإِشَارَةِ بِجِهَةِ الْبُعْدِ وَالْغَيْبَةِ، وَلَفْظُ «الْكِتَابِ» يَتَضَمَّنُ مِنْ كَوْنِهِ مَكْتُوبًا مَضْمُومًا مَا لَا يَتَضَمَّنُهُ لَفْظُ «الْقُرْآنِ» مِنْ كَوْنِهِ مَقْرُوءًا مُظْهَرًا بَادِيًا، فَهَٰذه الْفُرُوقُ مَوْجُودَةٌ فِي «الْقُرْآنِ».

فَإِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ: ﴿أَن تُبْسَلَ ﴾ [الأنعام:٧٠]؛ أَيْ: تُحْبَسَ، وَقَالَ الآخَرُ: تُرْتَهَنَ، وَنَحْوُ ذَلِكَ؛ لَمْ يَكُنْ مِنْ اخْتِلَافِ التَّضَادِّ، وَإِنْ كَانَ الْمَحْبُوسُ قَدْ يَكُونُ مُرْتَهَنًا، وَقَدْ لَا يَكُونُ؛ إِذْ هَٰذَا تَقْرِيبٌ لِلْمَعْنَىٰ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَجَمْعُ عِبَارَاتِ السَّلَفِ فِي مِثْلِ هَٰذا نَافِعٌ جِدًّا؛ لِأَنَّ مَجْمُوعَ عِبَارَاتِهِمْ أَدَلُّ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ مِنْ عِبَارَةٍ أَوْ عِبَارَتَيْنِ.

وَمَعَ هَٰذا فَلَا بُدَّ مِنْ اخْتِلَافٍ مُحَقَّقٍ بَيْنَهُمْ؛ كَمَا يُوجَدُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْأَحْكَامِ.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ عَامَّةَ مَا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ عُمُومُ النَّاسِ مِنَ الِاخْتِلَافِ مَعْلُومٌ؛ بَلْ مُتَوَاتِرٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ أَو الْخَاصَّةِ؛ كَمَا فِي عَدَدِ الصَّلَوَاتِ وَمَقَادِيرِ رُكُوعِهَا وَمَوَاقِيتِهَا، وَفَرَائِضِ الزَّكَاةِ وَنُصُبِهَا، وَتَعْيِينِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَالطَّوَافِ وَالْوُقُوفِ وَرَمْيِ الْجِمَارِ وَالْمَوَاقِيتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ثُمَّ إِنَّ اخْتِلَافَ الصَّحَابَةِ فِي «الْجَدِّ وَالْإِخْوَةِ» وَفِي «الْمُشَرَّكَةِ»، وَنَحْوِ ذَلِكَ لَا يُوجِبُ رَيْبًا فِي جُمْهُورِ مَسَائِلِ الْفَرَائِضِ؛ بَلْ ممَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عَامَّةُ النَّاسِ -وَهُوَ عَمُودُ النَّسَبِ مِنَ

الْآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ، وَالْكَلَالَةِ مِنَ الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ، وَمِنْ نِسَائِهِم كَالأَزْوَاجِ- فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِي الْفَرَائِضِ ثَلَاثَ آيَاتٍ مُفَصَّلَةٍ؛ ذَكَرَ فِي الأُولَىٰ الأُصُولَ وَالْفُرُوعَ، وَذَكَرَ فِي الثَّانِيَةِ الْحَاشِيَةَ الَّتِي تَرِثُ بِالْفَرْضِ كَالزَّوْجَيْنِ وَوَلَدِ الْأُمِّ، وَفِي الثَّالِثَةِ الْحَاشِيَةَ الْوَارِثَةَ بِالتَّعْصِيبِ، وَهُمُ الإِخْوَةُ لأَبَوَيْنِ أَوْ لِأَبٍ. وَاجْتِمَاعُ الْجَدِّ وَالإِخْوَةِ نَادِرٌ؛ وَلِهَـٰذا لَمْ يَقَعْ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَالِاخْتِلَافُ قَدْ يَكُونُ لِخَفَاءِ الدَّلِيلِ وَالذُّهُولِ عَنْهُ، وَقَدْ يَكُونُ لِعَدَمِ سَمَاعِهِ، وَقَدْ يَكُونُ لِلْغَلَطِ فِي فَهْمِ النَّصِّ، وَقَدْ يَكُونُ لِاعْتِقَادِ مُعَارِضٍ رَاجِحٍ.

فَالْمَقْصُودُ هُنَا: التَّعْرِيفُ بِمُجْمَلِ الْأَمْرِ دُونَ تَفَاصِيلِهِ.

فَصْلٌ فِي نَوْعَيْ الاخْتِلافِ فِي التَّفْسِيرِ الْمُسْتَنَدِ إِلَى النَّقْلِ، وَإِلَى طَرِيقِ الاسْتِدْلالِ

الِاخْتِلَافُ فِي التَّفْسِيرِ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

- مِنْهُ مَا مُسْتَنَدُهُ النَّقْلُ فَقَطْ.
- وَمِنْهُ مَا يُعْلَمُ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

إِذِ الْعِلْمُ:

- إِمَّا نَقْلٌ مُصَدَّقٌ.
- وَإِمَّا اسْتِدْلَالٌ مُحَقَّقٌ.

وَالْمَنْقُولُ:

- إِمَّا عَنِ الْمَعْصُومِ.
- وَإِمَّا عَنْ غَيْرِ الْمَعْصُومِ.

وَالْمَقْصُودُ بِأَنَّ جِنْسَ الْمَنْقُولِ سَوَاءٌ كَانَ عَنِ الْمَعْصُومِ أَوْ غَيْرِ الْمَعْصُومِ -وَهَـٰذا هُوَ النَّوْعُ الأَوَّلُ- فَمِنْهُ مَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ الصَّحِيحِ مِنْهُ وَالضَّعِيفِ، وَمِنْهُ مَا لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ فِيهِ.

وَهَـٰذا الْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ الْمَنْقُولِ -وَهُوَ مَا لَا طَرِيقَ لَنَا إِلَىٰ الْجَزْمِ بِالصِّدْقِ مِنْهُ-؛ عَامَّتُهُ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَالْكَلَامُ فِيهِ مِنْ فُضُولِ الْكَلَامِ.

وَأَمَّا مَا يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالىٰ نَصَبَ عَلَىٰ الْحَقِّ فِيهِ دَلِيلًا.

فَمِثَالُ مَا لَا يُفِيدُ وَلَا دَلِيلَ عَلَىٰ الصَّحِيحِ مِنْهُ: اخْتِلَافُهُمْ فِي لَوْنِ «كَلْبِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ»، وَفِي الْبَعْضِ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ قَتِيلُ مُوسَىٰ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَفِي مِقْدَارِ سَفِينَةِ نُوحٍ وَمَا كَانَ خَشَبُهَا، وَفِي اسْمِ الْغُلَامِ الَّذِي قَتَلَهُ الْخِضْرُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَهٰذِه الْأُمُورُ طَرِيقُ الْعِلْمِ بِهَا النَّقْلُ، فَمَا كَانَ مِنْ هٰذا مَنْقُولًا نَقْلًا صَحِيحًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ كَاسْمِ صَاحِبِ مُوسَىٰ أَنَّهُ الْخِضْرُ، فَهٰذا مَعْلُومٌ، وَمَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ بَلْ كَانَ مِمَّا يُؤْخَذُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ -كَالْمَنْقُولِ عَنْ كَعْبٍ، وَوَهْبٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ يَأْخُذُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ- فَهٰذا لَا يَجُوزُ تَصْدِيقُهُ وَلَا تَكْذِيبُهُ إِلَّا بِحُجَّةٍ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، فَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوهُ، وَإِمَّا أَنْ يُحَدِّثُوكُمْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوهُ**».

وَكَذَلِكَ مَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ -وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ أَخَذَهُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ-؛ فَمَتَىٰ اخْتَلَفَ التَّابِعُونَ لَمْ يَكُنْ بَعْضُ أَقْوَالِهِمْ حُجَّةً عَلَىٰ بَعْضٍ.

وَمَا نُقِلَ فِي ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ نَقْلًا صَحِيحًا فَالنَّفْسُ إِلَيْهِ أَسْكَنُ مِمَّا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ؛ لِأَنَّ احْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، أَوْ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ مِنْهُ أَقْوَىٰ، وَلِأَنَّ نَقْلَ الصَّحَابَةِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَقَلُّ مِنْ نَقْلِ التَّابِعِينَ، وَمَعَ جَزْمِ الصَّاحِبِ بِمَا يَقُولُهُ؛ كَيْفَ يُقَالُ: إِنَّهُ أَخَذَهُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَدْ نُهُوا عَنْ تَصْدِيقِهِمْ؟!

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ مِثْلَ هٰذا الاخْتِلَافِ الَّذِي لَا يُعْلَمُ صَحِيحُهُ وَلَا تُفِيدُ حِكَايَةُ الْأَقْوَالِ فِيهِ؛ هُوَ كَالْمَعْرِفَةِ لِمَا يُرْوَىٰ مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي لَا دَلِيلَ عَلَىٰ صِحَّتِهِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ الَّذِي يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ «الصَّحِيحِ» مِنْهُ فَهٰذا مَوْجُودٌ فِيمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، فَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي: «التَّفْسِيرِ» وَ«الْحَدِيثِ» وَ«الْمَغَازِي» أُمُورٌ مَنْقُولَةٌ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ-، وَالنَّقْلُ الصَّحِيحُ يَدْفَعُ ذَلِكَ؛ بَلْ هٰذا مَوْجُودٌ فِيمَا مُسْتَنَدُهُ النَّقْلُ، وَفِيمَا قَدْ يُعْرَفُ بِأُمُورٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ النَّقْلِ.

فَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْمَنْقُولَاتِ الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي الدِّينِ قَدْ نَصَبَ اللهُ الْأَدِلَّةَ عَلَىٰ بَيَانِ مَا فِيهَا مِنْ «صَحِيحٍ» وَغَيْرِهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَنْقُولَ فِي «التَّفْسِيرِ» أَكْثَرُهُ كَالْمَنْقُولِ فِي «الْمَغَازِي» وَ«الْمَلَاحِمِ»، وَلِهٰذا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد: (ثَلَاثَةُ أُمُورٍ لَيْسَ لَهَا إِسْنَادٌ: التَّفْسِيرُ وَالْمَلَاحِمُ وَالْمَغَازِي.) وَيُرْوَىٰ:

(لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ)؛ أَيْ: إِسْنَادٌ؛ لأَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهَا «الْمَرَاسِيلُ»، مِثْلُ مَا يَذْكُرُهُ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَالشَّعْبِيُّ، وَالزُّهْرِيُّ، وَمُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ، وَابْنُ إِسْحَاقَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ كَيَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ الأَمَوِيِّ، وَالْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، وَالْوَاقِدِيِّ، وَنَحْوِهِمْ فِي الْمَغَازِي.

فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْمَغَازِي «أَهْلُ الْمَدِينَةِ»، ثُمَّ «أَهْلُ الشَّامِ»، ثُمَّ «أَهْلُ الْعِرَاقِ».

فَـ«أَهْلُ الْمَدِينَةِ» أَعْلَمُ بِهَا؛ لأَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ، وَ«أَهْلُ الشَّامِ» كَانُوا أَهْلَ غَزْوٍ وَجِهَادٍ، فَكَانَ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِالْجِهَادِ وَالسِّيَرِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ، وَلِهَٰذا عَظَّمَ النَّاسُ كِتَابَ أَبِي إِسْحَاقَ الفَزَارِيِّ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي ذَلِكَ، وَجَعَلُوا الأَوْزَاعِيَّ أَعْلَمَ بِهَٰذا الْبَابِ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الأَمْصَارِ.

وَأَمَّا «التَّفْسِيرُ» فَإِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِهِ «أَهْلُ مَكَّةَ»؛ لأَنَّهُمْ أَصْحَابُ ابْنِ عَبَّاسٍ كَـ: مُجَاهِدٍ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَعِكْرِمَةَ مَوْلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ كَـ: طَاوُسٍ، وَأَبِي الشَّعْثَاءِ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَأَمْثَالِهِمْ.

وَكَذَلِكَ «أَهْلُ الْكُوفَةِ» مِنْ أَصْحَابِ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا تَمَيَّزُوا بِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ.

وَعُلَمَاءُ «أَهْلِ الْمَدِينَةِ» فِي «التَّفْسِيرُ» مِثْلُ: زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ الَّذِي أَخَذَ عَنْهُ مَالِكٌ التَّفْسِيرَ، وَأَخَذَهُ عَنْهُ أَيْضًا ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَعَنْهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ.

و«الْمَرَاسِيلُ» إِذَا تَعَدَّدَتْ طُرُقُهَا وَخَلَتْ عَنِ الْمُوَاطَأَةِ قَصْدًا أَوِ اتِّفَاقًا بِغَيْرِ قَصْدٍ؛ كَانَتْ صَحِيحَةً قَطْعًا.

فَإِنَّ النَّقْلَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ صِدْقًا مُطَابِقًا لِلْخَبَرِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَذِبًا تَعَمَّدَ صَاحِبُهُ الْكَذِبَ أَوْ أَخْطَأَ فِيهِ؛ فَمَتَىٰ سَلِمَ مِنَ الْكَذِبِ الْعَمْدِ وَالْخَطَأِ كَانَ صِدْقًا بِلَا رَيْبٍ.

فَإِذَا كَانَ الْحَدِيثُ جَاءَ مِنْ جِهَتَيْنِ، أَوْ جِهَاتٍ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الْمُخْبِرِينَ لَمْ يَتَوَاطَأُوا عَلَىٰ اخْتِلَاقِهِ وَعُلِمَ أَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ لَا تَقَعُ الْمُوَافَقَةُ فِيهِ اتِّفَاقًا بِلَا قَصْدٍ عُلِمَ أَنَّهُ صَحِيحٌ.

مِثْلُ شَخْصٍ يُحَدِّثُ عَنْ وَاقِعَةٍ جَرَتْ، وَيَذْكُرُ تَفَاصِيلَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَيَأْتِي شَخْصٌ آخَرُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوَاطِئْ الأَوَّلَ فَيَذْكُرُ مِثْلَ مَا ذَكَرَهُ الأَوَّلُ مِنْ تَفَاصِيلِ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ؛ فَيُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ تِلْكَ الْوَاقِعَةَ حَقٌّ فِي الْجُمْلَةِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا كَذَبَ بِهَا عَمْدًا أَوْ أَخْطَأَ، لَمْ يَتَّفِقْ فِي الْعَادَةِ أَنْ يَأْتِيَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِتِلْكَ التَّفَاصِيلِ الَّتِي تَمْنَعُ الْعَادَةُ

اتِّفَاقَ الِاثْنَيْنِ عَلَيْهَا بِلَا مُوَاطَأَةٍ مِنْ أَحَدِهِمَا لِصَاحِبِهِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَتَّفِقُ أَنْ يَنْظِمَ بَيْتًا وَيَنْظِمُ الآخَرُ مِثْلَهُ، أَوْ يَكْذِبَ كِذْبَةً وَيَكْذِبَ الآخَرُ مِثْلَهَا، أَمَّا إِذَا أَنْشَأَ قَصِيدَةً طَوِيلَةً ذَاتَ فُنُونٍ عَلَىٰ قَافِيَةٍ وَرَوِيٍّ، فَلَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِأَنَّ غَيْرَهُ يُنْشِئُ مِثْلَهَا لَفْظًا وَمَعْنًىٰ، مَعَ الطُّولِ الْمُفْرِطِ؛ بَلْ يُعْلَمُ بِالْعَادَةِ أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنْهُ، وَكَذَلِكَ إِذَا حَدَّثَ حَدِيثًا طَوِيلًا فِيهِ فُنُونٌ، وَحَدَّثَ آخَرُ بِمِثْلِهِ، فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ وَاطَأَهُ عَلَيْهِ، أَوْ أَخَذَهُ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ الْحَدِيثُ صِدْقًا.

وَبِهَـٰذه الطَّرِيقِ يُعْلَمُ صِدْقُ عَامَّةِ مَا تَتَعَدَّدُ جِهَاتُهُ الْمُخْتَلِفَةُ عَلَىٰ هَـٰذا الْوَجْهِ مِنَ الْمَنْقُولَاتِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا كَافِيًا؛ إِمَّا لِإِرْسَالِهِ وَإِمَّا لِضَعْفِ نَاقِلِهِ.

لَكِنَّ مِثْلَ هَـٰذا لَا تُضْبَطُ بِهِ الأَلْفَاظُ وَالدَّقَائِقُ الَّتِي لَا تُعْلَمُ بِهَـٰذه الطَّرِيقِ؛ بَلْ يَحْتَاجُ ذَلِكَ إِلَىٰ طَرِيقٍ يَثْبُتُ بِهَا مِثْلُ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَالدَّقَائِقِ؛ وَلِهَـٰذا ثَبَتَتْ «غَزْوَةُ بَدْرٍ» بِالتَّوَاتُرِ وَأَنَّهَا قَبْلَ «أُحُدٍ»؛ بَلْ يُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّ: حَمْزَةَ، وَعَلِيًّا، وَأَبَا عُبَيْدَةَ بَرَزُوا إِلَىٰ: عُتْبَةَ، وَشَيْبَةَ، وَالْوَلِيدِ، وَأَنَّ عَلِيًّا قَتَلَ الْوَلِيدَ، وَأَنَّ حَمْزَةَ قَتَلَ قِرْنَهُ، ثُمَّ يُشَكُّ فِي قِرْنِهِ هَلْ هُوَ عُتْبَةُ أَمْ شَيْبَةُ؟

وَهَـٰذا الأَصْلُ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ، فَإِنَّهُ أَصْلٌ نَافِعٌ فِي الْجَزْمِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَنْقُولَاتِ فِي: «الْحَدِيثِ»، وَ«التَّفْسِيرِ»، وَ«الْمَغَازِي»، وَمَا يُنْقَلُ مِنْ أَقْوَالِ النَّاسِ وَأَفْعَالِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَلِهَـٰذا إِذَا رُوِيَ الْحَدِيثُ الَّذِي يَتَأَتَّى فِيهِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَجْهَيْنِ -مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ أَحَدَهُمَا لَمْ يَأْخُذْهُ عَنِ الآخَرِ- جُزِمَ بِأَنَّهُ حَقٌّ، لَاسِيَّمَا إِذَا عُلِمَ أَنَّ نَقَلَتَهُ لَيْسُوا مِمَّنْ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ، وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَىٰ أَحَدِهِمْ النِّسْيَانُ وَالْغَلَطُ؛ فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ الصَّحَابَةَ؛ كَـ: ابْنِ مَسْعُودٍ، وأُبَيّ بْنِ كَعْبٍ، وَابْنِ عُمَرَ، وَجَابِرٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ = عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَضْلًا عَمَّنْ هُوَ فَوْقَهُمْ؛ كَمَا يَعْلَمُ الرَّجُلُ مِنْ حَالِ مَنْ جَرَّبَهُ وَخَبَرَهُ خِبْرَةً بَاطِنَةً طَوِيلَةً؛ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ يَسْرِقُ أَمْوَالَ النَّاسِ، وَيَقْطَعُ الطَّرِيقَ، وَيَشْهَدُ بِالزُّورِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ «التَّابِعُونَ» بِالْمَدِينَةِ، وَمَكَّةَ، وَالشَّامِ، وَالْبَصْرَةِ، فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ مِثْلَ: أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ، وَالْأَعْرَجِ، وَسُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَأَمْثَالِهِمْ؛ عَلِمَ قَطْعًا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِمَّنْ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ فِي الْحَدِيثِ؛ فَضْلًا عَمَّنْ هُوَ فَوْقَهُمْ مِثْلَ: مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، أَوِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، أَوْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَوْ عَبِيدَةَ السَّلْمَانِيِّ، أَوْ عَلْقَمَةَ، أَوْ الْأَسْوَدِ، أَوْ نَحْوِهِمْ .

وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَىٰ الْوَاحِدِ مِنَ الْغَلَطِ؛ فَإِنَّ الْغَلَطَ وَالنِّسْيَانَ كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ، وَمِنَ

الْحُفَّاظِ مَنْ قَدْ عَرَفَ النَّاسُ بُعْدَهُ عَنْ ذَلِكَ جِدًّا؛ كَمَا عَرَفُوا حَالَ: الشَّعْبِيِّ، وَالزُّهْرِيِّ، وَعُرْوَةَ، وَقَتَادَةَ، وَالثَّوْرِيِّ، وَأَمْثَالِهِمْ، لَاسِيَّمَا الزُّهْرِيَّ فِي زَمَانِهِ، وَالثَّوْرِيَّ فِي زَمَانِهِ.

فَإِنَّهُ قَدْ يَقُولُ الْقَائِلُ: إِنَّ ابْنَ شِهَابٍ الزُّهْرِيَّ لَا يُعْرَفُ لَهُ غَلَطٌ؛ مَعَ كَثْرَةِ حَدِيثِهِ وَسَعَةِ حِفْظِهِ.

والْمَقْصُودُ: أَنَّ الْحَدِيثَ الطَّوِيلَ إِذَا رُوِيَ مَثَلًا مِنْ وَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةٍ؛ امْتَنَعَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ غَلَطًا، كَمَا امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ كَذِبًا؛ فَإِنَّ الْغَلَطَ لَا يَكُونُ فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَإِنَّمَا يَكُونُ فِي بَعْضِهَا، فَإِذَا رَوَىٰ هـٰذا قِصَّةً طَوِيلَةً مُتَنَوِّعَةً، وَرَوَاهَا الْآخَرُ مِثْلَمَا رَوَاهَا الأَوَّلُ مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةٍ؛ امْتَنَعَ الْغَلَطُ فِي جَمِيعِهَا، كَمَا امْتَنَعَ الْكَذِبُ فِي جَمِيعِهَا مِنْ غَيْرِ مُوَاطَأَةٍ.

وَلِهـٰذا إِنَّمَا يَقَعُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ غَلَطٌ فِي بَعْضِ مَا جَرَىٰ فِي الْقِصَّةِ؛ مِثْلُ حَدِيثِ اشْتِرَاءِ النَّبِيِّ ﷺ الْبَعِيرَ مِنْ جَابِرٍ؛ فَإِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ طُرُقَهُ عَلِمَ قَطْعًا أَنَّ الْحَدِيثَ صَحِيحٌ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ الثَّمَنِ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ فِي: «صَحِيحِهِ».

فَإِنَّ جُمْهُورَ مَا فِي «الْبُخَارِيِّ» وَ«مُسْلِمٍ» مِمَّا يُقْطَعُ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهُ؛ لأَنَّ غَالِبَهُ مِنْ هـٰذا النَّحْوِ؛ وَلأَنَّهُ قَدْ تَلَقَّاهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ، وَالأُمَّةُ لَا تَجْتَمِعُ عَلَىٰ خطَإٍ؛ فَلَوْ كَانَ الْحَدِيثُ كَذِبًا فِي نَفْسِ الأَمْرِ؛ وَالْأُمَّةُ مُصَدِّقَةٌ لَهُ قَابِلَةٌ لَهُ ،لَكَانُوا قَدْ أَجْمَعُوا عَلَىٰ تَصْدِيقِ مَا هُوَ فِي نَفْسِ الأَمْرِ كَذِبٌ، وَهـٰذا إِجْمَاعٌ عَلَىٰ الخَطَإِ، وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ، وَإِنْ كُنَّا نَحْنُ بِدُونِ الإِجْمَاعِ نُجَوِّزُ الْخَطَأَ أَوْ الْكَذِبَ عَلَىٰ الْخَبَرِ؛ فَهُوَ كَتَجْوِيزِنَا قَبْلَ أَنْ نَعْلَمَ الْإِجْمَاعَ عَلَىٰ الْعِلْمِ الَّذِي ثَبَتَ بِـ«ظَاهِرٍ» أَوْ «قِيَاسٍ ظَنِّيٍّ» -أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ فِي الْبَاطِنِ؛ بِخِلَافِ مَا اعْتَقَدْنَاهُ-، فَإِذَا أَجْمَعُوا عَلَىٰ الْحُكْمِ جَزَمْنَا بِأَنَّ الْحُكْمَ ثَابِتٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا.

وَلِهـٰذا كَانَ جُمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ عَلَىٰ أَنَّ «خَبَرَ الْوَاحِدِ» إِذَا تَلَقَّتْهُ الْأُمَّةُ بِالْقَبُولِ؛ تَصْدِيقًا لَهُ، أَوْ عَمَلًا بِهِ؛ أَنَّهُ يُوجِبُ الْعِلْمَ، وَهـٰذا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُونَ فِي «أُصُولِ الْفِقْهِ» مِنْ أَصْحَابِ: أَبِي حَنِيفَةَ، وَمَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ، إِلَّا فِرْقَةً قَلِيلَةً مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ اتَّبَعُوا فِي ذَلِكَ طَائِفَةً مِنْ «أَهْلِ الْكَلَامِ» أَنْكَرُوا ذَلِكَ؛ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ «أَهْلِ الْكَلَامِ» أَوْ أَكْثَرَهُمْ يُوَافِقُونَ «الْفُقَهَاءَ» وَ«أَهْلَ الْحَدِيثِ» وَ«السَّلَفَ» عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ «الْأَشْعَرِيَّةِ» كَـ: أَبِي إِسْحَاقَ، وَابْنِ فُورَك.

وَأَمَّا ابْنُ البَاقْلَانِيِّ فَهُوَ الَّذِي أَنْكَرَ ذَلِكَ، وَتَبِعَهُ مِثْلُ: أَبِي الْمَعَالِي، وَأَبِي حَامِدٍ، وَابْنِ عَقِيلٍ، وَابْنِ الْجَوْزِيِّ، وَابْنِ الْخَطِيبِ، وَالْآمِدِيِّ، وَنَحْوِ هَؤُلَاءِ.

وَالأَوَّلُ هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ، وَأَبُو الطَّيِّبِ، وَأَبُو إِسْحَاقَ، وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَئِمَّةِ الشَّافِعِيَّةِ.

وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ، وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ.

وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ شَمْسُ الدِّينِ السَّرَخْسِيُّ، وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ.

وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو يَعْلَىٰ، وَأَبُو الْخَطَّابِ، وَأَبُو الْحَسَنِ بْنُ الزَّاغُونِيِّ، وَأَمْثَالُهُمْ مِنَ الْحَنْبَلِيَّةِ.

وَإِذَا كَانَ الْإِجْمَاعُ عَلَىٰ تَصْدِيقِ الْخَبَرِ مُوجِبًا لِلْقَطْعِ بِهِ، فَالِاعْتِبَارُ فِي ذَلِكَ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ؛ كَمَا أَنَّ الاعْتِبَارَ بِالإِجْمَاعِ عَلَىٰ الأَحْكَامِ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالإِبَاحَةِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ تَعَدُّدَ الطُّرُقِ مَعَ عَدَمِ التَّشَاعُرِ أَوْ الِاتِّفَاقِ فِي الْعَادَةِ؛ يُوجِبُ الْعِلْمَ بِمَضْمُونِ الْمَنْقُولِ؛ لَكِنَّ هَـٰذَا يُنْتَفَعُ بِهِ كَثِيرًا فِي عِلْمِ أَحْوَالِ النَّاقِلِينَ.

وَفِي مِثْلِ هـٰذا يُنْتَفَعُ بِرِوَايَةِ «الْمَجْهُولِ» وَ«السَّيِّءِ الْحِفْظِ»، وَبِـ«الْحَدِيثِ الْمُرْسَلِ» وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ وَلِهـٰذا كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَكْتُبُونَ مِثْلَ هَـٰذِهِ الأَحَادِيثِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يَصْلُحُ لِلشَّوَاهِدِ وَالِاعْتِبَارِ مَا لَا يَصْلُحُ لِغَيْرِهِ.

قَالَ أَحْمَد: (قَدْ أَكْتُبُ حَدِيثَ الرَّجُلِ لأَعْتَبِرَهُ)، وَمَثَّلَ ذَلِكَ بِـ«عَبْدِ اللهِ بْنِ لَهِيعَةَ» قَاضِي «مِصْرَ»؛ فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ حَدِيثًا، وَمِنْ خِيَارِ النَّاسِ؛ لَكِنْ بِسَبَبِ احْتِرَاقِ كُتُبِهِ وَقَعَ فِي حَدِيثِهِ الْمُتَأَخِّرِ غَلَطٌ، فَصَارَ يُعْتَبَرُ بِذَلِكَ وَيُسْتَشْهَدُ بِهِ.

وَكَثِيرًا مَا يَقْتَرِنُ هُوَ وَ«اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ» وَاللَّيْثُ حُجَّةٌ، ثَبْتٌ، إِمَامٌ.

وَكَمَا أَنَّهُمْ يَسْتَشْهِدُونَ وَيَعْتَبِرُونَ بِحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ «سُوءُ حِفْظٍ»، فَإِنَّهُمْ أَيْضًا يُضَعِّفُونَ مِنْ حَدِيثِ الثِّقَةِ الصَّدُوقِ الضَّابِطِ أَشْيَاءَ تَبَيَّنَ لَهُمْ غَلَطُهُ فِيهَا بِأُمُورٍ يَسْتَدِلُّونَ بِهَا وَيُسَمُّونَ هـٰذا عِلْمَ عِلَلِ الْحَدِيثِ؛ وَهُوَ مِنْ أَشْرَفِ عُلُومِهِمْ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ الْحَدِيثُ قَدْ رَوَاهُ ثِقَةٌ ضَابِطٌ وَغَلِطَ فِيهِ، وَغَلَطُهُ فِيهِ عُرِفَ، إِمَّا بِسَبَبٍ ظَاهِرٍ؛ كَمَا عَرَفُوا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَ مَيْمُونَةَ وَهُوَ حَلَالٌ».

وَأَنَّهُ «صَلَّىٰ فِي الْبَيْتِ رَكْعَتَيْنِ»، وَجَعَلُوا رِوَايَةَ ابْنِ عَبَّاسٍ لِتَزَوُّجِهَا حَرَامًا، وَكَوْنَهُ لَمْ يُصَلِّ؛ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ.

وَكَذَلِكَ «أَنَّهُ اعْتَمَرَ أَرْبَعَ عُمَرٍ»، وَعَلِمُوا أَنَّ قَوْلَ ابْنِ عُمَرَ: «إِنَّهُ اعْتَمَرَ فِي رَجَبٍ»؛ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ.

وَعَلِمُوا أَنَّهُ تَمَتَّعَ وَهُوَ «آمِنٌ» فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَأَنَّ قَوْلَ عُثْمَانَ لِعَلِيٍّ: (كُنَّا يَوْمَئِذٍ خَائِفِينَ)؛ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ.

وَأَنَّ مَا وَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِ «الْبُخَارِيِّ»: «أَنَّ النَّارَ لَا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ»؛ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْغَلَطُ.

وَهَٰذَا كَثِيرٌ.

وَالنَّاسُ فِي هَٰذَا الْبَابِ طَرَفَانِ:

طَرَفٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ «الْحَدِيثِ» وَأَهْلِهِ، لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ «الصَّحِيحِ» وَ«الضَّعِيفِ»؛ فَيَشُكُّ فِي صِحَّةِ أَحَادِيثَ، أَوْ فِي الْقَطْعِ بِهَا؛ مَعَ كَوْنِهَا مَعْلُومَةً مَقْطُوعًا بِهَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهِ.

وَطَرَفٌ مِمَّنْ يَدَّعِي اتِّبَاعَ الْحَدِيثِ وَالْعَمَلَ بِهِ، كُلَّمَا وَجَدَ لَفْظًا فِي حَدِيثٍ قَدْ رَوَاهُ «ثِقَةٌ» أَوْ رَأَىٰ حَدِيثًا بِإِسْنَادٍ ظَاهِرُهُ الصِّحَّةُ، يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ مَا جَزَمَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِصِحَّتِهِ، حَتَّىٰ إِذَا عَارَضَ «الصَّحِيحَ» الْمَعْرُوفَ أَخَذَ يَتَكَلَّفُ لَهُ التَّأْوِيلَاتِ الْبَارِدَةَ، أَوْ يَجْعَلُهُ دَلِيلًا فِي مَسَائِلِ الْعِلْمِ؛ مَعَ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ يَعْرِفُونَ أَنَّ مِثْلَ هَٰذَا غَلَطٌ.

وَكَمَا أَنَّ عَلَىٰ الْحَدِيثِ أَدِلَّةً يُعْلَمُ بِهَا أَنَّهُ صِدْقٌ، وَقَدْ يُقْطَعُ بِذَلِكَ؛ فَعَلَيْهِ أَدِلَّةٌ يُعْلَمُ بِهَا أَنَّهُ كَذِبٌ، وَيُقْطَعُ بِذَلِكَ؛ مِثْلُ مَا يُقْطَعُ بِكَذِبِ مَا يَرْوِيهِ الْوَضَّاعُونَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْغُلُوِّ فِي «الْفَضَائِلِ»:

مِثْلَ حَدِيثِ «يَوْمِ عَاشُورَاءَ» وَأَمْثَالِهِ مِمَّا فِيهِ: «أَنَّ مَنْ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ كَذَا وَكَذَا نَبِيًّا».

وَفِي «التَّفْسِيرِ» مِنْ هَٰذِه الْمَوْضُوعَاتِ قِطْعَةٌ كَبِيرَةٌ؛ مِثْلُ الْحَدِيثِ الَّذِي يَرْوِيهِ «الثَّعْلَبِيُّ» وَ«الْوَاحِدِيُّ» و«الزَّمَخْشَرِي» فِي فَضَائِلِ سُوَرِ الْقُرْآنِ سُورَةً سُورَةً؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ

الْعِلْمِ.

والثَّعْلَبِيُّ هُوَ فِي نَفْسِهِ كَانَ فِيهِ خَيْرٌ وَدِينٌ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ حَاطِبَ لَيْلٍ يَنْقُلُ مَا وَجَدَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ مِنْ صَحِيحٍ وَضَعِيفٍ وَمَوْضُوعٍ.

والْوَاحِدِيُّ صَاحِبُهُ كَانَ أَبْصَرَ مِنْهُ بِالْعَرَبِيَّةِ؛ لَكِنْ هُوَ أَبْعَدُ عَنِ السَّلامَةِ وَاتِّبَاعِ السَّلَفِ.

وَالْبَغَوِيُّ تَفْسِيرُهُ مُخْتَصَرٌ عَنِ الثَّعْلَبِيِّ؛ لَكِنَّهُ صَانَ تَفْسِيرَهُ عَنِ الأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ وَالْآرَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ.

وَ«الْمَوْضُوعَاتُ» فِي «كُتُبِ التَّفْسِيرِ» كَثِيرَةٌ.

مِنْهَا الأَحَادِيثُ الْكَثِيرَةُ الصَّرِيحَةُ فِي الْجَهْرِ بِالْبَسْمَلَةِ، وَحَدِيثُ عَلِيٍّ الطَّوِيلِ فِي تَصَدُّقِهِ بِخَاتَمِهِ فِي الصَّلاةِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَمِثْلُ مَا رُوِيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرعد]: أَنَّهُ عَلِيٌّ، ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾ [الحاقة]، أُذُنُكَ يَا عَلِيُّ.

فَصْلٌ فِي النَّوْعِ الثَّانِي: الخِلافُ الوَاقِعُ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ جِهَةِ الاسْتِدْلال

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ مُسْتَنَدَيْ الِاخْتِلَافِ، وَهُوَ مَا يُعْلَمُ بِالاسْتِدْلَالِ لا بِالنَّقْلِ، فَهٰذا أَكْثَرُ مَا فِيهِ الْخَطَأُ مِنْ جِهَتَيْنِ حَدَثَتَا بَعْدَ تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ؛ فَإِنَّ التَّفَاسِيرَ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَلَامُ هَؤُلَاءِ صِرْفًا لَا يَكَادُ يُوجَدُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ؛ مِثْلُ: «تَفْسِيرِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ» وَ«وَكِيعٍ» وَ«عَبْدِ بْنِ حُمَيْد» وَ«عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ دُحَيْمٍ»، وَمِثْلُ: «تَفْسِيرِ الإِمَامِ أَحْمَدَ»، وَ«إِسْحَاقَ بْنِ رَاهُويَه»، وَ«بَقِي بْنِ مَخْلَدٍ»، وَ«أَبِي بَكْرِ بْنِ الْمُنْذِرِ»، وَ«سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ»، وَ«سُنَيدٍ»، وَ«ابْنِ جَرِيرٍ»، وَ«ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ»، وَ«أَبِي سَعِيدٍ الأَشَجِّ»، وَ«أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ مَاجَه»، وَ«ابْنِ مَرْدَوَيْه»:

إِحْدَاهُمَا: قَوْمٌ اعْتَقَدُوا مَعَانِيَ ثُمَّ أَرَادُوا حَمْلَ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ عَلَيْهَا.

والثَّانِيَةُ: قَوْمٌ فَسَّرُوا «الْقُرْآنَ» بِمُجَرَّدِ مَا يُسَوِّغُ أَنْ يُرِيدَهُ بِكَلامِهِ مَنْ كَانَ مِنَ النَّاطِقِينَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَىٰ الْمُتَكَلِّمِ بِالْقُرْآنِ وَالْمُنْزَلِ عَلَيْهِ وَالْمُخَاطَبِ بِهِ.

فَالْأَوَّلُونَ رَاعَوْا الْمَعْنَىٰ الَّذِي رَأَوْهُ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَىٰ مَا تَسْتَحِقُّهُ أَلْفَاظُ «الْقُرْآنِ» مِنَ الدَّلَالَةِ وَالْبَيَانِ.

وَالآخِرُونَ رَاعَوْا مُجَرَّدَ اللَّفْظِ، وَمَا يَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْعَرَبِيُّ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَىٰ مَا يَصْلُحُ لِلْمُتَكَلِّمِ بِهِ وَسِيَاقِ الْكَلَامِ.

ثُمَّ هَؤُلَاءِ كَثِيرًا مَا يَغْلَطُونَ فِي احْتِمَالِ اللَّفْظِ لِذَلِكَ الْمَعْنَىٰ فِي اللُّغَةِ؛ كَمَا يَغْلَطُ فِي ذَلِكَ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ.

كَمَا أَنَّ الأَوَّلِينَ كَثِيرًا مَا يَغْلَطُونَ فِي صِحَّةِ الْمَعْنَىٰ عَلَىٰ الَّذِي فَسَّرُوا بِهِ «الْقُرْآنَ» كَمَا يَغْلَطُ فِي ذَلِكَ الْآخِرُونَ، وَإِنْ كَانَ نَظَرُ الْأَوَّلِينَ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ أَسْبَقَ، وَنَظَرُ الْآخِرِينَ إِلَىٰ اللَّفْظِ أَسْبَقُ.

وَالْأَوَّلُونَ صِنْفَانِ: تَارَةً يَسْلُبُونَ لَفْظَ الْقُرْآنِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ وَأُرِيدَ بِهِ.

وَتَارَةً يَحْمِلُونَهُ عَلَىٰ مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ وَلَمْ يُرَدْ بِهِ.

وَفِي كَلَا الْأَمْرَيْنِ قَدْ يَكُونُ مَا قَصَدُوا نَفْيَهُ أَوْ إِثْبَاتَهُ مِنَ الْمَعْنَىٰ بَاطِلًا؛ فَيَكُونُ خَطَؤُهُمْ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ.

وَقَدْ يَكُونُ حَقًّا فَيَكُونُ خَطَؤُهُمْ فِي الدَّلِيلِ لَا فِي الْمَدْلُولِ.

وَهَـٰذَا كَمَا أَنَّهُ وَقَعَ فِي «تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»، فَإِنَّهُ وَقَعَ أَيْضًا فِي «تَفْسِيرِ الْحَدِيثِ».

فَالَّذِينَ أَخْطَؤُوا فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ مِثْلُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ؛ اعْتَقَدُوا مَذْهَبًا يُخَالِفُ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِ الأُمَّةُ الْوَسَطُ الَّذِينَ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ ضَلَالَةٍ، كَسَلَفِ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا، وَعَمَدُوا إِلَىٰ الْقُرْآنِ فَتَأَوَّلُوهُ عَلَىٰ آرَائِهِمْ؛ تَارَةً يَسْتَدِلُّونَ بِآيَاتٍ عَلَىٰ مَذْهَبِهِمْ وَلَا دِلَالَةَ فِيهَا، وَتَارَةً يَتَأَوَّلُونَ مَا يُخَالِفُ مَذْهَبَهُمْ بِمَا يُحَرِّفُونَ بِهِ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ فِرَقُ الْخَوَارِجِ، وَالرَّوَافِضِ، وَالْجَهْمِيَّةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَالْقَدَرِيَّةِ، وَالْمُرْجِئَةِ، وَغَيْرِهِمْ.

وَهَـٰذَا كَالْمُعْتَزِلَةِ مَثَلًا؛ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ كَلَامًا وَجِدَالًا، وَقَدْ صَنَّفُوا تَفَاسِيرَ عَلَىٰ أُصُولِ مَذْهَبِهِمْ؛ مِثْلَ: «تَفْسِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَيْسَانَ الأَصَمِّ» -شَيْخِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُلَيَّةَ الَّذِي كَانَ يُنَاظِرُ الشَّافِعِيَّ-، وَمِثْلَ: «كِتَابِ أَبِي عَلِيٍّ الْجُبَّائِيِّ»، وَ«التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ» لِلْقَاضِي عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ أَحْمَدَ الهَمْدَانِي، وَ«الجَامِعِ لِعِلْمِ الْقُرْآنِ» لِعَلِيِّ بْنِ عِيسَىٰ الرُّمَّانِيِّ، وَ«الْكَشَّافِ» لِأَبِي الْقَاسِمِ الزَّمَخْشَرِي، فَهَؤُلَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ اعْتَقَدُوا مَذَاهِبَ الْمُعْتَزِلَةِ.

وَأُصُولُ الْمُعْتَزِلَةِ خَمْسَةٌ يُسَمُّونَهَا هُمْ: التَّوْحِيدَ، وَالْعَدْلَ، وَالْمَنْزِلَةَ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَإِنْفَاذَ

الْوَعِيدِ، وَالأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

و«تَوْحِيدُهُمْ» هُوَ تَوْحِيدُ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِي مَضْمُونُهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

قَالُوا: إِنَّ اللهَ لَا يُرَىٰ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، وَإِنَّهُ تَعَالَىٰ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ، وَإِنَّهُ لَا يَقُومُ بِهِ عِلْمٌ، وَلا قُدْرَةٌ، وَلَا حَيَاةٌ، وَلَا سَمْعٌ، وَلَا بَصَرٌ، وَلَا كَلَامٌ، وَلَا مَشِيئَةٌ، وَلَا صِفَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ.

وَأَمَّا «عَدْلُهُمْ» فَمِنْ مَضْمُونِهِ أَنَّ اللهَ لَمْ يَشَأْ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ، وَلَا خَلَقَهَا كُلَّهَا، وَلَا هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا؛ بَلْ عِنْدَهُمْ أَفْعَالُ الْعِبَادِ لَمْ يَخْلُقْهَا اللهُ، لَا خَيْرَهَا وَلَا شَرَّهَا، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا مَا أَمَرَ بِهِ شَرْعًا، وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِغَيْرِ مَشِيئَتِهِ.

وَقَدْ وَافَقَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ مُتَأَخِّرُو الشِّيعَةِ كَالْمُفِيدِ، وَأَبِي جَعْفَرٍ الطُّوسِيِّ، وَأَمْثَالِهِمَا، وَلِأَبِي جَعْفَرٍ هٰذا «تَفْسِيرٌ» عَلَىٰ هٰذِهِ الطَّرِيقَةِ؛ لَكِنْ يَضُمُّ إِلَىٰ ذَلِكَ قَوْلَ الْإِمَامِيَّةِ الِاثْنَيْ عَشَرِيَّةَ؛ فَإِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ بِذَلِكَ، وَلَا مَنْ يُنْكِرُ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ.

وَمِنْ أُصُولِ الْمُعْتَزِلَةِ مَعَ الْخَوَارِجِ «إِنْفَاذُ الْوَعِيدِ فِي الآخِرَةِ»، وَأَنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ شَفَاعَةً، وَلَا يُخْرِجُ مِنْهُمْ أَحَدًا مِنَ النَّارِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ طَوَائِفُ مِنَ الْمُرْجِئَةِ والكَرَّامِيَّة والكُلَّابِيَّة وَأَتْبَاعِهِمْ؛ فَأَحْسَنُوا تَارَةً وَأَسَاؤُوا أُخْرَىٰ؛ حَتَّىٰ صَارُوا فِي طَرَفَيْ نَقِيضٍ؛ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هٰذا الْمَوْضِعِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ اعْتَقَدُوا رَأْيًا ثُمَّ حَمَلُوا أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ لَهُمْ سَلَفٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، لَا فِي رَأْيِهِمْ وَلَا فِي تَفْسِيرِهِمْ.

وَمَا مِنْ تَفْسِيرٍ مِنْ تَفَاسِيرِهِمْ الْبَاطِلَةِ إِلَّا وَبُطْلَانُهُ يَظْهَرُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ؛ وَذَلِكَ مِنْ جِهَتَيْنِ:

تَارَةً مِنَ الْعِلْمِ بِفَسَادِ قَوْلِهِمْ.

وَتَارَةً مِنَ الْعِلْمِ بِفَسَادِ مَا فَسَّرُوا بِهِ الْقُرْآنَ؛ إِمَّا دَلِيلًا عَلَىٰ قَوْلِهِمْ، أَوْ جَوَابًا عَلَىٰ الْمُعَارِضِ لَهُمْ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَكُونُ حَسَنَ الْعِبَارَةِ فَصِيحًا يَدُسُّ الْبِدَعَ فِي كَلَامِهِ -وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ-؛ كَصَاحِبِ «الْكَشَّافِ» وَنَحْوِهِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ يَرُوجُ عَلَىٰ خَلْقٍ كَثِيرٍ مِمَّنْ لَا يَعْتَقِدُ

الْبَاطِلَ مِنْ تَفَاسِيرِهِمْ الْبَاطِلَةِ مَا شَاءَ اللهُ.

وَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ مَنْ يَذْكُرُ فِي كِتَابِهِ وَكَلَامِهِ مِنْ تَفْسِيرِهِمْ مَا يُوَافِقُ أُصُولَهُمْ الَّتِي يَعْلَمُ أَوْ يَعْتَقِدُ فَسَادَهَا، وَلَا يَهْتَدِي لِذَلِكَ.

ثُمَّ إِنَّهُ بِسَبَبِ تَطَرُّفِ هَؤُلَاءِ وَضَلَالِهِمْ دَخَلَتِ الرَّافِضَةُ الإِمَامِيَّةُ، ثُمَّ الْفَلَاسِفَةُ، ثُمَّ الْقَرَامِطَةُ وَغَيْرُهُمْ؛ فِيمَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ، وَتَفَاقَمَ الأَمْرُ فِي الْفَلَاسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ وَالرَّافِضَةِ؛ فَإِنَّهُمْ فَسَّرُوا الْقُرْآنَ بِأَنْوَاعٍ لَا يَقْضِي مِنْهَا الْعَالِمُ عَجَبًا.

فَتَفْسِيرُ الرَّافِضَةِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] وَهُمَا: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

و: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]؛ أَيْ: بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَلِيٍّ فِي الْخِلَافَةِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧]، هِيَ: عَائِشَةُ.

وَ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٢] طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ.

وَ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان:٥٣] عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ.

وَ: ﴿ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾ [الرحمٰن] الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ [يس] فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبإ] عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

وَ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾ [المائدة]، هُوَ عَلِيٌّ، وَيَذْكُرُونَ الْحَدِيثَ الْمَوْضُوعَ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ وَهُوَ تَصَدُّقُهُ بِخَاتَمِهِ فِي الصَّلَاةِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧]، نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ لَمَّا أُصِيبَ بِحَمْزَةِ.

وَمِمَّا يُقَارِبُ هَٰذَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ مَا يَذْكُرُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧﴾ [آل عمران]، أَنَّ الصَّابِرِينَ رَسُولُ اللهِ، وَالصَّادِقِينَ أَبُو بَكْرٍ، وَالْقَانِتِينَ عُمَرُ، وَالْمُنْفِقِينَ عُثْمَانُ، وَالْمُسْتَغْفِرِين عَلِيٌّ.

وَفِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾: أَبُو بَكْرٍ، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: عُمَرُ،

﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾: عُثْمَانُ، ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح:٢٩]: عَلِيٌّ.

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: ﴿وَٱلتِّينِ﴾: أَبُو بَكْرٍ، ﴿وَٱلزَّيۡتُونِ﴾: عُمَرُ، ﴿وَطُورِ سِينِينَ ٢﴾: عُثْمَانُ، ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣﴾ [التين]: عَلِيٌّ.

وَأَمْثَالُ هَـٰذِهِ الْخُرَافَاتِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ:

تَارَةً تَفْسِيرَ اللَّفْظِ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِحَالٍ؛ فَإِنَّ هـٰذه الأَلْفَاظَ الَّتي لا تَدُلُّ عَلَىٰ هَـؤُلَاءِ الأَشْخَاصِ بِحَالٍ.

وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ كُلُّ ذَلِكَ نَعْتٌ لِلَّذِينَ مَعَهُ، وَهِيَ الَّتِي يُسَمِّيهَا النُّحَاةُ خَبَرًا بَعْدَ خَبَرٍ.

والْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهَا كُلَّهَا صِفَاتٌ لِمَوْصُوفٍ وَاحِدٍ وَهُمْ الَّذِينَ مَعَهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنْهَا مُرَادًا بِهِ شَخْصًا وَاحِدًا.

وَتَتَضَمَّنُ تَارَةً جَعْلَ اللَّفْظِ الْمُطْلَقِ الْعَامِّ مُنْحَصِرًا فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ؛ كَقَوْلِهِمْ: إنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أُرِيدَ بِهَا عَلِيٌّ وَحْدَهُ.

وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر:٣٣]، أُرِيدَ بِهَا أَبُو بَكْرٍ وَحْدَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد:١٠]، أُرِيدَ بِهَا أَبُو بَكْرٍ وَحْدَهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَ«تَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةَ» وَأَمْثَالِهِ أَتْبَعُ لِلسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَأَسْلَمُ مِنَ الْبِدْعَةِ مِنْ «تَفْسِيرِ الزَّمَخْشَرِي»، وَلَوْ ذَكَرَ كَلَامَ السَّلَفِ الْمَوْجُودَ فِي التَّفَاسِيرِ الْمَأْثُورَةِ عَنْهُمْ عَلَىٰ وَجْهِهِ لَكَانَ أَحْسَنَ وَأَجْمَلَ؛ فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَنْقُلُ مِنْ «تَفْسِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيّ»، وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ التَّفَاسِيرِ الْمَأْثُورَةِ وَأَعْظَمِهَا قَدْرًا، ثُمَّ إِنَّهُ يَدَعُ مَا نَقَلَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ السَّلَفِ لَا يَحْكِيهِ بِحَالٍ، وَيَذْكُرُ مَا يَزْعُمُ أَنَّهُ قَوْلُ الْمُحَقِّقِينَ، وَإِنَّمَا يَعْنِي بِهِمْ طَائِفَةً مِنْ «أَهْلِ الْكَلامِ» الَّذِينَ قَرَّرُوا أُصُولَهُمْ بِطُرُقٍ مِنْ جِنْسِ مَا قَرَّرَتْ بِهِ الْمُعْتَزِلَةُ أُصُولَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا أَقْرَبَ إِلَىٰ السُّنَّةِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ؛ لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْطَىٰ كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَيُعْرَفَ أَنَّ هَـٰذَا مِنْ جُمْلَةِ التَّفْسِيرِ عَلَىٰ الْمَذْهَبِ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ وَالأَئِمَّةَ إِذَا كَانَ لَهُمْ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَوْلٌ وَجَاءَ قَوْمٌ فَسَّرُوا الآيَةَ بِقَوْلٍ آخَرَ لأَجْلِ مَذْهَبٍ اعْتَقَدُوهُ -وَذَلِكَ الْمَذْهَبُ لَيْسَ مِنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ

وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ- صَارُوا مُشَارِكِينَ لِلْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنْ مِثْلِ هَـٰذَا.

وَفِي الْجُمْلَةِ مَنْ عَدَلَ عَنْ مَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَفْسِيرِهِمْ إِلَىٰ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ؛ كَانَ مُخْطِئًا فِي ذَلِكَ؛ بَلْ مُبْتَدِعًا، وَإِنْ كَانَ مُجْتَهِدًا مَغْفُورًا لَهُ خَطَؤُهُ، فَالْمَقْصُودُ بَيَانُ طُرُقِ الْعِلْمِ وَأَدِلَّتِهِ وَطُرُقِ الصَّوَابِ.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ قَرَأَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَتَابِعُوهُمْ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا أَعْلَمَ بِتَفْسِيرِهِ وَمَعَانِيهِ، كَمَا أَنَّهُمْ أَعْلَمُ بِالْحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، فَمَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ وَفَسَّرَ الْقُرْآنَ بِخِلَافِ تَفْسِيرِهِمْ؛ فَقَدْ أَخْطَأَ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ جَمِيعًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ كُلُّ مَنْ خَالَفَ قَوْلَهُمْ لَهُ شُبْهَةٌ يَذْكُرُهَا؛ إِمَّا عَقْلِيَّةٌ، وَإِمَّا سَمْعِيَّةٌ؛ كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

والْمَقْصُودُ هُنَا: التَّنْبِيهُ عَلَىٰ مَثَارِ الِاخْتِلَافِ فِي التَّفْسِيرِ، وَأَنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِهِ: الْبِدَعَ الْبَاطِلَةَ الَّتِي دَعَتْ أَهْلَهَا إِلَىٰ أَنْ حَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَفَسَّرُوا كَلَامَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ بِغَيْرِ مَا أُرِيدَ بِهِ، وَتَأَوَّلُوهُ عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهِ.

فَمِنْ أُصُولِ الْعِلْمِ بِذَلِكَ:

أَنْ يَعْلَمَ الْإِنْسَانُ الْقَوْلَ الَّذِي خَالَفُوهُ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ.

وَأَنْ يَعْرِفَ أَنَّ تَفْسِيرَ السَّلَفِ يُخَالِفُ تَفْسِيرَهُمْ.

وَأَنْ يَعْرِفَ أَنَّ تَفْسِيرَهُمْ مُحْدَثٌ مُبْتَدَعٌ.

ثُمَّ أَنْ يَعْرِفَ بِالطُّرُقِ الْمُفَصَّلَةِ فَسَادَ تَفْسِيرِهِمْ بِمَا نَصَبَهُ اللهُ مِنَ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ بَيَانِ الْحَقِّ.

وَكَذَلِكَ وَقَعَ مِنَ الَّذِينَ صَنَّفُوا فِي «شَرْحِ الْحَدِيثِ» وَتَفْسِيرِهِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ جِنْسِ مَا وَقَعَ فِيمَا صَنَّفُوهُ مِنْ شَرْحِ الْقُرْآنِ وَتَفْسِيرِهِ.

وَأَمَّا الَّذِينَ يُخْطِئُونَ فِي الدَّلِيلِ لَا فِي الْمَدْلُولِ؛ فَمِثْلُ كَثِيرٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَالْوُعَّاظِ وَالْفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ، يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِمَعَانٍ صَحِيحَةٍ؛ لَكِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا؛ مِثْلُ كَثِيرٍ مِمَّن ذَكَرَهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي فِي «حَقَائِقِ التَّفْسِيرِ»، وَإِنْ كَانَ فِيمَا ذَكَرُوهُ مَا هُوَ مَعَانٍ بَاطِلَةٌ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْخُلُ فِي الْقِسْمِ الأَوَّلِ وَهُوَ الْخَطَأُ فِي الدَّلِيلِ وَالْمَدْلُولِ جَمِيعًا حَيْثُ يَكُونُ الْمَعْنَىٰ الَّذِي قَصَدُوهُ فَاسِدًا.

فَصْلٌ فِي أَحْسَنُ طُرقِ التَّفْسِيرِ

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا أَحْسَنُ طُرُقِ التَّفْسِيرِ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ أَصَحَّ الطُّرُقِ فِي ذَلِكَ:

أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ، فَمَا أُجْمِلَ فِي مَكَانٍ فَإِنَّهُ قَدْ فُسِّرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَا اخْتُصِرَ فِي مَكَانٍ فَقَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

فَإِنْ أَعْيَاك ذَلِكَ فَعَلَيْك بِـ«السُّنَّةِ»؛ فَإِنَّهَا شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ، وَمُوَضِّحَةٌ لَهُ؛ بَلْ قَدْ قَالَ الإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ إدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ: كُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَهُوَ مِمَّا فَهِمَهُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾[النَّحل]؛ وَلِهَٰذا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**» يَعْنِي السُّنَّةَ.

وَالسُّنَّةُ أَيْضًا تَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ كَمَا يَنْزِلُ الْقُرْآنُ؛ لَا أَنَّهَا تُتْلَىٰ كَمَا يُتْلَىٰ.

وَقَدْ اسْتَدَلَّ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الأَئِمَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ بِأَدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ، لَيْسَ هَٰذا مَوْضِعَ ذَلِكَ.

وَالْغَرَضُ: أَنَّك تَطْلُبُ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فَمِنَ السُّنَّةِ؛ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُعَاذٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَىٰ الْيَمَنِ: «**بِمَ تَحْكُمُ؟**»

قَالَ: بِكِتَابِ اللهِ.

قَالَ: «**فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟**»

قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ.

قَالَ: «**فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟**»

قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي.

قَالَ: فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِصَدْرِهِ، وَقَالَ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ**».

وَهَـٰذَا الحَدِيثُ فِي المَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَحِينَئِذٍ إِذَا لَمْ تَجِدْ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ رَجِعْتَ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ؛ فَإِنَّهُمْ أَدْرَىٰ بِذَلِكَ، لِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْقَرائِنِ، وَالأَحْوَالِ الَّتِي اخْتُصُّوا بِهَا؛ وَلِمَا لَهُمْ مِنَ الْفَهْمِ التَّامِّ وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لَاسِيَّمَا عُلَمَاؤُهُمْ وَكُبَرَاؤُهُمْ؛ كَالأَئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ؛ مِثْلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

قَالَ الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: أَنْبَأَنَا جَابِرُ بْنُ نُوحٍ، أَنْبَأَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ عَبْدُ اللهِ -يَعْنِي: ابْنَ مَسْعُودٍ-: وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَا نَزَلَتْ، وَأَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ مَكَانَ أَحَدٍ أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللهِ مِنِّي تَنَالُهُ الْمَطَايَا لأَتَيْتُهُ.

وَقَالَ الأَعْمَشُ أَيْضًا عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ، حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ.

وَمِنْهُمُ الْحَبْرُ الْبَحْرُ: عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَ«تُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ» بِبَرَكَةِ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُ، حَيْثُ قَالَ: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**».

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: أَنْبَأَنَا وَكِيعٌ، قَالَ: أَنْبَأَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمٍ، قَالَ عَبْدُ اللهِ -يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ-: نِعْمَ تُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ.

ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ دَاوُدَ، عَنْ إِسْحَاقَ الأَزْرَقِ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ مُسْلِمِ بْنِ صُبَيْحٍ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّهُ قَالَ: نِعْمَ التُّرْجُمَانُ لِلْقُرْآنِ ابْنُ عَبَّاسٍ.

ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ بُنْدَارٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَوْنٍ، عَنْ الأَعْمَشِ بِهِ كَذَلِكَ.

فَهَـٰذَا «إِسْنَادٌ صَحِيحٌ» إِلَىٰ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّهُ قَالَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ، وَقَدْ مَاتَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ عَلَىٰ الصَّحِيحِ، وَعُمِّرَ بَعْدَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً فَمَا ظَنُّك بِمَا كَسَبَهُ مِنَ الْعُلُومِ بَعْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ؟

وَقَالَ الأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ: اسْتَخْلَفَ عَلِيٌّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ عَلَىٰ الْمَوْسِمِ؛ فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَرَأَ فِي خُطْبَتِهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ: سُورَةَ النُّورِ- فَفَسَّرَهَا تَفْسِيرًا لَوْ سَمِعَتْهُ الرُّومُ وَالتُّرْكُ وَالدَّيْلَمُ لأَسْلَمُوا.

وَلِهٰـذا فإنّ غَالِبَ مَا يَرْوِيهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّـدِّيُّ الْكَبِيـرُ فِـي تَفْسِـيرِهِ عَـنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ: ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ.

وَلَكِنْ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يُنْقَلُ عَنْهُمْ مَا يَحْكُونَهُ مِنْ أَقَاوِيـلِ أَهْـلِ الْكِتَـابِ الَّتِـي أَبَاحَهَـا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِـي إِسْـرَائِيلَ وَلَا حَـرَجَ، وَمَـنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو.

وَلِهٰـذا كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو قَدْ أَصَابَ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ زَامِلَتَيْنِ مِـنْ كُتُـبِ أَهْـلِ الْكِتَـابِ؛ فَكَانَ يُحَدِّثُ مِنْهُمَا، بِمَا فَهِمَهُ مِنْ هٰـذا الْحَدِيثِ مِنَ الْإِذْنِ فِي ذَلِكَ.

وَلَكِنَّ هٰـذِهِ الأَحَادِيثَ الْإِسْرَائِيلِيَّة تُذْكَرُ لِلاسْتِشْهَادِ لَا لِلاعْتِقَاد فَإِنَّهَا عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: مَا عَلِمْنَا صِحَّتَهُ مِمَّا بِأَيْدِينَا مِمَّا يَشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ، فَذَاكَ صَحِيحٌ.

وَالثَّانِي: مَا عَلِمْنَا كَذِبَهُ بِمَا عِنْدَنَا مِمَّا يُخَالِفُهُ.

وَالثَّالِثُ: مَا هُوَ مَسْكُوتٌ عَنْهُ، لَا مِنْ هٰـذا الْقَبِيلِ، وَلَا مِنْ هٰـذا الْقَبِيلِ، فَلَا نُؤْمِنُ بِهِ، وَلَا نُكَذِّبُهُ، وَتَجُوزُ حِكَايَتُهُ لِمَا تَقَدَّمَ، وَغَالِبُ ذَلِكَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ تَعُودُ إِلَىٰ أَمْرٍ دِينِيٍّ.

وَلِهٰـذا يَخْتَلِفُ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي مِثْلِ هٰـذا كَثِيرًا، وَيَـأْتِي عَـنِ الْمُفَسِّـرِينَ خِـلَافٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ؛ كَمَا يَذْكُرُونَ فِي مِثْلِ هٰـذا أَسْمَاءَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَلَـوْنَ كَلْـبِهِمْ، وَعِـدَّتَهُمْ، وَعَصَا مُوسَىٰ مِنْ أَيِّ الشَّجَرِ كَانَتْ، وَأَسْـمَاءَ الطُّيُـورِ الَّتِـي أَحْيَاهَـا اللهُ لِإِبْـرَاهِيمَ، وَتَعْيِـينَ الْبَعْضِ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ الْمَقْتُولُ مِنَ الْبَقَرَةِ، وَنَوْعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي كَلَّمَ اللهُ مِنْهَا مُوسَىٰ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَبْهَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْقُرْآنِ؛ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِي تَعْيِينِهِ تَعُودُ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِينَ فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا فِي دِينِهِمْ، وَلَكِنَّ نَقْلَ الْخِلَافِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ جَائِزٌ.

كَمَا قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف]، فَقَدْ اشْتَمَلَتْ هٰـذه الآيَـةُ الْكَرِيمَةُ عَلَىٰ الأَدَبِ فِي هٰـذا الْمَقَامِ، وَتَعْلِيمِ مَا يَنْبَغِي فِي مِثْلِ هٰـذا؛ فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ أَخْبَرَ عَـنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ، وَضَعَّفَ الْقَوْلَيْنِ الأَوَّلَيْنِ، وَسَكَتَ عَنِ الثَّالِثِ، فَدَلَّ عَلَىٰ صِحَّتِهِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ بَاطِلًا لَرَدَّهُ كَمَا رَدَّهُمَا.

ثُمَّ أَرْشَدَ إِلَىٰ أَنَّ الِاطِّلَاعَ عَلَىٰ عِدَّتِهِمْ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، فَيُقَالُ فِي مِثْلِ هٰـذَا: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ

بِعِدَّتِهِم ﴾؛ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَلِهَـٰذَا قَالَ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾؛ أَيْ: لَا تُجْهِدْ نَفْسَك فِيمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَلَا تَسْأَلْهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا رَجْمَ الْغَيْبِ.

فَهَـٰذا أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِي حِكَايَاتِ الْخِلَافِ: أَنْ تُسْتَوْعَبَ الْأَقْوَالُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ، وَأَنْ يُنَبَّهَ عَلَىٰ الصَّحِيحِ مِنْهَا، وَيُبْطَلَ الْبَاطِلُ، وَتُذْكَرَ فَائِدَةُ الْخِلَافِ وَثَمَرَتُهُ؛ لِئَلَّا يَطُولَ النِّزَاعُ وَالْخِلَافُ فِيمَا لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ، فَيُشْتَغَلَ بِهِ عَنِ الْأَهَمِّ.

فَأَمَّا مَنْ حَكَىٰ خِلَافًا فِي مَسْأَلَةٍ وَلَمْ يَسْتَوْعِبْ أَقْوَالَ النَّاسِ فِيهَا فَهُوَ نَاقِصٌ؛ إِذْ قَدْ يَكُونُ الصَّوَابُ فِي الَّذِي تَرَكَهُ، أَوْ يَحْكِي الْخِلَافَ وَيُطْلِقُهُ وَلَا يُنَبِّهُ عَلَىٰ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَقْوَالِ فَهُوَ نَاقِصٌ أَيْضًا، فَإِنْ صَحَّحَ غَيْرَ الصَّحِيحِ عَامِدًا فَقَدْ تَعَمَّدَ الْكَذِبَ، أَوْ جَاهِلًا فَقَدْ أَخْطَأَ.

كَذَلِكَ مَنْ نَصَبَ الْخِلَافَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ تَحْتَهُ، أَوْ حَكَىٰ أَقْوَالًا مُتَعَدِّدَةً لَفْظًا، وَيَرْجِعُ حَاصِلُهَا إِلَىٰ قَوْلٍ أَوْ قَوْلَيْنِ مَعْنًىٰ؛ فَقَدْ ضَيَّعَ الزَّمَانَ وَتَكَثَّرَ بِمَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ.

فَصْلٌ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِأَقْوَالِ التَّابِعِينَ

إِذَا لَمْ تَجِدْ التَّفْسِيرَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ وَلَا وَجَدْتَهُ عَنْ الصَّحَابَةِ؛ فَقَدْ رَجَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ أَقْوَالِ التَّابِعِينَ؛ كَـمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرٍ، فَإِنَّهُ آيَةٌ فِي التَّفْسِيرِ كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنَا أَبَانُ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ عَرْضَات مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا.

وَبِهِ إِلَىٰ التِّرْمِذِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ مَهْدِيٍّ الْبَصْرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مُعَمَّرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ سَمِعْتُ فِيهَا شَيْئًا.

وَبِهِ إِلَيْهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، قَالَ: قَالَ مُجَاهِدٌ: لَوْ كُنْتُ قَرَأْتُ قِرَاءَةَ ابْنِ مَسْعُودٍ لَمْ أَحْتَجْ أَنْ أَسْأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْقُرْآنِ مِمَّا سَأَلْتُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا طَلْقُ بْنُ غَنَّامٍ، عَنْ عُثْمَانَ الْمَكِّيِّ، عَنْ ابْنِ

أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: رَأَيْتُ مُجَاهِدًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَمَعَهُ أَلْوَاحُهُ؛ فَيَقُولُ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: اكْتُبْ حَتَّىٰ سَأَلَهُ عَنِ التَّفْسِيرِ كُلِّهِ.

وَلِهَـٰذَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ.

وَكَـ: سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةَ مَوْلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَمَسْرُوقِ بْنِ الأَجْدَعِ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَقَتَادَةَ، وَالضَّحَاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ التَّابِعِينَ، وَتَابِعِيهِمْ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ.

فَتُذْكَرُ أَقْوَالُهُمْ فِي الْآيَةِ فَيَقَعُ فِي عِبَارَاتِهِمْ تَبَايُنٌ فِي الْأَلْفَاظِ يَحْسَبُهَا مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ اخْتِلَافًا فَيَحْكِيهَا أَقْوَالًا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُعَبِّرُ عَنِ الشَّيْءِ بِلَازِمِهِ أَوْ نَظِيرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنُصُّ عَلَىٰ الشَّيْءِ بِعَيْنِهِ، وَالْكُلُّ بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ فِي كَثِيرٍ مِنْ الأَمَاكِنِ، فَلْيَتَفَطَّنِ اللَّبِيبُ لِذَلِكَ، وَاللهُ الْهَادِي.

وَقَالَ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ وَغَيْرُهُ: أَقْوَالُ التَّابِعِينَ فِي الْفُرُوعِ لَيْسَتْ حُجَّةً؛ فَكَيْفَ تَكُونُ حُجَّةً فِي التَّفْسِيرِ؟!

يَعْنِي: أَنَّهَا لَا تَكُونُ حُجَّةً عَلَىٰ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ خَالَفَهُمْ، وَهَـٰذَا صَحِيحٌ؛ أَمَّا إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَىٰ الشَّيْءِ فَلَا يُرْتَابُ فِي كَوْنِهِ حُجَّةً، فَإِنْ اخْتَلَفُوا فَلَا يَكُونُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ حُجَّةً عَلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا عَلَىٰ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَيُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ، أَوْ السُّنَّةِ، أَوْ عُمُومِ لُغَةِ الْعَرَبِ، أَوْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ.

فَأَمَّا تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِمُجَرَّدِ «الرَّأْيِ» فَحَرَامٌ.

حَدَّثَنَا مُؤَمَّلٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَىٰ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**».

حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَىٰ الثَّعْلَبِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**».

وَبِهِ إِلَىٰ التِّرْمِذِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي حِبَّانُ بْنُ هِلَالٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُهَيْلٌ أَخُو حِزَامٍ الْقَطْعِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ، عَنْ جُنْدُبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ**».

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَـٰذَا الحَدِيثُ غَرِيبٌ، وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ أَهْلِ الْحَدِيثِ فِي سُهَيْلِ بْنِ أَبِي

حَزْم.

وَهَكَذَا رَوَىٰ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ شَدَّدُوا فِي أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

وَأَمَّا الَّذِي رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَنَّهُمْ فَسَّرُوا الْقُرْآنَ، فَلَيْسَ الظَّنُّ بِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي الْقُرْآنِ وَفَسَّرُوهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَوْ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَا قُلْنَا: (أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)، فَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَقَدْ تَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَسَلَكَ غَيْرَ مَا أُمِرَ بِهِ، فَلَوْ أَنَّهُ أَصَابَ الْمَعْنَىٰ فِي نَفْسِ الأَمْرِ لَكَانَ قَدْ أَخْطَأَ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ كَمَنْ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ عَنْ جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَإِنْ وَافَقَ حُكْمُهُ الصَّوَابَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ؛ لَكِنْ يَكُونُ أَخَفَّ جُرْمًا مِمَّنْ أَخْطَأَ وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَهَكَذَا سَمَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ «الْقَذَفَةَ» كَاذِبِينَ؛ فَقَالَ: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور]، فَالْقَاذِفُ كَاذِبٌ، وَلَوْ كَانَ قَدْ قَذَفَ مَنْ زَنَىٰ فِي نَفْسِ الأَمْرِ؛ لأَنَّهُ أَخْبَرَ بِمَا لَا يَحِلُّ لَهُ الإِخْبَارُ بِهِ وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَلِهَـٰذَا تَحَرَّجَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ عَنْ تَفْسِيرِ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ؛ كَمَا رَوَىٰ شُعْبَةُ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُرَّةَ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي؛ إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لَمْ أَعْلَمْ؟!

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ، عَنِ الْعَوَّامِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس]، فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي؛ إِنْ أَنَا قُلْت فِي كِتَابِ اللهِ مَا لا أَعْلَمُ؟ مُنْقَطِعٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ أَيْضًا: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَرَأَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ: ﴿وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس]، فَقَالَ: هَـٰذه الْفَاكِهَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا هُوَ الأَبُّ؟ ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ نَفْسِهِ فَقَالَ: إِنَّ هَـٰذا لَهُوَ التَّكَلُّفُ يَا عُمَرُ.

وَقَالَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَفِي ظَهْرِ قَمِيصِهِ أَرْبَعُ رِقَاعٍ فَقَرَأَ: ﴿وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ فَقَالَ: وَمَا الأَبُّ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ التَّكَلُّفُ فَمَا عَلَيْكَ أَلَّا تَدْرِيَهِ.

وَهـٰذا كُلُّهُ مَحْمُولٌ عَلَىٰ أَنَّهُمَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إِنَّمَا أَرَادَا اسْتِكْشَافَ مَاهِيَـةَ الْأَبِّ، وَإِلَّا فَكَوْنُـهُ نَبْتًـا مِنَ الأَرْضِ ظَاهِرٌ لَا يُجْهَلُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَـالَىٰ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾﴾ [عبس].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ؛ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ آيَةٍ لَوْ سُئِلَ عَنْهَا بَعْضُكُمْ لَقَالَ فِيهَا، فَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ فِيهَا.

إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَـالَ: سَـأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ: ﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [السجدة:٥]، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا: ﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾﴾ [المعارج]؟، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّمَا سَـأَلْتُك لِتُحَـدِّثَنِي؛ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا يَوْمَانِ ذَكَرَهُمَا اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِهِمَا. فَكَرِهَ أَنْ يَقُولَ فِي كِتَـابِ اللهِ مَا لَا يَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنَ إِبْرَاهِيمَ، قَـالَ: حَـدَّثَنَا ابْـنُ عُلَيَّـةَ، عَـنْ مَهْـدِيِّ بْـنِ مَيْمُونٍ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، قَالَ: جَاءَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ إِلَىٰ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، فَسَأَلَهُ عَنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: أُحَرِّجُ عَلَيْك إِنْ كُنْت مُسْلِمًا لَمَا قُمْتَ عَنِّي، أَوْ قَالَ: أَنْ تُجَالِسَنِي.

وَقَالَ مَالِكٌ: عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ؛ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ تَفْسِيرِ آيَـةٍ مِنَ الْقُرْآنِ؛ قَالَ: إِنَّا لَا نَقُولُ فِي الْقُرْآنِ شَيْئًا.

وَقَالَ اللَّيْثُ: عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ سَـعِيدِ بْـنِ الْمُسَـيَّبِ؛ إِنَّـهُ كَـانَ لَا يَـتَكَلَّمُ إِلَّا فِـي الْمَعْلُومِ مِنَ الْقُرْآنِ.

وَقَالَ شُعْبَةُ: عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ عَنْ آيَـةٍ مِـنَ الْقُـرْآنِ؛ فَقَالَ: لَا تَسْأَلْنِي عَنِ الْقُرْآنِ، وَسَلْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ؛ يَعْنِي عِكْرِمَةَ.

وَقَالَ ابْنُ شَوْذَبٍ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي يَزِيدَ، قَالَ: كُنَّـا نَسْـأَلُ سَـعِيدَ بْـنَ الْمُسَـيَّبِ عَـنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ، فَإِذَا سَأَلْنَاهُ عَنْ تَفْسِيرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ سَـكَتَ؛ كَـأَنْ لَـمْ يَسْمَعْ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي أَحْمَد بْنُ عَبْدَةَ الضَّبِّيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، قَـالَ: حَـدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: لَقَدْ أَدْرَكْتُ فُقَهَاءَ الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهُمْ لَيُعَظِّمُونَ الْقَوْلَ فِي التَّفْسِيرِ؛ مِنْهُمْ

سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَنَافِعٌ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ، عَنِ اللَّيْثِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، قَالَ: مَا سَمِعْتُ أَبِي تَأَوَّلَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ قَطُّ.

وَعَنْ أَيُّوبَ، وَابْنُ عَوْنٍ، وَهِشَامٌ الدَّسْتَوَائِي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، قَالَ: سَأَلْت عُبَيْدَةَ السَّلْمَانِيَّ عَنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: ذَهَبَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ، فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَاتَّقِ اللهَ، وَعَلَيْك بِالسَّدَادِ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا مُعَاذٌ، عَنِ ابْنِ عَوْنٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: إِذَا حَدَّثْتَ عَنِ اللهِ فَقِفْ حَتَّىٰ تَنْظُرَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ.

حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: كَانَ أَصْحَابُهُ يَتَّقُونَ التَّفْسِيرَ وَيَهَابُونَهُ.

وَقَالَ شُعْبَةُ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي السَّفَرِ، قَالَ: قَالَ الشَّعْبِيُّ: وَاللهِ مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا؛ وَلَكِنَّهَا الرِّوَايَةُ عَنِ اللهِ.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، قَالَ: أَنْبَأَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي زَائِدَةَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: اتَّقُوا التَّفْسِيرَ؛ فَإِنَّمَا هُوَ الرِّوَايَةُ عَنِ اللهِ.

فَهَٰذه الآثَارُ الصَّحِيحَةُ، وَمَا شَاكَلَهَا عَنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ مَحْمُولَةٌ عَلَىٰ تَحَرُّجِهِمْ عَنِ الْكَلَامِ فِي التَّفْسِيرِ بِمَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ؛ فَأَمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ لُغَةً وَشَرْعًا فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ؛ وَلِهَٰذا رُوِيَ عَنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَقْوَالٌ فِي التَّفْسِيرِ وَلَا مُنَافَاةَ؛ لأَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيمَا عَلِمُوهُ وَسَكَتُوا عَمَّا جَهِلُوهُ.

وَهَٰذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ، فَإِنَّهُ كَمَا يَجِبُ السُّكُوتُ عَمَّا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ الْقَوْلُ فِيمَا سُئِلَ عَنْهُ مِمَّا يَعْلَمُهُ؛ لقوله تعَالَىٰ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وَلِمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ مِنْ طُرُقٍ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ».

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُؤَمَّلٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ.

وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

«الْقَوَاعِدُ الْحِسَانُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»

لِلشَّيْخِ العَلَّامَةِ:

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرٍ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألَّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد؛ فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النَّفع، تعين قارئها ومتأملها علىٰ فهم كلام الله، والاهتداء به، ومخبرها أجل من وصفها. فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير، ومنهاج الفهم عن الله: ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة.

أرجو الله وأسأله أن يتم ما قصدنا إيراده، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سببًا للوصول إلىٰ العلم النافع، والهدىٰ الكامل.

واعلم أن علم التفسير أجل العلوم علىٰ الإطلاق، وأفضلها وأوجبها وأحبها إلىٰ الله، لأن الله أمر بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، وأثنىٰ علىٰ القائمين بذلك، وجعلهم في أعلىٰ المراتب، ووعدهم أسنىٰ المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن، لم يكن ذلك كثيرًا في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساس السعادة في الدارين، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة، وبه يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدىٰ والخير والرحمة، ويهيئ الله له أطيب الحياة والباقيات الصالحات.

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط علىٰ وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود، لأنه إذا انفتح للعبد الباب، وتمهدت بفهم القاعدة الأسباب، وتدرب منها بعدة أمثلة توضحها وتبين طريقها ومنهجها، لم يحتج إلىٰ زيادة البسط وكثرة التفاصيل، ونسأله تعالىٰ أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنه وكرمه وإحسانه.

القاعدة الأولى:

في كيفية تلقي التفسير

كل من سلك طريقًا وعمل عملًا، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[البقرة:١٨٩].

وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه، ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلها، بل هو أساسها وأصلها.

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم، وأنه في كل وقت وزمان ومكان يرشد إلىٰ أهدىٰ الأمور وأقومها ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩].

فعلىٰ الناس أن يتلقوا معني كلام الله كما تلقاه الصحابة رضي الله عنهم فإنهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات، أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتىٰ يعرفوا ويحققوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزلوها علىٰ الأحوال الواقعة يؤمنون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويطبقونها علىٰ جميع ما يشاهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم، **ويحاسبون أنفسهم**: هل هم قائمون بها أو مخلون بحقوقها ومطلوبها؟ وكيف الطريق إلىٰ الثبات علىٰ الأمور النافعة، وتدارك ما نقص منها؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه، ويتخلقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة موجه إليهم، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه.

فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه، وجَدّ واجتهد في تدبر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته واستنارت بصيرته، واستغنىٰ بهذه الطريقة عن كثرة التكلفات، وعن البحوث الخارجية، وخصوصًا إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانبًا قويًا، وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبي ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه، فإن ذلك أكبر

عون علىٰ هذا المطلب.

ومتىٰ علم العبد أن القرآن فيه بيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزلها علىٰ كل واقع وحادث سابق أو لاحق، ظهر له عظم مواقعها وكثرة فوائدها وثمارها.

ويلحق بهذه القاعدة:

القاعدة الثانية:

العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب

وهذه القاعدة نافعة جدًا، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع الغلط والارتباك الخطير.

وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتىٰ راعيت القاعدة حق الرعاية وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول إنما هو علىٰ سبيل المثال لتوضيح الألفاظ، وليست معاني الألفاظ والآيات مقصورةً عليها. فقولهم: نزلت في كذا وكذا، معناه: أن هذا مما يدخل فيها، ومن جملة ما يراد بها، فإن القرآن ـ كما تقدم ـ إنما نزل لهداية أول الأمة وآخرها، حيث تكون وأنىٰ تكون.

والله تعالىٰ قد أمرنا بالتفكر والتدبر لكتابه، فإذا تدبرنا الألفاظ العامة، وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة، فلأي شيء نخرج بعض هذه المعاني، مع دخول ما هو مثلها ونظيرها فيها؟ ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ إِمَّا خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، وَإِمَّا شَرٌّ تُنْهَىٰ عَنْهُ».

فمتىٰ مر بك خبر عن صفات الله وأسمائه، وعما يستحقه من الكمال، وما يتنزه عنه من النقص. فأثْبِتْ جميع ذلك المعنىٰ الكامل الذي أثبته سبحانه لنفسه ونزّهه عن كل ما نزه نفسه عنه، وكذلك إذا مر بك خبر عن رسله وكتبه واليوم الآخر، وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة، فاجزم جزمًا لا شك فيه أنه حق علىٰ حقيقته، بل هو أعلىٰ أنواع الحق والصدق، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾[النساء] وحديثا.

وإذا أمر بشيء نظرت إلىٰ معناه، وما يدخل فيه وما لا يدخل، وعلمت أن ذلك الأمر

موجه إلىٰ جميع الأمة، وكذلك في النهي.

ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله أصلَ كل الخير والفلاح، والجهل بذلك أصل كل الشر والخسران.

فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون علىٰ معرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله والقيام بها. والقرآن قد جمع أجل المعاني وأنفعها وأصدقها بأوضح الألفاظ وأحسنها قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[الفرقان]، يوضح ذلك ويبينه وينهج طريقته.

القاعدة الثالثة:

الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه

وقد نص علىٰ ذلك أهل الأصول وأهل العربية، واتفق علىٰ اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان، فمثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[الأحزاب] يدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام والإيمان والقنوت والصدق إلىٰ آخرها. وأن بكمال هذه الأوصاف يكمل لصاحبها ما رتب عليها من المغفرة والأجر العظيم، وبنقصانها ينقص، وبعدمها يفقد، وهكذا كل وصف رتب عليه خير وأجر وثواب، وكذلك ما يقابل ذلك كل وصف نَهىٰ الله عنه ورتب عليه وعلىٰ المتصف به عقوبة وشرًا ونقصًا، يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور، وكذلك مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾[المعارج] عام لجنس الإنسان.

فكل إنسان هذا وصفه إلا من استثنىٰ الله بقوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾[المعارج] إلىٰ آخرها كما أن قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾[العصر] دال علىٰ أن كل إنسان عاقبته ومآله إلىٰ الخسار ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[العصر] وأمثال ذلك كثير.

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة: في الأسماء الحسنىٰ، فإن في القرآن منها شيئًا كثيرًا، وهي من أجل علوم القرآن، بل هي المقصد الأول للقرآن.

فمثلًا يخبر الله عن نفسه: أنه الرب الحي القيوم، وأنه الملك والعليم والحكيم، والعزيز والرحيم، والقدوس السلام، والحميد المجيد. فالله هو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يؤله لأجلها وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها له، والفضل كله، والإحسان كله، وأنه لا يُشارِك اللهَ أحد في معنىٰ من معاني [الربوبية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾[الشورىٰ] لا بشر ولا مَلَك، بل هم جميعًا عبيدون مربوبون لربهم خاضعون لجلاله وعظمته.

فلا ينبغي أن يكون أحد منهم ندًا، ولا شريكا لله في عبادته وإلهيته، فبربوبيته سبحانه يربي الجميع من ملائكة وأنبياء وغيرهم خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وإحياء وإماتة، وهم يشكرونه علىٰ ذلك بإخلاص العبادة كلها له وحده، فيؤلهونه ولا يتخذون من دونه وليًا ولا شفيعًا، فالإلهية حق له سبحانه علىٰ عباده بصفة ربوبيته.

وأنه الملك الذي له جميع معاني الملك، وهو الملك الكامل والتصرف النافذ، وأن الخلق كلهم مماليك لله، عبيد تحت أحكام ملكه القدرية والشرعية والجزائية.

وأنه العليم بكل شيء، الذي لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، الذي أحاط علمه بالبواطن والظواهر والخفيات والجليات والواجبات والمستحيلات، والجائزات والأمور السابقة واللاحقة والعالم العلوي، والسفلي، والكليات، والجزئيات. وما يعلم الخلق وما لا يعلمون ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ٢٥٥﴾[البقرة] وأنه الحكيم الذي له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاه وقدره وخلقه، وجميع ما شرعه لا يخرج عن حكمته، لا مخلوق ولا مشروع، وأنه العزيز الذي له جميع معاني العزة علىٰ وجه الكمال التام من كل وجه، عزة القوة وعزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وأن جميع الخلق في غاية الذل ونهاية الفقر، ومنتهىٰ الحاجة والضرورة إلىٰ ربهم، وأنه الرحمن الرحيم الذي له جميع معاني الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، ولم يخل مخلوق من إحسانه وبره طرفة عين تبلغ رحمته حيث يبلغ علمه ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر:٧] وأنه القدوس السلام، المعظم المنزه عن كل عيب وآفة ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له ند من خلقه.

وهكذا بقية الأسماء الحسنىٰ، اعتبرْها بهذه القاعدة الجليلة ينفتح لك باب عظيم من

أبواب معرفة الله، بل أصل معرفة الله تعالىٰ معرفة ما تحتوي عليه أسماؤه الحسنىٰ، وتقتضيه من المعاني العظيمة، بحسب ما يقدر عليه العبد، وإلا فلن يبلغ علم أحد من الخلق ذلك، ولن يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢] يشمل جميع أنواع البر والخير، وتشمل التقوىٰ جميع ما يجب اتقاؤه من أنواع المَخُوفات والمعاصي والمحرمات.

والإثم: اسم جامع لكل ما يؤثم، ويوقع في المعصية.

كما أن العدوان: اسم جامع يدخل فيه جميع أنواع التعدي علىٰ الناس في الدماء والأموال والأعراض، والتعدي علىٰ مجموع الأمة، وعلىٰ الحكومات والتعدي علىٰ حدود الله.

والمعروف في القرآن: اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا، **وعكسه**: المنكر والسوء والفاحشة.

وقد نبه النبي ﷺ أمته إلىٰ هذه القاعدة، وأرشدهم إلىٰ اعتبارها إذ علمهم أن يقولوا في التشهد في الصلاة: «**السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ**» فقال: «**فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ سَلَّمْتُمْ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**»، رواه البخاري، وأمثلتها في القرآن كثيرة جدًا.

القاعدة الرابعة:

إذا وقعت النكرة في سياق النفي، أو النهي، أو الشرط، أو الاستفهام، دلت على العموم

كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾ [النساء:٣٦] فإنه نهىٰ عن الشرك به في النيات، والأقوال والأفعال، وعن الشرك الأكبر، والأصغر والخفي، والجلي. فلا يجعل العبد لله ندًا ومشاركًا في شيء من ذلك.

ونظيرها قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢].

وقوله في وصف يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ﴾ [الانفطار:١٩]، يعم كل

نفس، وأنها لا تملك شيئًا من الأشياء، لأي نفس أخرىٰ، مهما كانت الصلة، لا إيصال شيء من المنافع، ولا دفع شيء من المضار.

وكقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾[يونس:١٠٧]، فكل ضر قدره الله علىٰ العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كائنا من كان كشفه بوجه من الوجوه.

ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية: إنما هو جزء من أجزاء كثيرة داخلة في قضاء الله وقدره.

وقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾[فاطر:٢] وقوله ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النحل:٥٣] يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد، وكل نعمة فيها حصول محبوب، أو دفع مكروه، فإن الله هو المنفرد بذلك وحده.

وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [فاطر:٣]، وإذا دخلت [من] صارت نصًا في العموم كهذه الآية: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الحاقة] وقوله ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٥٩]، ولها أمثلة كثيرة جدًّا.

القاعدة الخامسة:

المقرر أن المفرد المضاف يفيد العموم كما يفيد ذلك اسم الجمع

فكما أن قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾[النساء:٢٣] إلىٰ آخرها يشمل كل أم انتسبت إليها، وإن علت. وكل بنت انتسبت إليك وإن نزلت - إلىٰ آخر المذكورات - فكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[الضحىٰ] فإنها تشمل النعم الدينية والدنيوية، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[الأنعام] فإنها تعم الصلوات كلها، والأنساك كلها، وجميع ما العبد فيه وعليه في حياته ومماته، الجميع من الله فضلًا وإحسانًا، وأنك قد أتيت ما أتيت منه وأوقعته وأخلصته لله وحده، لا شريك له.

وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ﴾[البقرة:١٢٥] **علىٰ أحد القولين**: إنه يشمل جميع مقاماته في مشاعر الحج: اتخذوه معبدًا.

وأصْــرَح مـــن هـــذا قولـــه تعـــالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ ﴾ [النحل:١٢٣]، وهذا شامل لكل ما هو عليه من التوحيد والإخلاص لله تعالىٰ، والقيام بحق العبودية.

وأعـم مـن ذلـك وأشـمل: قولـه تعـالىٰ لمـا ذكـر الأنبيـاء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾[الأنعام:٩٠] فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهـدىٰ، الذي هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدىٰ المستقيم. وهـذه الآية أحد الأدلة علىٰ الأصل المعروف: [أن شرع من قبلنا شـرع لنـا مـا لـم يـرد شـرعنا بخلافه] وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه وكذلك قولـه تعـالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ ﴾[الأنعام:١٥٣] وهذا يعم جميع ما شـرعه لعبـاده، فعـلًا وتركًا، اعتقادًا وانقيادًا، وأضافه إلىٰ نفسه في هذه الآية لكونه هو الذي نصـبه لعبـاده، كمـا أضافه إلىٰ الذين أنعم عليهم في قولـه: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[الفاتحـة:٧] لكـونهم هـم السالكين له. فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ما اتصفوا به من العلوم والأخلاق والأوصاف والأعمال وكـذلك قولـه: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾[الكهف] يدخل في ذلك جميع العبادات الظاهرة والباطنة، العبادات الاعتقاديـة والعملية، كما أن وصف الله لرسوله ﷺ بالعبودية المضافة إلىٰ الله كقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ ﴾[الاسـراء:١] وكقولـه: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا ﴾[البقـرة:٢٣] وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ ﴾[الفرقان:١] تدل علىٰ أنـه وفَّـىٰ جميـع مقامـات العبودية، حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبودية، وقولـه: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ ﴾[الزمر:٣٦] فكلما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله لـه أكمـل وأتم، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه.

وقوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾[القمر].

وقولـه: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾[النحـل] يشـمل جميـع أوامره القدرية الكونية. وهذا في القرآن شيء كثير.

القاعدة السادسة:

في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده

يكاد القرآن أن يكون كله لتقرير التوحيد ونفي ضده، وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الألوهية، وإخلاص العبادة لله وحده، لا شريك له، ويخبر أن جميع الرسل إنما أرسلت تدعوا قومها إلىٰ أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وأن الله تعالىٰ إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه، وأن الكتب والرسل بل الفطر والعقول السليمة كلها اتفقت علىٰ هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها، وأن من لم يَدِنْ بهذا الدين الذي هو إخلاص العبادة والقلب والعمل لله وحده فعمله باطل، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥]، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾[الأنعام] ويدعوا العباد إلىٰ ما تقرر في فطرهم وعقولهم من أن الله المنفرد بالخلق والتدبير والمنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة: هو الذي يستحق العبادة وحده، ولا ينبغي أن يكون شيء منها لغيره، وأن سائر الخلق ليس عندهم أي قدرة علىٰ خلق، ولا نفع، ولا دفع ضر، عن أنفسهم فضلا عن أن يغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئا.

ويدعوهم أيضًا إلىٰ هذا الأصل بما يَتَمَدَّح به، ويُثني علىٰ نفسه الكريمة، من تفرده بصفات العظمة والمجد، والجلال والكمال، وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك: أحق من أُخلصت له الأعمال الظاهرة والباطنة.

ويقرر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده، فلا يحكم غيره شرعًا ولا جزاء: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾[يوسف:٤٠].

وتارة يقرر هذا بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعًا وعقلًا وفطرة، علىٰ جميع العبيد، ويذكر مساوئ الشرك وقبحه، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم أضل من الأنعام سبيلا.

وتارة يدعو إليه بذكر ما رتب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتب علىٰ ضده من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقب المشركين أسوأ العواقب وشرها.

وبالجملة: فكل خير عاجل وآجل، فإنه من ثمرات التوحيد، وكل شر عاجل وآجل، فإنه من ثمرات الشرك والله أعلم.

القاعدة السابعة:

في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد ﷺ

هذا الأصل الكبير: قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ﷺ فأخبر أنه صدق المرسلين، ودعا إلىٰ ما دعوا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء في نبينا محمد ﷺ وما نُزِّهوا عنه من النقائص والعيوب، (فمحمد ﷺ أولاهم وأحقهم بهذا التنزيه، وأن شريعته مهيمنة علىٰ جميع الشرائع، وكتابه مهيمن علىٰ كل الكتب. فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره، وقرر نبوته بأنه أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا جالس أحدًا من أهل العلم بالكتب السابقة، بل لم يَفْجَأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثله ما أَتوا ولا قَدِروا، ولا هو في استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو أن يكون قد تقوَّله علىٰ ربه، أو أن يكون علىٰ الغيب ظنينًا.

وأعاد في القرآن وأبدىٰ في هذا النوع، وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة علىٰ الوجه الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد، ثم يخبر تعالىٰ: أنه ليس له طريق ولا وصول إلىٰ هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالىٰ لما ذكر قصة موسىٰ مطولة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ [القصص:٤٤] ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة قال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[يوسف] فهذه الأمور والإخبارات المفصلة التي يفصلها الرسول ﷺ بما أوحي إليه تفصيلًا، صحح به أكثر الأخبار والحوادث التي كانت في كتب أهل الكتاب محرفة ومشوهة بما أضافوا إليها من خرافات وأساطير، حتىٰ ما يتعلق منها بعيسىٰ وأمه وولادتهما ونشأتهما، وبموسىٰ وولادته ونشأته، كل ذلك وغيره لم يكن يعرفه أهل الكتاب علىٰ حقيقته حتىٰ جاء القرآن، فقص ذلك علىٰ ما وقع وحصل، مما أدهش أهل الكتاب وغيرهم، وأخرس ألسنتهم حتىٰ لم يقدر أحد منهم ممن كان في وقته، ولا ممن كانوا بعد ذلك، أن يكذبوا بشيء منها، فكان ذلك من أكبر الأدلة علىٰ أنه رسول الله حقًا.

وتارة يقرر نبوته بكمال حكمة الله، وتمام قدرته، وأن تأييده لرسوله ونصره علىٰ أعدائه، وتمكينه في الأرض هو مقتضىٰ حكمةٍ ورحمةِ العزيز الحكيم، وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله وفي قدرته. وفي رحمته، بل وفي ربوبيته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر لهذا النبي ﷺ علىٰ الأمم الذين هم أقوىٰ أهل الأرض من آيات رسالته، وأدلة توحيده، كما هو ظاهر للمتأملين.

وتارة يقرر نبوته ورسالته بما جمع له وكمله به من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خلق عال سام فلرسول الله ﷺ منه أعلاه وأكمله.

فمن عظمت صفاته، **وفاقت نعوته جميع الخلق التي أعلاها**: الصدق والأمانة، أليس هذا أكبرَ الأدلة علىٰ أنه رسول رب العالمين، والمصطفىٰ المختار من الخلق أجمعين؟

وتارة يقررها بما هو موجود في كتب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين السابقين، إما باسمه العلم أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أمته وأوصاف دينه.

وتارة يقرر رسالته بما أخبر به من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلة، التي وقعت في زمان مضىٰ علىٰ زمانه، أو وقعت في زمانه والتي لا تزال تقع في كل وقت، فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا كان له ولا لغيره طريق إلىٰ العلم به.

وتارة يقررها بحفظه إياه، وعصمته له من الخلق، مع تكالب الأعداء وضغطهم عليه، وجِدِّهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم، والله يعصمه ويمنعه منهم وينصره عليهم، وما ذاك إلا لأنه رسوله حقا، وأمينه علىٰ وحيه.

وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به وهو القرآن الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[فصلت] ويتحدىٰ أعداءه، ومن كفر به أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة، فعجزوا ونكصوا وباءوا بالخيبة والفشل، وأن هذا القرآن لأكبرُ أدلة رسالته وأجلُّها وأعمُّها.

وتارة يقرر رسالته بما أظهر علىٰ يديه من المعجزات، وما أجرىٰ له من الخوارق والكرامات، الدالِّ كل واحد منها بمفرده -فكيف إذا اجتمعت؟- علىٰ أنه رسول الله ﷺ الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحىٰ.

وتارة يقررها بعظيم شفقته علىٰ الخلق، وحُنوِّه الكامل علىٰ أمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف

رحيم، وأنه لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة ولا برًا وإحسانًا إلىٰ الخلق منه، وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه وقررها بعبارات متنوعة، ومعاني مفصلة وأساليب عجيبة، وأمثلتها تفوق العد والإحصاء. والله أعلم.

القاعدة الثامنة:

طريقة القرآن في تقرير المعاد

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها وهي: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد وحشر العباد.

وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه، وقرره بطرق متنوعة:

منها: إخباره وهو أصدق القائلين عنه وعما يكون فيه من الجزاء الأوفىٰ، مع إكثار الله من ذكره، فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه، كقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ [القيامة].

ومنها: الإخبار بكمال قدرة الله تعالىٰ، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء، فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنها: تذكيره العباد بالنشأة الأولىٰ، وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا، لابد أن يعيدهم كما بدأهم، وأن الإعادة أهون عليه، وأعاد هذا المعنىٰ في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة.

ومنها: إحياؤه الأرضَ الهامدة الميتة بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحي الموتىٰ، وقرر ذلك بقدرته علىٰ ما هو أكبر من ذلك، وهو خلق السماوات والأرض، والمخلوقات العظيمة، فمتىٰ أثبت المنكرون ذلك، ولن يقدروا علىٰ إنكاره، فلأي شيء يستبعدون إحياء الموتىٰ؟ وقرر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به، ولا يحسن أن يترك خلقه سدىٰ مهملين، لا يُؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون. وهذا طريق قرر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من

أيامه وسننه سبحانه في الأمم الماضين والقرون الغابرة. وكيف نجىٰ الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث، ونوَّعَ عليهم العقوبات، وأحل بهم المَثُلات، فهذا جزاء معجل ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده، ليهلك من هلك عن بينة، ويحي من حي عن بينة.

ومن ذلك: ما أرىٰ الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا كما ذكره الله عن صاحب البقرة والألوف من بني إسرائيل، والذي مر علىٰ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها، وقصة إبراهيم الخليل والطيور، وإحياء عيسىٰ بن مريم للأموات وغيرها مما أراه الله عباده في هذه الدار، ليعلموا أنه قوي ذو اقتدار، وأن العباد لابد أن يَرِدوا دار القرار، إما الجنة أو النار.

وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في محال كثيرة. والله أعلم.

القاعدة التاسعة:

في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية

قد أمر الله تعالىٰ بالدعاء إلىٰ سبيله بالتي هي أحسن، أي بأقرب طريق موصل للمقصود، محصل للمطلوب، ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها.

فأكثر ما يدعوهم إلىٰ الخير وينهاهم عن الشر بالوصف الذي من عليهم به وهو الإيمان، فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا واتركوا كذا لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما: من جهة الحث علىٰ القيام بلوازم الإيمان، وشروطه ومكملاته، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلق بكل خلق حميد والتجنب لكل خلق رذيل.

فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي، ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلت علىٰ هذا الأصل الأدلة الكثيرة، من الكتاب والسنة ـ وهذا أحدها ـ حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[البقرة:١٠٤] أو يعلق فعل ذلك علىٰ الإيمان وأنه لا يتم

الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني: أن يدعوهم بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة، التي هي أجل المنن، أي: يا من مَنَّ الله عليهم بالإيمان قوموا بشكر هذه النعمة بفعل كذا وترك كذا:

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطن.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلىٰ شكر نعمة الإيمان، ببيان تفصيل هذا الشكر، وهو الانقياد التام لأمره ونهيه، وتارة يدعوا المؤمنين إلىٰ الخير، وينهاهم عن الشر، بذكر آثار الخير، وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر، وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلىٰ ذلك بذكر نعمه المتنوعة، وآلائه الجزيلة، وإن النعم تقتضي فهم القيام بشكرها، وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلىٰ ذلك بالترغيب والترهيب، ويذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين من الثواب وما للعصاة من العقاب.

وتارة يدعوهم إلىٰ ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنىٰ، وما له من الحق العظيم علىٰ عباده، وأن حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهرًا وباطنًا، ويتعبدوا له وحده، ويدعوه بأسمائه الحسنىٰ وصفاته المقدسة.

فالعبادات كلها شكر لله وتعظيم وتكبير، وإجلال وإكرام، وتودد إليه، وتقرب منه.

وتارة يدعوهم إلىٰ ذلك، لأجل أن يتخذوه وحده وليًا وملجأ، وملاذا ومَعاذا، ومفزعا إليه في الأمور كلها، وينيبوا إليه في كل حال، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليه الخاص تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنيه ويغره، حتىٰ يفوِّته المنافع والمصالح ويوقعه في المهالك وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثهم علىٰ ذلك ويحذرهم من التشبه بأهل الغفلة والإعراض، والأديان المُبَدَّلة، لئلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام. كقوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾[الزمر]، ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[البقرة]، ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾[الأعراف]، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[الحديد] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

القاعدة العاشرة:

في طرق القرآن إلى دعوة الكفار على اختلاف مللهم

يدعوهم إلىٰ الإسلام، والإيمان بمحمد ﷺ بما يصفه من محاسن شرعه ودينه، وما يذكره من براهين رسالة محمد ﷺ ليهتدي من قصد الحق والإنصاف، وتقوم الحجة علىٰ المعاند وهذه أعظم طريق يدعىٰ بها جميع المخالفين لدين الإسلام.

فإن محاسن دين الإسلام ومحاسن النبي ﷺ وآياته وبراهينه فيها كفاية تامة للدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبههم، وما يحتجون به، فإن الحق إذا اتضح علم أن كل ما خالفه فهو باطل وضلال.

ويدعوهم بما يخوفهم من أحداث الأمم وعقوبات الدنيا والآخرة، وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور، والعواقب الخبيثة، وأنها إنما تقوم علىٰ الغفلة والتكذيب لآيات الله الكونية والعلمية بالوقوع تحت سلطان الجهل والتقليد الأعمىٰ للآباء والشيوخ والسادة، ويحذرهم من طاعة هؤلاء الرؤساء، فإنهم رؤساء الشر، ودعاة النار، وأنهم لابد أن تتقطع نفوسهم علىٰ ما عملوه وقدموه حسرات، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول ﷺ ولم يطيعوا السادة والرؤساء، وأن مودتهم وصداقتهم وموالاتهم ستتبدل بغضاء وعداوة.

ويدعوهم أيضًا بنحو ما يدعوا المؤمنين بذكر آلائه ونعمه، وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب علىٰ العباد طاعته، وامتثال أمره واجتناب نهيه.

ويدعوهم أيضًا بشرح ما في أديانهم الباطلة، وما احتوت عليه من القبح، ويقارن بينها وبين دين الإسلام، ليتبين ويتضح ما يجب إيثاره، وما يتعين اختياره، ويدعوهم بالتي هي أحسن. فإذا وصلت بهم الحال إلىٰ العناد والمكابرة الظاهرة توعدهم بالعقوبات الصوارم، وبين للناس طريقتهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلًا وضلالًا أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف، وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد.

ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدىٰ، وأنها رياسات وأغراض نفسية،

وأنهم لما آثروا الباطل علىٰ الحق طبع علىٰ قلوبهم وختم عليها، وسد عليهم طريق الهدىٰ عقوبة لهم علىٰ إعراضهم وتوليهم الشيطان، وإعراضهم عن الرحمن، وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم.

وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة، فتأمل وتدبر القرآن تجدها واضحة جلية، والله أعلم.

القاعدة الحادية عشرة:

مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام

كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه مطابقة، وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني التي لم يعرج في اللفظ علىٰ ذكرها.

وهذه القاعدة: من أجل قواعد التفسير وأنفعها، وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر، وصحة قصد. فإن الذي أنزله للهدىٰ والرحمة هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكن الصدور، وبما تضمنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها، وتتوقف هي عليه.

ولهذا أجمع العلماء علىٰ الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب.

والطريق إلىٰ سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني فإذا فهمتها فهمًا جيدًا، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها. وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرع عنها، وينبني عليها، وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه، حتىٰ يصير لك ملكة جيدة في الغوص علىٰ المعاني الدقيقة. فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف علىٰ الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق، ذلك كله حق ولابد.

فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقًا ونورًا، انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجليلة، والأخلاق السامية، والآداب الكريمة العالية.

ولنمثل لهذا الأصل أمثلة توضحه:

منها: في أسماء الله الحسنىٰ «الرحمن الرحيم» فإنها تدل بلفظها علىٰ وصفه بالرحمة،

وسعة.

فإذا فهمت أن الرحمة التي لا يشبهها رحمة: هي وصفه الثابت، وأنه أوصل رحمته إلىٰ كل مخلوق، ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين: عرفت أن هذا الوصف يدل علىٰ كمال حياته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته، لتوقف الرحمة علىٰ ذلك كله، ثم استدللت بسعة رحمته علىٰ أن شرعه نور ورحمة. ولهذا يعلل تعالىٰ كثيرًا من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه لأنها من مقتضاها وأثرها.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾[النساء:٥٨] فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلىٰ أهلها: استدللت بذلك علىٰ وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها والتفريط والتعدي فيها، وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك.

وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل، استدللت بذلك علىٰ أن كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار، لابد أن يكون عالمًا بما يحكم به: فإن كان حاكمًا عامًا، فلابد أن يحصل من العلم ما يؤهله إلىٰ ذلك، وإن كان حاكمًا ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين، حيث أمر الله أن نبعث حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، فلا بد أن يكون عارفًا بهذا الأمور التي يريد أن يحكم فيها، ويعرف الطريق التي توصله إلىٰ الصواب منها.

وبهذا بعينه نستدل علىٰ وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد، فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة ونهانا عن أمور كثيرة.

ومن المعلوم أن امتثال أمره واجتناب نهيه يتوقف علىٰ معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه، فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمرَ الذي لا يعرفه، أو يتجنب النهي الذي لا يعرفه؟

وكذلك أمره لعباده أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، يتوقف ذلك علىٰ العلم بالمعروف والمنكر، ليأمروا بهذا وينهَوْا عن هذا، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فهو واجب.

فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم علىٰ القيام به، والعلم بضد ذلك متقدم علىٰ

تركه؛ لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصدًا وتقربًا وتعبدًا.

ومن ذلك الأمر بالجهاد، والحث عليه، من لازم ذلك الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به، من تعلم الرمي بكل ما يرمىٰ به، والركوب لكل ما يُركب، وعمل آلاته وصناعاته، مع أن ذلك كله داخل دخول مطابقة في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠] فإنها تتناول كل قوة عقلية وبدنية، وسياسية وصناعية ومالية ونحوها.

ومن ذلك أن الله استشهد بأهل العلم علىٰ توحيده، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته وهذا يدل علىٰ عدالتهم وأنهم حجة من الله تعالىٰ علىٰ من كذب بمنزلة آياته وأدلته.

ومن ذلك سؤال عباد الرحمن ربهم أن يجعلهم للمتقين إماما، يقتضي سؤالهم اللهَ جميع ما تتم به الإمامة في الدين، من علوم ومعارف جليلة وأعمال صالحة وأخلاق فاضلة؛ لأن سؤال العبد لربه شيئا سؤال له ولما لا يتم إلا به، كما إذا سأل العبد اللهَ الجنة، واستعاذ به من النار، فإنه يقتضي سؤاله كل ما يقرب إلىٰ هذه ويبعد من هذه.

ومن ذلك: أنه أمر بالصلاح والإصلاح، وأثنىٰ علىٰ المصلحين، وأخبر أنه لا يُصلح عمل المفسدين، فيُسْتدل بذلك علىٰ أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم، وكل أمر يعين علىٰ ذلك فإنه داخل في أمر الله وترغيبه، وأن كل فساد وضرر وشر، فإنه داخل في نهيه والتحذير عنه، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلىٰ الصلاح والإصلاح، بحسب استطاعة العبد، كما قال شعيب ﷺ: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود:٨٨].

ومن ذلك قوله تعالىٰ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الأحزاب:٤٧]، وقوله: ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾[الأنفال:٦٥] يقتضي الأمر بكل ما لا تتم البشارة إلا به، والأمر بكل ما فيه حث وتحريض علىٰ القتال وما يتوقف علىٰ ذلك، ويتبعه من الاستعداد والتمرن علىٰ أسباب الشجاعة والسعي والقوة المعنوية من التآلف واجتماع الكلمة ونحو ذلك.

ومن ذلك الأمر بتبليغ الأحكام الشرعية، والتذكير بها، وتعليمها، فإن كل أمر يحصل به التبليغ وإيصال الأحكام إلىٰ المكلفين يدخل في ذلك، حتىٰ إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكام الشرعية، وَوُجدت أسبابها، وكانت تخفىٰ عادة علىٰ أكثر الناس، كثبوت الصيام والفطر

والحج وغيره بالأهلة إبلاغها بالأصوات والرمي، وإبلاغها بما هو أبلغ من ذلك، كالبرقيات ونحوها وكذلك يدخل فيه كل ما أعان علىٰ إيصال الصوت إلىٰ السامعين، من الآلات الحادثة، فحدوثها لا يقتضي منعها، فكل أمر ينفع الناس فإن القرآن لا يمنعه، بل يدل عليه لمن أحسن الاستدلال والانتفاع به، وهذا من آيات القرآن وأكبر براهينه، أنه لا يمكن أن يحدث علم صحيح ينقض شيئًا منه، فإنه يرد بما تشهد به العقول جملة وتفصيلًا، أو يرد بما لا تهتدي إليه العقول.

وأما وروده بما تحيله العقول الصحيحة وتمنعه فهذا محال، والحس والتجربة شاهدان بذلك، فإنه مهما توسعت الاختراعات وعظمت الصناعات، وتبحرت المعارف الطبيعية، وظهر للناس فيٰ هذه الأوقات ما كانوا يجهلونه قبل ذلك، فإن القرآن ـ ولله الحمد ـ لا يخبر بإحالته، بل نجد بعض الآيات فيها إجمال أو إشارة تدل عليه.

وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في غير هذا الموضع. والله أعلم وأحكم وبالله التوفيق.

القاعدة الثانية عشرة:

الآيات القرآنية التي يفهم منها قصَّار النظر التعارض

يجب حمل كل نوع منها علىٰ ما يليق ويناسب المقام كل بحسبه.

وهذا في مواضع متعددة من القرآن:

منها: الإخبار في بعض الآيات أن الكفار لا ينطقون، ولا يتكلمون يوم القيامة، وفي بعضها: أنهم ينطقون ويحاجُّون ويعتذرون ويعترفون: فمحمل كلامهم ونطقهم أنهم في أول الأمر يتكلمون ويعتذرون، وقد ينكرون ما هم عليه من الكفر، ويقسمون علىٰ ذلك، ثم إذا ختم علىٰ ألسنتهم وأفواههم، وشهدت عليهم جوارحُهم بما كانوا يكسبون، ورأوا أن الكذب غير مفيد لهم أُخْرِسوا فلم ينطقوا.

وكذلك الإخبار بأن الله تعالىٰ لا يكلمهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، مع أنه أثبت الكلام لهم معه، فالنفي واقع علىٰ الكلام الذي يسرهم، ويجعل لهم نوع اعتبار.

وكذلك النظر والإثبات واقع علىٰ الكلام الواقع بين الله وبينهم علىٰ وجه التوبيخ لهم والتقريع، فالنفي يدل علىٰ أن الله ساخط عليهم، غير راض عنهم، والإثبات يوضح

أحوالهم، ويبين للعباد كمال عدل الله فيهم، إذ هو يضع العقوبة موضعها.

ونظيـر ذلـك أن في بعـض الآيـات أخـبر أنـه: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الـرحمن] وفي بعضـها: أنـه يسـألهم: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾﴾[الشـعراء]، و﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾[القصص] ويسألهم عن أعمالهم كلها.

فالسؤال المنفي: هو سؤال الاستعلام والاستفهام عن الأمور المجهولة، فإنه لا حاجة إلىٰ سؤالهم، مع كمال علم الله، واطلاعه علىٰ ظاهرهم وباطنهم وجليل أمورهم ودقيقها.

والسؤال المُثْبَت: واقع علىٰ تقريرهم بأعمالهم وتـوبيخهم وإظهـارِ أن الله حكـم فيهـا بعدله وحكمته.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات أنه لا أنساب بين الناس يـوم القيامـة، وفي بعضـها: أثبت لهم ذلك، فالمثبت هو الأمر الواقع والنسب الحاصل بـين النـاس؛ كقولـه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾[عبس] إلىٰ آخرها، والمنفي: هو الانتفـاع بهـا، فـإن الكفـار يدعون أن أنسابهم تنفعهم يوم القيامة فأخبر تعالىٰ أنه: ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[الشعراء].

ونظير ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أن النسب نافع يوم القيامة، كما في إلحـاق ذريـة المؤمنين بآبائهم في الـدرجات، وإن لـم يبلغـوا منـزلتهم، وأن الله يجمـع لأهـل الجنـات والدرجات العالية من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، فهذا لما اشـتركوا في الإيمـان وأصل الصلاح زادهم من فضله وكرمه، من غير أن ينقص من أجور السابقين لهم شيئًا.

ومن ذلك: الشفاعة فإنه أثبتها في عدة مواضع، ونفاها في مواضع من القرآن، وقيـدها في بعض المواضع بإذنه ولمن ارتضىٰ من خلقه، فتعين حمل المطلق علىٰ المقيد، وأنها حيث نفيت فهي الشفاعة التي بغير إذنه، ولغير من رضي الله قولـه وعملـه، وحيـث أثبتـت فهـي الشفاعة التي بإذنه لمن رضيه الله وأذن فيه.

ومن ذلك: أن الله أخبر في آيات كثيرة أنه لا يهدي القوم الكافرين والفاسقين والظالمين ونحوها، وفي بعضها: أنه يهديهم ويوفقهم، فتعين حمل المنفيات علىٰ من حقت عليه كلمة الله، لقولـه تعـالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾[يونس] وحمل المثبتات علىٰ من لم تحق عليهم الكلمة.

وإنما حقت كلمة الله بالعذاب والطرد علىٰ من ارتكسوا في حمأة التقليد وغرقوا في بحر الغفلة وأبوا أن يستجيبوا لداعي آيات الله الكونية والعلمية، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾[محمد:١٧]، وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أنه العلي الأعلىٰ، وأنه فوق عباده وعلىٰ عرشه، وفي بعضها: أنه مع العباد أينما كانوا، وأنه مع الصابرين والصادقين والمحسنين ونحوهم، فعُلوُّه تعالىٰ أمر ثابت له، وهو من لوازم ذاته.

ودنوه ومعيته لعباده لأنه أقرب إلىٰ كل أحد من حبل الوريد، فهو علىٰ عرشه عَليٌّ علىٰ خلقه، ومع ذلك فهو معهم في كل أحوالهم، ولا منافاة بين الأمرين؛ لأن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وما يُتوهم بخلاف ذلك فإنه في حق المخلوقين.

وأما تخصيص المعية بالمحسنين ونحوها، فهي معية أخص من المعية العامة، فإنها تتضمن محبتهم وتوفيقهم، وكلاءتهم، وإعانتهم في كل أحوالهم، فحيث وقعت في سياق المدح والثناء فهي من هذا النوع، وحيث وقعت في سياق التحذير والترغيب والترهيب فهي من النوع الأول.

ومن ذلك: النهي في كثير من الآيات عن موالاة الكافرين وعن مودَّتهم والاتصال بهم، وفي بعضها الأمر بالإحسان إلىٰ من له حق علىٰ الإنسان منهم، ومصاحبته بالمعروف، كالوالدين والجار ونحوهم، فهذه الآيات العامات من الطرفين، قد وضحها الله غاية التوضيح في قوله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾[الممتحنة] فالنهي واقع علىٰ التولي والمحبة لأجل الدين، والأمر بالإحسان والبر واقع علىٰ الإحسان لأجل القرابة أو لأجل الجيرة والإنسانية علىٰ وجه لا يُخل بدين الإنسان.

ومن ذلك: أنه أخبر في بعض الآيات أن الله خلق الأرض ثم استوىٰ إلىٰ السماء فسواهن سبع سماوات، وفي بعضها أنه لما أخبر عن خلق السماوات أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاها.

فهذه الآية تفسر المراد، وأن خلق الأرض متقدم علىٰ خلق السماوات، ثم لما خلق الله

السماوات بعد ذلك دحا الأرض، فأودع فيها جميع مصالحها المحتاج إليها سكانها.

ومن ذلك: أنه تارة يخبر أنه بكل شيء عليم، وتارة يخبر بتعلق علمه ببعض أعمال العباد وببعض أحوالهم، وهذا الأخير فيه زيادة معنىٰ، وهو يدل علىٰ المجازاة علىٰ ذلك العمل، سواء كان خيرًا أو شرًا، فيتضمن مع إحاطة علمه الترغيب والترهيب.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد في آيات كثيرة، وفي بعض الآيات الأمر بكف الأيدي، والإخلاد إلىٰ السكون، فهذه حين كان المسلمون ليس لهم قوة، ولا قدرة علىٰ الجهاد باليد، والآيات الأخر حين قووا وصار ذلك عين المصلحة؛ والطريق إلىٰ قمع الأعداء.

ومن ذلك: أنه تارة يضيف الأشياء إلىٰ أسبابها التي وقعت وتقع بها، وتارة يضيفها إلىٰ عموم قدرته، وأن جميع الأشياء واقعة بإرادته ومشيئته، فيفيد مجموع الأمرين إثبات التوحيد، وتفرد الباري بإيقاع الأشياء بقدرته ومشيئته، وإثبات الأسباب والمسبَّبات، والأمر بالمحبوب منها، والنهي عن المكروه، وإباحة مستوىٰ الطرفين فيستفيد المؤمن الجد والاجتهاد في الأخذ بالأسباب النافعة وتدقيق النظر وملاحظة فضل الله في كل أحواله، وألا يتكل علىٰ نفسه في أمر من الأمور، بل يتكل علىٰ الله ويستعين بربه.

وقد يخبر أن ما أصاب العبد من حسنة فمن الله، وما أصاب من سيئة فمن نفسه، ليعرف عباده أن الخير والحسنات والمحاب تقع بمحض فضله وجوده، وإن جرت ببعض الأسباب الواقعة من العباد، فإنه هو الذي أنعم بالأسباب وهو الذي يسرها، وأن السيئات وهي المصائب التي تصيب العبد فإنما أسبابها من نفس العبد، وبتقصيره في حقوق ربه، وتعديه لحدوده، فالله وإن كان هو المقدر لها. فإنه قد أجراها علىٰ العبد بما كسبت يداه، ولهذا أمثلة يطول عدها.

القاعدة الثالثة عشرة:

طريقة القرآن في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة

قد أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومن تأمل الطرق التي نصب الله المحاجَّة بها مع المبطلين علىٰ أيدي رسله رآها من أوضح الحجج وأقواها، وأقومها وأدلها علىٰ إحقاق الحق وإزهاق الباطل، علىٰ وجه لا تشويش فيه ولا إزعاج.

فتأمل محاجة الرسل مع أممهم، وكيف دعَوْهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، من جهة أنه المتفرد بالربوبية، والمتوحد بالنعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع والأبصار، والعقول والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفع النقم، وأن أحدًا من الخلق ليس يقدر علىٰ رفع ولا دفع، ولا ضر ولا نفع، فإنه بمجرد معرفة العبد ذلك واعترافه به لابد أن ينقاد للدين الحق، الذي به تتم النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها.

وكثيرًا ما يحتج علىٰ المشركين في شركهم وعبادتهم لآلهتهم من دون ربهم بإلزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالق لكل شيء، والرازق لكل شيء، فيتعين أن يكون هو المعبود وحده.

فانظر إلىٰ هذا البرهان، وكيف ينتقل الذهن منه بأول وهلة إلىٰ وجوب عبادة من هذا شأنه، ذلك أن آثار ربوبيته تنادي بوجوب الإخلاص له.

ويجادل المبطلين أيضًا بذكر عيب آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغنىٰ عن نفسها فضلًا عن عابديها شيئًا.

ويقيم الأدلة علىٰ أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يستغرب معه مخالفتهم لرسوله الخاتم محمد ﷺ الذي جاء مصدقًا لما سبقه من الرسالات التي مقصدها جميعًا واحد، وهو فك أغلال التقليد عن قلوب بني آدم لينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بالتفكر في آيات ربهم، فيعرفوا بذلك أنه الإله الحق، وأن كل ما اتخذه الناس بوحي شياطين الإنس والجن من آلهة، فلا يخرج شيء منها عن أن يكون أثرًا من آثار هذه الآيات، وأنها لذلك لا تليق بأي وجه لمشاركة ربها وخالقها في الإلهية، ولا ينبغي أن تعطىٰ إلا حقها في المخلوقية والعبودية.

وأن الخالق الذي ليس كمثله شيء هو المستحق لكل أنواع العبادة، وألا يعبد إلا بما أحب وشرع.

وينقض علىٰ رؤساء المشركين ودعاة الباطل دعاويهم الباطلة وتزكيتهم لأنفسهم بالزور، ببيان ما يضاد ذلك من أحوالهم وأوصافهم، ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه، وأن صدقه وحقِّيتَه تدفع بمجردها جميع الشبه المعارضة له فماذا بعد الصدق إلا الكذب: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس:٣٢] وهذا الأصل في القرآن كثير، فإنه يفيد في

الدعوة للحق، ورد كل باطل ينافيه.

ويجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها، وأنه لا يليق أن يجعل للمخلوق العبد الفقير العاجز من كل وجه شيئًا من حقوق الرب الخالق الغني الكامل من جميع الوجوه.

ويتحداهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدىٰ وأحسن من هذا الكتاب وهذه الشريعة، وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين.

ويأمر نبيه بمباهلة من ظهرت مكابرته وعناده فينكصون عنها، لعلمهم أنه رسول الله الصادق الذي لا ينطق عن الهوىٰ وأنهم لو باهلوه لهلكوا.

وفي الجملة لا تجد طريقًا نافعًا فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا وقد رسمه القرآن علىٰ أكمل الوجوه.

القاعدة الرابعة عشرة:

حذف المتعلق المعمول فيه يفيد تعميم المعنى المناسب له

وهذه قاعدة مفيدة جدًا، متىٰ اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة.

وذلك أن الفعل وما هو في معناه متىٰ قيد بشيء تقيد به، فإذا أطلقه الله تعالىٰ، وحذف المتعلق كان القصد من ذلك التعميم، ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيرًا من التصريح بالمتعلقات، وأجمع للمعاني النافعة.

ولذلك أمثلة كثيرة جدًا:

منها: أنه قال في عدة آيات ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾[الأنعام] فيدل ذلك علىٰ أن المراد: لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه وكل ما علمكموه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، ولعلكم تذكرون، فلا تنسون ولا تغفلون، فتكونون دائمًا متيقظين مُرْهفي الحواس تحسون كل ما تمرون به من سنن الله وآياته، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية، ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه من الغفلة والجهل والتقليد، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه من جميع الذنوب والمعاصي، ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه وهو فرد من أفراد هذا المعنىٰ العام.

ولهـذا كـان قولـه تعـالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[البقرة] : يفيد كـل مـا قيـل في حكمـة الصيام، أي لعلكم تتقون المحارم عمومًا، ولعلكم تتقون ما حرم الله علىٰ الصائمين من المفطرات والممنوعات، ومن كل الأحوال والصفات السيئة والخبيثة، ولعلكم تتصفون بصفة التقوىٰ، وتحصلون علىٰ كل ما يقيكم مما تكرهون، وتتخلقون بأخلاقها، وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ مثل قوله: ﴿هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾[البقرة] أي المتقين لكل ما يُتقىٰ من ما يقتل الإنسانية الكريمة من الغفلة والجهل والتقليد الكفر والفسوق والعصيان، المؤدين للفرائض والنوافل التي هي خصال التقوىٰ.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[الأعراف] أي إن الذين كانت التقوىٰ وصفهم، واليقظة والتدبر لسنن الله وآياته حالهم، وترك المحارم شعارهم متىٰ زين لهم الشيطان بعض الذنوب ولبس عليهم الطريق، وحاول تخديرهم بالشبهات أو الشهوات، تذكروا كل أمر يوجب لهم المبادرة إلىٰ المتاب إجلالًا لعظمة الله، وما يقتضيه الإيمان وما توجبه التقوىٰ.

وتذكروا عقابه ونكاله، وتذكروا ما تحدثه الذنوب من العيوب والنقائص وما تسلبه من الكمالات، ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[الأعراف] من أين أُتوا، ومبصرون الوجه الذي فيه التخلص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه، فبادروا بالتوبة النصوح والرجوع إلىٰ صراط الله المستقيم، فعادوا إلىٰ مرتبتهم وعاد الشيطان خاسئًا مدحورًا.

وكذلك ما ذكره علىٰ وجه الإطلاق عن المؤمنين بلفظ «المؤمنين» وبلفظ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البقرة:٦٢] ونحوها، فإنه يدخل فيه جميع ما يجب الإيمان به من الأصول والعقائد والأعمال والأحكام، مع أنه قيد ذلك في بعض الآيات مثل قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة:١٣٦].

وكذلك ما أمر به من الصلاح والإصلاح، وما نهىٰ عنه من الفساد والإفساد مطلقًا، يدخل فيه كل صلاح كما يدخل في النهي كل فساد كذلك.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾[البقرة]، ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾[البقرة:١٩٥]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[يونس:٢٦]، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾[الرحمن]، يدخل في

ذلك كله الإحسان في عبادة الخالق بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإحسان إلىٰ المخلوقين بجميع وجوه الإحسان من قول وفعل وجاه، وعلم ومال وغيرها.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾[التكاثر] فحذف المتكاثَر به ليعم جميع ما يقصد الناس فيه المكاثرة: من الرياسات والأموال والجاه والضيعات والأولاد، وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس فيلهيها ذلك عن طاعة الله.

وكذلك قوله تعالىٰ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾[العصر] أي في خسارة لازمة من جميع الوجوه إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾[النحل] فذكر المسئولين وأطلق المسئول عنه، ليعم كل ما يحتاجه العبد ولا يعلمه.

وكذلك أمره تعالىٰ بالصبر، ومحبته للصابرين، وثناؤه عليهم، وبيان كثرة أجورهم، من غير أن يقيد ذلك بنوع، ليشمل أنواع الصبر الثلاثة، وهي الصبر علىٰ طاعة الله، وعن معصية الله، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة.

ومقابل ذلك ذمه للكافرين والظالمين والفاسقين والمشركين والمنافقين والمعتدين ونحوهم، من غير أن يقيده بشيء ليشمل جميع ذلك المعنىٰ.

ومن هذا قوله ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾[البقرة:١٩٦] ليشمل كل حصر، ومنه قوله ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ ﴾[البقرة:٢٣٩] ليعم كل خوف.

وقد يقيد ذلك ببعض الأمور فيتقيد به ما سيق الكلام لأجله.

وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر أمثلة عليه لطالت، ولكن قد فتح لك الباب، فامش علىٰ هذا السبيل المفضي إلىٰ رياض بهيجة من أصناف العلوم.

القاعدة الخامسة عشرة:

جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرات لطمئنة القلوب وزيادة الإيمان

وهذا في عدة مواضع من كتابه، فمن ذلك:

النصر قال في إنزال الملائكة به: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأنفال:١٠]، وقال في أسباب الرزق ونزول المطر: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾[الروم:٤٦].

وأعم من ذلك كله قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[يونس]، وهي كل دليل وعلامة تدلهم علىٰ أن الله قد أراد لهم الخير، وأنهم من أوليائه وصفوته، فيدخل فيه الثناء الحسن والرؤيا الصالحة، ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف والتوفيق، والتيسير لليسرىٰ، وتجنيبهم العسرىٰ.

ومن ذلك: بل من ألطف ذلك أنه يجعل الشدائد مبشرة بالفرج، والعسر مؤذنًا باليسر، وإذا تأملت ما قصه عن أنبيائه وأصفيائه، وكيف لما اشتدت بهم الحال، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾[البقرة:٢١٤] يأتيهم الجواب من لطف الله بهم ومن إيمانهم به وبحكمته ورحمته وأخذهم سبيل سننه التي جعلها أسبابا مؤدية إلىٰ النصر فيجيبهم الحق من كل ذلك: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[البقرة] رأيت من ذلك العجب العجاب.

وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾[الشَّرح]، ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾[الطلاق]، وقال ﷺ «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»، وأمثلة ذلك كثيرة والله أعلم.

القاعدة السادسة عشرة:

حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد

وذلك كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[السجدة:١٢]، ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ ﴾[سبأ:٥١]، ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[البقرة:١٦٥]، ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾[الأنعام:٣٠]، ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[الأنعام:٢٧]، فحذف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولىٰ من ذِكْره، ليدل علىٰ عظمة ذلك المقام، وأنه لهوله وشدته وفظاعته لا يمكن يعبَّر عنه بلفظ ولا يُدرك بالوصف،

مثله قوله تعالىٰ: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥﴾[التكاثر]، أي: لو علمتم علم اليقين لما أقمتم علىٰ ما أنتم عليه من التفريط والغفلة واللهو.

القاعدة السابعة عشرة:

بعض الأسماء الواردة في القرآن إذا أفرد دل على المعنى المناسب له، وإذا قرن مع غيره دل على بعض المعنى، ودل ما قرن معه على باقيه

ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة:

منها: الإيمان، أفرده وحده في آيات كثيرة، وقرنه مع العمل الصالح في آيات كثيرة.

فالآيات التي أُفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة، ولهذا يرتب الله عليه حصول الثواب، والنجاة من العقاب، ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره وهو عند السلف: قول القلب واللسان، وعمل القلب، واللسان، والجوارح.

والآيات التي قرن الإيمان فيها بالعمل الصالح: كقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[البقرة:٢٧٧] يُفسَّر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق، والاعتقاد والإنابة. والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية.

وكذلك لفظ «البر والتقوىٰ» فحيث أفرد البر دخل فيه امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وكذلك إذا أفردت التقوىٰ ولهذا يرتب الله علىٰ البر والتقوىٰ عند الإطلاق: الثواب المطلق والنجاة المطلقة كما يرتبه علىٰ الإيمان.

وتارة يُفسِّر أعمال البر بما يتناول أفعال الخير وترك المعاصي، وكذلك في بعض الآيات تفسير خصال التقوىٰ، كما في قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾[آل عمران] إلىٰ آخر ما ذكره من الأوصاف التي تتم بها التقوىٰ.

وإذا جمع بين البر والتقوىٰ مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾[المائدة:٢] كان «البر» اسمًا جامعًا لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة. وكانت «التقوىٰ» اسمًا جامعًا يتناول ترك جميع المحرمات.

وكذلك لفظ «الإثم» و «العدوان» إذا قرنا، فسر الإثم بالمعاصي التي بين العبد وبين

ربه، والعدوان بالتجرئ علىٰ الناس في دمائهم وأعراضهم. وإذا أفرد «الإثم» دخل فيه كل المعاصي التي تُؤثِّم صاحبها، سواء كانت بينه وبين ربه أو بينه وبين الخلق، وكذلك إذا أفرد «العدوان».

وكذلك لفظ «العبادة والتوكل» ولفظ [العبادة والاستعانة» إذا أفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله ويرضاه ظاهرًا وباطنًا، ومن أول وأهم ما يدخل فيها: التوكل والاستعانة. وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة نحو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة]، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]، فسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفسر التوكل باعتماد القلب علىٰ الله في حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار ـ مع الثقة التامة بالله في حصولها ـ.

وكذلك «الفقير والمسكين» إذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر كما في أكثر الآيات، وإذا جمع بينهما كما في آية الصدقات وهي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠] فسِّر الفقير بمن اشتدت حاجته وكان لا يجد شيئًا، أو من يجد شيئًا لا يقع منه موقعًا، وفسر «المسكين» بمن حاجته دون ذلك.

ومثل ذلك الألفاظ الدالة علىٰ تلاوة الكتاب والتمسك به وهو اتباعه، ويشمل ذلك: القيامَ بالدين كله، فإذا قُرنت معه الصلاة كما في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[العنكبوت:٤٥]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[الأعراف:١٧٠] كان ذكر الصلاة تعظيمًا لها وتأكيدًا لشأنها، وحثًا عليها، وإلا فهي داخلة في الاسم العام وهو التلاوة والتمسك به وما أشبه ذلك من الأسماء.

القاعدة الثامنة عشرة:

في كثير من الآيات يخبر الله بأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وفي بعضها يذكر مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد، الموجبة للهداية أو الموجبة للإضلال، وكذلك حصول المغفرة وضدها، وبسط الرزق وتقديره

وذلك في آيات كثيرة، فحيث أخبر أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدره علىٰ من يشاء.

يدل ذلك علىٰ كمال توحيده وانفراده بخلق الأشياء، وتدبير جميع الأمور، وأن خزائن الأشياء كلها بيده، يعطي ويمنع ويخفض ويرفع، فيقتضي مع ذلك من العباد أن يعترفوا بذلك، وأن يعلقوا أملهم ورجاءهم به وحده في حصول كل ما يحبون منها، وفي دفع كل ما يكرهون، وأن لا يسألوا أحدًا غيره، كما في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**» إلىٰ آخره.

وفي بعض الآيات: يذكر فيها أسباب ذلك، ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية إليها، فيسلكوا النافع ويدعوا الضار، كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾[الليل]، فبيَّن أن أسباب الهداية والتيسير إيمان العبد بحكمة ربه في سننه وخلقه وشرعه وأخذه بهذه السنن وانقياده لأمره الشرعي، وأن أسباب الضلال والتعسير ضد ذلك.

وكذلك قوله تعالىٰ في صفة القرآن: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [المائدة:١٦]، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[الأعراف:٣٠]، فأخبر أن الله يهدي بالقرآن من كان قصده حسنًا، ومن رغب في الخير، واتبع رضوان الله، وأنه يضل من فسق عن سنن الله الحكيمة، وتمرد علىٰ الله، وتولىٰ أعداءه من شياطين الإنس والجن، ورضي بولايتهم عن ولاية رب العالمين.

وكذلك قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾[الصف]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الأنعام:١١٠].

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسبابَ التي تنال بها المغفرة والرحمة، والتي تحق بها كلمة العذاب، كقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[طه]، ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[الأعراف]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[آل عمران]، ثم ذكر الأسبابَ التي تنال بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوىٰ المذكورة في هذه الآية وغيرها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ

هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾[البقرة:٢١٨]، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾[الأعراف]، وأعم من ذلك كله قوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾[آل عمران]، فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عمومًا، وهذه الأسباب المذكورة خصوصًا.

وأخبر أن العذاب له أسباب متعددة، **وكلها راجعة إلىٰ شيئين**: التكذيب لله ورسوله، والتولي عن طاعة الله ورسوله، كقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾[الليل]، وقوله: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨﴾[طه].

وكذلك يذكر أسباب الرزق، وأنها لزوم طاعة الله ورسوله، والسعي الجميل مع لزوم التقوىٰ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[الطلاق]، وانتظار الفرج والرزق كقوله تعالىٰ: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾[الطلاق]، وكثرة الذكر والاستغفار: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾[هود:٣]، ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١﴾[نوح]، فأخبر أن الاستغفار سبب يُستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره، وضد ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرىٰ.

وأمثلة هذه القاعدة كثيرة قد عرفت طريقها فالزمه.

القاعدة التاسعة عشرة:

ختم الآيات بأسماء الله الحسنى يدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم

وهذه القاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلك علىٰ أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه، وهو من أجل المعارف وأشرف العلوم.

فتجد آية الرحمة مختومةً بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة، والحكمة، والعلم، والقهر.

ولا بأس هنا أن نسوق بعض الآيات في هذا، ونشير إلىٰ مناسبتها بحسب ما وصل إليه

علمنا القاصر وعبارتنا الضعيفة، ولو طالت الأمثلة هنا لأنها من أهم المهمات، ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيرًا منها.

قال تعالىٰ: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾[البقرة]، فذكرُ إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسماوات يدل علىٰ إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾[الملك]، فخلقه للمخلوقات وتسويتها علىٰ ما هي عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد: من أكبر الأدلة العقلية علىٰ علمه، فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟

ولما ذكر كلامَ الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، ومراجعتهم لربهم في ذلك، فلما خلق آدم وعلمه أسماء كل شيء مما جعله الله له وبين يديه، وعجزت الملائكة عن معرفتها وأنبأهم آدم بها: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾[البقرة] فاعترفوا لله تعالىٰ بسعة العلم، وكمال الحكمة، وأنهم مخطئون في مراجعتهم ربهم في استخلافه آدم في الأرض التي خلقت له وهيئت لنزوله.

وفي هذا: أن الملائكة علىٰ عظمتهم وسعة معارفهم بربهم اعترفوا بأن علومهم تضمحل بجانب علم ربهم، وأنه لا علم لهم إلا منه، فختم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين، الدالين علىٰ علم الله بآدم وما خلق له وما خلق عليه وتمام حكمته في خلقه، وما يترتب علىٰ ذلك من المصالح المتنوعة: من أحسن المناسبات.

وأما قوله عن آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾[البقرة] وختمه كثيرًا من الآيات بهذين الاسمين بعد ذكر ما يدعو به العبد إلىٰ التعرض من رحمته ومغفرته، وتوفيقه وحلمه، فمناسبته جليَّة لكل أحد، وأنه لما كان هو التواب الرحيم، أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفقهم للأخذ بالأسباب التي ترجعهم إلىٰ الفطرة السليمة التي يعرفون بها نعمة ربهم فيقدرونها ويشكرونها ويستجيبون لما يدعوهم بها سبحانه، فيرجعون في كل شئونهم وأمورهم إلىٰ ربهم، فيفرح بهم ويزيدهم من فضله ويتوب عليهم ثم يغفر لهم ويرحمهم، فتاب عليهم أولًا بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب عليهم ثانيًا حين قبل متابهم وأجاب سؤالهم، ولهذا قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾[التوبة:١١٨]،

أي أقبل بقلوبهم عليه، فإنه لولا توفيقه وجذب قلوبهم إلىٰ ذلك بنعمه الكونية والعلمية لم يكن لهم سبيل إلىٰ ذلك حين استولت عليهم النفس الأمارة، وركبها العدو المبين ببهيميتها وجهلها مطية فإنها لا تأمر إلا بالسوء، إلا من رحم الله فأعاذه منها ومن نزغات الشيطان.

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كماله قدرته وتفرده بالملك فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقرة] وفي هذا رد علىٰ من أنكر النسخ كاليهود، وأن نسخه لما ينسخه من آثار قدرته وتمام ملكه وحكمته، فإنه تعالىٰ يتصرف في عباده، ويحكم بينهم في أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، فلا حجر عليه في شيء من ذلك.

ولما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾[البقرة:١١٥]، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[البقرة] أي: واسع الفضل، واسع الملك، جميع العالم العلوي والسفلي داخل في ملكه، ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله، ومحيط علمه بالأمور الماضية والمستقبَلَة، ومحيط علمه بما في التوجه إلىٰ القبلة المتنوعة من الحكمة، ومحيط علمه بنيات المستقبلين لكل جهة من الجهات إذا أخطئوا القبلة المعينة، فحيث ولىٰ المصلىٰ منهم فما قصد إلا وجه ربه.

وأما قول الخليل وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾[البقرة] فإنه توسل إلىٰ الله بهذين الاسمين إلىٰ قبول هذا العمل الجليل، حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما، ويجيب دعاءهما فإنه يراد **بالسميع في مقام الدعاء**: دعاء العبادة ودعاء المسألة ـ معنىٰ المستجيب كما قال الخليل في **الآية الأخرىٰ**: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾[ابراهيم].

وأما ختم قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[البقرة:١٢٩] بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[البقرة] **فمعناه**: كما أن بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمام عزة الله وكمال حكمته، فإنه ليس من حكمة أحكم الحاكمين أن يترك الخلق سدىٰ عبثا، لا يرسل إليهم رسولا، فحقق الله حكمته ببعثه خاتما، كما حقق حكمته لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة، **والأمور كلها**: قدريها وشرعيها، لا تقوم إلا بعزة الله، ونفوذ حكمته.

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنىٰ عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها، لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذكر الاسم العظيم، عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام، مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[البقرة:٢٠٩] لم يقل: فلكم من العقوبة كذا، بل قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾[البقرة] أي: فإذا عرفتم عزته وهو قهره وغلبته وقوته وامتناعه، وعرفتم حكمته -وهي وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها محالها- أوجب لكم ذلك الخوف من البقاء علىٰ ذنوبكم وزللكم، لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة: وهو المصر علىٰ الذنب مع علمه، وأنه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمه وجزائه، لكمال قهره وعزته.

وكذلك لما قال في سورة المائدة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ﴾ [المائدة:٣٤] لم يقل: فاعفوا عنهم أو اتركوهم ونحوها، بل قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[المائدة] يعني: فإذا عرفتم ذلك وعلمتموه، عرفتم أن من تاب وأناب فإن الله يغفر له ويرحمه، فيدفع عنه العقوبة.

ولما ذكر عقوبة السارق قال في آخرها: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾[المائدة] أي: عز وحكم فقطع يد السارق، وعز وحكم فعاقب المعتدي شرعًا وقدرًا وجزاء.

ولما ذكر مواريث الورثة وقدرها قال: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾[النساء] فكونه عليمًا حكيمًا يعلم ما لا يعلم العباد، ويضع الأشياء مواضعها، فاخضعوا لما قاله وفِعْله، وفصَّله في توزيع الأموال علىٰ مستحقيها الذين يستحقونها بحسب علم الله وحكمته، فلو وكل العبادَ إلىٰ أنفسهم، وقيل لهم: وزعوها أنتم بحسب اجتهادكم لدخلها الجهل والهوىٰ والغي والظلم وعدم الحكمة، وصارت المواريث فوضىٰ، وحصل بذلك من الضرر ما الله به عليم، ولكن تولاها وقسمها بأحكم قسمة وأوفقها للأحوال وأقربها للنفع.

ولهذا من قدح في شيء من أحكامه، أو قال: لو كان كذا وكذا فهو كافر لأنه قادح في علم الله وفي حكمته.

ولهذا يذكر الله العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام، كما يذكرها في آيات الوعيد ليبين للعباد أن الشرع والجزاء مربوط بحكمته، غير خارج عن علمه.

ويختم الأدعية بأسماء تناسب المطلوب وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠] أي: تعبَّدوا لله بدعائه بها، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالىٰ في سورة الحج: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾[الحج] والآيات المتتابعة التي بعدها، كل واحدة ختمت باسمين كريمين.

فالأول منها: ختمها بالعلم والحلم: يقتضي علمه بنياتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة ومقاماتهم الشامخة، فيجازيهم علىٰ ذلك بالفضل العظيم، ويعفو ويحلم عن سيئاتهم فكأنهم ما فعلوها.

وختم الثانية: بالعفو الغفور، فإنه أباح المعاقبة بالمثل، وندب إلىٰ مقام الفضل، وهو العفو وعدم معاقبة المسيء، وأنه ينبغي لكم أن تتعبدوا لله بالاتصاف بهذين الوصفين الجليلين لتنالوا عفوه ومغفرته.

وختم الآية الثالثة: بالسميع البصير يقتضي سمعه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار، وبصره بحركاتهم علىٰ اختلاف الأوقات وتباين الحالات.

وختم الآية الرابعة: بالعلي الكبير، لأن علوه المطلق وكبرياءه وعظمته ومجده تضمحل معه جميع المخلوقات، ويبطل معها كل ما عبد من دونه، وبإثبات كمال علوه وكبريائه، يتعين أنه هو الحق وما سواه هو الباطل.

وختم الآية الخامسة: باللطيف الخبير، الدالين علىٰ سعة علمه ودقيق خبرته بالبواطن. كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور وألوان النباتات، وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق، بما أنزله من الماء النَّمير، والخير الغزير.

وختم الآية السادسة: بالغني الحميد، بعد ما ذكر ملكه للسماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وأنه لم يخلقها لحاجة منه لها، فإنه غني مطلق، ولا ليتكمَّل بها فإنه الحميد الكامل، وليدلهم علىٰ أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه، وأنه حميد في أقداره، حميد في شرعه، حميد في جزائه، فله الحمد المطلق ذاتا وصفات وأفعالًا.

وختم الآية السابعة: بالرؤوف الرحيم، أي: من رأفته ورحمته تسخيره المخلوقات لبني آدم وحفظ السماوات والأرض وإبقاؤها لئلا تزول، فتختل مصالحهم ومن رحمته سخر

لهم البحار لتجري فيها الفلك في منافعهم ومصالحهم، فرحمهم حيث خلق لهم المسكن، وأودع لهم فيه كل ما يحتاجونه، وحفظه عليهم وأبقاه.

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم، ختم كل قصة بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾[آل عمران] فإن كل قصة تضمنت نجاة النبي وأتباعه، وذلك برحمة الله ولطفه، وتضمنت إهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته.

وقد يتعلق مقتضىٰ الاسمين بكل من الحالتين، فإنه نجىٰ الرسول وأتباعه بكمال قوته وعزته ورحمته، وأهلك المكذبين بعزته وحكمته ويكون ذكر الرحمة دالًا علىٰ عِظم جرمهم، وأنه طالما فتح لهم أبواب رحمته بآياته ونعمه ورسله فأغلقوها دونهم بتمردهم علىٰ الله وكفرهم وشركهم فلم يكن لهم طريق إليها، ولولا ذلك لما حل بهم هذا العقاب الصارم.

وأما قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة] ولم يقل: أنت الغفور الرحيم، لأن المقام ليس مقام استعطاف واسترحام، إنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه وأمه إلهين من دون الله، فناسب ذكر العزة والحكمة، وصار أولىٰ من ذكر الرحمة والمغفرة.

ومن ألطف مقامات الرجاء: أنه يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل علىٰ الرحمة؛ مثل قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾[آل عمران]، وقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾[الأحزاب] وذلك يدل علىٰ أن رحمته سبقت غضبه وغلبته وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من وجد فيه أدنىٰ سبب من أسباب الرحمة، ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنىٰ حبة خردل من الإيمان ولنقتصر علىٰ هذه الأمثلة فإنه يعرف بها صفة الاستدلال بذلك.

القاعدة العشرون:

القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث

وقد وصفه الله تعالىٰ بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاث.

فوصفه بأنه محكم في عدة آيات، وأنه: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود] ومعنىٰ ذلك أنه في غاية الإحكام ونهاية الانتظام، فأخباره كلها حق وصدق، لا تناقض فيها ولا اختلاف، وأوامره كلها خير وهدىٰ وبركة وصلاح، ونواهيه متعلقة بالشرور والأضرار والأخلاق الرذيلة والأعمال السيئة فهذا إحكامه.

ووصفه بأنه متشابه في قوله من سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[الزمر:٢٣] أي: متشابها في الحسن والصدق والحق، ووروده بالمعاني النافعة المزكية للعقول، المطهرة للقلوب، المُصلحة للأحوال، فألفاظه أحسن الألفاظ ومعانيه أحسن المعاني.

ووصفه بأنه: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[آل عمران:٧] فهنا وصفه بأن بعضه هكذا وبعضه هكذا، وأن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلىٰ المحكم، فيصير كله محكمًا ويقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] أي: وما كان من عنده فلا تناقض فيه، فما اشتبه منه في موضع، فسره الموضع الآخر المحكم، فحصل العلم وزال الإشكال.

ولهذا النوع أمثلة؛ منها: ما تقدم من الإخبار بأنه علىٰ كل شيء قدير، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

فإذا اشتبهت علىٰ من ظن به خلاف الحكمة، وأن هدايته وإضلاله يكون جزافًا لغير سبب

وضحت هذا الإطلاق الآيات الأخر الدالة علىٰ أن هدايته لها أسباب، يفعلها العبد ويتصف بها مثل قوله في سورة المائدة: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[المائدة:١٦] وأن إضلاله لعبده له أسباب في العبد، وهو توليه للشيطان: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[الأعراف:٣٠]، وفي سورة الصف: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:٥].

وإذا اشتبهت آيات علىٰ الجبري الذي يرىٰ أن العباد مجبورون علىٰ أفعالهم، بينتها الآيات الأخر الكثيرة الدالة علىٰ أن الله لم يجبر العباد، وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة.

كما أن هذه الآيات التي أضاف الله فيها الأعمال إلىٰ العباد حسنها وسيئها، إذا اشتبهت علىٰ القدرية النفاة، وظنوا أنها منقطعة عن قضاء الله وقدره، وأن الله ما شاءها منهم ولا قدرها، تليت عليهم الآيات الكثيرة الصريحة بتناول قدرة الله لكل شيء من الأعيان والأعمال والأوصاف، وأن الله خالق كل شيء.

ومن ذلك: أعمال العباد، وأن العباد لا يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

وقيل للطائفتين: إن الآيات والنصوص كلها حق، ويجب علىٰ كل مسلم تصديقها والإيمان بها كلها، وأنها لا تتنافىٰ، فهي واقعة منهم وبقدرتهم وإرادتهم، والله تعالىٰ خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

وما أُجْمِلَ في بعض الآيات فسرته آيات أخر، وما لم يتضح في موضع اتضح في موضع آخر، وما كان معروفًا بين الناس وورد فيه القرآن أمرًا أو ناهيًا، كالصلاة والزكاة والزنا والظلم، ولم يفصله فليس مجملًا، لأنه أرشدهم إلىٰ ما كانوا يعرفون، وأحالهم علىٰ ما كانوا به متلبسين، فليس فيه إشكال بوجه والله أعلم.

القاعدة الحادية والعشرون:

القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد

وهذه قاعدة جليلة المقدار، عظيمة النفع، فإن الله أمر عباده بالمعروف، وهو ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا وعرفًا، ونهاهم عن المنكر، وهو ما ظهر قبحه شرعا وعقلا وعرفا.

وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووصفهم بذلك.

فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال والأوقات كالصلاة والزكاة، والصوم والحج، وغيرها من الشرائع الراتبة، والأخلاق الكريمة من البر والإحسان والمروءة والشجاعة والفهم، والاعتبار بكل ما يعرض للإنسان ويقع له وعليه، فإنه أمر به في كل وقت، والواجب علىٰ الآخِرين نظير الواجب علىٰ الأولين من هذه الأمة وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات كالشرك والقتل بغير حق، والزنا وشرب الخمر ونحوها من كل ما هو ضد المعروف ثبتت أحكامه في كل زمان ومكان لا تتغير ولا يختلف حكمها.

وما كان يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة والأحوال، هو المراد هنا.

فإن الله تعالىٰ يردهم فيه إلىٰ العرف والعادة والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت.

وذلك أنه أمر بالإحسان إلىٰ الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعين لعباده شيئا مخصوصًا من الإحسان والبر، ليعم كل ما تجدد من الأوصاف والأحوال، فقد يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص دون حق الشخص الآخر.

فالواجب الذي أوجبه الله: النظر في الإحسان المعروف في وقتك ومكانك، في حق والديك.

ومثل ذلك: ما أمر به من الإحسان إلىٰ الأقارب والجيران والأصحاب ونحوهم، فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلىٰ ما يتعارفه الناس إحسانًا ولا يكون معارضا للمعروف من التشريع، **وكذلك** ضده من العقوق والإساءة، ينظر فيه إلىٰ العرف وكذلك قوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[النساء:١٩] وفي سورة البقرة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة:٢٢٨] فرد الله الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل منهما علىٰ الآخر علىٰ المعروف المعتاد عند الناس في قطرك، وبلدك وحالك ومركزك الاجتماعي.

وذلك يختلف اختلافًا عظيمًا، لا يمكن إحصاؤه عدًا.

فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة، وهذا من آيات إحكام القرآن وبراهين صدقه.

وقال تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[الأعراف:٣١]، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾[الأعراف:٢٦] فقد أباح لعباده الأكل والشرب واللباس، ولم يعين شيئًا من الطعام والشراب واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة، فيتعلق بها أمره حيث كانت، ولا ينظر إلىٰ ما كان موجودًا منها وقت نزول القرآن فقط.

وكذلك قوله في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠] ومن المعلوم: أن السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن غير نوع القوة التي وجدت بعد ذلك..

فهذا النص يتناول كل ما يستطاع من القوة في كل وقت بحسبه وبما يناسبه ويليق به.

وكذلك لما قال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ﴾ [النساء:٢٩] لم يعين لنا نوعًا من التجارة ولا جنسًا، ولم يحدد لنا ألفاظًا يحصل بها الرضىٰ في البيع والتجارة، وهذا يدل علىٰ أن الله أباح كل ما عد تجارة ما لم ينه عنه الشارع، وأن ما حصل به الرضىٰ من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة، فما حقق الرضىٰ من قول أو فعل، انعقدت به المعاوضات والتبرعات وفي القرآن من هذا النوع شيء كثير.

القاعدة الثانية والعشرون:
في مقاصد أمثلة القرآن

اعلم أن القرآن الكريم احتوىٰ علىٰ أعلىٰ وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوىٰ علىٰ أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلىٰ القلوب بأيسر شيء وأوضحه.

فمن أنواع تعاليمه العالية: ضرب الأمثال، وهذا النوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمة، كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله، والأعمال العامة الجليلة ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة، ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي العين وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه بهم.

فقد مثّل الله الوحي والعلم الذي أنزله علىٰ رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوب الناس بالأراضي والأودية، وإن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأرض.

فمنها: أراضٍ طيبة تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير كمثل القلوب الفاهمة التي تفهم عن الله ورسوله وحيه وكلامه، وتعقله، وتعمل به علمًا وتعليمًا بحسب حالها. كالأراضي بحسب حالها.

ومنها: أراض تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، فينتفع الناس بالماء الذي تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأراضهم، كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة وتلقيه إلىٰ الأمة، ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة والانتفاع بمعانيه والتغذي بغذائه ما عند

الأولين وهؤلاء علىٰ خير، ولكنهم دون أولئك.

ومنها: أراض لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي لا علما ولا حفظا ولا عملا.

ومناسبة الأراضي للقلوب كما ترىٰ في الظهور وأما مناسبة تشبيهه الوحي بالغيث فكذلك لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية، والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية.

وكذلك مثّل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها فكذلك شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها لأنها غرس معرفة وتصديقا وإيمانا وإرادة لموجبها، وتؤتي أكلها وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق الزكية، والأعمال الصالحة والهدي المستقيم، ونفع صاحبها وانتفاع الناس به وهي صاعدة إلىٰ السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه.

ومثّل الله الشرك والمشرك الذي اتخذ مع الله إلهًا يتعزز به، ويزعم أنه سينال منه النفع، ودفع الضرر بأن اتخاذه هذا في ضعفه كالعنكبوت اتخذت بيتًا وهو أوهن البيوت وأوهاها، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفا إلىٰ ضعفها كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه وليًا ونصيرًا من دون الله إلا ضعفًا، لأن قلبه انقطع عن الله، ومن انقطع قلبه عن الله حلّه الضعف من كل وجه وتعلقه بالمخلوق زاده وهنًا إلىٰ وهنه، فإنه اتكل عليه وظن منه حصول المنافع، فخاب ظنه وانقطع أمله، وأما المؤمن فإنه قوي بقوة إيمانه بالله وتوحيده وتعلقه بالله وحده، لأنه يوقن أن الذي بيده الأمر والنفع ودفع الضرر، وهو المتصرف في أحواله كلها، كالعبد الذي استقام علىٰ صراط مستقيم في أقواله وأفعاله، منطلق الإرادة تحرر عن رق المخلوقين، غير مقيد لهم بوجه من الوجوه، بخلاف المشرك فإنه كالعبد الأصم الأبكم الذي هو كَلٌّ وعالة علىٰ مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير، لأن قلبه متقيد للمخلوقين مُسْتَرق لهم، ليس له انطلاق ولا تصرف في الخير ولا شعور به.

ومثله أيضًا كالذي خر من السماء فتخطفته الطيور ومزقته كل ممزق.

وهؤلاء: الذين زعموا أنهم آلهة ينفعون ويدعون لو اجتمعوا كلهم علىٰ خلق أضعف المخلوقات، وهو الذباب لم يقدروا باجتماعهم علىٰ خلقه، فكيف ببعضهم فكيف بفرد

من مئات الألـوف مـنهم وأبلـغ مـن ذلـك أن الـذباب لـو يسـلبهم شـيئًا لا يقـدروا علـىٰ استخلاصه منه ورده، فهل فوق هذا الضعف ضعف؟ وهل أعظم من هذا الغرور الذي وقع فيه المشرك شيء؟ وهو مع هذا الغرور وهذا الوهن والضعف متقسِّم قلبه بين عـدة آلهـة، كالعبد بين الشركاء المتشاكسين، لا يتمكن من إرضاء أحدهم دون الآخر فهو معهم في شر دائم وشقاء متراكم فلو استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لربأ بنفسه عما هـو عليه، ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعدما أضاع دينه وأما الموحد فإنه خـالص لربـه، ولا يعبد إلا خالقه وبارئه ولا يرجو غيره ولا يخشىٰ سواه، وقد اطمأن قلبه واسـتراح ضـميره، وعلم أن الدين هو الحق وأن عاقبتـه أحمـد العواقـب، ومآلـه الخيـر والفـلاح والسـعادة الأبدية، فهو في حياة طيبة، ويطمع في حياة أطيب منها في الدنيا والآخرة.

ومثَّل الله الأعمال بالبساتين، فذكر العمل الكامل الخالص له الذي لـم يعـرض لـه مـا يفسده كبستان في أحسـن المواضـع وأعلاهـا، تنتابـه الريـاح النافعـة، وقـد ضَـحَىٰ وبـرز للشمس، وفي خلاله الأنهار الجارية المتدفقة، فإن لم تكن غزيرةً فإنها كافيةٌ له كالطل الذي ينزل من السماء، ومع ذلك فأرضُه أطيب الأراضي وأزكاهـا فمـع تـوفر هـذه الشـروط لا تسأل عما هو عليه من زَهاءِ الأشجار وطيب الظلال ووفور الثمار، فصاحبه في نعيم ورغـد متواصل، وهو آمن من انقطاعه وتلفه ولثقته ويقينه بحفظ مولاه وسيده وفاطره ومعبوده له فهو مطمئن لحفظ وكلاءة أرحم الراحمين الحي القيوم الذي لا تأخذه سـنة ولا نـوم فأمـا الآخر الذي قد ركن إلىٰ غير بارئه وفاطره فاعتمد علىٰ الميت الذي لا يملـك لنفسـه نفعـا ولا ضرا ووثق به وفوض إليه حراسـته وكلاءتـه في مالـه وولـده فـالله يغضـب عليـه أشـد الغضب ويبعث علىٰ بستانه الأعاصير والآفات المتلفة المهلكة فلا تغني عنه آياته أو ليـاؤه من شيء فيقلب كفيه حسرة وندامة وقد كبر سنه ونالت منه الشيخوخة والهرم ، فإن كـان هذا البستان لإنسان قد كبر وضعف من العمل، وعنده عائلة ضعاف لا مسـاعدة مـنهم ولا كفاءة، وقد اغتبط به حيث كان مادته ومادة عائلته، ثم إنه جاءته آفة وإعصار أحرقه وأتلفـه عن آخرهم. فكيف تكون حسرة هذا المغرور؟ وكيف تكون مصيبته؟ وهذا هو الذي جـاء بعد العمل بما يبطل عمله الصالح من الشرك أو النفاق أو المعاصي المحرقة فيا ويحه، بعد ما كان بستانه زاكيا زاهيا أصبح تالفا قد أيس من عوده وبقي بحسرته مع عائلته.

فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها فقد ذكر الله صفة بستان من ثبته الله علىٰ الإيمان، والعمل الصالح وبستان من أبطل عمله بما ينافيه ويضاده، ويؤخذ من ذلك أن الذي لم يوفق للإيمان ولا للعمل أصلا أنه ليس له بستان أصلًا.

ووجه تشبيه الأعمال بالبساتين: أن البساتين تمدها المياه وطيب المحل وحسن الموقع، فكذلك الأعمال يمدها الوحي النازل من حياة القلوب الطيبة وقد جمع العامل جميع شروط قبول العمل من الاجتهاد والإخلاص والمتابعة، فأثمر عملُه كل زوج بهيج.

وقد مثّل الله عمل الكافر بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء، فيأتيه وقد اشتد به الظمأ، وأنهكه الإعياء، فيجده سرابًا.

ومثّله برماد الشيء المحترق، فجاءته الرياح فذرته فلم تبق منه باقية وهذا مناسب لحال الكافر وبطلان عمله، فإن كفره ومعاصيه بمنزلة النار المحرقة، وعمله بمنزلة الرماد والسراب الذي لا حقيقة له، وهو كان يعتقده نافعا له، فإذا وصله ولم يجده شيئا تقطعت نفسه حسرات، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه.

كما مثّل نفقات المخلصين بذلك البستان الذكي الزاهي.

ومثّل نفقات المرائين بحجر أمْلسَ عليه شيء من تراب، فأصابه مطر شديد فتركه صلدًا لا شيء عليه، لأن قلب المرائي لا إيمان فيه ولا تصديق ولا إخلاص، فهو قاس كالحجر، فنفقته حيث لم تصدر عن إيمان، بل عن رياء وسمعة لم تؤثر في قلبه حياةً ولا زكاةً كهذا المطر الذي لم يؤثر في هذا الحجر الأملس شيئًا.

وهذه الأمثال إذا طبقت علىٰ مُمَثَّلاتها وضَّحتها وبينتها وبينت مراتبها من الخير، والشر، والكمال، والنقصان.

ومثّل الله حال المنافقين بحال من هو في ظلمة، فاستوقد نارًا من غيره، ثم لما أضاءت ما حوله، وتبين له الطريق، ذهب نورهم وانطفأ ضوءهم، فبقوا في ظلمة عظيمة أعظمَ من الظلمة التي كان عليها أولًا وهكذا المنافق استنار بنور الإيمان، فلما تبين له الهدىٰ غلبت عليه الشقوة، واستولت عليه الحيرة، أيبقىٰ علىٰ دين الآباء والشيوخ أم يخرج عنه إلىٰ دين الهدىٰ والحق، كما يقتضيه من الطاعات والأعمال فغلب عليه شيطان التقليد ورده إلىٰ ظلمات ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[الزُّخرُف:٢٢] فذهب عنه نوره أحوج ما هو إليه، وبقي

في ظلمة متحيرًا فهم لا يرجعون لأن سنة الله في عباده أن من بان له الهدىٰ، واتضح له الحق ثم رجع عنه أنه لا يوفقه بعد ذلك للهداية، لأنه رأىٰ الحق فتركه، وعرف الضلال فاتبعه.

وهذا المثل ينطبق علىٰ المنافقين الذين تبصروا وعرفوا، ثم غلبت عليهم الأغراض الضارة فتركوا الإيمان.

والمثال الثاني وهو قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[البقرة] ينطبق علىٰ المنافقين الضالين المتحيرين الذين يسمعون القرآن ولم يعرفوا المراد منه، لأنهم أعرضوا عنه، وكرهوا سماعه اتباعًا لرؤسائهم وسادتهم.

ومثّل الله الحياة الدنيا وزهرتها والاغترار بها بحالة زهرة الربيع، تعجب الناظرين، وتغر الجاهلين، ويظنون بقاءها، ولا يؤَمِّنون زوالها، فَلَهَوا بها عما خلقوا له، فأصبحت عنهم زائلة وأضحوا لنعيمها مفارقين في أسرع وقت كهذا الربيع إذا أصبح بعد الاخضرار هشيمًا، وبعد الحياة يبسًا رميمًا.

وهذا الوصف قد شاهده الخلق واعترف به البر والفاجر، ولكن سكر الشهوات وضعف داعي الإيمان اقتضىٰ إيثار العاجل علىٰ الآجل.

القاعدة الثالثة والعشرون:

إرشادات القرآن على نوعين

أحدهما: أن يرشد أمرًا ونهيًا وخبرًا إلىٰ أمر معروف شرعًا أو معروف عرفًا كما تقدم.

والنوع الثاني: أن يرشد إلىٰ استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة، ويعمل الفكر في استفادة المنافع منها وهذه القاعدة شريفة جليلة القدر.

أما النوع الأول: فأكثر إرشادات القرآن في الأمور الخبرية والأمور الحكمية داخلة فيها.

وأما النوع الثاني: وهو المقصود هنا، فإنه دعا عباده في آيات كثيرة إلىٰ التفكر في خلق السماوات والأرض، وما خلق الله فيها من العوالم، وإلىٰ النظر فيها.

وأخبر أنه سخرها لمصالحنا ومنافعنا، وأنه أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ ﴾[الجاثية:١٣] فنبه العقول علىٰ التفكر فيها،

واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها.

وذلك أننا إذا فكرنا فيها، ونظرنا حالها وأوصافها وانتظامها، ولأي شيء خلقت ولأي فائدة أبقيت؟ وماذا فيها من الآيات وما احتوت عليه من المنافع؟ أفادنا هذا الفكر فيها علمين جليلين:

أحدهما: أننا نستدل بها علىٰ ما لله من صفات الكمال والعظمة، والحكم البالغة، وما له من النعم الواسعة والأيادي المتكاثرة، وعلىٰ صدق ما أخبر به من المعاد والجنة والنار، وعلىٰ صدق رسله وحقيقة ما جاءوا به من عنده.

وهذا النوع قد أكثر أهل العلم من الاستشهاد به وكل عالم ومحقق قد ذكر منه ما وصل إليه علمه وما بلغه تفكيره وفهمه، فإن الله أخبر أن الآيات إنما ينتفع بها أولو الألباب.

وهذا أجل العِلْمين وأعلاهما، وأكملهما.

والعلم الثاني: أننا نتفكر فيها لنستخرج منها المنافع المتنوعة، فإن الله سخرها لنا، وجعلها طوع علومنا وأعمالنا وسلطنا علىٰ استخراج جميع ما لنا فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية فذلل لنا أرضها وما ادخر فيها من بركات وكنوز ومعادن ومواد نافعة لنحرثها ونزرعها ونغرسها، ونستخرج منها ما نتخذه لحاجاتنا المعاشية من الصناعات النافعة. فجميع فنون الصناعات علىٰ كثرتها وتنوعها وتفوقها ـ لا سيما في هذه الأوقات ـ كل ذلك داخل في تسخيرها لنا. وقد عُرفت الحاجة، بل الضرورة في هذه الأوقات إلىٰ استنباط المنافع وترقية الصنائع إلىٰ ما لا حد له وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها أمور فيها فوائد عظيمة للخلق.

وقد تقدم لنا في قاعدة اللازم: أن ما لا تتم الأمور المطلوبة إلا به فهو مطلوب. وهذا يدل علىٰ أن تعلم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعًا، كما هي مطلوبة لازمة عقلًا، وأنها من الجهاد في سبيل الله، ومن علوم القرآن.

فإن الله نبه العباد أنه جعل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأنه سخر لهم ما في الأرض. فعليهم أن يسعوا لتحصيل هذه المنافع من أقرب الطرق وهي لا تعرف إلا بالبحث والتنقيب والتجارب المتكررة والدراسات المناسبة لكل نوع منها وهذا من آيات القرآن. وهو أكبر دليل علىٰ سعة علم الله وحكمته ورحمته بعباده بأن أباح لهم جميع

النعم، ويسر لهم الوصول إليها بطرق لا تزال تحدث وقتًا بعد وقت. وقد أخبر أن القرآن تذكرة يتذكر بها العباد كل ما ينفعهم فيسلكونه وما يضرهم فيتركونه، وأنه هداية لجميع المصالح.

القاعدة الرابعة والعشرون:

التوسط والاعتدال وذم الغلو

القرآن يرشد إلى التوسط والاعتدال وذم التقصير والغلو ومجاوزة الحد في كل الأمور

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[النحل:٩٠] وقال: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأعراف:٢٩] والآيات الآمرة بالعدل والإحسان والناهية عن ضدهما كثيرة.

والعدل في كل الأمور: لزوم الحد فيها وألا يغلو ويتجاوز الحد، كما لا يقصر ويدع بعض الحق.

ففي عبادة الله أمر بالتمسك بما كان عليه النبي ﷺ في آيات كثيرة ونهىٰ عن مجاوزة ذلك، وتعدي الحدود وذم المقصرين عنه في آيات كثيرة.

فالعبادة التي أمر الله بها ما جمعت الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، فإذا خلت من الأمرين أو أحدهما فهي لاغية.

وفي حق الأنبياء والرسل ـ صلىٰ الله عليهم وسلم ـ أمر بالاعتدال وهو الإيمان بهم، ومحبتهم المقدمة علىٰ محبة الخلق، وتوقيرهم واتباعهم، ومعرفة أقدارهم ومراتبهم التي أكرمهم الله بها. ونهىٰ في آيات كثيرة عن الغلو فيهم وهو أن يُرفعوا فوق منزلتهم التي أنزلهم الله، ويجعل لهم من حقوق الله التي لا يشاركه فيها مشارك شيء. كما نهىٰ عن التقصير في حقهم بتكذيبهم أو ترك محبتهم وتوقيرهم أو عدم اتباعهم. وذمَّ الغالين فيهم كالنصارىٰ ونحوهم في عيسىٰ، كما ذمَّ الجافين لهم كاليهود حين قالوا في عيسىٰ ما قالوا، وذمَّ من فرق بينهم فآمن ببعض دون بعض، وأخبر أن هذا كفر بجميعهم.

وكذلك يتعلق هذا الأمر في حق العلماء والأولياء فتجب محبتهم ومعرفة أقدارهم، ولا يحلُّ الغلو فيهم، وإعطاؤهم شيئًا من حق الله، وحق رسوله الخالص، ولا يحلُّ جفاؤهم ولا عداوتهم، فمن عادىٰ لله وليًا فقد بارزه بالحرب.

وأمر بالتوسط في النفقات والصدقات، ونهىٰ عن الإمساك والتقصير والبخل، كما نهىٰ عن الإسراف والتبذير.

وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال والأفعال، ونهىٰ عن الجبن، وذم الجبناء وأهل الخور وضعفاء النفوس، كما ذم المتهورين الذين يلقون بأيديهم إلىٰ التهلكة.

وأمر وحث علىٰ الصبر في آيات كثيرة، ونهىٰ عن الجزع والهلع والتسخط، كما نهىٰ عن التجبر والقسوة وعدم الرحمة في آيات كثيرة.

وأمر بأداء الحقوق لكل من له حق عليك: من الوالدين وذوي القربىٰ والجار والإخوان والولاة والحكام، والأجراء والطلبة، وغيرهم من كل ذيحق هو فرع الله سبحانه وتعالىٰ نفهمه وتعرفه وتؤديه بالمعروف والإحسان إليهم قولا وفعلًا، وذمَّ من قصر في حقهم أو أساء إليهم قولًا وفعلًا، كما ذم من غلا فيهم وفي غيرهم حتىٰ قدم رضاهم علىٰ رضا الله وطاعتهم علىٰ طاعة الله.

وأمرنا بالاقتصاد في الأكل والشرب واللباس، ونهىٰ عن السرف والترف، كما نهىٰ عن التقصير الضار بالقلب والبدن.

وبالجملة فما أمر الله بشيء إلا كان بين خلقين ذميمين: تفريط وإفراط.

القاعدة الخامسة والعشرون:

حدود الله قد أمر بحفظها ونهى عن تعديها وقربانها

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:١١٢] وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[البقرة:٢٢٩] وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[البقرة:١٨٧].

أما حدود الله: فهي ما حده لعباده من الشرائع الظاهرة والباطنة، التي أمرهم بفعلها، والمحرمات التي أمرهم بتركها. فالحفظ لها يكون بأداء الحقوق اللازمة، وترك المحرمات الظاهرة والباطنة.

ويتوقف هذا الفعل وهذا الترك علىٰ معرفة الحدود علىٰ وجهها، ليعرفَ ما يدخل في الواجبات والحقوق، فيؤديها علىٰ ذلك الوجه كاملة غير ناقصة، وما يدخل في المحرمات ليتمكن من تركها، ولئلا يلبس الشيطان عليهم بعضا منها ولهذا ذمَّ الله من لم يعرف حدود

ما أنزل الله علىٰ رسوله، وأثنىٰ علىٰ من عرف ذلك.

وحيث قال الله تعالىٰ: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾[البقرة:٢٢٩] كان المراد بها: ما أحله لعباده، وما فصله من الشرائع. فإنه نهىٰ عن مجاوزتها وأمر بملازمتها.

كما أمر بملازمة ما أحله من الطعام والشراب واللباس والنكاح، ونهىٰ عن تعدي ذلك إلىٰ ما حرم من الخبائث.

وكما أمر بملازمة ما شرعه من الأحكام في النكاح والطلاق والعدة وتوابع ذلك، ونهىٰ عن تعدي ذلك إلىٰ فعل ما لا يجوز شرعًا.

وكما أمر بالمحافظة علىٰ ما فصله من أحكام المواريث ولزوم حده ونهىٰ عن تعدي ذلك، وتوريث من لا يرث، وحرمان من يرث، وتبديل ما فرضه وفصله بغيره.

وحيث قال تعالىٰ: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾[البقرة:١٨٧] كان المراد بذلك: المحرمات فإن قوله: ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ نهي عن فعلها، ونهي عن مقدماتها وعن أسبابها الموصلة إليها والموقعة فيها.

كما نهاهم عن المحرمات علىٰ الصائم، وبين لهم وقت الصيام فقال: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ وكما حرم علىٰ الأزواج أن يأخذوا مما آتوا أزواجهم شيئًا إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، ثم قال: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ وكما بين المحرمات في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾[الإسراء:٣٢] ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[الإسراء:٣٤] وفي الخمر والميسر أنهما ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾[المائدة:٩٠] فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود الله، والمحافظة عليها. كما أن أصل كل الشر وأسباب العقوبات الجهل بحدود الله، أو ترك المحافظة عليها أو الجمع بين الشرين. والله أعلم.

القاعدة السادسة والعشرون:

الأحكام في الآيات المقيدة

الأصل: أن الآيات التي فيها قيود لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود، إلا في آيات يسيرة

وهذه قاعدة لطيفة: فإن الله متىٰ رتب في كتابه حكمًا علىٰ شيء، وقيده بقيد، أو شرط لذلك شرطًا، تعلق الحكم به علىٰ ذلك الوصف، الذي وصفه الله تعالىٰ.

وهذا في القرآن لا حصر له. وإنما المقصود ذكر المستثنىٰ من هذا الأصل الذي يقول كثير من المفسرين - إذا تكلموا عليها -: هذا قيد غير مراد. ففي هذه العبارة نظر؛ فإن كل لفظة في كتاب الله فإن الله أرادها لما فيها من فائدة، وقد تظهر للمخاطب وقد تخفىٰ وإنما مرادهم بقولهم: «غير مراد» ثبوت الحكم لها.

فاعلم أن الله تعالىٰ يذكر الأحكام الشرعية من أصول وفروع، ويذكر أعلىٰ حالة لها ليبرزها لعباده، وليظهر لهم حسنها، إن كانت مأمورًا بها، أو قبحها إن كانت منهيًا عنها.

وعند تأمل هذه الآيات التي بهذا الصدد يظهر لك هذا منها عيانًا.

فمنها قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾[المؤمنون:١١٧] ومن المعلوم أن من دعا مع الله إلهًا آخر فإنه كافر، وأنه ليس له برهان مطلقًا. وإنما قيدها الله بهذا القيد بيانًا لشناعة الشرك والمشرك وأن الشرك قطعًا ليس له دليل شرعي، ولا عقلي، والمشرك ليس بيده ما يُسوِّغ له شيئًا من ذلك.

ففائدة هذا القيد: التشنيع البليغ علىٰ المشركين بما تملكهم لغبائهم وبلادتهم التقليدية من المعاندة ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية، وأنه ليس بأيديهم إلا أغراض نفسية بهيمية ومقاصد سيئة، وأنهم لو التفتوا أدنىٰ التفات لعرفوا أن ما هم عليه لا يستجيزه يستسيغه من له أدنىٰ إيمان ولا معقول فهم وعقل.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾[النساء:٢٣] مع أن كونها في حجره أو في غير حجره ليس شرطًا لتحريمها، فإنها تحرم مطلقًا. ولكن ذكر الله هذا القيد تشنيعًا لهذه الحالة، وأنه من أقبح القبيح إباحة الربيبة التي هي في حجر الإنسان بمنزلة بنته. فذكر الله المسألة متجليةً بثياب قبحها، لينفر عنها ذوي الألباب، مع أن التحريم لم يُعلَّق بمثل هذه الحالة فالأنثىٰ إما أن تكون مباحة مطلقًا، أو محرمة مطلقًا، سواء كانت عند الإنسان أم لا. كحالة بقية النساء المحللات والمحرمات.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾[الإسراء:٣١] و: ﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ﴾ [الأنعام:١٥١] مع أنه المعلوم النهي علىٰ عن قتل الأولاد علىٰ أي حال.

فالفائدة في ذكر هذه الحالة: أنها حالة جامعة للشر كله كونه قتل بغير حق، وقتل مَنْ جُبلت النفوس علىٰ شدة الشفقة عليه شفقة لا نظير لها، وكون ذلك صادرًا عن التسخط

لقدر الله، وإساءة الظن بالله فأولئك الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق إنما يقتلونهم تبرمًا وتسخطًا بقدر الله، فهم قد تبرموا بالفقر هذا التبرم، وأساءوا ظنونهم بربهم حيث ظنوا أنهم إن أبقوهم زاد فقرهم، واشتدت فاقتهم، فصار الأمر بالعكس.

وأيضًا فإنه إذا كان منهيًا عن قتلهم في هذه الحال التي دفعهم إليها خشية الفقر وحدوثه، ففي حال سعة الرزق من باب أولىٰ وأحرىٰ.

وأيضًا ففي هذا: بيان للحالة الموجودة غالبًا عندهم، فالتعرض لذكر الأسباب الموجودة في الحادثة يكون أجلىٰ وأوضح للمسائل.

وأما قوله تعالىٰ في الرجعة: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾[البقرة:٢٢٨] **فمن العلماء من قال:** إنه من هذا النوع، وإنه يستحق ردها سواء أراد المراجع الإصلاح أم لم يرده، فيكون ذكر هذا القيد حثًا علىٰ لزوم ما أمر الله به من قصد الإصلاح، وتحريم إمساكها وردها إلىٰ زوجيته علىٰ وجه المضارة، وإن كان يملك ردها، كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[البقرة:٢٣١].

ومن العلماء من جعل هذا القيد علىٰ الأصل العام، وأن الزوج لا يستحق رجعة زوجته في عدتها إلا إذا قصد الإصلاح فأما إذا قصد ضد ذلك فلا حق له في رجعتها، وهذا هو الصواب.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾[البقرة:٢٨٣] مع أن الرهن يصح حضرًا وسفرًا **فقائدة هذا القيد:** أن الله ذكر أعلىٰ الحالات، وأشد الحاجات للرهن، وهي هذه الحالة في السفر، والكاتب مفقود، والرهن مقبوض، فأحوج ما يحتاج الإنسان للرهن في هذه الحالة التي تعذرت فيها التوثيقات إلا بالرهن المقبوض، وكما قاله الناس في قيد السفر فكذلك علىٰ الصحيح في قيده بالقبض، وأن قبضه ليس شرطًا لصحته، وإنما ذلك للاحتياط وزيادة الاستيثاق، وكذلك فقد الكاتب.

ومنها قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾[البقرة:٢٨٢] مع أن الحق يثبت بالرجل والمرأتين ومع وجود الرجلين، ولكن ذكر الله أكمل حالة يحصل بها الحفظ للحقوق، بدليل أن النبي ﷺ قضىٰ بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية ليس فيها ذلك لهذه الحكمة، وهو أن الآية أرشد الله فيها عباده

إلىٰ أعلىٰ حالة يحفظون بها حقوقهم، لتمام راحتهم وحسم اختلافهم ونزاعهم.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩﴾[الأعلىٰ] فإنها من أصل هذه القاعدة، ويظن بعض الناس أنها من هذا النوع، وأنه يجب التذكير، نفعت الذكرىٰ أو لم تنفع ولكن قصر الآية علىٰ هذا غلط، فإن الآية تعطي أيضا لمن تدبر أنه أن الذكرىٰ إذا كان يحصل بها الخير كله أو بعضه أو يزول بها الشر كله أو بعضه وجب توجيهها فأما إذا كان ضرر التذكير أعظم من نفعه فإنه منهي عنه في هذه الحالة، كما نهىٰ الله عن سب آلهة المشركين إذا كان وسيلة لسب الله. وكما ينهىٰ عن الأمر بالمعروف إذا كان يترتب عليه شر أكبر أو فوات خير أكثر من الخير الذي يؤمر به، وكذلك النهي عن المنكر إذا ترتب عليه ما هو أعظم منه من شرا أو ضرر فالتذكير في هذه الحال غير مأمور به، بل منهي عنه، وكل هذا من تفصيل قوله تعالىٰ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾[النحل:١٢٥] فعُلم أن هذا قيد مراد ويرتبط الحكم به ثبوتًا وانتفاء والله أعلم.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾[البقرة:٦١] مع أنه لا يقع قتلهم إلا بغير الحق. فهذا نظير ما ذكره في الشرك، وأن هذا إنما هو لتشنيع هذه الحالة التي لا شبهة فيها لصاحبها، بل صاحبها أعظم الناس جرمًا، وأشدهم إساءة.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾[الأنعام:١٥١] فليست من هذا النوع وإنما هي من النوع الأول الذي هو الأصل، والحق الذي قيّدها الله به جاء مفسَّرًا في قوله ﷺ: «**النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِي الْمُحْصَنُ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**». رواه البخاري [٦٨٧٨] ومسلم [١٦٧٦].

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ﴾[النساء:٤٣] مع أن فقد الماء ليس من شرطه وجود السفر، فإنه إذا فُقد جاز التيمم حضرًا وسفرًا، ولكن ذكر السفر لبيان الحالة التي يغلب أن يفقد فيها الماء، أما الحضر فإنه يندر فيه عدم وجود الماء جدًا.

ومن هذا السبب ظن بعض العلماء أن السفر وحده مبيح للتيمم وإن كان الماء موجودًا، وهذا في غاية الضعف، وما ثبت من هدي الرسول وأصحابه مخالف لهذا القول.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن

﴿يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[النساء:١٠١] مع أن الخوف ليس شرطًا لصحة القصر ومشروعيته بالاتفاق ولما سئل النبي ﷺ عن هذا أجاب «**صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ**» ويعني بصدقة الله وإحسانه في كل زمان ومكان لا يتقيد بخوف ولا غيره.

ومن العلماء من قال: إن هذا القيد من القسم الأول وأن القصر التام ـ وهو قصر العدد وقصر الأركان والهيئات ـ شرطه اجتماع السفر والخوف كما في الآية، فإن وجد الخوف وحده لم يقصر عدد الصلاة وإنما تقصر هيئاتها وصفاتها. وإن وجد السفر وحده لم تقصر هيئاتها وشروطها وإنما يقصر عددها. ولا ينافي هذا كلام النبي ﷺ فإنهم إنما سألوه عن قصر العدد فقط فأجابهم بأن الرخصة فيه عامة في كل الأحوال.

وهذا تقرير مليح موافق لظاهر الآية غير مخالف لحديث الرسول فيتعين الأخذ به.

القاعدة السابعة والعشرون:

المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع في أشد الحاجة إليها

وهذه القاعدة جليلة النفع، وعظيمة الوقع وذلك أن كل موضع يسوق الله فيه حكمًا من الأحكام أو خبرًا من الأخبار فيتشوف الذهن فيه إلىٰ شيء آخر، إلا وجدت الله قد قرن به ذلك الأمر الذي يعلق في الأذهان، فيبينه أحسن بيان وهذا أعلىٰ أنواع التعليم، الذي لا يبقي إشكالًا إلا أزاله، ولا احتمالًا إلا أوضحه. وهذا يدل علىٰ سعة علم الله وحكمته. وذلك في القرآن كثير جدًا.

ولنذكر بعض أمثلة توضح هذه القاعدة، وتحسن للداخل الدخول إليها.

فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾[النمل:٩١] لمَّا خصها بالذكر ربما وقع في بعض الأذهان تخصيص ربوبيته بها أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾[النمل:٩١].

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[هود:١٠٩] لمَّا كان قد يقع في الذهن أنهم علىٰ حجة وبرهان فأبان بقوله: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُ﴾[هود:١٠٩] أنهم ضُلَّال اقتدوا بمثلهم، ثم لما كان قد يتوهم المتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم، وعلىٰ بعض يقين من مذهبهم، وربما يتوهم أيضًا أن الأليق ألا يبسط لهم الدنيا احترز من ذلك

بقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝١٠٩ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠﴾[هود] ولما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النساء:٩٥] ربما يظن الظان أنهم لا يستوون مع المجاهدين ولو كان القاعدون معذورين. أزال هذا الوهم بقوله: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾[النساء:٩٥].

وكذلك لما قال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ﴾[الحديد:١٠] ربما توهم أحد أن المفضولين ليس لهم عند الله مقام ولا مرتبة، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[الحديد:١٠] ثم لما كان ربما يتوهم أن هذا الأجر يُستحق بمجرد هذا العمل المذكور، ولو خلا من الإخلاص، أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠﴾[الحديد].

ومنها: قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[النمل:٤٨] ربما وقع في الذهن أنهم قد يصلحون، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨﴾[النمل] أي: لا خير فيهم أصلًا مع شرهم العظيم.

ومنها: أنه قال في عدة مواضع: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾[النمل:٨٠] فربما توهم أحد أنهم وإن لم يسمعوا فإنهم يفهمون الإشارة فأزال هذا الاحتمال بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾[النمل] فهذه الحالة لا تقبل سماعًا ولا رؤية لتحصل الإشارة، وهذا نهاية الإعراض.

ومنها قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ ربما توهم أحد أن هدايته تأتي جزافًا من غير سبب فأزال هذا بقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾[القصص] أي: بمن يصلح للهداية لزكاته وخيره ممن ليس كذلك، فأبان أن هدايته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء مواضعها. ومن كان حسن الفهم رأىٰ من هذا النوع شيئًا كثيرًا.

القاعدة الثامنة والعشرون:

في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن

لما كان الإيمان أصل كل الخير كله والفلاح، وبفقده يفقد كل خير ديني ودنيوي وأخروي، أكثر الله من ذكره في القرآن جدًا: أمرًا به، ونهيًا عن ضده، وترغيبًا فيه، وبيانًا لأوصاف أهله، وما لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

فأما إذا كان المقام مقامَ خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي، أو مقامَ إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الإيمان، فإنها تتناول كل مؤمن، سواء كان متمما لواجبات الإيمان وأحكامه، أو ناقصًا في شيءٍ منها.

وأما إذا كان المقام مقام مدح وثناء وبيان الجزاء الكامل للمؤمن: فإنما المراد بذلك المؤمن حقًا الجامع لمعاني الإيمان.

وهذا هو المراد بيانه هنا. فنقول:

وصف الله المؤمن في كتابه باعترافه وتصديقه بجميع عقائد الدين وبإرادة ما يحبه الله ويرضاه، وبالعمل بما يحبه الله ويرضاه، وبترك جميع المعاصي، وبالمبادرة بالتوبة مما صدر منه منها، وبأن إيمانهم أثر في أخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم الآثار الطيبة.

فوصف المؤمنين بالإيمان بالأصول الجامعة: وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأنهم يؤمنون بكل ما أتت به الرسل كلهم ويؤمنون بالغيب، ووصفهم بالسمع والطاعة، والانقياد ظاهرًا وباطنًا، ووصفهم بأنهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ﴾ [الأنفال:٢] وأما إذا كان السياق سياق مدح وثناء، فالمراد به الإيمان الكامل، فلا يدخل فيه الفاسق: ﴿إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال].

ووصفهم بأن جلودهم تقشعر، وعيونهم تفيض من الدمع، وقلوبهم تلين وتطمئن لآيات الله وذكره، وبأنهم يخشون ربهم بالغيب والشهادة، وأنهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلىٰ ربهم راجعون.

ووصفهم بالخشوع في أحوالهم عمومًا، وفي الصلاة خصوصًا وأنهم عن اللغو معرضون، وللزكاة فاعلون، ولفروجهم حافظون إلا علىٰ أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وأنهم بشهاداتهم قائمون، ولأماناتهم وعهدهم مُراعون.

ووصفهم باليقين الكامل الذي لا ريب فيه، وبالجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ووصفهم بالإخلاص لربهم في كل ما يأتون ويذرون.

ووصفهم بمحبة المؤمنين والدعاء لإخوانهم من المؤمنين السابقين واللاحقين، وأنهم

مجتهدون في إزالة الغل من قلوبهم علىٰ المؤمنين، وبأنهم يتولون الله ورسوله وعباده المؤمنين، ويتبرؤن من موالاة جميع أعداء الدين، وبأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويطيعون الله ورسوله في كل أحوالهم.

فجمع الله لهم بين العقائد الحقة واليقين الكامل، والإنابة التامة التي آثارها الانقياد لفعل المأمورات وترك المنهيات، والوقوف الحدود الشرعيات.

فهذه الأوصاف الجليلة هي وصف المؤمن المطلق الذي سلم من العقاب، واستحق الثواب، ونال كل خير رُتِّب علىٰ الإيمان.

فإن الله رتب علىٰ الإيمان في كتابه من الفوائد والثمرات ما لا يقل عن مائة فائدة، كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها.

رتب علىٰ الإيمان نيل رضاه الذي هو أكبر من كل شيء، ورتب عليه دخول الجنة والنجاة من النار، والسلامة من عذاب القبر ومن صعوبات القيامة، والبشرىٰ الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والثبات في الدنيا علىٰ الإيمان والطاعات وعند الموت وفي القبر علىٰ الإيمان والتوحيد والجواب النافع السديد، ورتب عليه الحياة الطيبة في الدنيا والرزق والحسنة وتيسيره لليسرىٰ وتجنيبه للعسرىٰ، وطمأنينة القلوب وراحة النفوس والقناعة التامة، وصلاح الأحوال، وصلاح الذرية، وجعلهم قرة عين للمؤمن، والصبر عند المحن والمصائب.

وحمل الله عنهم الأثقال، ومدافعة الله عنهم جميع الشرور، والنصر علىٰ الأعداء، ورفع المؤاخذة عن الناسي والجاهل والمخطئ منهم، وأن الله قد وضع عنهم الآصار والأغلال ولم يحملهم ما لا طاقة لهم فيه، ومغفرة الذنوب بإيمانهم والتوفيق للتوبة.

فالإيمان أكبر وسيلة للقرب من الله والقرب من رحمته، ونيل ثوابه، وأكبر وسيلة لمغفرة الذنوب، وإزالة الشدائد أو تخفيفها.

وثمرات الإيمان علىٰ وجه التفصيل كثيرة، وبالجملة خيرات الدنيا والآخرة مرتبة علىٰ الإيمان، كما أن الشرور مرتبة علىٰ فقده، والله أعلم.

القاعدة التاسعة والعشرون:

في الفوائد التي يجتنيها العبد في معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن

وهذه القاعدة تكاد تكون هي المقصود الأعظم في علم التفسير وذلك أن القرآن مشتمل علىٰ علوم متنوعة، وأصناف جليلة من العلوم. فعلىٰ العبد أن يعرف المقصود من كل نوع منها، ويعمل علىٰ هذا، ويتتبع الآيات الواردة فيه، فيحصِّل المراد منها: **علمًا، وتصديقًا، وحالًا، وعملًا.**

فأجلُّ علوم القرآن علىٰ الإطلاق: علم التوحيد، وما لله من صفات الكمال، فإذا مرت عليه الآيات في توحيد الله وأسمائه وصفاته أقبل عليها، فإذا فهمها وفهم المراد بها أثبتها لله علىٰ وجه لا يماثله فيه أحد، وعَرَفَ ليس لله مثيل في ذاته فليس له مثيل في صفاته، وامتلأ قلبه من معرفة ربه وحبه بحسب علمه بكمال الله وعظمته فإن القلوبَ مجبولةٌ علىٰ محبة الكمال، فكيف بمن له كل الكمال؟ ومنه جميع النعم الجِزَال ويعرف أن أصل الأصول هو الإيمان بالله، وأن هذا الأصل يقوىٰ ويكمل بحسب معرفة العبد لربه، وفهمه لمعاني صفاته ونعوته وامتلاء القلب بمعرفتها ومحبتها.

وأيضًا يعرف أنه بتكميله هذا العلم تكمل علومه وأعماله. فإن هذا هو أصل العلم وأصل التعبد.

ومن علوم القرآن: صفات الرسل وأحوالهم، وما جرىٰ لهم وعليهم، مع من وافقهم ومن خالفهم. وما هم عليه من الأوصاف الوافية. فإذا مرت عليه هذه الآيات عرف بها أوصافهم وازدادت معرفته ومحبته لهم، وعرف ما هم عليه من الأخلاق والأعمال خصوصًا إمامهم وسيدهم محمد ﷺ فيقتدي بأخلاقهم وأعمالهم بحسب ما يقدر عليه، ويفهم أن الإيمان بهم تمامه وكماله: بمعرفته التامة بأحوالهم ومحبتهم واتباعهم. وفي القرآن من نعوتهم الشيء الكثير الذي يحصل به تمام الهدىٰ.

ويستفيد أيضًا الاقتداء بتعليماتهم العالية وإرشاداتهم للخلق وحسن خطابهم ولطفَ جوابهم وتمام صبرهم. فليس القصد من قصصهم أن تكون سمرًا وإنما القصد أن تكون عبرًا.

ومن علوم القرآن: علم أهل السعادة، والخير، وأهل الشقاوة، والشر وفي معرفته لهم ولأوصافهم ونعوتهم فوائد الترغيب والاقتداء بالأخيار، والترهيب من أحوال الأشرار،

والفرقان بين هؤلاء وهؤلاء، وبيان الصفات والطرق التي وصل بها هؤلاء إلىٰ دار النعيم، ووصل بها أولئك إلىٰ دار الجحيم، ومحبة هؤلاء الأتقياء من الإيمان، كما أن بغض أولئك من الإيمان وكلما كان العبد أعرف بأحوالهم تمكن من هذه المقاصد.

ومن علوم القرآن: علم الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة علىٰ أعمال الخير وأعمال الشر.

وفي ذلك مقاصد جليلة: الإيمان بكمال عدل الله وسعة فضله والإيمان باليوم الآخر، فإن تمامَ الإيمان بذلك يتوقف علىٰ معرفة ما يكون فيه، والرغبة في الأعمال التي رتب الله عليها الجزاء الجزيل، والرهبةُ من ضدها.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي.

وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله؛ فإن العباد محتاجون إلىٰ معرفة ما أمروا به وما نهوا عنه، وبالعمل بذلك والعلم سابق للعمل، وطريق ذلك: إذا مر علىٰ القارئ نص فيه أمر بشيء عرفه وفَهِم ما يدخل فيه وما لا يدخل فيه، وحاسب نفسه: هل هو قائم بذلك كله أو بعضه أو تاركه؟ فإن كان قائمًا به فليحمد الله، ويسأله الثبات والزيادة من الخير. وإن كان مقصرًا فيه فليعلم أنه مطالب به وملزم به فليستعن بالله علىٰ فعله، وليجاهد نفسه علىٰ ذلك.

وكذلك في النهي ليعرف ما يراد منه، وما يدخل في ذلك الذي نهىٰ الله عنه، ثم لينظر إلىٰ نفسه فإن كان قد ترك ذلك فليحمد الله علىٰ توفيقه، ويسأله أن يثبته علىٰ ترك المناهي كما يسأله الثبات علىٰ فعل الطاعات؛ وليجعل الداعي له علىٰ الترك امتثال طاعة الله، ليكونَ تركه عبادةً، كما كان فعله للطاعة عبادة، وإن كان غير تارك له فليتب إلىٰ الله منه توبة نصوحا جازمة وليبادر، ولا تمنعه الشهوات الدنية ما تدعوه إليه النفس الأمارة بالسوء.

فمن كان عند هذه المطالب وغيرها عاملًا علىٰ هذه الطريقة فإنه ثابت علىٰ الصراط المستقيم والطريقة المثلىٰ فيما عليه من الاسترشاد بكتاب الله وحصل له بذلك علم غزير وخير كثير.

القاعدة الثلاثون:

أركان الإيمان بالأسماء الحسنى

ثلاثة: إيماننا بالاسم، وبما دل عليه من المعنىٰ، وبما تعلق به من الآثار.

وهذه القاعدة العظيمة: خاصة بأسماء الرب سبحانه وتعالىٰ وفي القرآن من الأسماء الحسنىٰ ما ينيف عن ثمانين اسمًا ـ كُررت في آيات متعددة، بحسب ما يناسب المقام، كما تقدم بعض الإشارة إليها.

وهذه القاعدة تنفعك في كل اسم من أسمائه الحسنىٰ المتعلقة بالخلق والأمر، والثواب والعقاب فعليك أن تؤمن بأنه عليم، وذو علم عظيم، ومحيط بكل شيء، قدير، وذو قدرة وقوة عظيمة ويقدر علىٰ كل شيء، ورحيم، وذو رحمة عظيمة ورحمته وسعت كل شيء والثلاثة متلازمة فالاسم دل علىٰ الوصف، وذلك دل علىٰ المتعلق فمن نفىٰ واحدًا من هذه الأمور الثلاثة فإنه لم يتم إيمانه بأسماء الرب وصفاته، الذي هو أصل التوحيد.

ولنكتف بهذا الأنموذج ليعرف أن الأسماء كلها علىٰ هذا النمط.

القاعدة الحادية والثلاثون:

ربوبية الله في القرآن على نوعين: عامة وخاصة

كثر في القرآن ذكر ربوبية الرب لعباده ومتعلقاتها ولوازمها.

وهي علىٰ نوعين:

ربوبية عامة: يدخل فيها جميع المخلوقات برها وفاجرها، بل مكلفوها وغير المكلفين، حتىٰ الجمادات. وهي أنه تعالىٰ المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها، وإعطائها ما تحتاجه أو تضطر إليه في بقائها، وحصول منافعها ومقاصدها فهذه التربية لا يخرج عنها أحد.

والنوع الثاني: في تربيته لأصفيائه وأوليائه، فيربيهم بالإيمان الكامل، ويوفقهم لتكميله ويُكملهم بالأخلاق الجميلة، ويدفع عنهم الأخلاقَ الرذيلة، وييسرهم لليسرىٰ ويجنبهم العسرىٰ.

وحقيقتها: التوفيق لكل خير، والحفظ من كل شر، وإنالة المحبوبات العاجلة والآجلة،

وصرف المكروهات العاجلة والآجلة.

فحيث أُطلقت ربوبيته تعالىٰ فإن المراد بها المعنىٰ الأول، مثل قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[الفاتحة] ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:١٦٤] ونحو ذلك.

وحيث قُيدت بما يحبه ويرضاه، أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم، فإن المراد بها النوع الثاني. وهو متضمن للمعنىٰ الأول وزيادة؛ ولهذا تجد أسئلة الأنبياء وأتباعهم في القرآن بلفظ الربوبية غالبًا فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة فملاحظة هذا المعنىٰ نافعة أعظم النفع للعبد.

ونظير هذا المعنىٰ الجليل: أن الله أخبر في عدة آيات أن الخلق كلهم عباده وعبيده: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾[مريم] فكلهم مماليكه، وليس لهم من الملك والأمر شيء ويخبر في بعض الآيات أن عباده بعض خلقه كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[الفرقان:٦٣] ثم ذكر صفاتهم الجليلة وكقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر:٣٦] وفي قراءة ﴿عَبْدِهِۦ﴾ وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[الإسراء:١] وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[البقرة:٢٣] فالمراد بهذا النوع من قاموا بعبودية الله، وأخلصوا له الدين علىٰ اختلاف طبقاتهم.

فالعبودية الأولىٰ: يدخل فيها البر والفاجر.

والعبودية الثانية: صفة الأبرار. ولكنَّ الفرق بين الربوبية والعبودية: أن الربوبية وصف الرب وفعله، والعبودية وصف العبيد وفعلهم.

القاعدة الثانية والثلاثون:

الأمر بالشيء نهي عن ضده

إذا أمر الله بشيء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان آمرًا بضده، وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص كان ذلك إثباتًا للكمال

وذلك: بأنه لا يمكن امتثال الأمر علىٰ وجه الكمال إلا بترك ضده، فحيث أمر بالتوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والعدل والإحسان، كان ناهيًا عن الشرك وعن ترك الصلاة وترك الزكاة وترك الصوم وترك الحج وعن العقوق

والقطيعة والظلم والإساءة، وحيث نهىٰ عن الشرك وترك الصلاة إلىٰ آخر المذكورات كان آمرًا بالتوحيد وفعل الصلاة إلىٰ آخرها.

وحيث أمر بالصبر والشكر، وإقبال القلب علىٰ الله إنابة ومحبة وخوفًا ورجاءً، كان ناهيًا عن الجزع والسخط وكفران النعم وإعراض القلب عن الله في تعلق هذه الأمور بغيره وحيث نهىٰ عن الجزع وكفران النعم وغفلة القلب، كان آمرًا بالصبر إلىٰ آخر المذكورات.

وهذا ضربُ مثلٍ، وإلا فكل الأوامر والنواهي علىٰ هذا النمط، وكذلك المدح لا يكون إلَّا بإثبات الكمالاتٍ، فحيث أثنىٰ علىٰ نفسه، وذكر تنزهه عن النقائص والعيوب كالنوم والسِّنة واللُّغوب والموت، وخفاء شيء في العالم من الأعيان والصفات والأعمال وغيرها، والظلم والعبث واللعب وخلق شيء باطلًا وأن يكون عطاؤه أو جزاؤه جزافًا بلا حكمة، فَلْتَضمن ذلك الثناء عليه بكمال حياته، وكمال قيوميته، وقدرته، وسعة علمه، وكمال عدله وحكمته؛ لأن العدم المحض لا كمال فيه، حتىٰ ينفي تكميلًا للكمال.

وكذلك إذا نفىٰ الله عن كتابه الريب والاختلافَ والشك والإخبارَ بخلاف الواقع كان ذلك لكمال دلالته علىٰ اليقين في جميع المطالب، واشتماله علىٰ الأحكام، والانتظام التام والصدق الكامل، إلىٰ غير ذلك من صفات كتابه.

وكذلك إذا نفىٰ عن رسوله ﷺ الكذب، والتقول علىٰ الله، واتباع الهوىٰ والجنون والسحر والشعر ونحوها، كان ذلك لأجل إثبات كمال صدقه، وأنه لا ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ، ولكمال عقله ولزوال كل ما يقدح في كمال نبوته ورسالته.

فتفطن لهذه القاعدة في كل ما يمر عليك من الآيات القرآنية في هذه الأمور وغيرها، تنل خيرًا كثيرًا. والله أعلم.

القاعدة الثالثة والثلاثون:

المرض في القرآن

مرض القلوب نوعان: **مرض شبهات وشكوك، ومرض شهوات ومحرمات** والطريق إلىٰ تميز هذا من هذا ـ مع كثرة ورودهما في القرآن ـ يُدرك من السياق.

فإن كان هذا السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين، كان مرضَ

الشكوك والشبهات، وإن كان السياق في ذكر المعاصي والميل كان مرضَ الشهوات ووجه انحصار المرض في هذين النوعين: أن مرض القلب خلاف صحته، وصحة القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه ومعرفته ويقينه، وكمال إرادته وحبه لما يحبه الله ويرضاه.

فالقلب الصحيح: هو الذي عرف الحق واتبعه، وعرف الباطل واجتنبه، فإن كان علمه شكًا وعنده شبهات تُعارض ما أخبر الله به من أصول الدين وفروعه، كان علمه منحرفًا وكان مرض قلبه قوة وضعفًا بحسب هذه الشكوك والشبهات وإن كانت إرادته ومحبته مائلة لشيء من معاصي الله، كان ذلك انحرافا في إرادته ومرضًا.

وقد يجتمع الأمران فيكون القلب منحرفًا في علمه وفي إرادته.

فمن النوع الأول: قوله تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[البقرة:١٠] وهي التقاليد والشكوك والشبهات المعارضة لرسالة محمد ﷺ ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾[البقرة:١٠] عقوبة علىٰ ذلك المرض الناتج عن أسباب متعددة، كلها منهم، وهم فيها غير معذورين.

ونظير هذا قوله تعالىٰ في سورة براءة: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة:١٢٥].

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾[الحج:٥٣] فإن مريض القلب بالشكوك وضعف العلم أقل شيء يريبه ويؤثر فيه ويفتتن به.

ومن الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلۡنَ قَوۡلًا مَّعۡرُوفًا ٣٢﴾[الأحزاب] أي: مرض شهوة وإرادة للفجور، أقل شيء من أسباب الافتنان يوقعه في الفتنة طمعًا أو فعلًا. فكل من أراد شيئًا من معاصي الله فقلبه مريض مرض شهوة، ولو كان صحيحًا لاتصف بصفات الأذكياء الأبرياء الأتقياء الموصوفين بقوله في سورة الحجرات:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةًۚ﴾[الحجرات].

فمن كان قلبه علىٰ هذا الوصف الذي ذكره الله، فليحمده علىٰ هذه النعمة التي لا يقاومها شيء من النعم. وليسأل الله الثبات علىٰ ذلك، والزيادة من فضل الله ورحمته.

القاعدة الرابعة والثلاثون:

دلَّ القرآن في عدة آيات أنَّ من ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتلي بالاشتغال بما يضره، وحُرِم الأمرَ الأول

وذلك أنه ورد في عدة آيات: أن المشركين لما زهدوا في عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل، بزعمهم: أنهم بشر، ابتلوا بالانقياد لكل مارج العقل والدين، ولما عرض عليهم الإيمان أول مرة فعرفوه، ثم تركوه، قلب الله قلوبهم، وطبع عليها وختم، فلا يؤمنون حتىٰ يروا العذاب الأليم.

ولما بين لهم الصراط المستقيم، وزاغوا عنه اختيارًا ورضًا بطريق الغي علىٰ طريق الهدىٰ والرشد، عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم خاسرين في كل سعيهم.

ولما أهانوا آيات الله ورسله أهانهم الله بالعذاب المهين.

ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم في الدنيا والآخرة.

ولما منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وأخربوها ما كان لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلا خائفين.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[التوبة] والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًا، يخبر الله فيها أن العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدي وأن يسلك الطريق المستقيم ثم تركها بعد أن عرفها، وزهد فيها بعد أن سلكها عوقب بإبعاده في طريق الضلالة الذي ارتضاه لنفسه وترك به طريق الهدىٰ.

فالاهتداء غير ممكن في حقه ما دام سادرًا في طريق غوايته ممعنًا في سبيل ضلالته.

جزاء علىٰ فعله، كقوله في اليهود في سورة البقرة: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾[البقرة] فإنهم لما تركوا اتباع كتب الله المنزلة من عنده لهداية العباد، وإصلاح كل شئونهم وإسعادهم، وهي خير ما يشتغل به العاقل الناصح لنفسه وأنفعها وأصدقها،

ابتلوا باتباع أرذلها وأخسئها وأضرها للعقول، وأفتكها في إفساد المجتمع، ولما ترك المحاربون لله ورسوله إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن، ابتلاهم بإنفاقها في طاعة الشيطان.

القاعدة الخامسة والثلاثون:

تقديم أعلى المصلحتين وأهون المفسدتين في القرآن عدة آيات في الحث على أعلى المصلحتين وتقديم أهون المفسدتين، ومنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته

وهذه قاعدة جليلة نبه الله عليها في آيات كثيرة:

فمن الأول: المفاضلة بين الأعمال وتقديم الأعلىٰ منها كقوله في سورة الحديد: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ ﴾[الحديد:١٠] وقوله في سورة التوبة: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[التوبة:١٩] وكقوله في سورة النساء: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ﴾[النساء:٩٥].

ومن الثاني: قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾[البقرة:٢١٧] بين تعالىٰ أن ما نقمه الكفار علىٰ المسلمين من قتال في الشهر الحرام ـ أنه وإن كان مفسدة ـ فما أنتم عليه من الصد عن سبيل الله والكفر به وبسبيل هداه وبالمسجد الحرام وصدكم عنه، وإخراج أهله منه أكبرُ عند الله، وفتنتكم المؤمنين بشديد الأذىٰ محاولين إرجاعهم إلىٰ الشرك أكبرُ من القتال في الشهر الحرام.

وقوله في سورة الفتح: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾[الفتح:٢٥] فكف الله المؤمنين عن القتال في المسجد الحرام في صلح الحديبية مع وجود المقتضىٰ من الكفار اتقاء للمفسدة المترتبة علىٰ ذلك من إصابة المؤمنين والمؤمنات المستضعفين الذين حبسهم المشركون بمكة عن الهجرة بأنواع من الأذىٰ أو القتل، ما يكون سببًا في لحوق المعرة بجيش المؤمنين.

وكذلك جميع ما جرىٰ في صلح الحديبية من هذا الباب من التزام تلك الشروط التي ظاهرها الضرر علىٰ المسلمين، ولكن تبين لهم بعد أنها عين المصلحة لهم والفتح المبين.

ومن هذا: أمره بكف الأيدي عن القتال قبل أن يهاجر الرسول إلىٰ المدينة، لأن الأمر بالقتال في ذلك الوقت أعظم ضررًا من الصبر والإخلاد إلىٰ السكينة، مع متابعة تبليغ الرسالة وإقامة الحجة والجهاد الكبير بالقرآن.

ولعل من هذا مفهوم قوله في سورة الأعلىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾[الأعلىٰ] يعني فإن ضرت فترك التذكير الموجب للضرر الكثير هو المتعين والآيات في هذا النوع كثيرة جدًا.

ومن النوع الثالث: قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾[البقرة:٢١٩].

وهذا كالتعليل العام أن كل ما كانت مضرته وإثمه أكبر من نفعه، فإن رحمة الله وحكمته لابد أن تقتضي المنع منه وتحريمه علىٰ عباده.

وهذا الأصل العظيم كما أنه ثابت شرعًا فإنه هو المعقول بين الناس المفطورون علىٰ استحسانه، والعمل به في الأمور الدينية والدنيوية، والله أعلم.

القاعدة السادسة والثلاثون:

مقابلة المعتدي بمثل عدوانه طريقة القرآن: إباحة الاقتصاص من المعتدي ومقابلته بمثل عدوانه، والنهي عن ظلمه، والندب إلى العفو عنه والإحسان

وهذا في آيات كثيرة، كقوله تعالىٰ في سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[النحل] وقوله في سورة الشورىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[الشورىٰ] فذكر المراتب الثلاثة ولما كان القتال في المسجد الحرام محرمًا قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ﴾ [البقرة] وهو كل ما حرم الله وأمر باحترامه.

فمن انتهكه فقد أباح الله الاقتصاص منه، بقدر ما اعتدىٰ به لا أكثر وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[البقرة:١٩٤] وقوله في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ﴾[البقرة:١٧٨] وقوله في سورة المائدة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[المائدة:٤٥] وقوله في سورة الإسراء: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾[الإسراء] وقوله في سورة النساء: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾[النساء] والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، والله أعلم.

القاعدة السابعة والثلاثون:

اعتبار المقاصد في ترتيب الأحكام اعتبر الله القصد والإرادة في ترتيب الأحكام على أعمال العباد

وهذا الأصل العظيم: صرح به النبي ﷺ في قوله: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**». متفق عليه.

والمقصود هنا: أنه ورد آيات كثيرة جدًا في هذا الأصل فمنها ـ وهو أعظمها ـ أنه رتب حصول الآجر العظيم علىٰ الأعمال بإرادة وجهه تعالىٰ، لما ذكر الصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس، قال في سورة النساء: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾[النساء] وقال في سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٦٥] وفي مقابله قال: ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[البقرة:٢٦٤].

ووصف الله نبيه وخيار خلقه من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ومن تبعهم بأنهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانا وقال في الرجعة في سورة البقرة: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ﴾[البقرة:٢٢٨] وقال في سورة البقرة: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ﴾[البقرة:٢٢٥].

وقال في سورة النساء: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ﴾[النساء:١٢] وقال في سورة النساء: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾[النساء] وفي سورة البقرة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة:١٨٨] وفي سورة البقرة: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾[البقرة:٢٢٠] وفي دعاء المؤمنين في سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾[البقرة:٢٨٦] فقال الله: «**قَدْ فَعَلْتُ**»، وقال في سورة

الأحـــــــــــزاب: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ [الأحزاب:٥].

وذكر الله قتل الخطأ ورتب عليه الدية والكفارة، ثم قال في سورة النساء: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾﴾[النساء] وقال في جزاء الصيد في سورة المائدة: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ الآية [المائدة:٩٥] وقال في سورة البقرة: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾[البقرة:٢٣٥] إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ أن أعمال الأبدان وأقوال اللسان، وصحتها وفسادها، ورتب أجرها أو وزرها: بحسب ما قام بالقلب من القصد والنية.

القاعدة الثامنة والثلاثون:

قد دلت آيات كثيرة على جبر المنكسر قلبه، ومن تشوفت نفسه لأمر من الأمور إيجابًا أو استحبابًا

وهذه قاعدة لطيفة، اعتبرها الباري وأرشد عباده إليها في عدة آيات.

منها: المُطلَّقة: فإنها لما كانت في الغالب منكسرة القلب حزينة علىٰ فراق بعلها، أمر الله بتمتعها علىٰ الموسع قدره وعلىٰ المقتر قدره، متاعًا بالمعروف.

وكذلك من مات زوجها عنها: فإن من تمام جبر خاطرها: أن تمكث عند أهله سنة كاملة وصية ومتعة مرغّب فيها.

وكذلك أوجب الله للزوجة علىٰ الزوج النفقة والكسوة في مدة العدة، إن كانت رجعية، أو كانت حاملًا مطلقة.

وقال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٨﴾﴾[النساء] ويدخل الواجب والمستحب في مثل قوله في سورة الأنعام: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾[الأنعام:١٤١].

وكذلك إخباره عن عقوبة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين، وتواصوا ألا يدخلنها اليوم عليهم مسكين.

وقال تعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ

أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[الإسراء] إلىٰ قوله: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[الإسراء:٢٦].

وقد ذكر الله جبره لقلوب أنبيائه وأصفيائه أوقات الشدائد وإجابته لأدعيتهم بتفريج الكربات أوقات الحاجات والضرورات وأمر عباده بانتظار الفرج عند الأزمات.

فهذا أصل قد اعتبره الله، وأرشد إليه فينبغي للعبد أن يكون هذا علىٰ باله في وقت المناسبات ويعتبره عند وجود سببه.

القاعدة التاسعة والثلاثون:

في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية

طريقة القرآن في هذا أعلىٰ طريقة، وأقرب إلىٰ حصول جميع المصالح الكلية، وإلىٰ دفع المفاسد، ولو لم يكن في القرآن من هذا النوع إلا قوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران١٥٩] وإخباره عن المؤمنين في سورة الشورىٰ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورىٰ٣٨] فالأمر مفرد ومضاف إلىٰ المؤمنين، وفي الآية الأولىٰ: قد دخلت عليه: «ال»، المفيدة للعموم والاستغراق، يعني أن جميع أمور المؤمنين وشئونهم واستجلاب مصالحهم واستدفاع مضارهم، معلقٌ بالشورىٰ والتعاون علىٰ الاهتداء إلىٰ الأمر الذي يجرون عليه في حل مشكلاتهم، وتدعيم سلطانهم وتجنيبهم الخلاف المفضي إلىٰ تفكك قواهم وانحلال عراهم.

وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورىٰ.

فالمسلمون قد أرشدهم الله إلىٰ أن يهتدوا إلىٰ مصالحهم وكيفية الوصول إليها بأعمال أفكارهم مجتمعة، فإذا تعينت المصلحة في طريق سلكوه، وإذا تعينت المضرة في طريق تركوه، وإذا كان في ذلك مصلحة ومضرة، نظروا: أيها أقوىٰ وأولىٰ وأحسن عاقبة، وإذا رأوا أمرًا من الأمور هو المصلحة، ولكن ليست أسبابه عتيدة عندهم ولا لهم قدرة عليها نظروا بأي شيء تدرك الأسباب وبأي حالة تنال علىٰ وجه لا يضر سلوكها.

وإذا رأوا مصالحهم تتوقف علىٰ الاستعداد بالفنون الحديثة والاختراعات الباهرة، سعوا لذلك بحسب اقتدارهم، ولم يملكهم اليأس والاتكال علىٰ غيرهم الملقي إلىٰ

التهلكة، وإذا عرفوا ـ وقد عرفوا ـ أن السعي لاتفاق الكلمة وتوحيد الأمة هو الطريق الأقوم للقوة المعنوية جدوا في هذا واجتهدوا، وإذا رأوا المصلحة في المقاومة والمهاجمة أو في المسالمة والمدافعة بحسب الإمكان، سلكوا ما تعينت مصلحته فيقدمون في موضع الإقدام، ويحجمون في موضع الإحجام، وبالجملة لا يدعون مصلحة داخلية ولا خارجية، دقيقة ولا جليلة إلا تشاوروا فيها، وفي طريق تحصيلها وتنميتها، ودفع ما يضادها وينقصها.

فهذا النظام العجيب الذي أرشدهم إليه القرآن: هو النظام الذي يصلح لكل زمان ومكان، ولكل أمة ومن ذلك قوله في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[الأنفال:٦٠] فهذه الآية تصرح بوجوب الاستعداد للأعداء بكل ما نستطيعه من قوة عقلية، ومعنوية ومادية، مما لا يمكن حصر أفراده، وفي كل وقت يتعين سلوك ما يلائم ذلك الوقت ويناسبه ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء:٧١] ونحوها من الآيات التي أرشد الله فيها إلىٰ شدة التحرز من الأعداء، فكل طريق وسبب يتحرز به من الأعداء فإنه داخل في هذا، ولكل وقت لبوسه، وأن نكون منهم أبدا علىٰ حذر في وقت السلم فضلا عن وقت الحرب وأن تكون لنا العيون والأرصاد عليهم لنعلم كل حركاتهم الحربية والعلمية لنأخذ السبيل عليهم ونسبقهم حتىٰ لا يكون لهم من ضعفنا وجهلنا فرصة تمكنهم منا وألا نمكنهم من الاطلاع علىٰ أسرارنا الحربية ولا علىٰ مواردنا الاقتصادية فضلا عن تمكينهم منها وفضلا عن أن نكون عالة عليهم فيها فكل ذلك وغيره داخل تحت قوله: خذوا حذركم ومن عجيب ما نبه إليه القرآن من النظام الوحيد، أن الله عاتب المؤمنين بقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾[آل عمران:١٤٤] فأرشد عباده إلىٰ أنه ينبغي أن يكونوا بحالة من الحكمة واستقامة الأمور علىٰ طريقها، بحيث لا يزعزعهم عنها فَقْدُ رئيس وإن عظم.

وما يكون ذلك إلا بأن يستعدوا لكل أمر من أمورهم الدينية والدنيوية بعدة أناس، إذا فقد أحدهم قام مقامه غيره، وأن تكون الأمة متوحدة في إرادتها وعزمها ومقاصدها وجميع شئونها قصدهم جميعًا أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تكون أمتهم ذات شوكة يرهبها العدو فلا يستطيع أن يغتصبها بعض حقوقها المادية في أرضها ومنافعها ولا بعض حقوقها

في سيادتها وحريتها وأن تقوم جميع الأمور بحسب قدرتهم وقواهم التي أنعم الله بها عليهم ومكنهم بها من المحافظة التامة علىٰ حقوقهم في هذا الوجود مؤمنين أوثق الإيمان أن الله ما استخلفهم في الأرض إلا لإصلاحها باستثمار خيراتها واستخراج دفائنها وكنوزها وتنمية قواهم وطاقاتهم الإنسانية بالعلم والفنون والصناعات مؤمنين أنه يبغض منهم أشد البغض أن يكونوا ضعفاء أذلة عالة علىٰ غيرهم فإن سنة الله في هذا الوجود أن الحياة العزيزة لا تكون إلا لمن أكرم نفسه وأعزها بحيث يكون الموت أحب إليه من أن يعيش آلاف السنين مهينا ذليلا لا يعرفه الوجود إلا تابعا قد تلاشت شخصيته وانماع في متبوعه ولقد خلق الله من العرب الضعفاء القليلين خير أمة أخرجت للناس في كل معان الحياة العزيزة الكريمة حين فهموا هذا القرآن علىٰ وجهه الصحيح وآمنوا به واهتدوا بهداه وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[التغابن:١٦] أي: اتقوا الله واحذروا شديد غضبه وعقابه بالقيام بما أمر به من كل ما فيه الخير والصلاح لكم جماعة ومنفردين، بكل جهدكم وبكل ما أعطاكم من طاقة وقوىٰ، فإن هذا هو حق تقواه وأن يبذل العبد كل ما في وسعه وليست ناسخة لآية آل عمران بل هي مفسرة لها فكل مصلحة أمر الله بها وهي متوقفة في حصولها أو في كمالها علىٰ أمر من الأمور السابقة واللاحقة، فإنه يجب تحصيلها بحسب الاستطاعة فلا يكلفهم الله ما لا يطيقون وكذلك كل مفسدة ومضرة لا يمكن اجتنابها إلا بسلوك بعض الطرق السابقة واللاحقة فإنها داخلة في تقوىٰ الله تعالىٰ، وذلك بأسبابها، لازم الحق حق، والوسائل لها أحكام المقاصد.

كذلك كل ما نهاهم عنه، فإنه أعطاهم من القوىٰ والأسباب ما يمكنهم من البعد عنه ومن الحلال ما يستغنون به. ومن الآيات الجامعة في السياسة قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾﴾[النساء] والآية التي بعدها.

فالأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة، من أَجَلِّها: الولايات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة، الدينية والدنيوية فقد أمر الله أن تؤدىٰ الأمانات إلىٰ أهلها بأن يجعل فيها الأكفاء لها، وكل ولاية لها أكفاء مخصوصون فهذا الطريق الذي أمر الله به في الولايات من أصلح الطرق لصلاح جميع الأحوال، فإن صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها والمدبرين لها

والعاملين عليها، فيجب تولية الأمثل فالأمثل: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص].

ولن يتم ذلك للأمة علىٰ ما أرشد الله وأمر إلا بأن يشعر كل واحد بلواجب عليه لنفسه ومالها وماعليها من الأمانات والواجبات عليه لأبنائه وزوجه وخدمه ومواليه وبهائمه وأرضه ومتجره وكل شيء وضعه الله تحت يده واسترعاه إياه ويقدر المسئولية أمام الله سبحانه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[الشعراء] فيقوم بكل ما في مكنته وجهده لهذا الواجب غير متوان ولا متواكل فعندئذ -فقط- تكون الأمة صالحة في أفرادها وأسرها وحكامها وأمرائها فصلاح المتولين للولايات الكبرىٰ والصغرىٰ عنوان صلاح الأمة وضده بضده.

وأصدق البراهين علىٰ ذلك قول الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] فهل آن للذين يتجنون بالشكوىٰ من ولاة أمورهم أن يعقلوا عن الله سننه وحكمته فيعلموا أن الواجب عليه فيما استرعاه الله من الرعية وخيانته لما استأمنه الله من آمانات وأن الولاة إنما هم من أفراد الأمة والصورة المصغرة التي تمثل الأمة وتصورها ولكن أكثر الناس لا يعقلون ثم أرشدهم الله إلىٰ الحكم بين الناس بالعدل الذي ما قامت السماوات والأرض إلا به، فالعدل قوام الأمور وروحها، وبفقده تفسد الأمور كلها ويختل الميزان لكل شيء.

والحكم بالعدل من لازمه معرفة حقيقة العدل في كل أمر من الأمور، فإن فهمت الأمة حقيقة العدل وعرفت حدوده وضعت كل شيء في موضعه، وكان المتولون للولايات هم الكمل من الرجال والأكفاء للأعمال فَجَرَتْ تدابيرهم وأفعالهم علىٰ العدل والسداد، متجنبين للظلم والفساد، ترقت الأمة وصَلَحت أحوالها، وتمام ذلك في الآية الأخرىٰ التي أمر الله فيها بطاعة ولاة الأمور بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[النساء:٥٩] فهل يوجد أكمل وأغنىٰ من هذه السياسة الحكيمة الرشيدة التي عواقبها أحمد العواقب؟

ومن الآيات المتعلقة بالسياسة الشرعية: جميع الآيات التي شرع الله فيها الحدود علىٰ الجرائم، العقوبات علىٰ المتجرئين علىٰ حقوقه وحقوق عباده وهي في غاية العدالة

والحسن وردع المجرمين والنكال والتخويف لأهل الشر والفساد، وتطهير المجتمع من فسادهم، وتنقيته من جرائمهم صيانة لدماء الخلق وأموالهم وأعراضهم.

والآيات التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتكلم بالحق مع من كان وفي أي حال من الأحوال.

وكذلك ما فيها من النهي عن الظلم فيه إرشاد لإعطاء الناس الحرية النافعة التي معناها التكلم بالحق، والدعوة إلىٰ الصالح للأمة، وفي الأمور التي لا محظور فيها، كما أن الحدود والعقوبات والنهي عن الكلام القبيح والفعل القبيح فيها رد الحرية الزائفة الكاذبة الباطلة التي يتشدق بها الحمقىٰ والسفهاء الذي عموا وصموا، فلا يرون ما حل بأمم الغرب من الدمار من ثمرات هذه الحرية الفاجرة الخاسرة إن ميزان الحرية الصحيحة النافعة هو ما أرشد إليه القرآن والنبي ﷺ.

وأما إطلاق عِنان الجهل والظلم والأقوال الضارة للمجتمع المحللة للأخلاق، فإن من أكبر أسباب الشر والفساد، المؤدية إلىٰ الفوضىٰ المحضة وانحلال الأخلاق التي هي قوام كل أمة.

فنتائج الحرية الصحيحة أحسن النتائج، ونتائج الحرية الفاسدة أقبح النتائج، فالشارع فتح الباب للأولىٰ، وأغلقه عن الثانية، تحصيلًا للمصالح ودفعًا للمضار والمفاسد، والله أعلم.

القاعدة الأربعون:

في دلالة القرآن على أصول الطب

أصول الطب ثلاثة: حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة، والحمية عن الأمور الضارة، ودفع ما يعرض للبدن من المؤذيات.

ومسائل الطب كلها تدور علىٰ هذه القواعد.

وقد نبه القرآن عليها في قوله تعالىٰ في حفظ الصحة ودفع المؤذي: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[لأعراف:٣١] فأمر الله بالأكل والشرب اللذي لا تستقيم الأبدان إلا بهما، وأطلق ذلك ليدل علىٰ أن المأكول والمشروب بحسب ما يلائم الإنسان، وينفعه في كل وقت وحال. ونهىٰ عن الإسراف في ذلك، إما بالزيادة في كثرة المأكولات والمشروبات، وإما

بالتخليط في المطعوم والأوقات، وهذا حمية عن كل ما يؤذي الإنسان. فإذا كان القوت الضروري من الطعام والشراب يصير بحالة يتأذىٰ منه البدن ويتضرر منع منه، فكيف بغيره؟

وكذلك أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضره، حمية له عن المضرات كلها.

وأباح للمحرم الذي به أذىٰ من رأسه أن يحلقه ويفدي، وهذا من باب الاستفراغ وإزالة ما يؤذي البدن، فكيف بما ضرره أكبر من هذا؟

ونهىٰ عن الإلقاء باليد إلىٰ التهلكة، فيدخل في ذلك استعمال كل ما يتضرر به الإنسان من الأغذية والأدوية، ودفع ما يضر بمدافعته الذي لم يقع، والتحرز عنه وبمعالجة الحادث بالطرق الطبية النافعة.

وكذلك ما ذكره الله في كتابه من الأعمال كلها كالجهاد والصلاة والصوم والحج وبقية الأعمال والإحسان إلىٰ الخلق فإنها وإن كان المقصود الأعظم منها نيل رضا الله وقربه وثوابه، والإحسان إلىٰ عبيده، فإن فيها صحة للأبدان وتمرينًا لها، ورياضة وراحة للنفس، وفرحًا للقلب وأسرارًا خاصة تحفظ الصحة وتنميها وتزيل عنها المؤذيات.

وبالجملة فإن جميع الشرائع ترجع إلىٰ صلاح القلوب والأرواح والأخلاق والأبدان والأموال والدنيا والآخرة، والله أعلم.

القاعدة الحادية والأربعون:

يرشد الله عباده في كتابه من جهة العمل إلى قصر نظرهم على الحالة الحاضرة التي هم فيها، ومن جهة الترغيب في الأمر والترهيب من ضده إلى ما يترتب عليها من المصالح، ومن جهة النعم إلى النظر إلى ضدها

وهذه القاعدة الجليلة دعا إليها القرآن في آيات عديدة، وهي من أعظم ما يدل علىٰ حكمة الله، ومن أعظم ما يرقي العاملين إلىٰ كل خير ديني ودنيوي، فإن العامل إذا كان مشتغلا بعمله الذي هو وظيفة وقته، فإن قصر فِكره وظاهره وباطنه عليه نجح، ويتم له الأمر بحسب حاله.

وإن نظر وتشوقت نفسه إلىٰ أعمال أخرىٰ لم يحن وقتها بعدُ شغل بها ثم استبعد فترت عزيمته، وانحلت همته وصار نظره إلىٰ الأعمال الأخرىٰ كليلا ينقص من إتقان عمله الحاضر وجمع الهمة عليه.

ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته وقل نشاطه، وربما كان الثاني متوقفًا علىٰ الأول في حصوله أو تكميله، فيفوت الأول والثاني، بخلاف من جمع قلبه وقالبه، وصار أكبر همه هو القيام بعمله الذي هو وظيفة وقته؛ فإنه إذا جاء العمل الثاني فإذا هو قد استعد له بقوة ونشاط وتلقاه بشوق، وصار قيامه بالأول معونة علىٰ قيامه بالثاني.

ومن هذا قوله تعالىٰ مصرحًا بهذا المعنىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧].

فانظر كيف حالهم الأولىٰ وأمنيتهم وهم مأمورون بكف الأيدي، فلما لم يقبلوا موعضة الله فلما جاءهم العمل الثاني ضعفوا كل الضعف عنه.

ونظير هذا ما عاتب الله به أهل أُحد في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[آل عمران] وقد كشف هذا المعنىٰ كل الكشف قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾[النساء] لأن فيه تكميلًا للعمل الأول، وتثبيتًا من الله، وتمرنًا علىٰ العمل الثاني.

ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾[التوبة] فالله أرشد العباد أن يكونوا أبناء وقتهم، وأن يقوموا بالعمل الحاضر ووظيفته، ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت، فاجتمعت الهمة والعزيمة الصادقة عليه، وصار القيام بالعمل الأول معينًا علىٰ الثاني، وهذا المعنىٰ في القرآن كثير.

وأما الأمور المتأخرة فإن الله يرشد العاملين إلىٰ ملاحظتها لتقوىٰ هممهم علىٰ العمل المثمر للمصالح والخيرات. وهذا كالترغيب المتنوع من الله علىٰ أعمال الخير، والترهيب من أفعال الشر، بذكر عقوباتها، وثمرتها الذميمة.

فاعرف الفرق بين النظر إلىٰ العمل الآخر الذي لم يجئ وقته، وبين النظر إلىٰ ثواب العمل الحاضر الذي كلما فترت همة صاحبه، زاد وهنا وضعفا وكلما اتسع أمله فيما يترتب عليه من الخيرات استجد نشاطه، وقوي عليه وهانت عليه مشقته، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾[النساء:١٠٤].

وأما إرشاده من جهة النعم التي علىٰ العبد مِنَ الله بالنظر إلىٰ ضدها ليعرف قدرها، ويزداد شكره لله تعالىٰ عليها، ففي القرآن منه كثير، يُذكِّر عباده نعمته عليهم بالدين والإسلام وما ترتب علىٰ ذلك من النعم، كقوله في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران] وفي قوله في سورة آل عمران: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[آل عمران] أي تهتدون إلىٰ الزيادة من هذه الأسباب والنعم.

وقوله في سورة الأنفال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[الأنفال].

وقوله في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[القصص:٧٢] إلىٰ آخر الآيات، حيث يذكرهم أن ينظروا إلىٰ ضد ما هم فيه من النعم والخير، ليعرفوا قدر ما هم فيه منها.

وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ، حيث قال: «**انْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**»، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾[الأعراف] وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾[الضحىٰ] إلىٰ آخرها.

القاعدة الثانية والأربعون:

في أن الله قد ميز في كتابه بين حقه الخاص وحق رسوله الخاص والحق المشترك

واعلم بذلك أن الحقوق ثلاثة:

حق لله وحده، لا يكون لغيره: وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات.

وحق لرسوله ﷺ خاص: وهو التعزير والتوقير والقيام بحقه اللائق واتباعه والاقتداء به.

وحق مشترك: وهو الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله ورسوله ومحبة الله ومحبة رسوله.

وقد ذكر الله الحقوق الثلاثة في آيات كثيرة من القرآن، فأما حقه الخاص: فكل آية فيها الأمر بعبادته وإخلاص العمل له، والترغيب في ذلك، وهذا شيء لا يحصىٰ.

وقد جمع الله ذلك في قوله في سورة الفتح: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، فهذا مشترك ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾، فهذا خاص بالرسول ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾[الفتح] فهذا حق لله وحده. وقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[النساء:٥٩] في آيات كثيرة وكذلك: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[النساء:١٣٦].

وكذلك قوله في سورة التوبة: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾[التوبة:٦٢] وقوله تعالىٰ: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ فهذا مشترك ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾[التوبة] هذا مختص بالله تعالىٰ.

ولكن ينبغي أن يعرف العبد أن الحق المشترك ليس معناه أن ما لله منه يثبت لرسوله مثله ونظيره في كل خصائصه، بل المحبة والإيمان بالله والطاعة لله لابد أن يصحبها التعبد، والتعظيم لله، والخضوع رغبة، ورهبة.

وأما المتعلق بالرسول من ذلك: فإنه حب في الله، وطاعة لله فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، بل حق الرسول علىٰ أمته من حق الله تعالىٰ عليهم، فيقوم المؤمن بحق رسوله وطاعته امتثالًا لأمر الله، وعبودية له.

وإنما قيل له حق الرسول، لتعلقه بالرسول، وإلا فجميع ما أمر الله به وحث عليه من القيام بحقوق رسوله، وحقوق الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب والجيران والعلماء والولاة والأمراء، والكبير علىٰ الصغير والصغير علىٰ الكبير وغيرهم، كله حق لله تعالىٰ،

فيقوم به العبد امتثالا لأمر الله وتعبدًا له، وقيامًا بحق ذي الحق، وإحسانًا إليه، إلا الرسول فإن الإحسان منه كله إلىٰ أمته فما وصل إليهم خير إلا علىٰ يديه ﷺ تسليمًا.

القاعدة الثالثة والأربعون:

يأمر الله بالتثبت وعدم العجلة في الأمور التي يخشى من سوء عواقبها، ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يخشى فواتها

وهذه القاعدة في القرآن كثيرة:

قال تعالىٰ في القسم الأول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤] الآية وفي قراءة: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾[الحجرات:٦].

وقد عاب الله المتسرعين إلىٰ إذاعة الأخبار التي يخشىٰ من إذاعتها وأن ذلك من اتباع خطوات الشيطان، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾[النساء:٨٣] وقال تعالىٰ: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾[يونس:٣٩] **ومن هذا الباب**: الأمر بالمشاورة في الأمور، وأخذ الحذر، وأن لا يقول الإنسان ما ليس له به علم، وفي هذا آيات كثيرة.

وأما القسم الثاني: كقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[آل عمران:١٣٣] وقوله: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[البقرة:١٤٨] وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾[المؤمنون] وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة] أي: **السابقون في الدنيا إلىٰ الخيرات**: هم السابقون في الآخرة إلىٰ الجنات والكرامات والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

وهذا الكمال الذي أرشد الله عباده إليه، هو أن يكونوا حازمين لا يفوتون فرص الخيرات، وأن يكونوا متثبتين خشية الوقوع في المكروهات والمضرّات.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾[المائدة].

القاعدة الرابعة والأربعون:

عند ميل النفوس أو خوف ميلها إلى ما لا ينبغي، يذكرها الله ما يفوتها من الخير، وما حصل لها من الضرر بهذا الميل

وهذا في القرآن كثير، وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة، لأن الأمر بالمعروف والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلق في كفهم عما لا ينبغي، حتىٰ يقرن بذلك ما يفوت من المحبوبات التي تزيد ثمراتها الطيبة أضعافًا مضاعفة علىٰ الذي يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرتب عليه كذلك.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾[الأنفال:٢٨] فهنا لما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر الخلق عن طريق الاستقامة، قال مذكرًا لهم ما يفوتهم إن افتتنوا بها، وما يحصل لهم إن سلموا من فتنتها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال].

وقال تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾﴾[النساء] وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورىٰ] وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء].

والآيات في هذا المعنىٰ الجليل كثيرة جدًا فإذا بان للناظر أصلها وقاعدتها سهل عليه تنزيل كل ما يرد منها علىٰ الأصل المقرر، والله أعلم.

القاعدة الخامسة والأربعون:

حث الباري سبحانه في كتابه على الصلاح والإصلاح

هذه القاعدة من أهم القواعد، فإن القرآن يكاد يكون كله داخلًا تحتها فإن الله أمر بالصلاح في آيات متعددة والإصلاح، وأثنىٰ علىٰ الصالحين والمصلحين في آيات أخر.

والصلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة آخذة سبيلها الذي سنه الله مقصودًا بها غايتها الحميدة، التي قصد الله إليها فأمر الله بالأعمال الصالحة وأثنىٰ علىٰ الصالحين في

آيات أخر، لأن أعمال الخير تصلح القلوب والإيمان، وتصلح الدين والدنيا والآخرة، وضدها فساد هذه الأشياء، وكذلك في آيات متعددة فيها الثناء علىٰ المصلحين لما أفسد الناس، والمصلحين بين الناس والتصالح فيما بين المتنازعين، وأخبر علىٰ وجه العموم أن الصلح خير.

فإصلاح الأمور الفاسدة: السعي في إزالة ما تحتوي عليه من الشرور والضرر العام والخاص.

ومن أهم أنواع الإصلاح: السعي في إصلاح أحوال المسلمين في إصلاح دينهم ودنياهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾[هود:٨٨] فكل ساعٍ في مصلحة دينية أو دنيوية، فإنه مصلح، والله يهديه ويرشده ويسدده، وكل ساعٍ بضد ذلك فهو مفسد، والله لا يصلح عمل المفسدين.

ومن أهم ما حث الله عليه: السعي في الصلح بين المتنازعين، كما أمر الله بذلك في الدماء والأموال والحقوق المتنازع بين الزوجين، والواجب أن يصلح بالعدل، ويسلك كل طريق توصل إلىٰ الملائمة بين المتنازعين، فإن آثار الصلح بركة وخير وصلاح، حتىٰ إن الله أمر المسلمين إذا جنح الكفار الحربيون إلىٰ المسالمة والمصالحة أن يوافقوهم علىٰ ذلك متوكلين علىٰ الله.

وأمثلة هذه القاعدة لا تنحصر، **وحقيقتها**: السعي في الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح، أو تكميلها، أو إزالة المفاسد والمضار، أو تقليلها: الكلية منها والجزئية، والمتعدية والقاصرة، والله أعلم.

القاعدة السادسة والأربعون:

ما أمر الله به في كتابه إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه فهذا أمر له بالدخول فيه، وإما أن يوجه لمن دخل فيه فهذا أمره به ليصحح ما وجد منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد فيه

وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية: أصولها وفروعها؛ فقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾[النساء:٤٧] من القسم الأول.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[النساء:١٣٦] من الثاني والثالث، فإنه أمرهم

بما يصحح ويكمل إيمانهم من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكمال الإخلاص فيها، ونهاهم عما يفسدها وينقصها.

وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويصوموا رمضان أمر بتكميل ذلك، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل، والنهي عن كل مفسد وناقص لذلك العمل.

وكذلك أمره لهم بالتوكل والإنابة ونحوها من أعمال القلوب هو أمر بتحقيق ذلك، وإيجاد ما لم يوجد منه.

وبهذه القاعدة نفهم جواب الإيراد الذي يورد علىٰ طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، والله قد هداهم للإسلام.

جوابه: ما تضمنته هذه القاعدة.

ولا يقال: هذا تحصيل للحاصل، فافهم هذا الأصل الجليل النافع، الذي يفتح لك من أبواب العلم كنوزًا، وهو في غاية اليسر والوضوح لمن تفطن.

القاعدة السابعة والأربعون:

إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها وذلك الحكم لا يختص بها، بل يشملها ويشمل غيرها، جاء الله بالحكم العام

وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليل علىٰ إحكامه وانتظامه العجيب.

وأمثلة هذه القاعدة كثيرة:

منها: لما ذكر الله المنافقين وذمهم، واستثنىٰ منهم التائبين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾[النساء:١٤٦]، فلما أراد الله أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا، بل قال: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾، ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن، ولئلا يظن اختصاص الحكم بهم.

ولما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء:١٥٠] إلىٰ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾

[النساء] لم يقل: وأعتدنا لهم، للحكمة التي ذكرناها، ومثله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا﴾ [الأنعام:٦٤] أي: هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها ﴿وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ﴾[الأنعام:٦٤].

القاعدة الثامنة والأربعون:

متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها، كان المراد بذلك العلم الذي يترتب عليه الجزاء

وذلك أنه قد تقرر في الكتاب والسنة والإجماع أن الله بكل شيء عليم، وأن علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي، والظواهر والبواطن والجليات والخفيات والماضي والمستقبل، وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا الأعمال.

وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع وقدر كذا؛ ليعلم كذا.

فوجه هذا: أن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء. وأما علمه بأعمال العباد وما هم عاملون قبل أن يعملوا، فذلك علم لا يترتب عليه الجزاء، لأنه إنما يجازي علىٰ ما وجد من الأعمال.

وعلىٰ هذا الأصل نزل ما يرد عليك من الآيات كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾[المائدة:٩٤] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾[البقرة:١٤٣] وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ [الحديد:٢٥] وقوله: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾[العنكبوت] وقوله: ﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ۝١٢﴾[الكهف].

وما أشبه هذه الآيات كلها علىٰ هذا الأصل.

القاعدة التاسعة والأربعون:

إذا منع الله عباده المؤمنين شيئًا تتعلق به إرادتهم، فتح لهم بابًا أنفع لهم منه وأسهل وأولى

وهذا من لطفه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾[النساء:٣٢] فنهاهم عن تمني ما ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، وأمرهم أن يسألوه بلسان المقال

وبلسان الحال.

ولما سأل موسىٰ عليه السلام ربَّه الرؤية حين سمع كلامه، ومنعه منها، وبلسان المقال سلّاه بما أعطاه من الخير العظيم، فقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾[الأعراف] وقوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾[البقرة:١٠٦] وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ﴾[النساء:١٣٠] وفي هذا المعنىٰ آيات كثيرة.

القاعدة الخمسون:

آيات الرسول: هي التي يبديها الباري ويبتديها، وأما ما أبداه المكذبون له واقترحوه، فليست آيات وإنما هي تعنتات وتعجيزات

وبهذا يعرف الفرق بينها وبين الآيات: وهي البراهين والأدلة علىٰ صدق الرسول وغيره من الرسل، وعلىٰ صدق كل خبر أخبر الله به، وأنها الأدلة والبراهين التي يلزم من فهمها علىٰ وجهها صدق ما دلت عليه ويقينه.

وبهذا المعنىٰ الحديث: «**مَا أَرْسَلَ اللهُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا أَعْطَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَىٰ مِثْلِهِ آمَنَ الْبَشَرُ**»، وأما ما آتىٰ الله محمدًا ﷺ من الآيات فهي لا تحد ولا تعد من كثرتها وقوتها ووضوحها ـ ولله الحمد ـ فلم يبق لأحد من الناس بعدها عذر.

فعلم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعينونها ليست من هذا القبيل، وإنما مقصودهم بهذا أنهم وطنوا أنفسهم علىٰ دينهم الباطل وعدم اتباع النبي ﷺ.

فلما دعاهم إلىٰ الإيمان وأراهم شواهد الآيات أرادوا أن يبرروا ما هم عليه عند الأغمار والسفهاء، بقولهم: ائتنا بالآية الفلانية والآية الفلانية إن كنت صادقًا، وإن لم تأت بذلك فإننا لا نصدقك، فهذه طريقة لا يرتضيها أدنىٰ منصف، ولهذا يخبر تعالىٰ أنه لو أجابهم إلىٰ ما طالبوا لم يؤمنوا لأنهم وطنوا أنفسهم علىٰ الرضا بدينهم بعدما عرفوا الحق ورفضوه.

وأيضًا فهذا من جهلهم في الحال والمآل:

أما الحال: فإن هذه الآيات التي يقترحونها جرت العادة أن المقترحين لها لم يكن قصدهم الحق، فإذا جاءت ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقوبة الحاضرة.

وأما المآل: فإنهم جزموا جزمًا لا تردد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدقوا وهذا قلب

للحقائق، وإخبار بغير الذي في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية اقترحوها لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله تعالىٰ.

وهذا النوع ذكره الله في كتابه عن المكذبين في آيات كثيرة جدًا، كقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾[الإسراء] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾[الأنعام:١١١] إلىٰ آخرها.

وأيضًا فإن اقتراحهم هذا ينادي صريحًا بأنهم ينسبون إلىٰ الله العجز والعبث، إذ أنه أرسل رسولًا لم يؤيده بالآيات الكافية في الدلالة علىٰ صدقه، ولم يعطه من البراهين والحجج ما يبطل دعاوىٰ خصمه.

وهذا ينافي الحكمة، ولا يتفق مع الغرض الذي من أجله أرسل الله رسوله.

وهذا أعظم كفرًا وإجرامًا وأشد من شركهم وفسوقهم، وما كان يتولىٰ كبره منهم إلا السادة والرؤساء الذين تبين لهم صدق الرسول بدون أي خفاء، ولكنهم يحاولون بذلك صرف العامة والدهماء عن الاستماع إليه والإصغاء إلىٰ قوله، ولذلك يدمغهم الله بمَيْسَم الخزي عقب كل تحدٍ واقتراحٍ لآية، بعد أن ينزه نفسه سبحانه عما ينتقصونه به.

ففي سورة الإسراء يقول عقب سرد ما اقترحوا من آيات: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾[الإسراء:٩٣] ثم يقول: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[الإسراء:٩٧].

ويقول في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٤٧ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٤٩ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٥٢﴾[العنكبوت].

وأيضًا إذا تدبرت الاقتراحات التي عينوها لم تجدها في الحقيقة من جنس البراهين، وإنما هي ـ لو فرض الإتيان بها ـ شبيهة بآيات الاضطرار التي لا ينفع الإيمان معها، ويصير شهادة، وإنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب فكما أن الله المنفرد بالحكم بين العباد في

أديانهم، وحقوقهم وأنه لا حكم إلا حكمه، وأنه من قال ينبغي أو يجب أن يكون الحكم كذا وكذا، فهو متجرئ علىٰ الله، متوثب علىٰ حرمات الله وأحكامه، فكذلك براهينُ أحكامه لا يتولاها إلا هو، فمن اقترح شيئًا من عنده فقد ادعىٰ مشاركة الرب في حكمه، ومنازعته في الطرق التي يهدي ويرشد بها عباده: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾[الأنعام:٩٣].

القاعدة الحادية والخمسون:

كلّما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء والنهي عن دعاء غير الله، والثناء على الداعين: يتناول دعاء المسألة، ودعاء العبادة

وهذه قاعدة نافعة، فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة: دعاء المسألة فقط، ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء.

ويدل علىٰ عموم ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠] أي أستجب طلبكم، وأتقبل عملكم ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[غافر] فسمىٰ ذلك عبادة، وذلك لأن الداعي دعاء المسألة يطلب مسئوله بلسان المقال، والعابد يطلب من ربه القبول والثواب، ومغفرة ذنوبه بلسان الحال.

فلو سألت أي عابد مؤمن: ما قصدك بصلاتك وصيامك وحجك وأدائك لحقوق الله وحق الخلق؟ لكان قلب المؤمن ناطقًا ـ قبل أن يجيبك لسانه -: بأن قصدي من ذلك رضىٰ ربي ونيل ثوابه والسلامة من عقابه، ولهذا كانت هذه النية شرطًا لصحة الأعمال وقبولها، وإثمارها الثمرة الطيبة في الدنيا والآخرة.

وقال تعالىٰ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر:١٤] فوضع كلمة: ﴿الدِّينَ﴾، موضع كلمة «العبادة»، **وهو في القرآن كثير جدًا**: يدل علىٰ أن الدعاء هو لب الدين وروح العبادة.

ومعنىٰ الآية هنا: أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم، وأخلصوا له أعمال البر والطاعة.

وقد يقيد أحيانًا بدعاء الطلب، كقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾[القمر] وأما قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾[يونس:١٢] الآية، فيدخل فيه

دعاء الطلب، فإنه لا يزال ملحًا بلسانه، سائلًا دفع ضرورته، ويدخل فيه دعاء العبادة فإن قلبه في هذه الحال يكون راجيًا طامعًا، منقطعًا عن غير الله، عالمًا أنه لا يكشف ما به من السوء إلا الله، وهذا دعاء عبادة.

وقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[لأعراف:٥٥]، يدخل فيه الأمران، فكما أن من كمال دعاء الطلب، كثرة التضرع والإلحاح، وإظهار الفقر والمسكنة، وإخفاء ذلك وإخلاصه، فكذلك دعاء العبادة فإن العبادة لا تتم ولا تكتمل إلا بالمداومة عليها ومقارنة الخشوع والخضوع لها وإخفائها، وإخلاصها لله تعالىٰ.

وكذلك قوله عن خلاصة الرسل: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾[الأنبياء:٩٠] فإن الرغبة والرهبة وصف لهم كلما طلبوا وسألوا، ووصف لهم كلما تعبدوا وتقربوا بأعمال الخير والقرب.

وقوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون:١١٧] ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾[الجن] ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

فكما أن من طلب من غير الله حاجة لا يقدر عليها إلا الله فهو مشرك وكافر، فكذلك من عبد مع الله غيره فهو مشرك وكافر.

ومثله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يونس] كل هذا يدخل فيه الأمران.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾[الأعراف:١٨٠]، يشتمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

أما دعاء المسألة: فإنه يسأل الله تعالىٰ في كل مطلوب باسم يناسب ذلك المطلوب ويقتضيه، فمن سأل رحمة الله ومغفرته دعاه باسم الغفور الرحيم ومن سأل الرزق سأله باسم الرزاق، وهكذا.

وأما دعاء العبادة: فهو التعبد لله تعالىٰ بأسمائه الحسنىٰ، فيفهم أولًا معنىٰ ذلك الاسم الكريم، ثم يديم استحضاره بقلبه، حتىٰ يمتلئ قلبه منه.

فالأسماء الدالة علىٰ العظمة والجلال والكبرياء تملأ القلب تعظيمًا وإجلالًا لله تعالىٰ.

والأسماء الدالة علىٰ الرحمة والفضل والإحسان تملأ القلب طمعًا في فضل الله ورجاءً لروحه ورحمته.

والأسماء الدالة علىٰ الود والحب والكمال تملأ القلب محبة وودًا وتألهًا وإنابة لله تعالىٰ.

والأسماء الدالة علىٰ سعة علمه ولطيف خبره توجب للعبد مراقبة الله تعالىٰ والحياء منه.

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتىٰ تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة، وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية.

فنسأل الله تعالىٰ أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الجوادين.

القاعدة الثانية والخمسون:

إذا وضح الحق وبان، لم يبق للمعارضة العلمية، ولا العملية محل

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية، قد وردت في القرآن وأرشد إليها في مواضع كثيرة.

وذلك: أنه من المعلوم أن محل المعارضات وموضع الاستشكالات وموضع التوقفات ووقت المشاورات إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات فترد عليه هذه الأمور؛ لأنها الطريق إلىٰ البيان والتوضيح.

فأما إذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنىٰ واحدًا واضحًا، وقد تعينت المصلحة، فالمجادلة والمعارضة من باب العبث، والمعارِضُ هنا لا يُلتفت إلىٰ اعتراضاته، لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات.

قال تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[البقرة:٢٥٦]، يعني وإذا تبين هذا من هذا لم يبق للإكراه محل، لأن الإكراه إنما يكون علىٰ أمر فيه مصلحة خفية، فأما أمر قد اتضح أن مصالح وسعادة الدارين مربوطة ومتعلقة به، فأي داع للإكراه فيه؟

ونظير هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾

[الكهف:٢٩] أي هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة علىٰ حقيَّته فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

كقوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾[لأنفال:٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾[آل عمران:١٥٩]، أي: في الأمور التي تحتاج إلىٰ مشاورة، ويُطلب فيها وجه المصلحة، فأما أمر قد تعينت مصلحته، وظهر وجوبه فقال فيه: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[آل عمران:١٥٩].

وقد كشف الله هذا المعنىٰ غاية الكشف، في قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال:٦] أي فكل من حاول في الحق بعد ما تبين علمه، أو طريق عمله، فإنه غالط شرعًا وعقلًا.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأنعام:١١٩] فلامَهُم علىٰ عدم التزام الأكل مما ذكر اسم الله عليه، وذكر السبب لهذا اللوم؛ وهو أنه تعالىٰ فصل لعباده كل ما حرم عليهم، فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح ليس للتوقف عنه محل.

ولما ذكر تعالىٰ الآيات الدالة علىٰ وجوب الإيمان، وَبَّخَ ولام المتوقفين عنه بعد البيان، فقال: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ٢١﴾[الانشقاق].

ولما بين جلال القرآن وأنه أعلىٰ الكلام، وأوضحه بيانًا وأصدقه وأنفعه ثمرة، قال تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾[الجاثية].

ولما ذكر عظم نعمه الظاهرة والباطنة، قال تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ٥٥﴾[النجم] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾[الرحمن] وقال تعالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس:٣٢].

وكذلك في آيات كثيرة يأمره بمجادلة المكذبين ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتىٰ إذا وصل معهم إلىٰ حالة وضوح الحق التام وإزالة الشبه كلها انتقل من مجادلتهم إلىٰ الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة، والآيات في هذا المعنىٰ الجليل كثيرة جدًا.

القاعدة الثالثة والخمسون:

من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في طريق العبادة، ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منته وإحسانه، وأنها لا تنقص من الأجر شيئًا

وهذه القاعدة تبين من لطف الله وإحسانه بالعباد، وحكمته الواسعة ما هو أثر عظيم من آثار تعريفاته ونفحة عظيمة من نفحاته، وأنه أرحم الراحمين، قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[البقرة] فبين تعالىٰ أن هذه العبادة العظيمة لعظم مصلحتها وكثرة فوائدها العامة والخاصة أنه فرضها علىٰ العباد وإن شقت عليهم وكرهتها نفوسهم لما فيها من التعرض للأخطار وتلف النفوس والأموال، ولكن هذه المشقات بالنسبة إلىٰ ما تفضي إليه من الكرامات ليست بشر بل هي خير محض وإحسان صرف من الله علىٰ عباده، حيث قيض لهم هذه العبادة التي توصلهم إلىٰ منازل من العز والكرامة في الدنيا والآخرة لولاها لم يكونوا واصليها، وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾[النساء:١٠٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[البقرة] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر].

فكلما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات، وفي ترك المحرمات لقوة الداعي إليها، وفي الصبر علىٰ المصيبات لشدة وقعها، كان الأجر أعظم والثواب أكبر، وقال تعالىٰ في بيان لطفه في تسهيل العبادة الشاقة: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال].

فذكر منته علىٰ المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التي يسر بها العبادة، مزيلة لمشقتها محصلة لثمراتها.

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ ﴾[يونس].

فالبشرىٰ التي وعد الله بها أولياءه في الحياة الدنيا من أشرفها وأجلها: أنه يسر لهم العبادات وهون عليهم مشقة القربات، وأنه ييسرهم للخير، ويجنبهم الشر بأيسر عمل.

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾[الليل] أي لكل حالة فيها تيسير أموره وتسهيلها وقال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ ﴾[النحل:٩٧].

ومن الحياة الطيبة التي يرزقونها: ذوقُ حلاوة الطاعات، واستعذاب المشقات في رضا الله تعالىٰ، فهذه الأحوال كلها خير للمؤمن، إن سهل الله له طريق العبادة وهونها حَمِدَ اللهَ وشكره، وإن قامت العقبات صبر في اقتحامها، واحتسب الخير في عنائه وجهاده ورجا عظيم الثواب، وهذا المعنىٰ في القرآن في آيات متعددة، والله أعلم.

القاعدة الرابعة والخمسون:

كثيرًا ما ينفي الله الشيء لعدم فائدته وثمرته المقصودة منه، وإن كانت صورته موجودة

وذلك أن الله خلق الإنسان وركب فيه القوىٰ، من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ليعرف بها ربه ويقوم بحقه، فهذا المقصود منها، وبوجود ما خلقت له تكمل ويكمل صاحبها.

وبفقد ذلك يكون وجودها أضر علىٰ الإنسان من عدمها، فإنها حجة الله علىٰ عباده، ونعمته التي توجد بها مصالح الدين والدنيا، فإما أن تكون نعمة تامة إذا اقترن بها مقصودها أو تكون محنة وحجة علىٰ صاحبها إذا استعملها في غير ما خلقت له ولهذا كثيرًا ما ينفي الله تعالىٰ هذه الأمور الثلاثة عن أصناف الكافرين بها المكبلين بسلاسل وأغلال التقليد الأعمىٰ للآباء والسادة والرؤساء، المنسلخين من آيات الله، وإن تسموا بأسماء إسلامية ولبسوا ثيابًا وألقابًا علمية، فهم المعنيون في كلام الله بوصف الكفار والمنافقين.

كقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾[البقرة]. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[المائدة]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾[الأنعام] وقال في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ

ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ ﴾[الأعراف:١٧٢].

وهذه آيات ربوبيته واضحة ناطقة فيكم، وفي تكوينكم في أصلاب آبائكم وأرحام أمهاتكم، وإخراجكم منها بشرًا سويا، وتسخير ما في السماوات والأرض جميعًا لكم، ثم ساقت الآيات في عاقبة غفلة الإنسان عن تلك الآيات.

وبين سبب هذه الغفلة بقوله: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] أي ألقاها وخلعها كارهًا لها: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا ﴾[الأعراف:١٧٦] فما أعطيناها له إلا ليتفكر بها في خلق الله وحكمته فيرتفع علىٰ درجات الكمال، ولكنه أخلد إلىٰ الأرض البهيمية ورضي بالتقليد الأعمىٰ الذي هو من خصائص الأنعام، ثم ختمها بسوء عاقبة هذا المنسلخ المقلد بقوله تعالىٰ: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[الأعراف].

فأخبر أن صور الحواس الحيوانية موجودة، ولكن فوائدها الإنسانية مفقودة ولذلك قال: ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الحج].

وقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النمل].

والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًا.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ ﴾[النساء]، فأثبت لهم الكفر من كل وجه؛ لأن دعواهم الإيمانَ بما يقولون آمنا به من الكتب والرسل لم يوجب لهم الدخول في حقيقة الإيمان؛ لأن ثمرة إيمانهم مفقودة حيث كذبوهم في صحة رسالة محمد ﷺ، وغيره ممن كفروا به وحيث أنكروا من براهين الإيمان ما هو أعظم مما أثبتوا به رسالة من زعموا الإيمان به، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾[البقرة] لما كان الإيمان النافع هو الذي يُغرس في قلب سليم من الجهل والشكوك والشبهات والتقاليد ويُسقىٰ بعصارة تدبر آيات الله الكونية والقرآنية فيثمر في القلب والجوارح أطيب الثمرات من العبادة والطاعة، ولما كان الإيمان النافع هو الذي يتفق عليه القلب واللسان وهو المثمر

لكل خير، وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، نفىٰ عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته.

ويشبه هذا: ترتيب الباري كثيرًا من الواجبات والفروض علىٰ الإيمان كقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[آل عمران] ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾[المائدة] وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[الأنفال:٤١] إلىٰ قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[الأنفال:٤١] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال] وذلك أن الإيمان الصادق يقتضي صدق العقيدة وأداء الفرائض والواجبات، واجتناب الشرك والمحرمات فما لم يحصل ذلك فهو بعد لم يتم ولم يتحقق، ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسله، قال تعالىٰ عن أهل الكتاب المنحرفين: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾[البقرة].

ونظير ذلك: قول موسىٰ ﷺ لما قال له بنو إسرائيل: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾[البقرة] فكما أن فقد العلم جهل ففقد العمل به جهل قبيح.

القاعدة الخامسة والخمسون:

يُكتب للعبد عمله الذي باشره. ويكمل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله قهرًا عنه، ويكتب له ما نشأ عن عمله

فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن أما الأعمال التي باشرها العبد فأكثر من أن تحصىٰ النصوص الدالة عليها، كقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[المائدة] ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾[البقرة:٢٨٦] ﴿لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ﴾[يونس:٤١] ونحو ذلك.

وأما الأعمال التي شرع العبد فيها وعجز العبد عن تكميلها: فكقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ﴾[النساء:١٠٠] فهذا خرج

قاصدًا الهجرة، وأدركه الأجل قبل تكميل عمله، فأتم الله له ما قصد إليه وأعطاه أجره، فكل من شرع في عمل من أعمال الخير، ثم عجز عن إتمامه بموت، أو عجز بدني، أو عجز مالي، أو مانع داخلي، أو خارجي، وكان من نيته ـ لولا المانع ـ إكمالُه فقد وقع أجره على الله؛ فـ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩] فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه، سواء كمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه.

وأما آثار أعمال العبد: فقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ [يس:١٢] أي: باشروا عمله ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ التي ترتبت علىٰ أعمالهم من خير وشر في الدنيا والآخرة، وقال في المجاهدين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠﴾ [التوبة] فكل هذه الأمور من آثار عملهم ثم ذكر أعمالهم التي باشروها بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾ [التوبة].

والأعمال التي هي من آثار عمل العبد نوعان:

أحدهما: أن تقع بغير قصد من الإنسان، كأن يعمل أعمالًا صالحة خيرية، فيقتدي به غيره في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله وكمن يتزوج بقصد الإعفاف فقط، فيعطيه الله أولادًا صالحين ينتفع بهم وبدعائهم.

والثاني: وهو أشرف النوعين: أن يقع ذلك بقصده، كمن علم غيره علمًا نافعًا فنفس تعليمه ومباشرته له من أجل الأعمال، ثم ما حصل من العلم والخير المترتب علىٰ ذلك، فإنه من آثار عمله.

وكمن يفعل الخير ليقتدي به الناس، أو يتزوج للعفة ولحصول الذرية الصالحة، فيحصل مراده، فإن هذا من آثار عمله، وكذلك من يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمر دينهم ودنياهم، وقد قصد بذلك حصول النفع له ولغيره، فما ترتب من نفع ديني أو دنيوي علىٰ هذا العمل فإنه من آثار عمله، وإن كان يأخذ علىٰ عمله أجرًا وعوضًا، فإن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: **صانعه وراميه والممد به**.

القاعدة السادسة والخمسون:

تحال المصالح على قدر الوسع والطاقة

يرشد القرآن الكريم المسلمين إلى إقامة جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من مصالحهم من يقدر على القيام بها، وليوفر وقته عليها لتتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعًا واحدة

وهذه من القواعد الجليلة ومن السياسة الشرعية الحكيمة، فإن كثيرًا من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها، فالطريق إلىٰ حصولها ما أرشد الله عباده إليه، قال تعالىٰ في الجهاد والعلم اللذين هما من أعظم مصالح الدين: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾[التوبة:١٢٢] فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية وبالعلم طائفة أخرىٰ، وأن الطائفة القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[آل عمران:١٠٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٢] وقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورىٰ:٣٨].

إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالات علىٰ هذا الأصل الجليل والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها، لأن كل فرد مأمور أن يراعي المصالح الكلية، ويكون سائرًا في جميع أعماله إليها، فلو وفق المسلمون لسلوك هذه الطريق لاستقامت أحوالهم وصلحت أمورهم وانجابت عنهم شرور كثيرة، فالله المستعان.

القاعدة السابعة والخمسون:

في كيفية الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيهما على التوحيد والمطالب العالية

قد دعا الله عباده إلىٰ التفكير في هذه المخلوقات في آيات كثيرة وأثنىٰ علىٰ المتفكرين فيها، وأخبر أن فيها آياتٍ وعِبرًا نحن محتاجون إلىٰ فهمها ومعرفة ما فيها لمصالح ديننا ودنيانا، فينبغي لنا أن نسلك هذا الطريق المنتج للمطلوب بأيسر وأوضح ما يكون.

وحاصل ذلك علىٰ وجه الإجمال: أننا إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم، عرفنا أنه لم

يوجد بغير موجد، ولا أوجد نفسه ـ هذا أمر بديهي ـ فتيقنا أن الذي أوجده هو الأول الذي ليس قبله شيء وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل القدرة عظيم السلطان واسع العلم، وأن إعادتنا في النشأة الثانية للجزاء أسهل عليه من نشأتنا الدنيوية بكثير: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[غافر:٥٧] وعرفنا بذلك أنه الحي القيوم.

وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع عرفنا بذلك كمال حكمة الله وحسن خلقه وسعة علمه، وعرفنا من آثار حكمته فينا وفي هذا الوجود أنه ما خلقنا لهذه الحياة قصدًا وإنما خلقنا لنستعد فيها للنشأة الأخرىٰ.

وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التي لا تعد ولا تحصىٰ، عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة، عظيم الفضل والبر والإحسان، والجود والامتنان، وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات، فإن ذلك دال علىٰ إرادة الله ونفوذ مشيئته ونعرف بذلك كله أن مَن هذه أوصافه وهذا شأنه؛ هو الذي لا يستحق العبادة أحد إلا هو وأنه المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلا إليه، ولا ينبغي صرف خالص الدعاء إلا له؛ لأن غيره من المخلوقات المربوبات مفتقرات إليه وحده في جميع شئونها.

ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خلقت لمصالحنا، وأنها مسخرة لنا، وأن عناصرها ومواردها وأرواحها قد مكن الله الآدمي من استخراج أصناف المنافع منها، عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة، من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم فيها، فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه من استخراج ما يصلح أحوالنا منها، بحسب القدرة، ولم نخلد إلىٰ الكسل والبطالة، أو نزعم أن علم هذه الأمور واستخراجها علوم باطلة، بحجة أن الكفار سبقونا إليها وفاقونا فيها، فإنها كلها ـ كما نبه الله عليه ـ داخلة في تسخير الله الكون لنا، وأن يُعلم الإنسان ما لم يعلم.

القاعدة الثامنة والخمسون:

الكمال إنما يظهر إذا قُرن بضده إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة أراهم نقصها في غيرهم من المستعدين للكمال

وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن.

منها: لما أراد الله إظهار شرف آدم علىٰ الملائكة بالعلم، وعلمه أسماء كل شيء ثم امتحن الملائكة فعجزوا عن معرفتها، فحينئذ نبأهم آدم بها، فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أراد الله تعالىٰ إظهار شرف يوسف في سعة العلم والتعبير رأىٰ المَلِكَ تلك الرؤيا، وعرضها علىٰ كل من له علم بها ومعرفة فعجزوا عن معرفتها، ثم بعد ذلك عَبَّرها يوسف ذلك التعبير العجيب، الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن التعبير عنه.

ولما عارض فرعون الآيات التي أُرسل بها موسىٰ، وزعم أنه سيأتي بسحر يغلبه، فجمع كل سحار عليم من جميع أنحاء المملكة، واجتمع الناس في يوم عيدهم وألقىٰ السحرة عصيهم وحبالهم في ذلك المجمع العظيم، وأظهروا للناس من عجائب السحر فـ:﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾[الأعراف] فحينئذ ألقىٰ موسىٰ عصاه، فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأىٰ الناس جميع حبالهم وعصيهم، فظهرت هذه الآية الكبرىٰ، وكان السحرة أهل الصنعة أول من خضع لها ظاهرًا وباطنًا.

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي ﷺ، وتمالأ عليه جميع أعداؤه، ومكروا مكرتهم الكبرىٰ للإيقاع به، نصره الله ذلك النصر العجيب، فإن نصر المنفرد الذي أحاط به عدوه الشديد حَرْدُه - الغضب والغيظ، القوي مكره، الذي جمع كل كيده ليوقع به أشد الأخذات وأعظم النكبات، وتخلصه وانفراج الأمر له، من أعظم أنواع النصر.

كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

﴿ ﴿٤٠﴾ ﴾[التوبة].

وقريب من هذا نصره له يوم حنين، حيث أعجبت المسلمين كثرتهم، فلم تغن عنهم شيئا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين وثبت الله نبيه ﷺ فأنزل عليه سكينته ونصره في هذه الحال الحرجة، فكان لهذا النصر من الموقع الكبير ما لا يعبر عنه، وكذلك ما ذكره الله من الشدائد التي جرت علىٰ أنبيائه وأصفيائه، وأنه إذا اشتد البأس، وكاد أن يستولي علىٰ النفوس اليأس، أنزل الله فرجه ونصره ليصير لذلك موقع في القلوب وليعرف العباد ألطاف علام الغيوب.

ويقارب هذا المعنىٰ: إنزاله الغيث علىٰ العباد، بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين، فيحصل من آثار نعمة الله والاستبشار بفضله، ما يملأ القلوب حمدًا وشكرًا وثناء علىٰ الباري تعالىٰ.

وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلىٰ تأمل ضدها، كقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾[الأنعام:٤٦] وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[القصص].

ونلمح مثل هذا المعنىٰ في قصة يعقوب وبنيه: حين اشتدت بهم الأزمة ودخلوا علىٰ يوسف، وقالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾[يوسف:٨٨] الآية ثم بعد قليل قال: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[يوسف] في تلك النعمة الواسعة والعيش الرغيد والعز المكين، والجاه العريض فتبارك من لا يدرك العباد من ألطافه ودقيق بره أقل القليل.

ويناسب هذا من ألطاف الباري: أن الله يذكر عباده في أثناء المصائب ما يقابلها من النعم، لئلا تسترسل النفوس في الجزع، فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفت عليها المصائب، وهان عليها حملها، كما ذكّر الله المؤمنين حين أصيبوا بأحد ما أصابوا من المشركين ببدر، فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[آل عمران:١٦٥] وأدخل هذه الآية في أثناء قصة أحد: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ

أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[آل عمران] وكذلك يبشر الله عبده بالمخرج منها حين تباشره المصائب، ليكون هذا الرجاء مخففًا لما نزل به من البلاء، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾[يوسف] وكذلك رؤيا يوسف كان يعقوب إذا ذكرها رجاء الفرج وهب علىٰ قلبه نسيم الرجاء، ولهذا قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾[يوسف:٨٧].

وكذلك قوله تعالىٰ لأم موسىٰ في سورة القصص: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص].

وأعظم من هذا كله: أن وعد الله لرسله بالنصر وبتمام الأمر وحسن العاقبة يهون عليهم به المشقات ويسهل عليهم الكريهات، فيتلقوها بقلوب مطمئنة وصدور منشرحة، وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

القاعدة التاسعة والخمسون:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[**الإسراء:٩**]

ما أعظمَ هذه القاعدةَ، وما أحكم هذا الأصلَ العظيمَ الذي نص الله نصًا صريحًا علىٰ عموم ذلك، وعدم تقيد هذا الهدىٰ بحالة من الأحوال فكل حالة هي أقوم، في العقائد والأخلاق والأعمال والسياسات الكبار والصغار والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية فإن القرآن يهدي إليها ويرشد إليها، ويأمر بها ويحث عليها.

ومعنىٰ ﴿أَقۡوَمُ﴾ أيْ أكرم وأنفس وأصلح وأكمل استقامة، وأعظم قيامًا وصلاحًا للأمور.

فأما العقائد فإن عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها صلاح القلوب وحياتها وكمالها، فإنها تملأ القلوب عزة وكرامة بشعورها بالتجرد من الذل لمخلوق مثلها، وشرفها بتخصصها لمحبة الله تعظيمًا له وتألهًا وتعبدًا وإنابة، وهذا المعنىٰ هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعو إليها فإنه يدعو إلىٰ التحلي بكل خلق جميل، من الصبر والحلم

والعفو والأدب وحسن الخلق مع الله ومع الخلق وجميع مكارم الأخلاق، ويحث عليها بكل طريق ويرشد إليها بكل وسيلة **وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها**: فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله وحقوق العباد علىٰ أكمل الحالات وأجلها وأسهلها وأوصلها إلىٰ المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدنيوية: فهو يرشد إلىٰ سلوك الطرق النافعة في تحصيل المقاصد والمصالح الكلية، وفي دفع المفاسد، ويأمر بالتشاور علىٰ ما لم تتضح مصلحته والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال حتىٰ في سياسة الوالد مع أولاده وزوجه وأهله وخادمه وأصحابه ومعامليه، فلا يمكن أنه وجد أو يوجد حالة يتفق العقلاء أنها أقوم وأصلح من غيرها، إلا القرآن يرشد إليها نصًا أو ظاهرًا، أو دخولًا تحت قاعدة من قواعده الكلية.

وتفصيل هذا الأصل لا يمكن استيفاؤه.

في هذه القواعد الإجمالية، فكل التفاصيل الواردة في الكتاب والسنة، وما تقتضيه المصالح تفصيلًا لهذا الأصل المحيط.

وبهذا وغيره تبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح أو معنىٰ نافع أو طريق صلاح ينافي القرآن. والله ولي الإحسان.

القاعدة الستون:

أنواع التعليم القصصي في القرآن

من قواعد التعليم التي أرشد الله إليها في كتابه: أن القصص المبسوطة يجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها، وأن الأمور المهمة ينتقل في تقريرها نفيًا وإثباتًا من درجة إلى أعلى أو أنزل منها

وهذه قاعدة نافعة، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتتقرر فيه المطالب المهمة، وذلك أن القصة إذا أجملت بكلام يكون لها كالأصل والقاعدة، ثم يقع التفصيل لذلك الإجمال، يحصل به الإيضاح والبيان التام الكامل الذي يقع ما يقاربه لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم صورة إجمالية لها، فإن الصورة تشوق إلىٰ التفصيل.

وقد ورد هذا في القرآن في مَواضع:

منها في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام: في قولـه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]، ثـم أخـذ في تفصيلها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [يوسف]، ثم ساق القصة بتمامها.

وكذلك قصة أهل الكهف: قال في تصويرها الإجمالي: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾[الكهف]، فهذه الكلمات القليلة قد حوت مقصودها وزبدتها، ثم بسطها بقوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾[الكهف:١٣] الآيات إلىٰ آخر القصة، وكذلك قصة موسىٰ: لما قال تعالىٰ: ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾[القصص] إلىٰ قوله: ﴿يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾[القصص] وهذا مجملها ثم أتىٰ بعد ذلك بالتفصيل.

وقـال في قصـة آدم: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾[طـه] فأجملها، ثم وقع بعده التفصيل، ثم أتىٰ بعد ذلك بالقصة وأما التنقل في تقرير الأشـياء مـن أمر إلىٰ ما هو أولىٰ منه فكثير.

منه: قوله تعالىٰ في الإنكار علىٰ من جعل مع الله إلهًا آخر، وإبطال زعمه الكاذب الـذي هو أساس الوثنية أن هؤلاء الأولياء والآلهة أبناء الله؛ لأنهم النور الذي انبثق منه ثم تجسدوا بشرًا ثم عادوا إلىٰ النورانية، فيقول: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾[الكهف:٥] فأبـان أن **قولهم هذا بلا علم ومن المعلوم**: أنه كل قول بلا علم من الطرق الباطلة ثـم صـرح بقبحـه قولُه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[الكهف:٥] ثم ذكر له مرتبة من البطلان أسـفل: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾[الكهف] **وقال في حق المنكـرين للبعـث**: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾[النمل:٦٦] أي علمهم فيها علم ضعيف سافل إلىٰ أحط الدركات، لا يعتمد عليه إلا سفيه ثم انتقل إلىٰ ما هو ابلـغ منـه، فقـال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل] والعمىٰ آخر مراتب الحيرة والضلال.

وقال عن نوح في تقرير رسالته وإبطال قول من كذبه، وزعم أنه في ضلال مبـين: ﴿ قَالَ

﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾[الأعراف:٦١] ثم لما نفىٰ الضلالة من كل وجه أثبت الهدىٰ الكامل له فقال: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١﴾[الأعراف] ثم انتقل إلىٰ ما هو أعلىٰ منه، وأن مادة هذا الهدىٰ الذي جئت به من الوحي الذي هو أصل الهدىٰ ومنبعه ومادته، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢﴾[الأعراف] وكذلك هود عليه الصلاة والسلام وقال في تقرير رسالة أفضل الرسل وخاتمهم: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾[النجم] فنفىٰ عنه ما ينافي الهدىٰ من كل وجه ثم قال: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾[النجم] إلىٰ آخر الآيات.

وهو في القرآن كثير جدًا، كانتقاله من ذكر هبة الولد لزكريا علىٰ كبره وعقم زوجته، إلىٰ ذكر مريم وعيسىٰ، وكذلك أمر بالتوجيه إلىٰ الكعبة بعد أن قرر في الآيات السابقة حرمتها وعظمتها، وهذا في القرآن كثير.

القاعدة الحادية والستون:

معرفة الأوقات وضبطها للاستفادة منها وحفظها من الضياع حث الله عليه، حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص

وذلك أن الله رتب كثيرا من الأحكام العامة والخاصة علىٰ مُدد وأزمنة تتوقف الأحكام عملًا وتنفيذًا علىٰ ضبط تلك المدة وإحصائها وتحديدها.

قال تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾[البقرة:١٨٩].

فقوله: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يدخل فيه مواقيت الصلوات والصيام والزكاة والعقود وغيرها، وخص بالذكر الحج لكثرة ما يترتب عليه من الأوقات العامة والخاصة وكذلك مواقيت للعدد والديون والإيجارات وغيرها، وقال تعالىٰ لما ذكر العدة: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾ [الطلاق:١] وقوله في الصيام: ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾[البقرة:١٨٤] وقال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ﴾[البقرة:٢٢٦] وقال تعالىٰ:﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾[النساء] وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ١٢﴾[الكهف] وذلك لمعرفة كمال قدرة الله في إفاقتهم، فلو استمروا علىٰ نومهم لم يحصل الاطلاع علىٰ شيء من ذلك من قصتهم، فمتىٰ ترتب علىٰ ضبط الحساب وإحصاء المدة،

مصلحة في الدين والدنيا، كان مما حث وأرشد إليه القرآن.

ويقارب هذا المعنىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩] الآية، وقوله: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾[الإسراء:١٢]، ونحوها من الآيات.

القاعدة الثانية والستون:

الصبر أكبر عون على جميع الأمور، والإحاطة بالشيء علما وخبرا هو الذي يعين على الصبر

وهذه القاعدة عظيمة النفع قد دل القرآن عليها صريحا وظاهرا في أماكن كثيرة:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[البقرة:٤٥] أي: استعينوا علىٰ جميع المطالب، وفي جميع شئونكم بالصبر، فبالصبر يسهل علىٰ العبد القيام بالطاعات، وأداء حقوق الله وحقوق عباده، وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات، فينهاها عن هواها حذر شقاها، وطلبًا لرضىٰ مولاها، وبالصبر تخف عليه الكريهات.

ولكن لهذا الصبر وسيلته وآلته التي ينبني عليها، ولا يتم وجوده إلا بها: وهي معرفة الشيء المصبور عليه، ومعرفة ما فيه من الفضائل وما يترتب عليه من الثمرات.

فمتىٰ عرف العبد ما في الطاعات من زيادة الإيمان، وصلاح القلوب واستكمال الفضائل، وما تثمره من الخيرات والكرامات، وما في المحرمات من الضرر والرذائل وما توجبه من العقوبات المتنوعة، وعلم ما في أقدار الله من البركة وما لمن قام بوظيفته فيها من الأجور إذا عرف ذلك هان عليه الصبر علىٰ جميع الشدائد.

وبهذا يعلم فضل العلم، وأنه أصل الفضائل كلها ولهذا يذكر الله تعالىٰ كثيرًا في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة ما انحرفوا إلا لقصور علمهم، وعدم إحاطتهم التامة بها.

وقال: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[فاطر:٢٨] وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾[النساء:١٧] ليس معناه: أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء، وإنما قصر علمهم وخبرتهم، بما توجبه الذنوب من العقوبات وأنواع المضرّات وزوال المانع.

وقال تعالىٰ مبينا أنه متقرر أن الذي لا يعرف ما يحتوي عليه الشيء يتعذر عليه الصبر،

فقال عن الخضر لما قال له موسىٰ وطلب منه أن يتعين ليتعلم مما علمه الله قال: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾[الكهف] فعدم إحاطته به خبرا يمتنع معه الصبر، ولو تجلد ما تجلد فلابد أن يُعال صبره.

وقال تعالىٰ مبينًا عظمة القرآن وما هو عليه من الجلالة والصدق الكامل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[يونس:٣٩] فبين أن الأعداء المكذبين به إنما كان تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه، وأنهم لو أدركوه وأحاطوا به كما هو عليه، لألجأهم إلىٰ التصديق والإذعان، فهم وإن كانت الحجة قد قامت عليهم ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه، ولم يعرفوه حق معرفته، فقال في حق المعاندين الذين بان لهم علمه وخبروا صدقه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤] وقال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الأنعام] والمقصود أن الله تعالىٰ أرشد العباد إلىٰ الاستعانة علىٰ كل أمورهم بملازمة الصبر، وأرشدهم إلىٰ تحصيل الصبر بالنظر إلىٰ الأمور، ومعرفة حقائقها وفضائلها ورذائلها. والله أعلم.

القاعدة الثالثة والستون:

العبرة بصدق الإيمان وصلاح الأعمال

يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان وإيمانه الصحيح وعمله الصالح، وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوى المجردة أو بإعطاء الله للعبد من الدنيا بالرياسات والأمور الدنيوية والتقاليد الموروثة: كل ذلك من طرق المنحرفين

والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلًا لهذا الأصل وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [سبأ:٣٧] وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[الشعراء].

وقد أكثر الله من هذا المعنىٰ في عدة مواضع وأما حكاية المعنىٰ الآخر عن المنحرفين فقال عن اليهود والنصارىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[البقرة] ثم ذكر البرهان

الذي من أقامه وأتىٰ به فهو المستحق للجنة فقال: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[البقرة] وقال تعالىٰ: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[النساء:١٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾[مريم]، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[الزخرف] ونحوها من الآيات التي يستدل بها الكفار علىٰ حسن حالهم، بتفوقهم في الأمور الدنيوية، والرياسات ويذمون المؤمنين مستدلين بنقصهم في هذه الأمور الدنيوية الزائفة، وهذا من أكبر مواضع الفتن؛ فإن الرياسات والأمور الدنيوية مشتركة بين الخليقة: بَرِّها وفاجرها.

القاعدة الرابعة والستون:

الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد تَردُ على الحق وعلى الأمور اليقينية، ولكن سرعان ما تضمحل وتزول

وهذه قاعدة شريفة جليلة قد وردت في عدة مواضع من القرآن، فمن لم يحكمها حصل له من الغلط في فهم بعض الآيات ما يوجب الخروج عن ظاهر النص، ومن عرف حكمة تعالىٰ الله في ورودها علىٰ الحق الصريح: لأسباب مزعجة تدفعها أو لشبهة قوية تحدثها ثم بعد هذا إذا رجع إلىٰ اليقين والحق الصريح، وتقابل الحق والباطل، ووقعت الخصومة بينهما، فغلب الحقُّ الباطل، ودمغه فزهق الباطل وثبت الحقُّ، حصلت العاقبة الحسنة، وزيادة الإيمان واليقين، فكان في ذلك التقدير حكمٌ بالغة، وأيادٍ سابغة.

ولنمثل لهذا بأمثلة:

فمنها: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الخلق إيمانًا ويقينًا، وتصديقًا بوعد الله ووعيده، وهذا أمر يجب علىٰ الأمم أن يعتقدوا في الرسل، من أنهم قد بلغوا الذروة فيه، وأنهم معصومون من ضده، ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يعرض لهم بعض الأمور المزعجة ـ المنافية حسًا لما علم يقينا ـ ما يوجب لهؤلاء الكمل أن يستبطئوا معه النصر، ويقولون: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾[البقرة:٢١٤] وقد يخطر في هذه الحالة علىٰ القلوب شيء من

عوارض اليأس بحسب قوة الواردات وتأثيرها في القلوب، ثم في أسرع وقت تنجلي هذه الحال وتنفرج الأزمة ويأتي النصر من قريب ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾﴾[البقرة] فعندئذ يصير لنصر الله وصدق موعوده من الوقع والبشارة والآثار العجيبة أمر كبير، لا يحصل بدون هذه الحالة، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾[يوسف:١١٠] فلهذا الوارد الذي لا قرار له، وعندما حقت الحقائق اضمحل وتلاشىٰ، لا ينكر ويطلب للآيات تأويلات مخالفة لظاهرها.

ومن هذا الباب، بل من صريحه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾[الحج:٥٢] أي يلقي من الشبه ما يعارض اليقين.

ثم ذكر الحكم المترتبة علىٰ هذا الإلقاء، ولكن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يبطل ما يلقي الشيطان، ويحكم الله آياته، والله عليم حكيم، فقد أخبر الله بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء، لهذه الحكم التي ذكرها، فمن أنكر وقوع ذلك بناء علىٰ أن الرسل لا ريب ولا شك أنهم معصومون، وظن أن هذا ينافي العصمة، فقد غلط أكبر غلط، ولو فهم أن الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل إلا قولًا يخالف فيه الواقع ويخالف بعض الآيات ويطلب التأويلات المستبعدات.

ومن هذا ـ علىٰ أحد قولي المفسرين ـ قوله تعالىٰ عن يونس: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء:٨٧] وأنه ظنٌّ عرضَ في الحال ثم زال، نظير الوساوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرهها العبد حين ترد علىٰ قلبه، ولكن إيمانه ويقينه يزيلها ويذهبها ولهذا قال ﷺ عندما شكىٰ إليه أصحابه هذه الحال التي أقلقتهم، مبشرًا لهم: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَىٰ الْوَسْوَسَةِ**»، وأخبرهم أن هذا صريح الإيمان.

ويشبه هذا: العوارض التي تعرض في إرادات الإيمان لقوة وارد من شهوة أو غضب، وأن المؤمن الكامل الإيمان قد يقع في قلبه همٌّ وإرادة، لفعل بعض المعاصي التي تنافي الإيمان الواجب ثم يأتي برهان الإيمان، وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة، فيدفع هذا العارض.

ومن هذا: قوله تعالىٰ عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾[يوسف:٢٤] وهو أنه لما رجع إلىٰ ما معه من الإيمان ومراقبة الله

وخوفه وخشيته ورجائه، دفع عنه هذا الهم وموجبه واضمحل، وصارت إرادته التامة فيما يرضي ربه ولهذا فاز بمرتبة الصديقية؛ لقوة إخلاصه ويقظة إيمانه بآيات ربه، وانتصر بعد المعالجة الشديدة من النسوة التي لا يصبر عليها إلا سادات الخلق حتىٰ دعا ربه أن يبعده عن مواطن الفتن، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾[يوسف:٣٣] وكان كل من يتشبه به ويقف أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾[الأعراف] يشمل الطائف الذي يعرض في أصل الإيمان أو الذي يعرض في إرادته، فإذا مسهم تذكروا ما يدعو إلىٰ الإيمان وواجباته، من آيات الله وسننه وحكمته وأحكامه فأبصروا، فاندفعت الشبهات والشهوات فرجع الشيطان خاسئًا وهو حسير.

ولعل من هذا: قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾[هود] وقول النبي ﷺ: «رَحِمَ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ»، يعني: وهو الله القوي العزيز، لكن غلب علىٰ لوط عليه السلام في تلك الحالة الحرجة وملاحظة الأسباب العادية، فقال ما قال، مع علمه التام بقوة ذي العظمة والجلال.

القاعدة الخامسة والستون:

قد أرشد القرآن إلى المنع من الأمر المباح إذا كان يفضي إلى ترك الواجب، أو فعل محرم

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة، وهي من قاعدة: الوسائل لها أحكام المقاصد.

فمنها: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾[الأنعام:١٠٨] وقوله: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾[النور:٣١] وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾[الأحزاب:٣٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾[الجمعة:٩]. وقد ورد بعض آيات تدل علىٰ هذا الأصل الكبير فالأمور المباحة هي بحسب ما يتوسل بها إليه، فإن توسل بها إلىٰ فعل واجب أو مسنون كانت

مأمورًا بها.

وإن توسل بها إلىٰ فعل محرم أو ترك واجب، كانت محرمة منهيًا عنها وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية، والله الموفق.

القاعدة السادسة والستون:

من قواعد القرآن أنه يستدل بالأقوال والأفعال على ما صدرت عنه من الأخلاق والصفات

وهذه قاعدة جليلة فإن أكثر الناس يُقْصر نظره علىٰ نفس اللفظ الدال علىٰ ذلك القول أو الفعل من دون أن يفكر في أصله وقاعدته التي أوجبت حضور ذلك الفعل والقول، والفطن اللبيب ينظر إلىٰ الأمرين ويعرف أن هذا لازم لهذا، أو هذا ملزم لهذا وقد تقدم ما يقارب هذا المعنىٰ الجليل، ولكن لشدة الحاجة إليه أوردناه علىٰ أسلوب آخر، فمن ذلك أن قوله عن عباد الرحمن أنهم: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾[الفرقان] وذلك صادر عن وقارهم وسكينتهم وخشوعهم وعن حلمهم الواسع وخلقهم الكامل وتنزيههم لأنفسهم عن مقابلة الجاهلين، ومثل قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[النمل] يدل علىٰ ذلك حسن إدارة المُلْك وكمال السياسة وحسن النظام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾[القصص] يدل علىٰ حسن الخلق ونزاهة النفس عن الخلاق الرذيلة وعلىٰ سعة عقولهم وقوة حلمهم واحتمالهم ومثل الأخبار عن أهل الجاهلية في تقتيل أولادهم خشية الفقر أو من الإملاق يدل علىٰ شدة هلعهم وسوء ظنونهم بربهم وعدم ثقتهم بكفايته، وكذلك قوله عن أعداء رسول الله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص:٥٧] يدل علىٰ ظنونهم بالله وأن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته، وأمثلة هذا الأصل كثيرة واضحة لكل صاحب فكرة حسنة.

القاعدة السابعة والستون:

يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق، للخروج من الشبهات والتوهمات

وهذه القاعدة جليلة يعبر عنها: بأن الموهوم لا يدفع المعلوم، وأن المجهول لا يعارض المحقق ونحوها من العبارات.

وقد نبه الله عليها في مواضع كثيرة:

منها: لما أخبر تعالىٰ عن الراسخين في العلم، وأن طريقتهم في المتشبهات: أنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران:٧] فالأمور المحكمة المعلومة، يتعين أن يرد إليها كل أمر مشتبه مظنون وقال تعالىٰ في زجر المؤمنين عن مجاراة الشائعات التي يقولها أهل السوء في إخوانهم المؤمنين: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾[النور] فأمرهم بالرجوع إلىٰ ما عُلم من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات، وأن يعتبروا هذا الأصل المعلوم، ولا يعتبروا كلام الخبيثين بما يناقضه، ويقدح فيه.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾[الأحزاب] فوجاهته عند الله تدفع عنه وتبرئه من كل عيب ونقص قاله فيه من آذاه لأنه لا يكون وجيها عند ربه حتىٰ يسلم من جميع المنقصات ويتحلىٰ بجميع الكمالات اللائقة بأمثاله من أولي العزم فيحذر الله هذه الأمة أن يسلكوا مسلك من آذىٰ موسىٰ مع وجاهته، فيؤذوا أعظم الرسل جاهًا عند الله، وأرفعهم مقامًا ودرجة، وأرأفهم بالمؤمنين وأكثرهم إحسانًا إلىٰ الخلق.

وقال تعالىٰ: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[يونس]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[سبأ:٦].

القاعدة الثامنة والستون:

ذكر الأوصاف المتقابلات يغني عن التصريح بالمفاضلة إذا كان الفرق معلومًا

وهذه القاعدة في القرآن كثير يذكرها في المقامات المهمة كالمقابلة بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، وبين إلهية الحق وإلهية من سواه، ويذكر تباين الأوصاف التي يعرف

العقلاء بالبداهة التفاوت بينها ويدع التصريح بالمفاضلة للعقلاء، قال تعالىٰ: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾[يوسف]، ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[النمل] والآيات التي بعدها: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾[الزمر:٢٩]، ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾[هود:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾[البقرة:١٤٠]، ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾[يونس]، ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾[الزمر:٩]، وقال قبلها: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾[الزمر:٩] فهذا الموضع ترك القسم الآخر كما ترك التصريح بالمفاضلة، لعلمه من المقام، فقوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾، إلخ يعنىٰ كمن ليس كذلك، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، وهو من بلاغة القرآن وأسلوبه العجيب كقوله: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾[الملك] ولما ذكر أوصاف الرسول الداعي وما يدعو إليه وأعظم الناس معارضة له قال: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾[سبأ]، ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦﴾[القلم]، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[البقرة:٢٥٦]، ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[الكهف:٢٩]، وذلك أنه إذا ميزت الأشياء تمييزًا تامًا وعرفت مراتبها في الخير والشر والكمال والنقص صار التصريح بعد ذلك أفضل لا معنىٰ له والله أعلم.

القاعدة التاسعة والستون:

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة:

فمنها: ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله،

فعوضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعز والتمكين.

وإبراهيم ﷺ لما اعتزل قومه وأباه، وما يدعون من دون الله، وهب له إسحاق ويعقوب والذرية الصالحين.

ويوسف عليه السلام لما ملك نفسه وعصمه من الوقوع مع امرأة العزيز، مع ما كانت تمنيه به من الحظوة وقوة النفوذ في قصر العزيز ورياسته وصبر علىٰ السجن وأحبه وطلبه ليبعده عن دائرة الفساد والفتنة عوضه الله أن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، ويستمتع بما شاء مما أحل الله له من الأموال والنساء والسلطان.

وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله، نشر لهم من رحمته وهيأ لهم أسباب المرافق والراحة وجعلهم سببًا لهداية الضالين.

ومريم ابنة عمران لما أحصنت فرجها أكرمها الله ونفخ فيه من روحه وجعلها وابنها آية للعالمين.

وسليمان عليه السلام لما ألهته الخيل عن ذكر ربه فأتلفها، عوضه الله الريح تجري بأمره، والشياطين كل بناء وغواص.

ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالىٰ عوضه الله من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق لذات الدنيا كلها.

القاعدة السبعون:

القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسكُ بأصوله وفروعه وتنفيذ شرائعه وأحكامه

قد تقدم من الأدلة علىٰ هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلىٰ الإصلاح والصلاح، وفي طريقته في محاجة أهل الباطل، وفي سياسته الداخلية والخارجية ما يدل علىٰ هذا الأصل.

ويعرف الخلق أن العصمة من الشرور كلها لا طريق لها إلا التمسك بهذا القرآن وأصوله وعقائده، وأخلاقه، وآدابه، وشرائعه.

ولكن نزيد هنا بعض التفصيلات، فنقول: **أهل الشر والفساد نوعان:**

أحدهما: المبطلون في عقائدهم وأديانهم ومذاهبهم الذين يدعون إليها، ففي القرآن من الاحتجاج علىٰ هؤلاء وإقامة الحجج والبراهين علىٰ فساد قولهم شيء كثير، لا يأتي مبطل يقول إلا وفي القرآن بيانه بالحق الواضح والبرهان الجلي، ففيه الرد علىٰ جميع المبطلين من الدهريين والماديين والمعطلين والمشركين والمتمسكين بالأديان المبدلة والمنسوخة

مـن اليهـود والنصـارىٰ والأميـين: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان] يذكر الله حجج هؤلاء ويرفضها ويبدي من الأساليب المتنوعة في إفسادها ما هو معروف، وتفصيل هذا بالجملة لا يحتمله هذا الموضع.

النوع الثاني: من المقومين للأديان والدنيا والسياسات والحقوق الشيوعيون الذين انتشر شرهم وتفاقم أمرهم وسرت دعايتهم في طبقات الخلق سريان النار في العشب الهشيم ولم يكن عند الأكثرين ما يرد صولتهم ويقمع شـرهم، وإنمـا عنـدهم مـن الأصـول والعقائـد والأخلاق والسياسات ما يمكن امثال هؤلاء الذين هم فساد العبـاد والـبلاد؛ ولكـن ـ ولله الحمد ـ القرآن العظيم والدين القويم قد تكفل بمقاومة هؤلاء كما تكفل بمقاومـة غيـرهم وفيه من الأصول والأخلاق والآداب الراقية ما يردهم علىٰ أعقابهم منهزمين فمـا فيـه مـن العدل ووجوب الحقوق العادلة بين طبقات الناس بحسب أحوالهم ومـا فيـه مـن إيجـاب الزكاة والإلزام بها، ودفع حاجات الفقراء والمساكين ووجـوب القيـام بالمصـالح الكليـة والجزئية ووجوب حفظ الملاك والحقوق، كل هذا أعظم صدق وأحسن حكم للوقاية من شرور هؤلاء المفسدين، وكذلك ما حَضَّ عليه القرآن من لزوم الآداب العاليـة والأخـلاق السامية والأخوة الدينية والرابطة الإسلامية يمنع من تغلل شرورهم التـي طريقهـا الأقـوم تحليل الأخلاق وانحلال الآداب وتحلل الروابط النافعة والثورة العامة علىٰ الرأسـماليين الذين يجمعون ويمنعون، فهؤلاء وإن أبدوا من القوة المادية والتسلط علـىٰ العبـاد بـالقهر والاستعباد والطمع والجشع فإنهم لا ثبوت لهم علىٰ مقاومة هذا التيار المـزعج المخـرب المدمر ما مر عليه، فما معهم من سلاح يقاوم سلاحهم، ولا قوة تجابه قوتهم، لكـونهم لـم يتمسكوا بالقرآن الذي فيه العصمة والقوة المعنوية والصـلاح والإصـلاح والعـدل ودفـع الظلم والآداب والأخلاق العالية التي لا تزعزعها عواصف الخراب، بل تقذف بالحق علىٰ الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق، فإذا جـاء هـؤلاء المفسـدون بالتعطيـل المحصـن والإنكـار والصرف أبدىٰ القرآن من الحجج والبراهين علىٰ وجـود الله وعظمتـه وتوحيـده وصـدقه وصدق من جاء به ما تصدع له الجبال وتخضـع لـه فحـول الرجـال، وإذا تسـرب هـؤلاء الأشرار لتوسط الأخلاق الرذيلة وانحلال الآداب الجميلة ووجدوا مسلكًا في هذا الطريـق يعينهم علىٰ تنفيذ باطلهم جاءهم هـذا القـرآن بالحـث علـىٰ الأخـلاق العاليـة والأعمـال

الصالحة والآداب الجميلة التي لا تدع للشر علىٰ صاحبه سبيلًا، وإذا صالوا بالفقر والفقراء ووجوب المساواة واحتجوا علىٰ أرباب الأموال بالاحتكار والسيطرة واستعبادهم، للعباد واستبدادهم بالأملاك والأموال ولم يجد هؤلاء قوة عليهم وليس بهم طاقة بوجه من الوجوه تصدىٰ هذا القرآن العظيم بعدله وقسطه وإيجاب الحقوق المتنوعة الدافعة للحاجات كلها بعد قيامها بالضرورات بصدهم ومقاومتهم وإبطال كل ما به يصولون ويجولون ثم إذا برز بصلاحه وإصلاحه العظيم ونظامه الحكيم وهديه القويم وحثه علىٰ سلوك الصراط المستقيم ونوره الساطع وحججه القواطع لم يبق في وجهه باطل إلا محقه ولا شر إلا سحقه ولا بقىٰ من قصده الحق والصواب إلا اختاره، واعتنقه ولا تأمله صاحب عقل إلا صدع له، فهو الحصن الحصين من جميع الشرور، وهو القامع لكل من قاومه في كل الأمور.

القاعدة الواحدة والسبعون:

في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني

اعلم أن ما مضىٰ من القواعد السابقة هي المقصود بوضع هذا الكتاب، وهو بيان الطرق والمسالك والأصول التي يرجع إليها كثير من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها وتفاصيلها، فإنها ترجع إلىٰ أصل واحد، وقاعدة كلية.

وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم فإن كثيرًا منها من الألفاظ الجوامع، وهي من أعظم الأدلة علىٰ أنها تنزيل من حكيم حميد وعلىٰ صدق من أعطي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارًا.

ولنضرب لهذا أمثلة ونماذج فمنها:

قوله تعالىٰ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾[فصلت:٤٦]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾[يونس:٢٦]، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾[الرحمن]، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾[الواقعة]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[النحل:٩٠]، الآية، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[المائدة:٢]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[النحل]،

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[الزلزلة]، ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾[المزمل:٢٠]، ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[البقرة:١٩٧] ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[النساء:١٢٣]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾[الزمر]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾[النساء:٩٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[الحجرات:٦]، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى:٣٨] ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران:١٥٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾[النساء:٤٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾[يونس:٤٤]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ﴾الآية [آل عمران:٣٠]، ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[النساء:١٢٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١﴾[يونس]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾[البقرة]، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾[الانفطار:١٩]، ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾[الجن]، ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[الزمر:٣]، ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾[غافر:١٤]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[هود:٣]، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾[هود:٨٨]، ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[البقرة:٢٣٧]، ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[الأعراف:٨٥]، ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[هود:١١٢]، ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾[فصلت:٦]، ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٥﴾[هود]، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود:١١٤]، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾[يوسف]، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠﴾[الصافات]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾[الرعد:٢١] الآيات، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَا﴾[الشورى:٤٠]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾[النحل]، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[البقرة:١٩٤]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩]، ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾[الجن:٢] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾[الإسراء]، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[التوبة:٩١]، ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف:١٥٧] الآية، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى:٤٠]، ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا

وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾[الكهف]، ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾[مريم]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨]، ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٣٣]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[الطلاق:٧]، ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[الطلاق:٧]، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾[الأحزاب]، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[الفرقان]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:٢١]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[الحشر:٧]، ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾[الأحزاب:٥٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[الأحزاب:٥٨] الآية، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾[البقرة].

فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها كل كلمة منها قاعدة، وأصل كلي يحتوي علىٰ معان كثيرة.

وقد تقدَّم في أثناء القواعد منها شيء كثير، وهي متيسرة علىٰ حافظ القرآن، المعتني بمعرفة معانيه ولله الحمد.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد يسر الله تعالىٰ علينا ما من بجمعه، فجاء -ولله الحمد- علىٰ اختصاره ووجازته ووضوحه كتابا يسر الناظرين ويعين علىٰ فهم كلام رب العالمين، وقد حوىٰ من الأصول الكلية والقواعد العامة التي هي أجل القواعد وأنفعها وأصحها وأقواها شيئا كثيرا وعلما واسعا غزيرا ويبدي لأهل البصائر والعلم من المعاقل والمسالك والطرق والأصول النافعة ما لا يجده مجموعا في محل واحد، ومخبر الكتاب يغني عن وصفه.

وأسأله تعالىٰ أن يجعله خالصًا لوجه الكريم، مقربا لديه في جنات النعيم، وأن ينفع به مؤلفه وقارئه، والناظر فيه وجميع المسلمين، بمنه وكرمه وجوده وإحسانه وهو خير الراحمين، وصلىٰ الله علىٰ محمد وعلىٰ آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلىٰ التابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

قال ذلك وكتبه جامعه العبد الفقير إلىٰ الله في كل أحواله عبد الرحمن بن ناصر أبو عبد

الله السعدي.

وقد تم ذلك في ٦ شوال سنة ١٣٦٥ هـ والحمد لله رب العالمين.